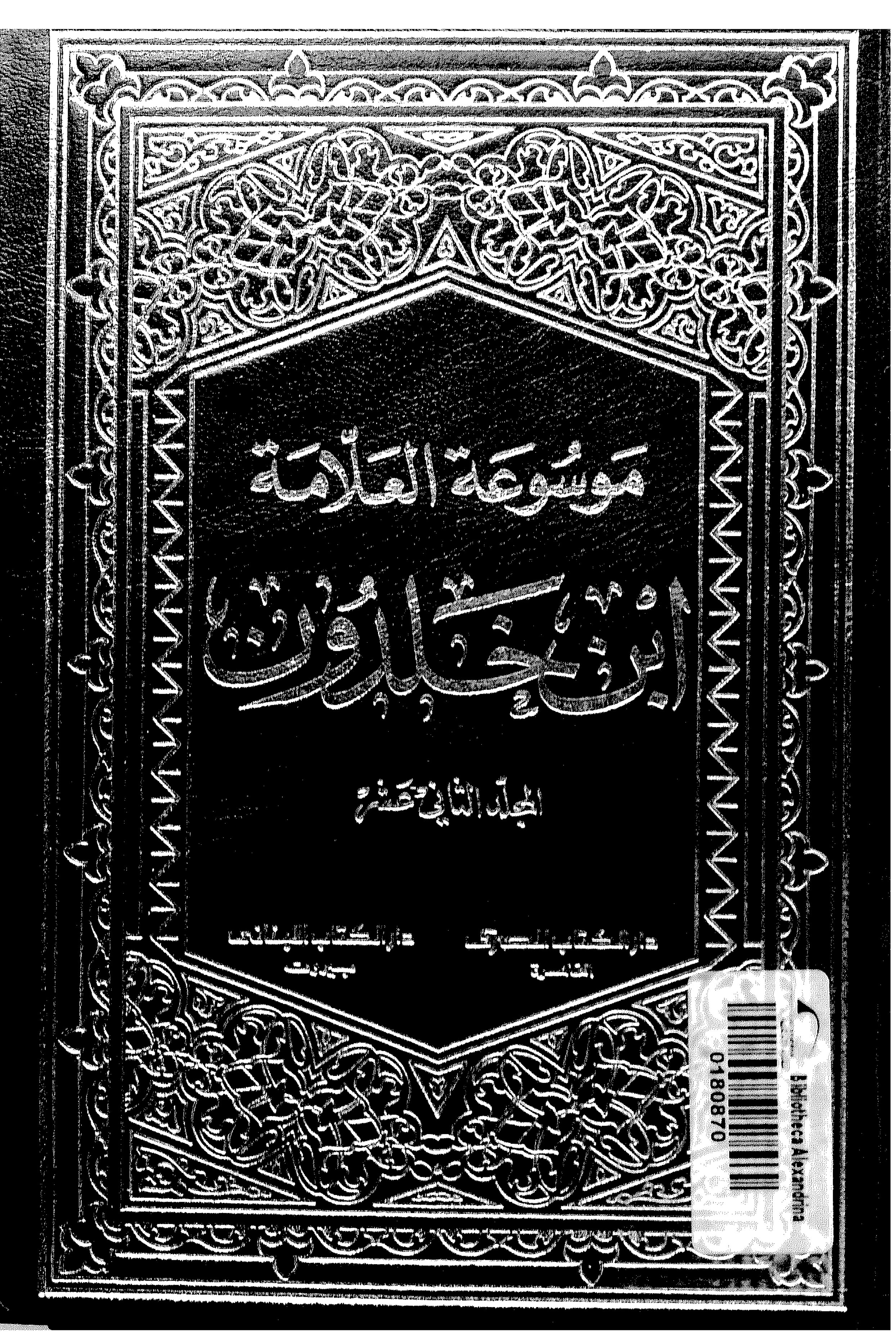
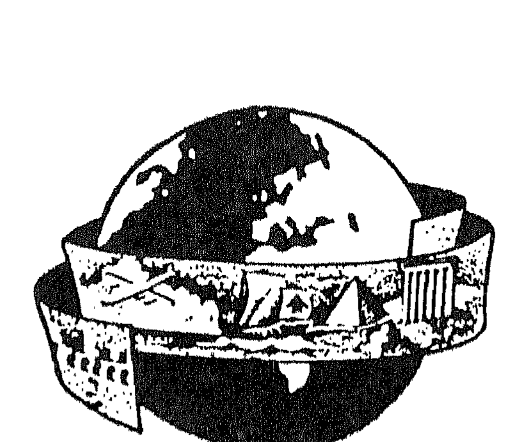
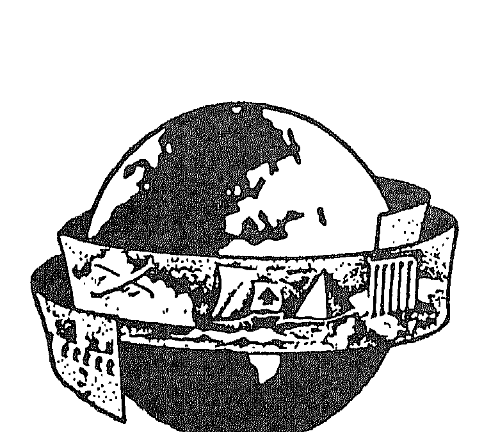

موسوعة العلامة
ابن خلدون
المجلد الثاني عشر
دار الكتاب المصري
القاهرة
دار الكتاب اللبناني
بيروت
Bibliotheca Alexandrina
0180870



دار الكتاب المصري

طباعة - نشر - توزيع

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج.م.ع
تلفون: ٣٩٢٢١٦٨/ ٣٩٣٤٣٠١ - فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
ص.ب: ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١ - برقياً: كتامصر
FAX. (202) 3924657
ATT.. MR HASSAN EL ZEIN



دار الكتاب اللبناني

طباعة - نشر - توزيع

شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول

تلفون: ٧٣٥٧٣١ - ٧٣٥٧٣٢ - فاكسميلي: ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)

برقياً: داكلبان - ص.ب.: ١١/٨٣٣٠ - بيروت - لبنان

FAX: (9611) 351433

ATT.: MR. HASSAN EL- ZEIN



تاريخ العلامة

ابن خلدون

المجلد الثاني عشر

I.S.B.N. 977 - 238 - 039 - 6

دار الكتاب المصري

٣٣ شارع قصر النيل ـ القاهرة ج. م. ع.
تلفون: ٢٩٢٢١٦٨/ ٢٩٣٤٣٠١ ـ فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
ص.ب.: ١٥٦ ـ الرمز البريدي ١١٥١١ ـ برقياً: كتامصر
FAX: (202) 3924657
ATT.: MR. HASSAN EL - ZEIN

دار الكتاب اللبناني

شارع مدام كوري ـ مقابل فندق بريستول
تلفون: ٧٣٥٧٣١ ـ ٧٣٥٧٣٢ ـ فاكسميلي: ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)
برقياً: ناكلبان ـ ص.ب.: ١١/٨٣٣٠ ـ بيروت ـ لبنان
FAX: (9611) 351433
ATT.: MR. HASSAN EL- ZEIN

طبعة مزيدة ومنقحة

١٤٢٠ هـ
H. 1420

١٩٩٩ م
A.D. 1999

تاريخ العلامة

ابن خلدون

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر
في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم
من ذوي السلطان الأكبر
وهو تاريخ وحيد عصره

العلامة عبد الرحمن
ابن خلدون المغربي

المجلد الثاني عشر

دار الكتاب المصري
القاهرة

دار الكتاب اللبناني
بيروت



القسم الثالث

المجلد السادس

من تاريخ العلامة ابن خلدون

ولما نزل على فاس اعتزم ابو احمد هذا على الفرار فقبض عليه في طريقه ، واعتذر فلم يقبل عذره وقتل . وكان ابنه احمد كاتباً لاسحاق بن علي بمراكش فشمله عفو السلطان فيمن شمله من ذلك الفلّ ، وخرج في جملة الشيخ أبي حفص في وجهته هذه وطلبه للكتاب في ذلك ، فاجاد واستحسن كتابه عبد المؤمن لما وقف عليه فاستكتبه اولاً . ثم ارتفع عنده بخلاله فاستوزره ، وبعد في الدولة صيته ، وقاد العساكر وجمع الاموال وبذلها ونال من الرتبة عند السلطان ما لم ينله احد في دولتهم الى ان دبّت عقارب السعاية الى مهاده الوثير ، فكان فيها حتفه ونكبه الخليفة سنة ثلاث وخمسين وقتله بمحبسه حسبما هو مشهور.

ولما انصرف الشيخ ابو حفص من غزاة ماسة اراح بمراكش اياماً . ثم خرج غازياً الى القائمين بدعوة الماسي بجبال درن ،

فاوقع باهل نفيس وهيلانة واثخن فيهم بالقتل والسبي حتى اذعنوا بالطاعة ورجع . ثم خرج الى هسكورة واوقع بهم وافتتح معاقلهم وحصونهم . ثم نهض الى سجلماسة فاستولى عليها ورجع الى مراكش ، ثم خرج ثالثة الى برغواطة فحاربوه مدة ثم هزموه . واضطرمت نار الفتنة في المغرب ، وانتقض اهل سبتة ، واخرجوا يوسف بن مخلوف التيمللي وقتلوه ومن كان معه من الموحدين واجاز القاضي عياض البحر الى يحيى بن علي بن غانية المسوفي الوالي بالاندلس فلقيه بالخضراء ، وطلب منه والياً على سبتة فبعث معه يحيى بن ابي بكر الصحراوي الذي كان بفاس منذ منازلة عبد المؤمن لها . وذكرنا انه لحق بطنجة فاجاز البحر الى الاندلس ولحق بابن غانية بقرطبة وصار في جملته

وبعثه ابن غانية الى سبتة مع القاضي عياض كما ذكرناه . وقام بامرها ووصل يده بالقبائل الناكثة لطاعة الموحدين من برغواطة ودكالة على حين هزيمتهم للموحدين كما ذكرناه . ولحق بهم من مكانه لسبتة وخرج اليهم عبدالمؤمن بن علي سنة اثنين واربعين فدوخ بلادهم واستأصل شأفتهم حتى انقادوا للطاعة وتبرأوا من يحيى الصحراوي ولمتونة ، ورجع الى مراكش لستة اشهر من خروجه ، ووصلته الرغبة من مشيخة القبائل في يحيى الصحراوي فعفا عنه وصلحت احوال المغرب . وراجع اهل سبتة طاعتهم فتقبل منهم ، وكذلك اهل سلا فصفح عنهم وامر بهدم سورهم .

فتح الأندلس

فتح الأندلس وشؤونها

ثم صرف عبد المؤمن نظره الى الاندلس ، وكان من خبرها انه اتصل بالملثمين مقتل تاشفين بن علي ، ومنازلة الموحدين مدينة فاس . وكان علي بن عيسى بن ميمون قائد اسطولهم قد نزع طاعة لمتونة وانتزى بجزيرة قادس ، فلحق بعبد المؤمن بمكانه من حصار فاس ، ودخل في دعوته وخطب له بجامع قادس اول خطبة خطبت لهم بالاندلس عام اربعين وخمسماية . وبعث احمد بن قسي صاحب مُرْتُلّة ومقيم الدعوة بالاندلس ابا بكر بن حبيس[1] رسولا الى عبد المؤمن فلقيه على تلمسان وادى كتاب صاحبه ، فانكر ما تضمنه من النعت بالمهدي ، ولم يجاوب . وكان سدّراي بن وزير صاحب بطليوس وباجة وغرب الاندلس قد تغلب على احمد بن قسي هذا ، وغلبه على مرتلة فاجاز احمد بن قسي البحر الى عبد المؤمن بعد فتح مراكش لمداخلة علي بن عيسى بن ميمون ونزل بسبتة فجهزه يوسف بن مخلوف ، ولحق بعبد المؤمن ، ورغبه في ملك الأندلس ، واغراه بالملثمين

(١) كذا، وفي ب حبيش. وفي نسخة أخرى: حيسن. وفي نسخة قيسي.

فبعث معه عساكر الموحدين لنظر براز بن محمد المسوفي النازع الى عبد المؤمن من جملة تاشفين، وعقد له على حرب من بها من لمتونة والثوار وامده بعسكر آخر لنظر موسى بن سعيد، وبعده بعسكر آخر لنظر عمر بن صالح الصنهاجي ولما اجازوا الى الاندلس نازلوا ابا الغمر بن عزون من الثوار بشريش، وكانت له مع زندة.

ثم قصدوا لَبْلَة وبها من الثوار يوسف بن احمد البطروجي[1] فاعطاهم الطاعة ثم قصدوا مرتلة، وهي تحت الطاعة لتوحيد صاحبها احمد بن قسي. ثم قصدوا شِلْب فافتتحوها وامكنوا منها ابن قسي. ثم نهضوا الى باجة وبطليوس فاطاعهم صاحبها سداري بن وزير. ثم رجع براز في عسكر الموحدين الى مرتلة حتى انصرم فصل الشتاء فخرج الى منازلة اشبيلية فاطاعه أهل طلياطة[2] وحصن القصر، واجتمع اليه سائر الثوار وحاصروا اشبيلية براً وبحراً الى ان افتتحوها في شعبان سنة احدى واربعين. وفر الملثمون بها الى قرمونة وقتل من ادرك منهم. واتى القتل على عبدالله ابن القاضي أبي بكر ابن العربي في هيعة تلك الدخلة من غير قصد. وكتبوا بالفتح الى عبد المؤمن ابن علي. وقدم عليه وفدهم بمراكش يقدمهم القاضي ابو بكر

(١) كذا، وفي ب: البطروحي.
(٢) كذا، وفي ب: طليطلة.

فتقبل طاعتهم وانصرفوا بالجوائز والاقطاعات لجميع الوفد سنة اثنتين واربعين وخمسماية .

وهلك القاضي ابو بكر في طريقه ودفن بمقبرة فاس . وكان عبدالعزيز وعيسى اخوا المهدي من مشيخة العسكر باشبيلية فساء اثرهما في البلد واستطالت ايديهما على اهله ، واستباحوا الدماء والاموال . ثم اعتزما على الفتك بيوسف البطروجي صاحب لبلة فلحق ببلده واخرج الموحدين الذين بها وحول الدعوة عنهم . وبعث الى طلياطة وحصن القصر ووصل يده بالملثمين الذين كانوا بالعدوة : وارتد ابن قسي في مدينة شلب ، وعلي بن عيسى بن ميمون بجزيرة قادس ، ومحمد بن علي بن الحجام بمدينة بطليوس . وثبت ابو الغمر بن عزّون على طاعة الموحدين بشريش ورُنْدَة وجهاتها . وتغلب ابن غانية على الجزيرة الخضراء ، وانتقض اهل سبتة كما ذكرناه وضاقت احوال الموحدين باشبيلية فخرج منها عيسى وعبد العزيز اخوا[1] المهدي وابن عمها يصليتن بمن كان معهم . ولحقوا بجبل بيستر[2] جاءهم ابو الغمر بن عزون واتصلت أيديهم على حصار الجزيرة حتى افتتحوها وقتلوا من كان بها من لمتونة ولحق اخوا المهدي بمراكش وبعث عبدالمؤمن على اشبيلية يوسف بن سليمان في عسكر من الموحدين وابقى براز بن محمد

---

(١) كذا، وفي ب : أخو المهدي .

(٢) كذا، وفي ب : بتستر. وفي نسخة أخرى : بجبال بستر.

على الجباية فخرج يوسف ودوّخ اعمال البطروجي بلبلة وطلياطة وعمل ابن قسي بشُلّب ثم اغار على طلبيرة واطاعه عيسى بن ميمون صاحب شنتمرية وغزا معهم وارسل محمد بن علي بن الحجام صاحب بطليوس بهداياه فتقبلت ورعيت له ، ورجع يوسف الى اشبيلية . وفي اثناء ذلك استغلظ الطاغية على يحيى بن علي ابن غانية بقرطبة ولج على جهاته حتى نزل له عن بياسة وابّدة وتغلب على الاشبونة وطرطوشة ولاردة وافراغة وشنتمرية وغيرها من حصون الاندلس وطالب ابن غانية بالزيادة في ضريبته او الافراج له عن قرطبة فراسل ابن غانية براز بن محمد واجتمعا باسجة وضمن له براز امداد الخليفة على ان يتخلى عن قرطبة وقرمونة ويدال منها بجيان فرضي بذلك وتم العقد ووصل خطاب عبد المؤمن بامضائه فارتحل ابن غانية الى جيان ونازله الطاغية بها فغدر باقماطه واعتقلهم بقلعة بن سعيد وافرج الطاغية عن جيان ولحق هو بغرناطة وبها ميمون بن يدر اللمتوني في جماعة من المرابطين قصده ابن غانية ليحمله على مثل حاله مع الموحدين فكان مهلكه بها بشعبان سنة ثلاث وسبعين وقبره بها معروف لهذا العهد . وانتهز الطاغية فرصته في قرطبة فزحف اليها ، ودفع الموحدون باشبيلية ابا الغمر بن عزون لحمايتها ، ووصل اليه مدد يوسف البطروجي من لبلة . وبلغ الخبر عبد المؤمن فبعث اليها عسكراً من الموحدين لنظر يحيى بن يغمور . ولما دخلها افرج

عنها الطاغية لايام من مدخله ، وبادر الثوار الى يحيى بن يغمور في طلب الامان من عبد المؤمن . ثم تلاحقوا به بمراكش فتقبلهم وصفح لهم ، ونهض الى مدينة سلا سنة خمس واربعين . واستدعى منها اهل الاندلس فوفدوا عليه وبايعوه جميعاً ، وبايعه الرؤساء من الثوار على الانخلاع من الامر مثل : سدراي بن وزير صاحب باجة ، ويابورة والبطروجي صاحب لبلة ، وابن عزون صاحب شريش ورندة ، وابن الحجام صاحب بطليوس وعامل ابن منيب[1] صاحب طابيرة[2] وتخلف ابن قسي واهل شُلْب عن هذا الجمع ، فكان سبباً لقتله من بعد . ورجع عبد المؤمن الى مراكش وانصرف اهل الاندلس الى بلادهم واستصحب الثوار فلم يزالوا بحضرته .

---

(١) كذا، وفي ب: ابن مهيب.
(٢) كذا، وفي ب: طلبيرة.

فتح أفريقية

فتح افريقية وشؤونها

ثم بلغ عبد المؤمن ما هي عليه افريقية من اختلاف الامراء واستطالة العرب عليها بالعيث والفساد ، وانهم حاصروا مدينة القيروان وان موسى بن يحيى الرياحي المرداسي دخل مدينة باجه وملكها ، فاجمع الرحلة الى غزو افريقيه بعد ان شاور الشيخ ابا حفص وابا ابراهيم وغيرهما من المشيخة فوافقوه . وخرج من مراكش سنة ست واربعين موريا بالجهاد حتى انتهى الى سبتة ، واستوضح احوال اهل الاندلس ثم رحل عن سبتة موريا بمراكش واغذ السير الى بجاية فدخل الجزائر على حين غفلة وخرج اليه الحسن ابن عليّ صاحب المهديّة فصحبه واعترضته جيوش صنهاجة بامّ العلو[1] فهزمهم وصبح بجاية من الغد فدخلها . وركب يحيى بن العزيز البحر في اسطولين كان اعدّهما لذلك ، واحتمل فيهما ذخائره وامواله ، ولحق بقسطنطينة الى ان نزل بعد ذلك عنها على امان عبد المؤمن واستقر بمراكش تحت الجراية والعناية الى ان هلك رحمه الله .

(١) هو اسم مكان .

ثم سرح عبد المؤمن عساكر الموحدين وعليهم ابنه عبد الله الي القلعة ، وبها جوشن بن العزيز في جموع صنهاجـة فاقتحمها واستلحم من كان بها منهم ، واضرم النار في مساكنهـا وقتل جوشن . ويقال ان القتلى بها كانوا ثمانية عشر الفاً ، وامتـلأت ايـدي الموحدين من الغنائم والسبي ، وبلـغ الخبر الى العرب بافريقية من الأثبج وزغبة ورياح وقسرة فعسكروا بظاهر باجة ؛ وتدامروا [1] على الدفاع عن ملكهم يحيى بن العزيز وارتحلوا الى سطيف . وزحف اليهم عبـد الله بن عبد المؤمن في الموحـدين الذين معه . وكان عبد المؤمن قد قفل الى المغرب ونزل متيجـة فلما بلغه الخبر بعث المدد لابنه عبد الله والتقى الفريقان بسطيف واقتتـلوا ثلاثاً . ثم انفضت جموع العرب واستلحموا وسبيت نساؤهم واكتسحت اموالهم واسر ابناؤهم .

ورجع عبد المؤمن الى مراكش سنة سبع واربعين ، ووفد عليه كبراء العرب من اهل افريقية طائعين فوصلهم ورجّعهم الى قومهم . وعقد على فاس لابنه السيد ابي الحسن ، واستوزر له يوسف بن سليمان . وعقد على تلمسان لابنه السيد أبي حفص ، واستوزر له أبا محمد بن وانودين . وعلى سبتة للسيد أبي سعيـد ، واستوزر له محمد بن سليمان . وعلى بجاية للسيد أبي محمد عبد الله . واستوزر له يخلف بن الحسين . واختص ابنه عبد الله بولاية

(٢) كذا، وفي ب: وتآمروا، وهو الصحيح.

عهده . وتقلب بذلك كله ضمائر عبد العزيز ويحيى اخوي المهدي فلحقا بمراكش مضمرين الغدر ، وادخلوا بعض الاوغاد في شأنهم فوثبوا بعمر بن تافراكين وقتلوه بمكانه من القصبة . ووصل على اثرهما الوزير ابو جعفر ابن عطية وعبد المؤمن على اثره فأطفأ نار تلك الثورة وقتل اخوا المهدي ومن داخلهم فيها والله أعلم .

بقية فتح الأندلس

وبلغه بمراكش سنة تسع واربعين ان يحيى بن يغمور صاحب اشبيلية قتل اهل لبلة بما كان من غدر الوهبي لها ، ولم يقبل معذرتهم في ذلك فسخط يحيى بن يغمور وعزله عن اشبيلية بأبي محمد عبد الله بن أبي حفص ابن علي التينملي ، وعن قرطبة بأبي زيد بن بكيت وبعث عبد الله بن سليمان ، فجاء بابن يغمور معتقلاً الى الحضرة والزمه منزله الى ان بعثه مع ابنه السيد أبي حفص الى تلمسان واستقام امر الاندلس . وخرج ميمون بن يدر اللمتوني عن غرناطة للموحدين فملكوها ، واجاز اليها السيد ابو سعيد صاحب سبتة بعهد ابيه عبد المؤمن اليه بذلك . ولحق الملثمون بمراكش ونازل السيد ابو سعيد مدينة المرية حتى نزل من كان بها من النصارى على الأمان . وحضر لذلك الوزير ابو جعفر بن عطية

بعد ان امدهم ابن مَرْدنيش الثائر بشرق الاندلس والطاغية معه ، وعجزوا جميعاً عن المدافعة . ثم وفد اشياخ اشبيلية سنة احدى وخمسين ورغبوا من عبد المؤمن ولاية بعض ابنائه عليهم فعقد لابنه السيد أبي يعقوب عليها ، وافتتح امره بمنازلة علي الوهبي الثائر بطبيرة[1] ومعه الوزير ابو جعفر بن عطية ، حتى استقام على الطاعة . ثم استولى على عمل ابن وزير وابن قسي ، واستنزل تاشفين اللمتوني من مرتلة سنة اثنتين وخمسين ، وكان الذي امكن الملثمين منها ابن قسي واستتم الفتح . ورجع السيد الى اشبيلية ، وانصرف ابو جعفر بن عطية الى مراكش فكانت نكبته ومقتله . واستوزر عبد المؤمن بعده عبد السلام الكومي كان يمت اليه بذمة صهر فلم يزل على وزارته

بقية فتح افريقية

لمّا بلغ عبد المؤمن سنة ثلاث وخمسين ما كان من ايقاع الطاغية بابنه السيد ابي يعقوب بظاهر اشبيلية ، ومن استشهد من اشياخ الموحدين وحفاظهم ، ومن الثوار مثل ابن عزّون وابن الحجام ، نهض يريد الجهاد واحتل سلا فبلغه انتقاض افريقية ، وأهمّه شأن النصارى بالمهديّة . فلما توافت العساكر بسلا استخلف

(١) كذا، وفي ب: علي الوسيني الثائر بطلبيرة.

الشيخ ابا حفص على المغرب ، وعقد ليوسف بن سليمان على مدينة فاس ، ونهض يغذّ السير حتى نازل المهدية ومن بها من نصارى اهل صقلّية فافتتحها صلحاً سنة خمس وخمسين . واستنقذ جميع البلاد الساحليّة مثل صفاقس وطرابلس من ايدي العدو .

وبعث ابنه عبد الله من مكان حصاره للمهدية الى قابس فاستخلصها من يد بني كامل المتغلبين عليها من دهمان بعض بطون رياح . واستخلص قفصة من يد بني الورد ، وزرعة من يد بني بروكسن ، وطبرقة من يد ابن علال وجبل زغوان من يد بني حمّاد بن خليفة[1] وشقبنارية من يد بني عيّاد[2] ابن نصر الله . ومدينة الاربص[3] من يد ملكها من العرب حسبما ذلك مذكور في اخبار هؤلاء الثوار في دولة صنهاجة

ولما استكمل الفتح وثنى عنانه الى المغرب سنة ست وخمسين بلغه ان الاعراب بافريقية انتقضوا عليه ، فرجع اليهم عسكراً من الموحدين ، فنهضوا الى القيروان ، واوقعوا بالعرب ، وقتل كبيرهم محرز بن زياد الفارغي من بني عليّ احدى بطون رياح .

---

(١) كذا ، ب : حماد بن خلفة .
(٢) كذا ، وفي ب : بني عباد .
(٣) كذا ، وقد وردت : الأربس .

أخبار ابن مردنيش الثائر بشرق الأندلس

كان بلغ عبد المؤمن وهو بافريقية ان محمد بن مردنيش الثائر بشرق الاندلس خرج من مرسية ونازل جيان . واطاعه واليها محمد بن علي الكومي . ثم نازل بعدها قرطبة ورحل عنها وغدر بقرمونة وملكها ، ثم رجع الى قُرْطُبَة . وخرج ابن بكيت لحربه فهزمه وقتله ، فكتب الى عماله بالاندلس بفتح افريقية ، وانه واصل اليهم وعبر البحر الى جبل الفتح . واجتمع اليه اهل الاندلس ومن بها من الموحدين ثم رجع الى مراكش وبعث عساكره الى الجهاد ، ولقيهم الطاغية فهزموه . وتغلّب السيد ابو يعقوب على قرمونة من يد ابن هُمُشْك صهر ابن مردنيش . وكان السيدان ابو يعقوب صاحب اشبيلية وابو سعيد صاحب غرناطة ارتحلا لزيارة الخليفة بمراكش ، فخالف ابن همشك الى مدينة غرناطة وغدر بها ليلاً بمداخلة من بعض اهلها . واستولى عليها وانحصر الموحدون بقصبتها ، وخرج عبد المؤمن من مراكش لاستنقاذها فوصل الى سلا

وقدم السيد ابا سعيد فاجاز البحر ولقيه عامل اشبيلية عبد الله بن أبي حفص بن علي ، ونهضوا جميعاً الى غرناطة ، فنهض اليهم ابن همشك وهزمهم . ورجع السيد ابو سعيد الى مالقة ،

وردفه عبد المؤمن باخيه السيد أبي يعقوب في عساكر الموحدين ، ونهضوا الى غرناطة ، وكان قد وصلها ابن مردنيش في جموع من النصارى مدداً لابن همشك ، فلقيهم الموحدون بفحص غرناطة وهزموهم . وفر ابن مردنيش الى مكانه من المشرق ، ولحق ابن همشك بجيان فنازله الموحدون . وارتحل السيدان الى قرطبة فاقاما بها الى ان استدعى السيد ابو يعقوب الى مراكش سنة ثمان وخمسين لولاية العهد ، والادالة به من اخيه محمد ، فلحق بمراكش وخرج في ركاب ابيه الخليفة عبد المؤمن لما نهض للجهاد ، وادركته المنية بسلا في جمادى الآخرة من هذه السنة وقبر بتينملل الى جانب المهدي والله أعلم .

دولة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن

لمّا هلك عبد المؤمن اخذ البيعة على الناس السيد ابو حفص لاخيه أبي يعقوب باتفاق من الموحدين كافة ، ورضي من الشيخ أبي حفص خاصة ، واستقل في رتبة وزارته ورجعوا الى مراكش . وكان السيد ابو حفص هذا وزيراً لأبيه عبد المؤمن ، استوزره عند نكبة عبد السلام الكومي فرجعه من افريقية سنة خمس وخمسين . وكان ابو العلى بن جامع متصرفاً بين يديه في رسم الوزارة الى أن هلك عبد المؤمن فأخذ ابو حفص البيعة

لاخيه أبي يعقوب . ثم هلك اثر وفاة عبد المؤمن ابنه السيد ابو الحسن صاحب فاس ، والسيد ابو محمد صاحب بجاية في طريقه الى الحضرة . ثم استقدم ابو يعقوب السيد ابا سعيد من غرناطة سنة ستين فقدم ولقيه السيد ابو حفص بسبتة

ثم سرح الخليفة ابو يعقوب معه اخاه السيد ابا حفص الى الاندلس في عساكر الموحدين لما بلغه من الحاح ابن مردنيش على قرطبة ، بعد ان احتشد معه قبائل العرب من زغبة ورياح والأثبج ، فاجاز البحر وقصد ابن مردنيش ، وقد جمع جموعه واولياءه من النصارى . ولقيتهم عساكر الموحدين بفحص مرسية ،

فانهزم ابن مردنيش واصحابه وفر الى مرسيه ، ونازله الموحدون بها ودوّخوا نواحيه . وانصرف السيد ابو حفص واخوه ابو سعيد سنة احدى وستين الى مراكش وخمدت نار الفتنة من ابن مردنيش . وعقد الخليفة على بجاية لاخيه السيد أبي زكريا ، وعلى اشبيلية للشيخ أبي عبد الله بن ابراهيم . ثم ادال منه باخيه السيد أبي ابراهيم ، واقر الشيخ ابا عبد الله على وزارته . وعقد على قرطبة للسيد أبي اسحاق ، واقر السيد ابا سعيد على غرناطة ثم نظر الموحدون في وضع العلامة في المكتوبات بخط الخليفة فاختاروا : « الحمد لله وحده » لما وقفوا

عليها بخط الامام المهدي في بعض مخاطباته ، فكانت علامتهم الى اخر دولتهم

فتنة غمارة

وفي سنة اثنتين وستين تحرك الأمير أبو يعقوب الى جبال غمارة ، لما كان ظهر بها من الفتنه التي تولّى كِبرَها سبع بن منغفاد منهم . وناغاهم[1] في الفتنة صنهاجة جيرانهم ، فبعث الامير أبو يعقوب عساكر الموحدين لنظر الشيخ أبي حفص ، ثم تعاظمت فتن غمارة وصنهاجة فخرج اليهم بنفسه واوقع بهم واستأصلهم وقتل سبع بن منغفاد وانحسم داؤهم ، وعقد لاخيه السيد أبي علي الحسن على سبتة وسائر بلادهم . وفي سنة ثلاث وستين اجتمع الموحدون على تجديد البيعة واللقب بامير المؤمنين ، وخاطب العرب بافريقية يستدعيهم الى الغزو ويحرضهم . وكتب اليهم في ذلك قصيدة ورسالة مشهورة بين الناس ، وكان من اجابتهم ووفودهم عليه ما هو معروف

أخبار الأندلس

لمّا استوسق الامر للخليفة أبي يعقوب بالعدوة وصرف نظره

(١) كذا، وفي ب: فنازعهم.

الى الاندلس والجهاد ، واتصل به ما كان من غدر العدو دمره الله ، بمدينه تُرجالة . ثم مدينة يابرة ، ثم حصن شَبْرِينَة ، ثم حصن جِلَمانِيَة ازاء بطليوس ، ثم مدينة بطليوس ، فسرح الشيخ ابا حفص في عساكر من الموحدين احتفل في انتقائهم . وخرج سنة اربع وستين لاستنقاذ بطليوس من هوة الحصار ، فلما وصل الى اشبيلية بلغه ان الموحدين ببطليوس هزموا ابن الرنك[1] الذي كان يحاصرهم باعانة ابن اذفونش . وان ابن الرنك تحصل في قبضتهم اسيراً ، وفرّ جراندة الجليقي الى حصنه ، فقصد الشيخ ابو حفص مدينة قرطبة وبعث اليه ابراهيم بن همشك من جيان بطاعته وتوحيده ومفارقته صاحبه ابن مردنيش ، لما حدث بينهما من الشحناء والفتنة ، فالحّ عليه ابن مردنيش بالحرب وردد اليه الغزو ، فبعث الى الشيخ أبي حفص بطاعته

وكتب الشيخ ابو حفص بذلك الى الخليفة ، وبما كان من عيث النصارى بجوانب الاندلس ، فسرّح اخاه ووزيره أبا حفص في عساكر الموحدين ، فنهض من مراكش سنة خمس وستين ، وفي جملته السيد ابو سعيد اخوه ، فوصل اشبيلية وبعث أخاه أبا سعيد الى بطليوس ، فعقد الصلح مع الطاغية وانصرف ، ونهضوا جميعاً الى مرسية ومعهم ابن همشك فحاصروا ابن مردنيش . وثار اهل لورقة بدعوة الموحدين ، فملكها السيد ابو حفص . ثم افتتح

(١) كذا، وفي ب: الزيك، وفي نسخة أخرى: الرتك.

مدينة بسطة ، وطاع[1] ابن عمه محمد بن مردنيش صاحب المرية ، فحص[2] بذلك جناحه .

واتصل الخبر بالخليفة بمراكش ، وقد توافت عنده جموع العرب من افريقية صحبة السيد أبي زكريا صاحب بجاية والسيد أبي عِمْران صاحب تلمسان ، وكان يوم قدومهم عليه يوماً مشهوداً ، فاعترضهم وسائر عساكره ، ونهض الى الاندلس . واستخلف على مراكش السيد ابا عمران اخاه فاحتل بقرطبة سنة سبع وستين . ثم ارتحل بعدها الى اشبيلية ، ولقيه السيد ابو حفص هنالك منصرفاً من غزاته . وكان ابن مردنيش لمّا طال عليه الحصار ارتاب ففتك بهم ، وبادر اخوه ابو الحجّاج الى الطاعة ، وهلك هو في رجب من هذه السنة . ودخل ابنه هلال في الطاعة ، وبادر السيد أبو حفص الى مرسية فدخلها وخرج هلال في جملته ، وبعثه الى الخليفة باشبيلية . ثم ارتحل الخليفة غازياً الى بلاد العدو فنازل وَبْذَةَ أيّاماً ، وارتحل عنها الى مرسية . ثم رجع الى اشبيلية سنة ثمان وستين ، واستصحب هلال بن مردنيش واصهر اليه في ابنته ، وولّى عمه يوسف على بلنسية وعقد لاخيه السيد أبي سعيد على غرناطة .

ثم بلغه خروج العدو الى ارض المسلمين مع القُوْمِس

(١) كذا، ومقتضى السياق: وأطاع.

(٢) أي نقص قدره.

الأحدب ، فخرج للقائهم وأوقع بهم بناحية قلعة رباح ، وأثخن فيهم ورجع الى اشبيلية ، وأمر ببناء حصن بالقلعة ليحصّن جهاتها ، وقد كانت خراباً منذ فتنة ابن حجاج فيه مع كريب ابن خلدون بثورة ، ازمان المُنْذِر بن محمد واخيه عبدالله من امراء بني أميَّة .

ثم انتقض ابن أذفونش وأغار على بلاد المسلمين ، فاحتشد الخليفة وسرَّح السيد ابا حفص اليه فغزاه بعقر داره ، وافتتح قنطرة السيف ، وهزم جموعه في كل جهة . ثم ارتحل الخليفة من اشبيلية راجعاً الى مراكش سنة احدى وسبعين لخمس سنين من إجازته الى الاندلس ، وعقد على قرطبة لاخيه الحسن ، وعلى اشبيلية لاخيه عليّ ، واصاب مراكش الطاعون فهلك من السادة ابو عمران وأبو سعيد وابو زكريا ، وقدم الشيخ ابو حفص من قرطبة فهلك في طريقه ، ودفن بسلا

واستدعى الخليفة اخويه السيدين ابا علي وابا الحسن ؛ فعقد لأبي علي على سجلماسة ، ورجع ابو الحسن الى قرطبة ، وعقد لابني اخيه السيد أبي حفص : لابي زيد منهما على غرناطة ، ولابي محمد عبد الله على مالقة . وفي سنة ثلاث وسبعين سطا بوزرائه بني جامع وغرّبهم الى ماردة . وفي سنة خمس وسبعين عقد لغانم بن محمد بن مردنيش على اسطوله وأغزاه مدينة الاشبونة ، فغنم ورجع . وفيها كانت وفاة اخيه السيد الوزير أبي حفص

بعدما ابلى في الجهاد وأبلغ في نكاية العدو . وقدم ابناه من الاندلس واخبرا الخليفة بانتقاض الطاغية ، واعتزم على الجهاد واخـذ في استدعاء العرب من افريقية

الخبر عن انتقاض قفصة واسترجاعها

كان عليّ بن المُعِزّ ويعرف بالطويل ، من اعقاب بني الرِّنْد ملوك قَفْصَة قد ثار سنة خمس وسبعين[1] كما ذكرناه في اخبارهم . وبلغ الخليفة خبره فنهض اليه من مراكش وصار الى بجاية وسعى عنده بعلي بن المنتصر الذي كان عبد المؤمن استنزله من قفصة انه يواصل قريبه الثائر بها ويخاطب العرب ، فتقبّض عليـه ، ووجدت مخاطبات عنده شاهدة بتلك السعاية واستصفى ما كان بيده ، وارتحل الى قفصة ونازلها . ووفدت عليه مشيخة العرب مـن رياح بالطاعة فتقبلهم[2] ولم يزل محاصراً لقفصة الى نُزل عـلى ابن المعز . وانكفـأ راجعاً الى تونس . وانفـذ عساكر العرب الى المغرب ، وعقد على افريقية والزاب للسيد ابي علي أخيه وعلى بجاية للسيد ابي موسى فقفل الى الحضرة

---

(١) كذا، وفي ب: سنة سبع وخمسين.
(٢) كذا، وفي ب فقتلهم.

معاودة الجهاد

لما قفل من فتح قفصه سنة سبع وسبعين وفد عليه اخوه السيد ابو اسحق من اشبيلية ، والسيد ابو عبد الرحمن يعقوب من مرسية وكافة الموحدين ورؤساء الاندلس يهنونه بالاياب فأكرم موصلهم وانصرفوا الى بلادهم . واتصل به ان محمد بن يوسف بن وانودين غزا بالموحدين من اشبيلية الى ارض العدو فنازل مدينة يابرة وغنم ما حولها وافتتح بعض حصونها ورجع الى اشبيلية ، وان عبد الله بن اسحق بن جامع قائد الاسطول باشبيلية التقى باسطول اهل اشبونة في البحر فهزمهم واخذوا عشرين من قطائعهم مع السبي والغنائم

ثم بلغ الخبر بان أذفونس بن شانجة نازل قرطبة وشن الغارات على جهة مالقّة ورَنْدَة وغرناطه . ثم نازل أسجّةَ وتغلب على حصن شنْقِيلَة . وأسكن بها النصارى وانصرف ، فاستنفر السيد ابو اسحق سائر الناس للغزو ، ونازل الحصن نحو اربعين يوماً . ثم بلغه خروج اذفونش من طُلَيْطلَة لمدده فانكفأ راجعاً . وخرج محمد ابن يوسف بن وانودين من اشبيليه في جموع الموحدين ونازل طَلْبِيرَة ، وبرز اليه اهلها فأوقع بهم وانصرف بالغنائم ، فاعتزم الخليفة ابو يوسف على معاودة الجهاد ، وولى على الاندلس ابناءه

وقدّمهم للاحتشاد ، فعقد لابنه أبي اسحق على اشبيلية كما كان ، ولابنه السيد أبي يحيى على قرطبة ولابنه السيد أبي زيد الحرضاني على غرناطه ولابنه السيد أبي عبد الله على مرسية

ونهض سنة تسع وسبعين الى سلا ، ووافاه بها ابو محمد بن أبي اسحق بن جامع من افريقية بحشود العرب . وسار الى فاس ، وبعث في مقدّمته هنتاتة وتينملل وحشود العرب ، واجاز البحر من سبتة في صفر من سنة ثمانين ، فاحتل جبل الفتح ، وسار الى اشبيلية فوافته بها حشود الاندلس . وسخط محمد بن وانودين وغرّبه الى حصن غافق ، ورحل غازياً الى شنترين فحاصرها اياماً . ثم اقلع عنها واسحر الناس يوم اقلاعه ، وخرج النصارى من الحصن فوجدوا الخليفة في غير اهبة ولا استعداد ، فأبلى في الجهاد هو ومن حضره ، وانصرفوا بعد جولة شديدة . وهلك في ذلك اليوم الخليفة يقال من سهم اصابه في حومة القتال ، وقيل من مرض طرقه عفا الله عنه

دولة ابنه يعقوب المنصور

لمّا هلك الخليفة ابو يعقوب على حصن شَنْتَرِين سنة ثمانين بويع ابنه يعقوب ، ورجع بالناس الى اشبيلية واستكمل البيعة . واستوزر الشيخ ابا محمد عبد الواحد بن أبي حفص ، واستنفر الناس للغزو مع اخيه السيد أبي يحيى فاخذ بعض الحصون

واثخن في بلاد الكفّار . ثم اجاز البحر الى الحضرة ولقيه بقصر مصمودة السيد ابو زكرياء بن السيد ابي حفص قادماً من تلمسان مع مشيخة زغبة ، ومضى الى مراكش فقطع المناكر[١] وبسط العدل وباشر الاحكام ، وكان اول الاحداث في دولته شأن ابن غانية

الخبر عن شان بن غانية

كان عليّ بن يوسف بن تاشفين لما تغلّب العدو على جزيرة ميورقة وهلك واليها من موالي مجاهد وهو مبشر ، وبقي اهلها فوضى ، وقد كان مُبَشِّر بعث اليه بالصريخ ، والعدو محاصر له . فلما اخذها العدو وغنم واحرق واقلع ، وبعث علي بن يوسف والياً عليها وانور بن ابي بكر من رجالات لمتونة ، وبعث معه خمسماية فارس من عسكره ، فارهف لهم حده ، واراداهم في بناء مدينة اخرى بعيدة من البحر فامتنعوا ، وقتل مقدّمهم فثاروا به وحبسوه . ومضوا الى عليّ بن يوسف فاعفاهم منه ، وولّى عليهم محمد بن علي بن يحيى المسوفي المعروف بابن غانية . وكان أخوه يحيى على غرب الاندلس ، وكان نزله باشبيلية . واستعمل محمد اخاه على قرطبة ، فكتب اليه علي بن

---

(١) كذا ، وفي ب : «فغير المناكير» ، بمعنى المنكرات .

يوسف بأمره بصرف اخيه محمد الى ولاية ميورقة ، فارتحل اليها من قرطبة ومعه اولاده عبد الله وعلي واسحاق والزبير وابراهيم وطلحة ، وكان عبد الله واسحاق في تربية عمها يحيى وكفالته فتبناهما . ولمّا وصل محمد بن عليّ بن غانية الى ميورقة قبض علي وانور وبعثه مصفداً الى مراكش ، واقام على ذلك عشراً . وهلك يحيى بن غانية وقد ولّى عبد الله بن اخيه محمد على غرناطة ، واخاه اسحاق ابن محمد على قرمونة . ثم هلك علي ابن يوسف ، وضعف امر لمتونة ، وظهر عليهم الموحدون فبعث محمد عن ابنيه عبد الله واسحاق فوصلا اليه في الاسطول وانقضى ملك لمتونة

ثم عهد محمد الى ابنه عبد الله فنافسه أخوه اسحاق ، وداخل جماعة من لمتونة في قتله فقتلوه ، وقتلوا اباه محمداً . ثم اجمعوا على الفتك به فارتاب بهم وداخل لبّ بن ميمون قائد البحر في امرهم فكبسهم في منازلهم وقتلهم . وتمّت بيعته سنة ست واربعين وخمسماية ، وبقي اميراً لميورقة . واشتغل اول امره بالبناء والغراسة.وضجر منه الناس لسوء ملكته . وفرّ عنه لبّ ابن ميمون الى الموحدين . ثم رجع آخراً الى الغزو ،وكان يبعث بالاسرى والعلوج للخليفة أبي يعقوب الى ان هلك قبيل مهلكه سنة ثمانين .

وخلّف من الولد محمداً وعلياً ويحيى وعبد الله والغازي وسير

والمنصور وجبارة وتاشفين وطلحة وعمر ويوسف والحسن ، فولّى ابنه محمد وبعث الى الخليفة أبي يعقوب بطاعته ، فبعث هو علي ابن الزبرتير لاختبار ذلك منه واحسّ بذلك اخوته فنكروه وتقبّضوا عليه ، وقدّموا علياً منهم. وبلغهم مهلك الخليفة وولاية ابنه المنصور فاعتقلوا ابن الزبرتير وركبوا البحر في اسطولهم الى بجاية . وولّى على ميورقة اخاه طلحة ، وطرق بجاية في اسطوله على حين غفلة وعليها السيد ابو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن وكان خارجها في بعض مذاهبه فاستولوا عليها سنة احدى وثمانين. وتقبّضوا على السيد أبي الربيع والسيد أبي موسى عمران بن عبد المؤمن صاحب افريقية ، كان بها مجتازاً واستعمل اخاه يحيى على بجاية ومضى الى الجزائر فافتتحها ، وولّى عليها يحيى ابن اخيه طلحة ، ثم الى مليانة فولّى عليها بدر بن عائشة. ونهض الى القلعة ثم الى قسطنطينة فنازلها . واتصل الخبر بالمنصور وهو بسبتة مرجعه من الغزو ، فسرح السيد أبا زيد ابن عمه السيد أبي حفص ، وعقد له على حرب ابن غانية . وعقد لمحمد بن أبي اسحاق بن جامع على الاساطيل ، والى نظره ابو محمد بن عطوش واحمد الصقلي

وانتهى السيد أبو زيد الى تلمسان ، واخوه يومئذ السيد ابو الحسن واليها ، وقد انعم النظر في تحصينها ، ثم ارتحل بعساكره من تلمسان ونادى بالعفو في الرعيّة فثار اهل مليانة على ابن غانية

فاخرجوه ، وسبقت الاساطيل الى الجزائر فلكوها وقبضوا على يحيى بن طلحة ، وسيق يدر ابن عائشة من ام العلو فقتلوا جميعاً بشلف . وتقدم القائد احمد الصقلي باسطوله الى بجاية فلكها ولحق يحيى بن غانية باخيه عليّ بمكانه من حصار قسطنطينة فاقلع عنها . ونزل السيد ابو زيد بتكلات[1] . وخرج السيد ابو موسى من اعتقاله فلقيه هنالك . ثم ارتحل في طلب العدو فافرج عن قسطنطينة ، وخرج الى الصحراء ، واتبعه الموحدون إلى مقرّة ونقاوس . ثم قفلوا الى بجاية ، واستقرّ السيد ابو زيد بها وقصد عليّ بن غانية قفصة فلكها ، ونازل توزر فامتنعت عليه ، ولحق بطرابلس . وخرج غزي الصنهاجي من جموع ابن غانيـة في بعض احياء العرب فتغلّب على اشير ، وسرح اليهم السيد ابو زيد ابنه ابا حفص عمر ، ومعه غانم بن مردنيش فاوقعوا بهم واستولوا على حللهم . وقتل غزّي وسيق رأسه الى بجاية ونصب بها ، والحق به عبد الله اخوه . وغُرّب بنو حمدون من بجاية الى سلا لاتهامهم بالدخول في امر ابن غانية . واستقدم الخليفة السيد ابا زيد من مكانه ببجاية ، وقدم مكانه اخاه السيد أبا عبد الله وانصرف الى الحضرة . وبلغ الخبر اثناء ذلك باستيلاء علي بن الزبرتير على ميورقة . وكان من خبره ان الامير

(١) كذا، وفي ب: سكلات. وفي نسخة أخرى: سلات. وفي نسخة: الهكلات.

يوسف بن عبد المؤمن بعثه الى ميورقة لدعاء بني غانية الى امره لما كان اخوهم محمد خاطبه بذلك ، فلمّا وصل ابن الزبرتير ، اليهم نكروا شأنه على اخيهم واجتمعوا دونه وتقبّضوا عليه وعلى ابن الزبرتير ، وقدّموا عليهم اخاه علياً ، وركبوا الاساطيل الى بجاية . فلما خلا الجوّ منهم دبّر ابن الزبرتير في امره ، وداخل مواليهم من العلوج في تخلية سبيله من معتقله على ان يخلّي سبيلهم باهليهم وولدهم الى ارضهم فتمّ له مراده منهم ، وثار بقفصة واستنقذ محمد بن اسحاق من مكان اعتقاله ، ولحقوا جميعاً بالحضرة . وبلغ الخبر علي بن غانية بمكانه من طرابلس فبعث اخاه عبد الله الى صقليّة ، وركب منها الى ميورقة ونزل في بعض قراها . وعمل الحيلة في تملك البلد فاستولى عليه واضطرمت نار الفتنة بافريقية

ونازل علي بن غانية بلاد الجريد وتغلب على الكثير منها ، وبلغ الخبر باستيلائه على قفصة فخرج اليه المنصور من مراكش سنة اثنين وثمانين ، ووصل فاس فاراح بها ، وسار الى رباط تازى . ثم سار على التبعية الى تونس ، وجمع ابن غانية من اليه من الملثمين والأعراب ، وجاء معه قراقش الغزي صاحب طرابلس ، فسرح اليهم المنصور عساكره لنظر السيد أبي يوسف ابن السيد أبي حفص ولقيهم بغمرة فانفضت جموع الموحدين وانجلت المعركة عن قتل علي بن الزبرتير وأبي علي بن يغمور ، وفقد الوزير عُمَر بن أبي زيد ولحق فلّهم بقفصة فاثخنوا فيهم

قتلاً ، ونجا الباقون الى تونس . وخرج المنصور متلافياً جبر الحال في هذه الوقائع ، ونزل القيروان ، وأغذّ السير الى الحامّة فتشاور الفريقان وتزاحفوا فكانت الدَبْرَة على ابن غانية واحزابه ، وافلت من المعركة بذماء نفسه ومعه خليله قراقش ؛ وأتى القتل على كثيرهم وصبح المنصور قابس فافتتحها ونقل من كان بها من حرم ابن غانية وذويه في البحر الى تونس . وثنّى العنان الى تَوْزر فافتتحها وقتل من وجد بها ، ثم الى قفصة فنازلها اياماً حتى نزلوا على حكمه . وأمّن اهل البلد والاغراب أصحاب قراقش ، وقتل سائر الملثمين ومن كان معهم من الحشود ، وهدم اسوارها وانكفأ راجعاً الى تونس ؛ فعقد على افريقية للسيد أبي زيد ، وفصل الى المغرب سنة اربع وثمانين ومر بالمهدية ، واصحر على طريق تاهرت ، والعبّاس بن عطيّة أمير بني توجين دليله الى تلمسان ، فنكب بها عمه السيد ابا اسحاق لشيء بلغه عنه واحفظه . ثم ارتحل الى مراكش ، ورفع اليه أنّ أخاه السيد أبا حفص والي مرسية الملقب بالرشيد ، وعمه السيد أبا الربيع والي تادِلا عند ما بلغهم خبر الوقيعة بغمرة حدّثوا أنفسهم بالتوثب على الخلافة ، فلمّا قدموا عليه للتهنئة امر باعتقالهما برباط الفتح خلال ما استجلى امرهما . ثم قتلهما وعقد للسيد أبي الحسن ابن السيد أبي حفص على بجاية ، وقصد يحيى ابن غانية قسطنطينة فزحف اليه السيد ابو الحسن من بجاية فهزمه ودخل

قسطنطينة ، وارتحل ابن غانية الى بسكرة فقطع نخلها وافتتحها عَنوَةً . ثم حاصر قسطنطينة وامتنعت عليه فارتحل الى بجاية وحاصرها ، وكثر عيثه الى ان كان من خبره ما نذكره إن شاء الله تعالى ، والله أعلم .

أخباره في الجهاد

لمّا بلغه تغلب العدو على قاعدة شُلْب ، وانه أوقع بعسكر اشبيلية وترددت سراياهم على نواحيها ، وافتتح كثيراً من حصونها ، وخاطبه السيد أبو يوسف بن أبي حفص صاحب اشبيلية بذلك . استنفر الناس للجهاد وخرج سنة ست وثمانين الى قصر مصمودة فأراح به . ثم اجاز الى طريف ، وأغذّ السير منها الى شُلْب ، ووافته بها حشود الاندلس فتركهم لحصارها . وخفّ الى حِصْن طُرّش فافتتحه ورجع الى اشبيلية . ثم رجع الى منازلة شلب سنة سبع وثمانين فافتتحه . وقدم عليه ابن وزير بعد ان كان افتتح في طريقه اليه حصوناً أخرى . ثم قفل الى حضرته بعد استكمال غزاته . وكتب بعهده لابنه الناصر .

وقدم عليه سنة ثمان وثمانين السيد أبو زيد صاحب افريقية ، ومعه مشيخة العرب من هلال وسُلَيم فلقّاهم مبرّة وتكريماً ، وانقلب وفدهم الى بلادهم . ثم بلغه سنة تسعين استفحال ابن

غانية بافريقية وكثرة العيث والفساد بها ، فاعتزم على النهوض اليها ووصل الى مكناسة فبلغه من أمر الاندلس ما أهمّه فصرف وجهه اليها ، ووصل قرطبة سنة احدى وتسعين فأراح بها ثلاثاً وامداد الحشود تتلاحق به من كل ناحية. ثم ارتحل للقاء العدو ونزل بالأرك من نواحي بطليوس ، وزحف اليه العدو من النصارى وأمراؤهم يومئذ ثلاثة : ابن اذفونش وابن الرنك ولبّبوج . وكان اللقاء يوم كذا سنة احدى وتسعين . وابو محمد ابن أبي حفص يومئذ على المطوّعة ، وأخوه ابو يحيى على العساكر والموحدين ، فكانت الهزيمة المشهورة على النصارى واستلحم منهم ثلاثون ألفاً بالسيف .

واعتصم فلّهم بحصن الارك وكانوا خمسة آلاف من زعمائهم ، فاستنزلهم المنصور على حكمه وفودي بهم عددهم من المسلمين . واستشهد في هذا اليوم ابو يحيى بن الشيخ أبي حفص بعد أن ابلى بلاء حسناً وعرف بنوه بعدها ببني الشهيد . وانكفأ المنصور راجعاً الى اشبيلية . ثم خرج منها سنة اثنتين وتسعين غازياً الى بلاد الجوف فافتتح حصوناً ومدناً وخربها ، كان منها ترجالة وطلبيرة . وأطلّ على نواحي طليطلة فخرّب بسائطها واكتسح مسارحها ، وقفل الى اشبيلية سنة ثلاث وتسعين فرفع اليه في القاضي أبي الوليد بن رشد مقالات نسب فيها الى المرض في دينه وعقله . وربما ألّف بعضها في خطه فحبس . ثم

اطلق ، واشخص الى الحضرة وبها كانت وفاته .

ثم خرج المنصور من اشبيلية غازياً الى بلاد ابن اذفونش حتى احتل بساحة طليطلة ، وبلغه ان صاحب برشلونة امدَّ ابن اذفونش بعساكره وانهم جميعاً بفحص مجريط ، فنهض اليهم . ولمّا اطل عليهم انفضّت جموع ابن اذفونش من قبل القتال وانكفأ المنصور راجعاً الى اشبيلية . ثم رغب اليه الملوك النصرانية في السلم فبذله لهم . وعقد على اشبيلية للسيد أبي زيد ابن الخليفة ، وعلى مدينة بطليوس للسيد أبي الربيع بن السيد أبي حفص ، وعلى المغرب للسيد أبي عبد الله بن السيد أبي حفص . واجاز الى حضرته سنة اربع وتسعين فطرقه المرض الذي كان منه حمامه ، وأوصى وصيته التي تناقلها الناس . وحضر لوصيته عيسى ابن الشيخ أبي حفص . وهلك رحمه الله سنة خمس وتسعين آخر ربيعها ، والله تعالى أعلم .

الخبر عن وصول ابن منقذ بالهدية
من قبل صاحب الديار المصرية

كان الفرنج قد ملكوا سواحل الشام في آخر الدولة العُبَيديّة منذ تسعين سنة وملكوا بيت المقدس ، فلمّا استولى

صلاح الدين بن ايوب على ديار مصر والشام اعتزم على جهادهم. وكان يفتتح حصونها واحداً بعد واحد حتى اتى على جميعها . وافتتح بيت المقدس سنة ثلاث وثمانين وهدم الكنيسة التي بنوها عليها . وامتعضت أمم النصرانيَّة من كل جهة ، واعترضوا اسطول صلاح الدين في البحر فبعث صريخه الى المنصور سنة خمس وثمانين يطلب اعانته بالاساطيل لمنازلة عكا وصور وطرابلس . ووفد عليه ابو الحارث عبد الرحمن بن مُنْقِذ بقية امراء شيزر من حصون الشام . كانوا استبدوا به عند اختلال الدولة العُبَيْدِيَّة . فلمَّا استقام الامر على يد صلاح الدين ، وانتظم ملك مصر والشام ، واستنزل بني منقذ هؤلاء ورعى لهم سابقتهم ، وبعثه في هذه الى المنصور بالمغرب بهديَّة تشتمل على مصحفين كريمين منسوبين ، ووزن ماية درهم من دهن البلسان ، وعشرين رطلًا من العود ، وستماية مثقال من المسك والعنبر ، وخمسين قوساً اعرابية باوتارها ، وعشرين من النصول الهنديّة وسروج عدة ثقيلة . ووصل الى المغرب ، ووجد المنصور بالاندلس فانتظره بفاس الى حين وصوله ، فلقيه وأدى اليه الرسالة فاعتذر له عن الاسطول وانصرف . ويقال انه جهَّز له بعد ذلك ماية وثمانين اسطولا ، ومنع النصارى من سواحل الشام

دولة الناصر بن المنصور

لما هلك المنصور قام بامره ابنه محمد وليّ عهده ، وتلقب الناصر لدين الله . واستوزر ابا زيد بن يوجان ، وهو ابن اخي الشيخ أبي حفص . ثم استوزر ابا محمد بن الشيخ أبي حفص ، وعقد للسيد أبي الحسن بن السيد أبي حفص على بجاية وفوض اليه في شؤونها . وبلغه سنة ست وتسعين اجحاف العدو بافريقية ، وفساد الاعراب في نواحيها ، ورجوع السيد أبي الحسن من قسطنطينة منهزماً امام ابن غانية ، فانفذ السيد أبا زيد بن أبي حفص إلى تونس في عسكر من الموحدين لسد ثغورها . وانفذ ابا سعيد بن الشيخ أبي حفص رديفاً له ، وتغلب ابن غانية خلال ذلك على حصن المهدية . وثار بالسوس سنة ثمان وتسعين ثائر من كزولة يعرف بأبي قفصة ، فسرّح الناصر اليه عساكر الموحدين فقصدوا جموعه وقتل . وفي ايامه كان فتح ميورقة على ما يتلو من خبرها

فتح ميورقة

وكان من خبرها ان محمد بن اسحاق لما فصل اخوته علي ويحيى الى افريقية ، وولوا على ميورقة اخاهم طلحة ، داخل محمد بعض الحاشية ، وخرج من الاعتقال هو وابن الزبرتير ،

وقام بدعوة المنصور ، وبعث بها مع ابن الزبرتير فبعث المنصور اسطوله مع أبي العلى بن جامع ليملك ميورقة ، فأبى محمد عن ذلك . وراسل طاغية برشلونة في المدد بجند من النصارى يستخدمهم فاجابه ، وانتقض عليه اهل ميورقة لذلك ، وخشوا عادية المنصور فطردوا محمد بن اسحاق وولوا عليهم اخاه تاشفين . وبلغ ذلك علياً ، وهو على قسطنطينة فبعث اخويه عبد الله والغازي فداخلوا بعض اهل البلد وعزلوا تاشفين وولي عبد الله وبعث المنصور اسطوله مراراً مع أبي العلى بن جامع . ثم مع يحيى ابن الشيخ أبي ابراهيم الهزرجي فامتنعوا منهم ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً . وقوي امره ، وذلك سنة ثلاث وثمانين

ثم لما هلك المنصور بعث الناصر اسطوله مع عمه السيد أبي العلى ، والشيخ ابي سعيد بن أبي حفص فنازلوه وانخذل عنه اخوه تاشفين بالناس ، ودخل البلد عنوةً ، واستفتحت وقتل . وانصرف السيد الى مرّاكش ، وولى عبد الله بن طاع الله الكومي . ثم ولى الناصر عليها أبا زيد ، وجعل ابن طاع الله على قيادة البحر . وبعد السيد ابي زيد وليها السيد ابو عبد الله بن ابي حفص بن عبد المؤمن ، ثم ابو يحيى ابن علي بن أبي عمران التيمللي ، ومن يده اخذها النصارى لسنة سبع وعشرين وستماية .

خبر إفريقية وتغلب ابن غانية عليها وولاية أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص

لمّا هلك المنصور قوي أمر ابن غانية بافريقية ، وولّى الناصر السيد أبا زيد والشيخ أبا سعيد بن أبي حفص ، ويقال ان المنصور ولّاهما ، وكثر الهرج بافريقية . وثار بالمهديّة محمد بن عبد الكريم الركراكي ، ودعا لنفسه ونازع ابن غانية والموحدين الامر ، وتسمى صاحب قبة الأديم محمد بن عبد الكريم . ونازل تونس وعاث في قراها سنة ست وتسعين . ونازل ابن غانية بقابس فامتنع عليه ، وكان محمد بن مسعود البلط شيخ رياح من أشياعه فانتقض عليه ، وراجع ابن غانيه فأتيح له الظهور على محمد بن عبد الكريم وقصده وهو على قفصة فهزمه . واتبعه الى المهديّة فنازله بها . وبعث الى صاحب تونس في المدد باسطوله فامدّه فضاقت حال ابن عبد الكريم فسأل الأمان من ابن غانية فأمّنه . وخرج اليه فتقبض عليه واستولى على المهدية سنة تسع وتسعين وقتله .

وبعث الناصر اسطوله في البحر مع عمه أبي العلى وعساكر الموحدين مع السيد أبي الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن . ونازلوا ابن عبد الكريم قبل استيلاء ابن غانية عليها ، فاعتذر ابن عبد الكريم بأنه حافظ للحصن من العدو ، ولا يمكنه إلّا

لثقة الخليفة . وانصرف السيد ابو الحسن الى بجاية موضع عمله ، وقسّم العسكر بينه وبين أخيه السيد أبي زيد صاحب تونس وصلحت الاحوال . ثم ان ابن غانية لمّا تغلّب على المهديّة وعلى قراقش الغزي صاحب عمل طرابلس ، وقد مرت اخباره في أخبار ابن غانية . ثم تغلّب على بلاد الجريد ، ثم نازل تونس سنة تسع وتسعين وافتتحها عنوةً ، وتقبّض على السيد أبي زيد ، وطالب أهل تونس بالنفقة التي انفق وبسط عليهم العذاب . وتولّى ذلك فيهم كاتبه ابن عصفور حتى هلك في الامتحان كثير من بيوتاتهم . ثم دخل في دعوته اهل بُونَة وبِنزَرْت وشِقَّبْنَارِيَة والاربص[1] والقيروان وتَبْسَة وصفاقس وقابس وطرابلس . وانتظمت له اعمال افريقية وفرق العمال وخطب للعباسي كما ذكرناه في اخباره . ثم ولّى على تونس أخاه الغازي ، ونهض الى جبال طرابلس فأغرمهم الف الف دينار مكررة مرتين ورجع الى تونس .

واتصل بالناصر كثرة الهرج بافريقية واستيلاء ابن غانية عليها وحصول السيد أبي زيد في قبضته ، فشاور الموحدين في أمره فأشاروا بمسالمة ابن غانية . واشار ابو محمد بن الشيخ أبي حفص بالنهوض اليها والمدافعة عنها فعمل على رأيه ، ونهض من مراكش سنة إحدى وستماية . وبعث الاسطول في البحر لنظر أبي يحيى بن أبي زكرياء الهزرجي ، فبعث ابن غانية ذخيرته

(١) كذا تكتب أحياناً بالصاد، وأحياناً بالسين: الأربس، في جميع النسخ.

وحرمه الى المهدّية مع علي بن الغازي بن محمدبن علي . وانتقض اهل طرابلس على ابن غانية واخرجوا عاملهم تاشفين بن الغازي ابن محمد بن علي بن غانية . وقصدهم ابن غانية فاقتحمها وخربها .

ووصل اسطول الناصر الى تونس فدخلوها وقتلوا من كان بها من اشياع ابن غانية ، ونهض الناصر في اتباع ابن غانية فأعجزه ونازل المهدية ، وبعث أبا محمد بن الشيخ أبي حفص للقاء ابن غانية فلقيه بتاجرا فاوقع به وقتل أخاه جبارة . وكاتبه ابن اللمطي وعامله الفتح بن محمد . قال ابن نخيل : وكانت الغنائم من عسكره يومئذ ثمانية عشر الفاً من احمال المال والمتاع والخرثي والآلة . ونجا بأهله وولده واطلق السيد ابو زيد الاعتقال بعد ان هم حرسه بقتله عند الهزيمة . ثم تسلم الناصر المهدية من يد علي بن الغازي المعروف بالحاج الكافي على ان يلحق بابن عمه فقبل شرطه ومضى لوجهه . ثم رجع من طريقه واختار التوحيد فقبل وناله من الكرامة والتقريب ما لا فوقه . وهلك في يوم العقاب الآتي ذكره . ثم قوض الناصر عن المهدّية ، واستعمل عليها محمد بن يغمور الهرغي ، وعلى طرابلس عبدالله بن ابراهيم ابن جامع ، ورجع الى تونس فاقام إلى سنة ثلاث وستماية . وسرح اخاه السيد ابي اسحاق في عسكر من الموحدين لاتباع العدو فدوخوا ما وراء طرابلس . واستأصلوا بني دمّر ومطماطة وجبال

نفوسة وتجاوزها الى سويقة بني مذكور . وقفل السيد ابو اسحاق بهم الى اخيه الناصر بتونس وقد كمل الفتح . ثم اعتزم على الرحيل الى المغرب واجمع رأيه على تولية أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص وكان شيخ دولته وصاحب رأيه فامتنع ، الى ان بعث اليه الناصر في ذلك بابنه يوسف فاكبر مجيئه واناب لذلك على ان يقيم بافريقية ثلاث سنين خاصة خلال ما يستحكم صلاحها ، وان يحكم فيمن يقيم معه من العسكر فتقبل شرطه

ورجع الناصر الى مراكش فدخلها في ربيع سنة اربع وستماية ، وقدّم عبد العزيز بن أبي زيد الهنتاتي على الاشغال بالعدوتين وكان على الوزارة ابو سعيد بن جامع وكان صديقاً لابن عبد العزيز . وعند مرجعه من افريقية توفي السيد ابو الربيع بن عبدالله بن عبد المؤمن صاحب تلمسان وسجلماسة ، والسيد ابو الحسن بن أبي حفص ابن عبد المؤمن صاحب بجاية ، وقد كان ابو الربيع هذا ولي بجاية من قبل وهو الذي جدد الرفيع والبديع من رياضها . وكان بنو حمّاد شيدوها من قبل فاصابها الخراب وجددهما السيد ابو الربيع . وفي سنة خمس بعدها عقد للسيد أبي عمران بن يوسف بن عبد المؤمن على تلمسان ، اداله به من السيد الحسن فوصل الى تلمسان في عساكر الموحّدين وتطوّف باقطارها

وزحف اليه ابن غانية هنالك فانفض الموحدون وقتل السيد أبو عمران . وارتاع اهل تلمسان واسرع السيد ابو زكرياء من

فاس اليها فسكن نفوسهم خلال ما عقد الناصر لأبي زيد بن يوجان على تلمسان وسرّحه في العساكر فنزل بها . وفر ابن غانية الى مكانه من قاصية افريقية ، ومعه محمد بن مسعود البلط شيخ الدواودة من رياح ، وغيره من اعراب رياح وسليم . واعترضهم ابو محمد بن أبي حفص فانكشفوا واستولى الموحدون على محلاتهم وما بايديهم ، ولحقوا بجهات طرابلس . ورجع عنهم سير بن اسحاق آخذاً بدعوة الموحدين . وفي هذه السنة عقد الناصر على جزيرة ميورقة لأبي يحيى بن أبي الحسن بن أبي عمران ، ادال به من السيد أبي عبد الله بن أبي حفص ، وعقد له على بلنسية ، وعقد على مرسية لأبي عمران ابن ياسين الهنتاتي ، ادال به من أبي الحسن بن واكاك . وعقد للسيد أبي زيد على كورة جيان ، أدال به من أبي موسى بن أبي حفص ، وعقد للسيد أبي ابراهيم بن يوسف على اشبيلية ولأبي عبد الله بن أبي يحيى ابن الشيخ أبي حفص على غرناطة الى ان كان ما نذكر ان شاء الله تعالى .

أخباره في الجهاد

لمّا بلغ الناصر تغلّب العدو على كثير من حصون بلنسية أهمّه ذلك وأقلقه ، وكتب الى الشيخ أبي محمد بن أبي حفص

يستشيره في الغزو فأبى عليه فخالفه ، وخرج من مراكش سنة تسع ووصل اشبيلية واستقر بها واستعد للغزو . ثم خرج من اشبيلية وقصد بلاد ابن اذفونش فافتتح قلعة شلبطرة واثلج [1] في طريقه . ونازل الطاغية قلعة رباح ، وبها يوسف بن قادس واخذ بمخنقه فصالحه على النزول ، ووصل الى الناصر فقتله وسار على التعبئة الى الموضع المعروف بالعقاب . وقد استمد له الطاغية ، وجاءه طاغية برشلونة مدداً بنفسه . فكانت الدَّبَرَة على المسلمين . وانكشفوا في يوم بلاء وتمحيص أواخر صفر سنة تسع وستماية . وانكفأ راجعاً الى مراكش فهلك في شعبان من السنة بعدها . وكان ابن اذفونش قد باطن ابن عمه الببوج صاحب ليون في ان يوالي للناصر ويجري الهزيمة على المسلمين ففعل ذلك . ثم رجعوا الى الاندلس بعد الكائنة للاغارة على بلاد المسلمين ، فلقيهم السيد ابو زكرياء بن أبي حفص بن عبد المؤمن قريباً من اشبيلية فهزمهم وانتعش المسلمون بها واتصلت الحال على ذلك .

ثورة ابن الفرس

كان عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الفرس من طبقة العلماء بالاندلس ويعرف بالمهر وحضر مجلس المنصور في بعض الايام وتكلم

(١) كذا وفي ب: والح ، وفي نسخة أخرى: وانلجّ .

بها حتى خشي عاقبته في عقده وخرج من المجلس فاختفى مدة ثم بعد مهلك المنصور ظهر في بلاد كزولة وانتحل الامامة وادعى انه القحطاني المراد في قوله صلّى الله عليه وسلم: « لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يقود الناس بعصاه يملأها عدلاً كما ملئت جوراً، الى آخر الحديث » وكان مما ينسب له من الشعر :

قولوا لأبناء عبدالمؤمن بن علي ... تأهبوا لوقوع الحادث الجلل
قدجاء سيّدُ قحطانٍ وعاملها [1] ... ومُنتهى القول والغلاب للدُوَلِ
والناس طوعاً عصاه وهو سائقهم ... بالأمر والنّهي بَحْرُ العِلمِ والعَمَلِ
تبادَروا أمرَه فالله ناصِرُه ... واللهُ خاذِلُ أهلِ الزَيغِ والمَيَلِ

فبعث الناصر اليه الجيوش فهزموه، وقتل وسيق رأسه الى مراكش فنصب بها .

دولة المستنصر بن الناصر

لمّا هلك محمد الناصر بويع ابنه يوسف سنة احدى عشرة، وهو ابن ست عشرة سنة ولقب المستنصر بالله، وغلب عليه ابن جامع ومشيخة الموحدين فقاموا بأمره . وتأخرت بيعةُ أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص من افريقيـة لصغر سن المستنصر . ثم وقعت المحاولة من الوزير ابن جامع وصاحب الاشغال عبد العزيز

---

(١) كذا، وفي ب: وعالمها.

ابن أبي زيد فوصلت بيعته ، واشتغل المستنصر عن التدبير بما يقتضيه الشباب ، وعقد للسادة على عمالات ملكه : فعقد للسيد أبي ابراهيم أخي المنصور ، وتلقّب بالظاهر ، على فاس ، وهو ابو المرتضى . وعقد على اشبيلية لعمّه السيد أبي اسحاق الأحول . واستولى الفنش على المعاقل التي اخذها الموحدون ، وهزم حامية الاندلس ، ووفد رسوله ابن الفخار فحاوله ابن جامع في السلم فعقده . ثم صرف ابن جامع عن الوزارة بعد مهلك ابن أبي زيد بسعاية أبي زيد بن يوجان ، واستوزر أبا يحيى الهزرجي ، وولّى على الاشغال أباعلي بن اشرفي .

ثم رضي عن ابن جامع واعاده ، وعزل أبا زيد بن يوجان من ولاية تلمسان بأبي سعيد ابن المنصور ، وبعثه الى مرسية فأعتقل بها . واستمرت ايام المستنصر في هدنة وموادعة الى ان ظهر بنو مرين بجهات فاس سنة ثلاث عشرة ، فخرج اليهم واليها السيد ابو ابراهيم في جموع الموحدين فهزموه وأسروه . ثم عرفوه واطلقوه ، ثم وصل الخبر بمهلك أبي محمد بن أبي حفص صاحب افريقية فولى عليها السيد أبا العلى أخا المنصور ، وكان والياً بأشبيلية فعزل . وولّى على افريقية بسعاية ابن مثّنى خاصة السلطان ، فتوجه اليها كما نذكر في أخبار بني أبي حفص . وخرج بناحية فاس رجل من العُبَيْدِيّين انتسب للعاضد ، وتسمى بالمهدي ، فبعث السيد ابو ابراهيم أخو المنصور والي فاس الى شيعته وبذل

لهم المال فتقبّضوا عليه ، وساقوه اليـه فقتل . وفي سنة تسع عشرة عقد المُستَنصِرُ لعمّه أبي محمد المعروف بالعادل على مرسية ، وعزله عن غرناطـة . وهلك سنة عشرين وقـد التاثت الامور فكان ما نذكر ، والله تعالى أعلم .

الخبر عن دولة المخلوع أخي المنصور

لمّا هلك المستنصر في الاضحى من سنة عشرين اجتمع ابن جامع والموحـدون وبايعوا للسيد أبي محمد عبـد الواحد أخي المنصور ، فقام بالامر وامر بمطالبة ابن اشرفي بالمـال . وكتب لاخيه أبي العلي بتجديد الولاية على افريقية بعد ان كان المستنصر اوعز بعزله ، فادركته الولاية ميتـاً فاستبد بهـا ابنه ابو زيد المشمَّر كما نذكره في اخبار افريقيـة . وانفذ المخلوع امره باطلاق ابن يوجان فاطلق . ثم صده ابن جامع عن ذلك وانفذ أخاه أبا اسحاق في الاسطول ليغرّبه الى مَيورقَة كما كان المستنصر انفذ قبل وفاته . وكان الوالي بمرسية ابو محمد عبد الله بن المنصور فأغراه ابن يوجان بالتوثُّب على الامر ، وشهد له انه سمـع من المنصور العهد له بالخلافة من بعد الناصر . وكان الناس على كره ابن جامع . وولاة الاندلس كلهم بنو المنصور فأصغى اليـه ، وكان متردِّداً في بيعة عمه فدعا لنفسه وتسمَّى بالعـادل . وكان

اخوته ابو العلى صاحب قُرْطُبَة وابو الحسن صاحب غرناطة وابو موسى صاحب مالقة ، فبايعوه سراً .

وكان ابو محمد بن أبي عبد الله محمد بن أبي حفص بن عبد المؤمن المعروف بالبياسي صاحب جيان ، وعزله المخلوع بعمّه أبي الربيع بن أبي حفص ، فانتقض وبايع للعادل . وزحف مع أبي العلى صاحب قرطبة وهو أخو العادل الى اشبيلية ، وبها عبد العزيز أخو المنصور والمخلوع فدخل في دعوتهم . وامتنع السيد أبو زيد بن أبي عبد الله أخي البياسي عن بيعة العادل ، وتمسّك بطاعة المخلوع . وخرج العادل من مرسية الى اشبيلية فدخلها مع أبي زيد ابن يوجان ، وبلغ الخبر الى مراكش فاختلف الموحدون على المخلوع ، وبادروا بعزل ابن جامع وتغريبه الى هسكورة . وقام بأمر هنتاتة ابو زكرياء يحيى بن أبي يحيى الشهيد بن أبي حفص ، وبأمر تينملل يوسف بن علي ، وبعث على اسطول البحر أبا اسحاق بن جامع وانفذه لمنع الجواز من الزقاق . وكان أسرّ الى ابن جامع حين خرج الى هسكورة ان يحاول عليه من هنالك فلم يتم أمره ، وقتل بمكان خفي ربيع سنة احدى وعشرين ، وبعث الموحدون بيعتهم الى العادل والله أعلم .

الخبر عن دولة العادل بن المنصور

لما بلغت بيعة الموحدين للعادل وكتاب ابن زكرياء بن الشهيد بقصة المخلوع ، قارن ذلك تغييره للبياسي فانتقض عليه ، ودعا لنفسه ببياسة ، وتلقّب الظافر وشغل بشأنه . وبعث اخاه أبا العلى لحصاره فأمتنع عليه ، وبعث بعده أبا سعيد بن الشيخ أبي حفص فأمتنع عليه أيضاً . واختلفت الاحوال بالاندلس على العادل . وكثرت اغارة النصارى على اشبيلية ومرسية ، وهو مقيم بها . وانهزمت جيوش الموحدين على طلياطة ، وأغراه خاصته بأبن يوجان فأخذ الى سبتة . وعظم امر البياسي بالاندلس وظاهره النصارى على شأنه ، فاجاز العادل الى العدوة وولى أخاه أبا العلى على الاندلس . ولمّا كان بقصر المجاز دخل عليه عبو بن أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص فقال له كيف حالك فأنشد :

حالٌ متى عَلِمَ ابنُ مَنصورٍ بها جـاءَ الزمانُ إِلَيْهِ مِنْهـا تائبا

فاستحسن ذلك وولّاه افريقية . وكتب للسيد أبي زيد ابن عمه بالقدوم ، ووصل الى سلا وأقام بها . وبعث عن شيوخ جشم ، وكان لابن يوجان عناية واختصاص بهلال بن حميدان بن مقدم امير الخلط ، فتثاقل ابن جرمون امير سفيان عن الوصول ، واقتتل الخلط وسفيان ، وبادر العادل الى مراكش فدخلها واستوزر

أبا زيد بن أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص ، وتغيّر لابن يوجان ففسد باطنه . وتغلّب على الدولة ابن الشهيد ، ويوسف بن علي شيخا هِنْتاتةَ وتِينْمَلَل . ثم خالفت هسكورة والخلط وعاثوا في نواحي مراكش ، وخرج اليهم ابن يوجان فلم يغن شيئاً ، فخربوا بلاد دِكالَة ، فانفذ اليهم العادل عسكراً من الموحدين لنظر ابراهيم ابن اسماعيل ابن الشيخ أبي حفص ، وهو الذي كان نازع اولاد الشيخ أبي محمد بافريقية كما نذكره فانهزم وقتل . وخرج ابن الشهيد ويوسف بن علي الى قبائلهما للحشد ومدافعة هسكورة ، فاتفقا على خلع العادل والبيعة ليحيى بن الناصر ، وقصدوا مراكش فاقتحموا عَليه القصر ونهبوه ، وقتل العادل خنقاً أيام الفطر سنة اربع وعشرين .

الخبر عن دولة المأمون بن المنصور ومزاحمة يحيى بن الناصر له

كان المأمون لمّا بلغه انتقاض الموحدين والعرب على اخيه وتلاشي امره دعا لنفسه بأشبيلية ، فبويع واجابه أكثر أهل الأندلس . وبايع له السيد أبو زيد صاحب بَلَنْسِيَة وشرق الاندلس . ثم كان ما قدّمناه من انتقاض الموحدين على العادل وقتله بالقصر وبيعتهم ليحيى ابن أخيه الناصر ، فكاتب ابن يوجان سراً وعمل على افساد الدولة ، فداخل هسكورة والعرب

في الغارة على مراكش وهزموا عساكر الموحدين . وفطن ابن الشهيد لتدبير ابن يوجان فقتله بداره . وخرج يحيى بن الناصر الى معتصمه كما ذكرناه فخلع الموحدون العادل [1] وبعثوا ببيعتهم الى المأمون .

وتولّى كِبَرَ ذلك الحسن ابو عبد الله الغريغر [2] والسيد أبو حفص بن أبي حفص فبلغ خبرهم الى يحيى بن الناصر وابن الشهيد ، فنزلوا الى مراكش سنة ست وعشرين وقتلوهم. وبايع للمأمون صاحب فاس وصاحب تِلِمْسان محمد بن أبي زيد بن يوجان وصاحب سبتة ابو موسى بن المنصور وصاحب بجاية ابن اخيه ابن الاطاس . وامتنع صاحب افريقية وكان ذلك سبباً لاستبداد الأمير ابي زكريّا على ما نذكر . ولم يبق على دعوة يحيى بن الناصر إلّا افريقية وسِجلماسة .

وزحف البيّاسي الى قُرْطُبة فملكها ، ثم زحف الى اشبيليّة فنازل بها المأمون والطاغية معه ، بعد ان نزل له عن قجاطة [3] وغيرها من حصون المسلمين فهزمهم المأمون بنواحي اشبيلية ولحق البياسي بقرطبة فثاروا به ، ونجا الى حصن المدور ، فغدر

(١) كذا، وفي ب: يحيى بن الناصر، وهو الأصح حسب سياق العبارة.
(٢) كذا، وفي ب: العريقي.
(٣) كذا، وفي ب: مخاطة.

به وزيره ابو يبورك [1] . وجاء برأسه الى المأمون باشبيلية .

ثم ثار محمد بن يوسف بن هود وملك مَرْسِيَة ، واستولى على الكثير من شرق الاندلس كما ذكرناه في أخباره . وزحف اليه المأمون وحاصره فامتنع عليه فرجع الى اشبيلية ، ثم خرج سنة ست وعشرين الى مراكش لمّا استدعاه اهل المغرب ، وبعثوا اليه بيعاتهم . وبعث اليه هلال بن حميدان أمير الخلط يستدعيه . واستمدّ الطاغية عسكراً من النصارى فأمدّه على شروط تقبّلها منه المأمون ، وأجاز الى العُدْوَة . وبادر أهل اشبيلية بالبيعة لابن هود ، واعترضه يحيى بن الناصر فهزمه المأمون واستلحم من كان معه من الموحدين والعرب ، ولحق يحيى بجبل هنتاتة . ثم دخل المأمون الحضرة ، وأحضر مشيخة الموحّدين وعدّد عليهم فعلاتهم ، وتقبّض على ماية من أعيانهم فقتلهم ، وأصدر كتابه الى البلدان بمحو اسم المهديّ من السِّكَّة والخطبة ، والنعي عليه في النداء للصلاة باللغة البربرية ، وزيادة النداء لطلوع الفجر وهو « أصبح ولله الحمد » وغير ذلك من السنن التي اختص بها المهدي وعبد المؤمن ، وجرى على سننها ابناؤه . فأوعز بالنهي عن ذلك كله ، وشنّع عليهم في وصفهم الامام المهدي بالمعصوم ، وأعاد في ذلك وابدى .

وأذن للنصارى القادمين معه في بناء الكنيسة بمراكش على

---

(١) كذا، وفي ب: ميورك.

شرطهم ، فضربوا بها نواقيسهم . واستولى ابن هود بعده على الاندلس ، وأخرج منها سائر الموحدين ، وقتلهم العامة في كل قطر . وقتل السيد أبو الربيع ابن أخي المنصور كان المأمون تركه والياً بقرطبة . واستبد الامير ابو زكريا ابن أبي محمد ابن الشيخ أبي حفص بافريقية ، وخلع طاعته سنة سبع وعشرين فعقد للسيد أبي عمران ابن عمه محمد الحرضاني [1] على بجاية مع أبي عبد الله اللحياني أخي الامير أبي زكريا . وزحف اليه يحيى بن الناصر فانهزم ، ثم ثانية كذلك ، واستلحم من كان معه ، ونصبت رؤوسهم باسوار الحضرة . ولحق يحيى بن الناصر ببلاد درعة وسجلماسة .

ثم انتقض على المأمون أخوه أبو موسى ودعا لنفسه بسَبتَة وتسمَّى بالمؤيد ، فخرج المأمون من مراكش وبلغه في طريقه ان قبائل بني فازاز ومِكْلاتة حاصروا مِكناسَة وعاثوا في نواحيها فسار اليها وحسم عاماها [2] واستمر الى سبتة فحاصرها ثلاثة اشهر ، واستمد اخوه ابو موسى صاحب الاندلس ابن هود فأمدَّه باساطيله . وخالف يحيى بن الناصر المأمون الى الحضرة فاقتحمها مع عرب سُفيان وشيخهم جرمون بن عيسى ، ومعهم ابو سعيد بن وانودين شيخ هِنتاتَة وعاثوا فيها فأقلع المأمون

(١) كذا، وفي ب: الخرصاني.
(٢) كذا، وفي ب: عللها، وهو الأصح.

عن سبتة يريد الحضرة ، وهلك في طريقه بوادي أمّ ربيع مفتتح سنة ثلاثين ، ولحين إقلاعه دخل اخوه السيّد ابو موسى في طاعة ابن هود ، وامكنه من سبتة فاداله منها والله تعالى أعلم .

الخبر عن دولة الرشيد بن المأمون

لمّا هلك المأمون بويع ابنه عبد الواحد ولقّب بالرشيد ، وكتموا موت ابيه وأغذّوا السير الى مراكش ، ولقيهم يحيى ابن الناصر في طريقهم بعد أن استخلف بمراكش ابا سعيد ابن وانودين فهزموه ، وقتل أكثر من معه . وصبح الرشيد مراكش فامتنعوا عليه ساعة ، ثم خرجوا اليه واستقاموا على بيعته . وكان وصل في صحبته عمه السيد ابو محمد سعد فحلّ من الدولة بمكان ، وكان اليه التدبير والحلّ والعقد . وبعد استقرار الرشيد بالحضرة وصل اليه عُمَر بن وقاريط كبير الهساكرة بمن كان عنده من اولاد المأمون السيّد واخوته جاءوا من اشبيلية عند ثورة اهلها بهم ، واستقروا بسبتة عند عمهم أبي موسى ، ومنها الى الحضرة عند استيلاء ابن هود على سبتة ومرّوا بهسكورة ، وكان ابن وقاريط حذراً من المأمون ومعتقداً ان لا يعود اليه فتذمم بصحابة هؤلاء الولد ، وقدم على الرشيد فتقبله ، واعتلق بوصلة من السيد أبي محمد سعد وصحابة لمسعود

ابن حميدان كبير الخلط .

ولمّا هلك السيد ابو محمد لحق ابن وقاريط بقومه ومعتصمه وكشف وجه الخلاف ، وأخذ بدعوة يحيى بن الناصر ، واستنفر له قبائل الموحّدين ونهض اليهم الرشيد سنة احدى وثلاثين ، واستخلف على الحضرة صهره أبا العلى ادريس وصعد اليهم الجبل ، فأوقع بيحيى وجموعه بمكانهم من هَزرَجة واستولى على معسكرهم . ولحق يحيى بسجلماسة ، وانكفأ الرشيد راجعاً الى حضرته ، واستأمن له كثير من الموحّدين الذين كانوا مع يحيى بن الناصر فأمّنهم ولحقوا بحضرته . وكان كبيرهم ابو عثمان سعيد بن زكريا الكدموي ، وجاء الباقون على اثره وبسعيه بعد ان شرطوا عليه اعادة ما كان ازاله المأمون من رسوم المهدي فأعيدت . وقدم فيهم ابو بكر بن يعزى التينملي رسولاً عن يوسف بن علي ابن يوسف شيخ تينمال ، ومحمد بن يرزيكن الهنتاتي رسولاً عن ابي علي بن عزوز ، ورجعا الى مرسليهما بالقبول ، فقدما على الحضرة وقدم معهم موسى ابن الناصر اخو يحيى وكبيره . وجاء على اثرهم ابو محمد بن أبي زكريا وانسوا لاعادة رسوم الدعوة المهديّة .

وكان مسعود بن حميدان الخلطي قد اغراه عمر بن وقاريط بالخلاف لصحبة بينهما ، وكان مدلاً ببأسه وكثرة جموعه . يقال ان الخلط كانوا يومئذ يناهزون اثني عشر الفاً سوى الرّجل

والاتباع والحشود ، فرض في الطاعة وتثاقل عن الوفادة . ولما علم بمقام الموحدين أجمع اعتراضهم وقتلهم تمكيناً للفرقة والشتات في الدولة ، فاعمل الرشيد الحيلة في استدعائه ، وصرف عساكره الى حاحة لنظر وزيره السيد أبي محمد ، حتى خلا لابن حميدان الجو ، وذهب عنه الريب واستقدمه فأسرع اللحاق بالحضرة وقدم معه معاوية عم عمر بن وقاريط ، فتقبض عليه وقتل لحينه . واستدعى مسعود بن حميدان الى المجلس الخلافي للحديث فتقبض عليه وعلى اصحابه وقتلوا ساعتئذ بعد جولة وهَيْعَةٍ ، وقضى الرشيد حاجة نفسه فيهم . واستقدم وزيره وعساكره من حاحة فقدموا ولما بلغ خبر مقتلهم الى قومهم قدّموا عليهم يحيى بن هلال بن حميدان ، واجلبوا على سائر النواحي ، وأخذوا بدعوة يحيى واستقدموه من مكانه بقاصية الصحراء .

وداخلهم في ذلك عمر بن وقاريط وزحفوا لحصار الحضرة وخرجت العساكر لقتالهم ومعهم عبد الصمد بن يلولان فرجع ابن وقاريط في جموعه من العساكر فانهزموا ، واحيط بجند النصارى فقتلوا وتفاقم الأمر بالحضرة ، وعدمت الاقوات . واعتزم الرشيد على الخروج الى جبال الموحّدين فخرج اليها . وسار منها الى سجلماسة فملكها ، واشتدّ الحصار على مراكش وافتتحها يحيى بن الناصر وقومه من هسكورة والخلط ، وساء اثرهم فيها وتغيرت احوال الخلافة . وتغلّب على السلطان السيد

ابو ابراهيم بن أبي حفص الملقب بأبي حاقة . وفي سنة ثلاث وثلاثين خرج الرشيد من سجلماسة بقصد مراكش وخاطب جرمون بن عيسى وقومه من سفيان ، فأجاز وادي أم ربيع وبرز اليه يحيى في جموعه ، والتقى الفريقان فانهزمت جموع يحيى واستحر القتل فيهم ، ودخل الرشيد الى الحضرة ظافراً .

واشار يحيى بن وقاريط على الخلط بالاستصراخ بابن هود صاحب الاندلس ، والأخذ بدعوته فنكثوا بيعة يحيى ، وبعثوا وفدهم الى ابن هود صحبة عمر بن وقاريط فاستقرّ هنالك . وخرج الرشيد من مراكش وفرّ الخلط امامه ، وسار الى فاس وسرّح وزيره السيد أبا محمد الى غمارة وفازاز لجباية أموالهم . وكان يحيى بن الناصر لما نكث الخلط بيعته لحق بعرب المعقل فأجاروه ووعدوه النصرة ، واشتطوا عليه في المطالب ، واسف بعضهم بالمنع فاغتاله في جهات تازى ، وسيق رأسه الى الرشيد بفاس فبعثه الى مراكش وأوعز الى نائبه بها أبي علي بنّ عبد العزيز بقتل العرب الذين كانوا في اعتقاله وهم : حسن ابن زيد شيخ العاصم ، وفائد وفائد ابنا عامر شيخا بني جابر ، فقتلهم وانكفأ راجعاً الى حضرته سنة اربع وثلاثين . وبلغه استيلاء صاحب درعة أبي محمد بن وانودين على سجلماسة ، وذلك ان الرشيد لما فصل من سجلماسة استخلف عليها يوسف ابن علي ابن يوسف التينملي فاستعمل ابن خالته من بني مردنيش ،

وهو يحيى بن ارقم بن محمد بن مردنيش ، فثار عليه ثائر من صنهاجة وقتله في خبائه . وقام ابنه أرقم يطلب الثأر ، وبلغ منه ما اراد . ثم حدثته نفسه بالانتقاض خوفاً من عزلة الرشيد اياه فانتقض .

ونهض اليه الرشيد سنة اثنتين وثلاثين فلم يزل ابو محمد ابن وانودين يعمل الحيلة في استخلاصها حتى تمكّن منها وعفى عن ارقم . وكان ابن وقاريط لما فصل الى ابن هود سنة اربع وثلاثين ركب البحر في اسطول ابن هود ، وقصد سلا وبها السيد ابو العلى صهر الرشيد ، فكاد ان يغلب عليها . وفي سنة خمس وثلاثين بايع اهل اشبيلية للرشيد ، ونقضوا طاعة ابن هود ، وتولّى كبر ذلك ابو عمر بن الجد وأشخص بني حجاج الى سبتة ، ووصل وفدهم الى الحضرة ومرّوا في طريقهم بسبتة ، فاقتدى اهلها بهم في بيعة الرشيد . وخلعوا اميرهم اليانشي [1] الثائر بها على ابن هود وقدموا على الحضرة . وولّى عليهم الرشيد ابا علي بن خلاص منهم . ولأيام من مقدمهم وصل عُمَر بن وقاريط معتقلاً من اشبيلية ، اغراهم بالقبض عليه القاضي ابو عبد الله المؤمناني ، كان توجه رسولاً الى ابن هود عن الرشيد ، فأمكنهم من ابن وقاريط . وبعثه الى الرشيد في وفد من رسله فاعتقله بأزمور وقتل وصلب برباط هسكورة ، بعد ان طيف به على

(١) كذا، وفي ب: للبانشي.

جمل . وانصرف وفد اشبيلية وسبتة ، واستقدم الرشيد رؤساء الخلط فتقبض عليهم وبعث عساكره فاستباحوا حللهم واحياءهم . ثم أمر بقتل مشيختهم وقتل معهم ابن وقاريط ، وقطع دابرهم . وفي سنة ست وثلاثين وصلت بيعة محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر الثائر بالاندلس على ابن هود . وفي سنة سبع وثلاثين اشتدت الفتنة بالمغرب ، وانتشر بنو مرين في بسائطه ، وقاتلهم رياح بازغار وشيخهم عثمان بن نصر ، فهزمهم بنو مرين وقتلوهم قتلاً ذريعاً . وكان الرشيد استقدم ابا محمد بن وانودين من سجلماسة سنة خمس وثلاثين ، وعقد له على فاس وسجلماسة وغمارة ونواحيها من ارض المغرب ، فكان هنالك . ولما انتشر بنو مرين بالمغرب زحف اليهم فهزموه ، ثم زحف ثانية وثالثة فهزموه وأقام في محاربتهم سنتين ، ورجع الى الحضرة . واشتد عدوان بني مرين بالمغرب وألحوا على مكناسة حتى اعطوا الأتاوة لبني حمامة منهم فأسفوا بني عسكر بذلك ، واتصل عيثهم في نواحيها . وفي سنة تسع وثلاثين قتل الرشيد كاتبه ابن المؤمناني [1] لمداخلة له مع بعض السادة وهو عمر ابن عبد العزيز اخي المنصور ، وقف على كتابه اليه بخطه . وغلط الرسول بها فدفعها بدار الخليفة . وفي سنة اربعين بعدها كانت وفاة الرشيد غريقا ،

(١) كذا، وفي ب: ابن المأموني.

زعموا في بعض حوائز [1] القصر . ويقال انه اخرج من المـاء وحم لوقته وكان فيها مهلكه .

الخبر عن دولة السعيد بن المأمون

لمَّا هلك الرشيد بويع أخوه ابو الحسن السعيد بتعيين أبي محمد بن وانودين وتلقَّب المعتضد بالله . واستوزر السيد أبا اسحاق ابن السيِّد أبي ابراهيم ويحيى ابن عطوش . وتقبض على جملة من مشيخة الموّحدين ، واستصفى اموالهم واستخلص لنفسه رؤساء العرب من جشم . واستظهر بجموعهم على أمره وكان شيخ سفيان كانون بن جرمون كبير مجلسه ، ولأوّل بيعتة انتقض عليـه ابو علي بن خلاط البلنسي صاحب سبتة ، وكذلك اهل اشبيلية وبايعوا جميعاً للامير أبي ذكريّا صاحب افريقيَة .

ثم انتقض عليه بسجلماسة عبد الله ابن زكريّا الهَزرَجيّ لمقالة كانت منه يوم بيعة الرشيد أسرّها له فبايع للأمير ابي زكريّا . ثم وصلته في هذه السنة هديّة يُغمْراسن بن زيّان صاحب تِلمْسان فنهض الأمير أبو زكريّا صاحب افريقيَة بسبب ذلك الى تلمسان ، واستولى عليها . ثم عقد عليها ليَغمراسن حسبما نذكر في اخباره . وخرج السعيد من مراكش لتمهيد بلاد المغرب سنة اثنتين واربعين

(١) كذا، وفي ب: جزائر. وفي نسخة أخرى: حوائر. وأظنه يعني بها: أحواز، جمع حوز، والأصح: في بعض برك القصر، حسب مقتضى السياق.

وتغيّر لسعيد بن زكريا الكدميَوي فتقبض عليه في معسكره بتانسفت وفرّ اخوه أبو زيد ومعه ابو سعيد العود الرطب ، ولحقوا بسجلماسة فاستصفى اموالهم بمراكش ، وارتحل بقصد سجلماسة وأخذ واليها عبد الله الهزرجي في اسباب الامتناع ، فغدر به ابو زيد بن زكريا الكدميوي وداخل اهل سجلماسة في الثورة عليه ، وملك البلد . واستدعى السعيد لها فوصل وقتل الهزرجي . وفرّ ابو سعيد العود الرطب الى تونس . ثم رجع السعيد الى المغرب وقتل سعيد بن زكريا ، ونزل الْقَرْمَدَة من أحواز[1] فاس . وعقد المهادنة مع بني مرين ، وقفل الى مراكش فتقبّض على أبي محمد بن وانودين ، واعتقله بأزمور . واعتقل معه يحيى بن مزاحم ويحيى بن عطّوش لنظر ابن ماكسن ، فاعمل الحيلة في الفرار من معتقله . وخلص ليلًا الى كانون[2] بن جرمون فاركبه وبعث معه من عرب سفيان من اوصله الى قومه هنتاتة . وراسله السعيد على اثرها وسكّنه واعتذر له ، واسعفه بسكنى تافيُوت من حُصون جبله باهله وولده .

ثم انتقض على السعيد كانون بن جرمون وسفيان ، وخالفهم اليه بنو جابر والخلط ، وخرج من مراكش واستوزر السيّد

---

(١) جمع حوز، والحوز: الموضع إذا أقيم حواليه سد أو حاجز. وحوز لدار: ما انضم من المرافق والمنافع.
(٢) كذا، وقد وردت: كنون.

أبا اسحاق بن السيّد ابي ابراهيم اسحاق أخي المنصور. واستخلف أخاه أبا زيد على مراكش، واخاهما أبا حفص عُمر على سلا وفصل من مراكش سنة [1]. وجمع له ابو يحيى بن عبد الحق جموع بني راشد وبني ورا وسفيان، حتى اذا تراءى الفريقان للّقاء خالف كانون ابن جرمون الموحدين الى ازمور. واستولى عليها ورجع السعيد ادراجه في اتباعه، ففرّ كانون، واعترضه السعيد فأوقع به، واستلحم كثيراً من سفيان قومه، واستولى على ما له من مال وماشية. ولحق كانون في فلّه ببني مَرين ورجع السعيد الى الحضرة. وفي سنة ثلاث واربعين ثارت العامّة بمكناسة على واليها من قبل السعيد فقتلوه. وحذر مشيختها من سطوته فحولوا الدعوة الى الامير أبي زكريّا بن أبي حفص صاحب افريقية، وبعثوا اليه ببيْعتهم، وكانت من إنشاء أبي المطرف بن عميرة، وذلك بمداخلة أبي يحيى بن عبد الحق امير بني مرين ووفاقه لهم على ذلك. وشارطوا أبا يحَيى بن عبد الحق بمال دفعوه اليه على الحماية.

ثم راجعوا رأيهم وأوفدوا صلحاءهم ببيْعتهم فرضي عنهم السعيد ورضوا عنه. وفي هذه السنة بعث اهل اشبيلَية وأهل سبتة بطاعتهم للأمير أبي زكريا صاحب افريقيَة. وبعث ابن

(١) بياض بالأصل في جميع النسخ، ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على هذه السنة.

خلاص بهديّته مع ابنه في اسطول انشأه لذلك فغرق عند اقلاعه من المرسى . وفي سنة ست وأربعين كان استيلاء الطاغيَة على اشبيلبَة لسبع وعشرين من رمضان . ولمّا بلغ السعيد بيعة اهل اشبيليَه وسبْتة للأمير ابي زكريّا الى ما كان من تغلُّبه على تلمسان ، وأخذ يُغمُراسن بدعوته ، ثم ما كان من بيْعة أهل مكناسة وأهل سجلماسة له أعمل نظره في الحركة الى تلمسان ثم الى افريقيَة . وخرج من مراكش في ذي الحجة من سنة خمس وأربعين ، ووافاه كانون بن جرمون فعاود الطاعة واستحشد سفيَان وجاء في جملة السعيد مع سائر القبائل من جشم . ولمّا احتل السعيد بتازى وافاه وفد بني مَرين عن أميرهم أبي يحيى ابن عبد الحق ، فأعطوه الطاعة وبعثوا معه عسكراً من قومهم مدداً له .

ثم سار السعيد الى تلمسان فكان مهلكه بتامْزَرْدَكت على يد بني عبد الواد في صفر سنة ست واربعين حسبما نشرح في اخبارهم . ويقال ان ذلك كان بمداخلة من الخلط فاستولوا على المحلة وقتلوا عدوهم كانون ، وانفضّ العسكر الى المغرب وقد اجتمعوا الى عبد الله ابن السعيد ، واعترضهم بنو مرين بجهات تازى ، فقتلوا عبد الله بن السعيد ولحق الفلّ بمراكش فبايعوا للمرتضى كما نذكره .

الخبر عن دولة المرتضى ابن أخي المنصور

لمّا لحق فلّ العسكر بعد مهلك السعيد بمراكش اجتمع الموحدون على بيعة السيّد أبي حفص عُمر بن السيد أبي ابراهيم اسحاق أخي المنصور ، واستقدموه لها من سلا فلقيه وافدهم بتامستا من طريقه ومعه اشياخ العرب فبايعوه وتلقب المرتضى. وعقد ليعقوب بن كانون على بني جابر ولعمه يعقوب بن جرمون على عرب سفيان بعد ان كان قومه قدّموه عليهم ، ودخل الحضرة فاستوزر أبا محمد بن يونس وتقبض على حاشية السعيد. ثم وصل اخوه السيد ابو اسحاق من الفل اخذاً على طريق سجلماسة فاستوزره واستبد عليه. واستولى ابو يحيى بن عبد الحق وبنو مَرين اثر مهلك السعيد على رباط تازى من يد السيد أبي علي أخي أبي دبّوس وأخرجوه فلحق بمراكش. ثم استولوا بعدها على مدينة فاس سنة سبع واربعين كما نذكره في اخبارهم بعد.

وفي هذه السنة ثار بسبتة ابو القاسم العزفي واخرج ابن الشهيد الوالي على سبتة من قرابة الأمير أبي زكريا صاحب افريقية وحول الدعوة للمرتضى حسبما نذكر في اخبار الدولة الحفصية واخبار بني الغزي [1] وفي سنة تسع واربعين وفد على المرتضى موسى بن زيّان الونكاسي واخوه علي من قبائل بني مَرين

(١) كذا، وفي ب: العزفي.

وأغروه بقتال بني عبد الحق فخرج اليهم . ولمَّا انتهى الى أمان يلّولن اشاع يعقوب بن جرمون قضيَّة الصلح بينهما فأصبحوا راحلين ، وقد استولى الجزع على قلوبهم فانفضُّوا ووقعت الهزيمة من غير قتال . ووصل المرتضى الى الحضرة فعزل أبا محمد بن يونس عن الوزارة لشيء بلغه عنه ، واسكنه بجبله مع حاشيته وفرّ من جملته عليّ بن يدر الى السوس سنة احدى وخمسين ، وجاهر بالعناد . وسرّح اليه السلطان عسكراً من الجند فرجعوا عنه ولم يظفروا به . وتفاقم أمره سنة اثنتين وخمسين . وجمع اعراب الشبانات وبني حسّان وحمل أموال ونازل تارودنت فحاصر من كان بها . وسرح المرتضى اليه عسكراً من الموحّدين فأفرج عنها . ثم رجع بعد قفولهم الى حاله ، وعثر على خطابه لقريبة ابن يونس وكتاب ابن يونس اليه بخطه ، فاعتقل هو وأولاده ثم قتل .

وفي هذه السنة استدعى مشيخة الخلط الى الحضرة وقتلوا لما كان منهم في مهلك السعيد . وفيها خرج ابو الحسن بن يعلو في عسكر من الموحدين الى تامستا ليكشف احوال العرب ، ومعه يعقوب بن جرمون ، وعهد اليه المرتضى بالقبض على يعقوب بن محمد بن قيطون شيخ بني جابر ، فتقبّض عليه وعلى وزيره ابن مسلم وطيّر بهما الى الحضرة معتقلين .

وفي سنة ثلاث وخمسين خرج المرتضى من مراكش لاسترجاع

فاس ونواحيها من ايدي بني مرين المتغلبين عليها فوصل الى بني بهلول ، وزحف اليه بنو مرين واميرهم ابو يحيى فكانت الهزيمة على الموحدين بذلك الموضع. ورجع المرتضى مفلولاً الى مراكش ، ووادع بنى مرين من بعد ذلك سائر أيامه. واستبد العزفي بسبتة ، وابن الامير بطنجة كما نذكره في اخبارهم.

وفي سنة خمس وخمسين بعث المرتضى الى السوس عسكراً من الموحدين لنظر ابي محمد بن أصناك فلقيهم علي بن يدر وهزمهم واستبد بامره في السوس. وفي هذه السنة استولى أبو يحيى بن عبد الحق على سجلماسة ، وتقبض على واليها عبد الحق ابن اصكو بمداخلة من خديم له يعرف بمحمد القطراني ، كان ابوه تاجراً في القطران بنواحي سلا ، فصرف عبد الحق ابنه محمد هذا في مهمة وقربه من بين اهل خدمته ، وحدثته نفسه بالثورة فاستمال عرب المعقل أولاً بالمشاركة في حاجتهم عند مخدومه ، والاحسان اليهم حتى اشتملوا عليه.

ثم داخل أبا يحيى بن عبد الحق في تمكينه من البلد فجاء بجملته ، وقدم وفده الى البلد رسلاً في بعض الحديث فتقبض محمد القطراني على عبد الحق بن اصكو واخرجه الى ابي يحيى ابن عبد الحق ، فقاده وسرحه الى مراكش. وكان القطراني شرط على ابي يحيى ان يكون والي سجلماسة فأمضى له شرطه ، وانزل معه بها من رجالات بني مرين ، حتى اذا هلك ابو يحيى

ابن عبد الحق اخرجهم محمد القطراني واستبدّ بامر سجلماسة ، وراجع دعوة المرتضى واعتذر اليه ، واشترط عليه الاستبداد فأمضى له شرطه إلّا في الاحكام الشرعيّة .

وبعث اباعمر بن حَجّاج قاضياً من الحضرة ، وبعض السادات للسكنى في القصبة ، وقائداً من النصارى بعسكر للحماية ، فعمل ابن حجاج الحيلة في قتل القطراني وتولّاه قائد النصارى .

واستبد السيّد بامر سجلماسة بدعوة المرتضى ، واستفحل امر بني مرين اثناء ذلك . ونزل يعقوب بن عبد الحق بسائط تامستا فسرّح اليهم المرتضى بعسكر الموحدين لنظر يحيى بن وانودين فاجفلوا الى وادي أمّ ربيع ، واتبعهم الموحّدون فرجعوا اليهم ، وغدر بهم بنو جابر فانهزم الموحّدون بامّ الرجلين . ولحق شيخ الخلط عليّ بن أبي عليّ ببني مَرين وارتحلوا الى أوطانهم .

وكان المرتضى قدّم يعقوب بن جرمون على قبائل سفيان وكان يعقوب ابن اخيه كانون يناهضه في رياسة قومه ، وغص به فقتله . وثار به اخواه مسعود ، وعليّ بعد حين فقتلاه .

وولّى المرتضى مكانه ابنه عبد الرحمن ، فاستوزر يوسف بن وارزك ويعقوب بن علوان . وشغل بلذّاته وتصدى لقطع السابلة ثم نكث الطاعة ولحق ببني مرين فولّى مكانه عمه عبيد الله ابن جرمون ويكنّى بأبي زمّام . وعقد له المرتضى ، ثم ادال

منه باخيه مسعود لعجزه . ووفد على المرتضى عواج بن هلال من امراء الخلط نازعاً الى طاعته ومفارقاً لبني مرين ، فانزل مع اصحابه بمراكش وجاء على اثره عبد الرحمن بن يعقوب بن جرمون فتقبّض على عواج ودفعه الى عليّ بن أبي عليّ فقتله ، وكان تقبّض معه على عبد الرحمن بن يعقوب ووزيريه فقتلوا جميعاً واستبدّ برياسة سفيان مسعود بن كانون وبرئاسة بني جابر اسماعيل ابن يعقوب ابن قيطون .

وفي سنة ستين عند رجوع يحيى بن وانودين من واقعة ام الرجلين خرج عسكر من الموحدين الى السوس لنظر محمد بن علي ازلماط [1] . ولقيه عليّ بن يدر فهزم جموعه وقتله ، وعقد المرتضى من بعده على حرب عليّ بن يدر للوزير أبي زيد بن بكيت ، وسرّح معه عسكراً من الجند ، وكان فيهم ذُنْلب من زعماء النصرانية ، فدارت الحرب بين الفريقين ، ولم يكن للموحدين فيها ظهور على كثرتهم وقوة جلدهم وحسن بلائهم ، قعد بهم عن ذلك تكاسل ذُنْلب وخروجه عن طاعة الوزير . وكتب بذلك للمرتضى فاستقدمه ، وأمر ابا زيد بن يحيى الكدميوي باعتراضه في طريقه وقتله . وفي سنة اثنتين وستين اقبل يعقوب بن عبد الحق في جموع بني مَرين فنازلوا مراكش واتصلت الحرب بينهم وبين الموّحدين بظاهرها اياماً هلك فيها عبد الله العجوب

(١) كذا، وفي ب: علي الزلماط.

ابن يعقوب ، فبعث المرتضى الى ابيه بالتعزية ولاطفه وضرب له اتاوة يبعث بها اليه في كل عام فرضي وارتحل عنهم .

الخبر عن انتقاض أبي دبوس وتغلبه على مراكش ومهلك المرتضى وما كان في دولته من الأحداث

لما ارتحل بنو مرين عن مراكش بعد مهلك انعجوب فر من الحضرة قائد حروبه السيد ابو العلى الملقب بأبي دبوس بن السيد أبي عبد الله محمد ابن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن لسعاية تمكنت فيه عند المرتضى ، وصحبه ابن عمه السيد ابو موسى عمران بن عبد الله بن الخليفة ، فلحقا بمسعود بن كلداسن كبير هسكورة فاجاره . ثم لحق بيعقوب بن عبد الحق بفاس صريخاً به على شانه واشترط له المقاسمة في العمالة والذخيرة فامده بالمال ، يقال خمسة الاف دينار عشرية . واوعز إلى علي بن أبي علي الخلطي بمظاهرته واعطاه الالة . ورجع الى علي بن أبي عليّ الخلطي فامدّ بقومه . ثم سار الى هسكورة ونزل على صاحبه مسعود ابن كلداسن فاطاعه قبائل هسكورة وهزرجة

وبعث اليه عزوز بن يبورك كبير صنهاجة في ناحية ازمور ، وكان منحرفاً عن طاعة المرتضى الى جملة يعقوب بن عبد الحق ، ووفد عليه جماعة من السادة والموحدين والجند والنصارى .

وارتاب المرتضى بمسعود بن كانون شيخ سفيان وباسماعيل بن قيطون شيخ بني جابر فتقبّض عليهما واعتقلهما، وصار الكثير من قومهما الى أبي دبوس. وقتل اسماعيل بن قيطون في معتقله فانتقض اخوه ثائراً ولحق بهم، وحذر علوش بن كانون مثلها على اخيه فاتبعهم، وزحف ابو العلى الى مراكش. ولما بلغ اغمات وجد بها الوزير ابا زيد بن بكيت في عسكر لحمايتها فناجزه الحرب فانهزم ابن بكيت وقتل عامة اصحابه. وسار ابو دبوس الى مراكش، وأغار علوش بن كانون على باب الشريعة والناس في صلاة الجمعة، وركز رمحه بمصراعه.

ودخلت سنة خمس وستين والمرتضى بمراكش غافل عن شأن أبي دبوس، والاسوار خالية من الحراس والحامية، فقصد ابو دبوس باب أغمات فتسوّر البلد من هنالك، ودخلها على حين غفلة. وقصد القصبة فدخلها من باب الطبول وفرّ المرتضي ومعه الوزيران أبو زيد بن يعلو الكومي وابو موسى بن عزوز الهنتاتي، فلحقوا بهنتاتة والفوهم قد بعثوا بطاعتهم فرحل الى كدميوة ومرّ في طريقه بعليّ بن زكداز الونكاسي، كان نزع اليه عن قومه ولم يفد عليه بعد، فنزل به المرتضى ورحل معه عليّ بمن معه الى كدميوة، وكان فيها وزيره ابو زيد عبد الرحمن بن عبد الكريم، فاراد النزول عليه فمنعه ابن سعد الله، فسار الى شفشاوة، ووجد بها عدداً من الظهر فمنحها علي بن زكداز. وكتب

الى ابن وانودين بعسكره من حاحة . والى ابن عصْوش[1] بعسكره من ركراكه باللحاق به فاقلعا الى الحضرة

وخاطب ابو دبوس علي بن زكداز يرغّبه في القدوم عليه ، فارتاب المرتضى لذلك ولحق بازمور فتقبض عليها واليها ابن عطوش . وكان اصهره[2] واعتقله وطير الخبر الى أبي دبوس ، فامر وزيره السيد ابا موسى ان يكاتبه في كشف اماكن الذخيرة ، فاجابه بانكار ان يكون ذخر شيئاً عندهم ، والحلف على ذلك . وسألهم بالرَّحِم فعطف ابو دبوس عليه ، وجنح الى الابقاء . وبعث وزيره السيد ابا مسعود بن كانون في ازعاجه اليه

ثم بدا له في استحيائه باشارة بعض السادات ، فكتب خطه الى السيد أبي موسى بقتله ، واستقل ابو دبوس بالامر وتلقب الواثق بالله والمعتمد على الله . واستوزر السيد موسى واخاه السيد ابا زيد وبذل العطاء ونظر في الولايات ورفع المكوس عن الرعيّة وحدث بينه وبين مسعود بن كلداسن وحشة فارتحل اليه لازالتها . وقدم عبد العزيز بن عطوش سفيرا اليه في ذلك . وبلغه ان يعقوب بن عبد الحق نزل تامستا فاوفد عليه حميدي بن مخلوف الهسكوري بهديّة فقبلها ، وأكّد بينهما العهد وانكفأ راجعاً الى وطنه . ورجع

(١) كذا ، وفي ب : عطوش .
(٢) كذا ، وفي ب : وكذا صهره .

حميدي الى الواثق ، ووافق وصول عبد العزيز بن عطوش بطاعة مسعود بن كلداسن ، فرجع ابو دبوس الى مراكش بعد ان عقد لأبي موسى بن عزوز على بلاد حاحة . وبلغه في طريقه عن عبد العزيز بن السعيد انه حدّث نفسه بالملك ، وان ابن بكيت وابن كلداسن داخلوه في ذلك . وساءل عن ذلك السيد أبا زيد ابن السيّد أبي عِمْران خليفته ، واخبره بما سمع ، وأمره بالقبض عليه وقتله ، فأنفذ ذلك ،

ثم ارتحل الى السوس لتمهيده ، وحسم علل ابن يدر فيه . وقدم يحيى بن وانودين لاستنفار قبائل السوس من كزولة ولمطة وكنفيسة وصناكة وغيرهم وسار يتقرى المنازل ويستنفر القبائل ، ومرّ بتارودنت فوجدها قفراً خلاءً الا قلائل من الدور بخارجها . ونزل على حميدي صهر علي بن يدر وقريبه بحصن تيسخت على وادي السوس ، كان لصنهاجة فغلبهم عليه ابن يدر وملكه فنازله ابو دبوس وحاصره أياماً ، وهزم فيها جموعه وداخل حميدي علي بن زكداز في افراج ابي دبوس على سبعين الف دينار يؤدّيها اليه ، فأعجله الفتح عن ذلك ونجا بدمائه الى بيته . وطولب بالمال ، وبقي معتقلاً عند ابن زكداز ، وامتنع ابن يدر بحصنه . ثم اطاع ووصلت رسله بطاعته ، فانصرف الواثق الى حضرته ودخلها سنة خمس وستين . وبلغه

الخبر بانتقاض يعقوب بن عبد الحق وانه زاحف الى [1] فبعث بهديّته الى تلمسان صحبة أبي الحسن بن قطرال وابن أبي عثمان رسول يغمراسن ، وخرج بهم من مراكش ابن أبي مديون السكاسني [2] دليلًا . وسلك بهم على القفر الى سجلماسة ، وبها يحيى بن يُغْمُراسِن ، فبعثهم مع بعض المعقل الى ابيه فألفوه بجهة مليانة ، فأقام ابن قطرال بتلمسان ينتظره . وكان يعقوب ابن عبد الحقّ لما بلغه ذلك نهض الى مراكش بجيوش بني مَرين وعسكر المغرب ، ونزل بضواحي مراكش واطاعه اهل النواحي ونهض اليه ابو دبوس في عساكر الموحدين فاستَجَرّه يعقوب الى وادي اغفو ، ثم ناجزه الحرب فاختلّ مصافه وفرّ عسكره . وانهزم يريد مراكش ، والقوم في اتباعه فأُدرِكَ وقتل . وبادر يعقوب بن عبد الحق فدخل مراكش في المحرّم فاتح سنة ثمان وستين وفرّ بقية المشيخة من الموحدين الى معاقلهم بعد ان كانوا بايعوا عبد الواحد بن ابي دبوس ، وسمّوه المعتصم مدة خمسة أيام وخرج في جملتهم ، وانقرض أمر بني عبد المؤمن والبقاء لله وحده .

---

(١) كذا بياض بالأصل في جميع النسخ ولم نعثر في المراجع التي لدينا على اسم البلد التي زحف إليها.

(٢) كذا، وفي ب: المساكني، وفي نسخة: الونكاسي.

الخبر عن هسكورة

واما هسكورة وهم أكثر قبائل المصامدة ، وفيهم بطون كثيرة أوسعها بطن هسكورة . وأمّا سواهم من بطون كنفيسة فأنفقتهم الدولة بما تولوا من مشايعتها وابرام عقدتها ، فهلك رجالاتهم في انفاقها سبل الامم قبلهم في دولهم . وأمّا هسكورة فكان لهم بين الموحدين مكان واعتزاز بكثرتهم وغلبهم إلّا أنهم كانوا أهل بدو ولم يخالطوهم في ترفهم ولا انعموا في نعيمهم . وكان جبلهم الذي أوطنوه من حاله دون القنة منها والذروة . واعتصموا منه بالآفاق الفدد واليفاع الاشم والطود الشاهق ، قد لمس الافلاك بيده ونظم النجوم في مفرقه وتلفع بالسحاب في مروطه ، وآوى الرياح العواصف الدجوة وألقى الى خبر السماء باذنه ، وأظل على البحر الأخضر بشماريخه ، واستدبر القفر من بلاد السوس بظهره ، وأقام سائر جبال درن في حجره .

ولما انقرض أمر الموحدين وتغلّب بنو مَرين على المصامدة أجمع ، وساموهم خطة الخسف في وضع الضرائب ، والمغارم عليهم فاستكانوا لعزهم وأعطوهم يد الطواعية ، واعتصم هسكورة هؤلاء بمعقلهم واعتزوا فيه بمنعتهم ؛ فلم يغمسوا في خدمتهم يداً ولا أعطوهم مقاداً ولا رفعوا بدعوتهم راية انما هي منابذة

لامرهم وامتناع عليهم سائر الايام. فاذا زحفت الحشود وتمرّست بهم العساكر دافعوهم بطاعة معروفة واتاوة غير ملتزمة ورئيسهم مع ذلك يستخلص جبايتهم لنفسه ويدفعهم في المضايق لحمايته، وربما تخطاهم الى بعض قبائل الجبل ومن قاربه من أهل بسائط السوس يعسكر بذلك للرجل من قومه هكسورة وكنفيسة، وبالحشد من العرب الموطنين بأرض السوس.

وسفيان وهم بطن الحارث ومن المعقل وهم بطن الشبانات، وكان رئيسهم في ما ذكرنا ـ بعد انقراض عبد المؤمن بن يوسف، وتحرير لسان الاعجمين ـ هو عبد الواحد، وكان له في الاستبداد والصرامة ذكر. وهلك سنة ثمانين وستمائة، وكان منتحلًا للعلم واعية له جمّاعة لكتبه ودواوينه حافظاً لفروع الفقه. يقال ان الاحاديث المدونة كانت من محفوظاته، محباً في الفلسفة مطالعاً لكتبها حريصاً على نتائجها من علم الكيمياء والسيمياء والسحر والشعوذة، مطلعاً على الشرائع القديمة والكتب المنزلة بكتب التوراة. ويجالس أحبار اليهود حتى لقد اتهم في عقيدته ورمي بالرغبة عن دينه. ثم ولي من بعده ابنه عبد الله، وكان مقتفياً سنن أبيه في ذلك، وخصوصاً في انتحال السحر والاستشراف الى صنعة الكيمياء. ولما فرغ السلطان أبو حسن من شأن أخيه عمر، وسكن فتنة المغرب، ودوخ أقطاره وحل معتصمه بالعساكر وأوطأ ساحاته لكتائب رجاله دون من يده

من اعراب السوس من ورائه ، بما كان من تلغبه على بلادهم واقتضائه بطاعتهم وازال عماله بالعساكر بينهم ، فلاذ منه عبد الله السكسيوي بطاعة معروفة ، رهن فيها ابنه ، واشترط للسلطان الهدية والضيافة فتقبل منه ، ومنحه جانب الرضى

ولما كانت نكبة السلطان بالقيروان ، واضطراب المغرب فتنة وخلا جو البلاد المراكشية من المشايخ اجتمع رأي الملأ من المصامدة على النزول الى مراكش ، واحكموا عقد الاتفاق بينهم واجمعوا تخريبها بما كانت داراً للامرة ولمقام الكتائب المجمرة ، وزعم عبد الله السكسيوي هذا بانفاذ ذلك فيها ، وضمن هو تخريب المساجد لتجافيهم عنها فكانت مذكورة على الايام . ثم انحل عزمهم وافترقت جماعتهم وكلمتهم بما كانت من استقامة الدولة بفاس واجتماع بني مرين على السلطان أبي عنان كما يذكر بعد فانحجر كل منهم بوجاره .

ولما فرغ أبو عنان من شأن أبيه ، واستولى على المغرب الأوسط وغلب عليه بنو عبد الواد . ولحق أخوه أبو الفضل بن مطرح اغترابه في الاندلس بالطاعة يروم الاجازة الى المغرب لطلب حقه ، فأركبه السفير الى مراحل السوس فنزل به ، ولحق بعبد الله السكسيوي فأواه وظاهره على امره . فجرد أبو عنان العزائم اليهم وعقد لوزيره فارس بن ميمون بن وادرار على حربهم . واستخرج جيوش المغرب وأناخ

بساحته سنة أربع وخمسين واختط بسفح الجبل مدينة لحصاره سماها القاهرة . وأخذت بمخنقه وزاحت بمناكبها اركان معقله حتى لاذت للسلم ، واشترط ان ينبذ العهد الى أبي الفضل المصري عنده يذهب حيث يشاء فتقبل منه ، وعقد له سلما على عادته وأفرج عنه . وخرج على عبد الله السكسيوي لايام السلطان أبي سالم ابنه محمد المعروف في لغتهم ايزم ومعناه الاسد ، فغلبه على أمره ولحق عبد الله بعامر بن الهنتاتي كبير المصامدة لعهده وعامل السلطان عليهم ، فاستجاش به ووعده عامر النصرة وأمهله عاماً ونصه حتى وفد على السلطان ، واستوهب في ذلك .

ثم أجمع على نصره من عدوه فجمع له الناس وخاطب أهل ولايته أن يكون معه يداً . وزحف عبد الله حتى نزل بالقاهرة ، وأخذ بمخنق أبيه وأشياعه . ثم داخله بعض بطانته ودلّه على بعض العورات اقتحم منها الجبل وثاروا بابنه ايزم فصاح به عبد الله وقومه . وفرّ محمد أمامهم فادرك بتلاسف من نواحي الجبل وقتل واسترجع عبد الله ملكه ، واستقلت قدمه الى أن مكر به ابن عمه يحيى بن سليمان حين بلغ استبداد الوزير عمر بن عبد الله على سلطان المغرب واستبداد عامر بن محمد بولاية مراكش وثأر منه يحيى هذا بأبيه سليمان وهو عم عبد الله ، وكان قتله أيام امارته الاولى . وأقام مملكا على سكسيوة الى سني خمس وسبعين فثار عليه أبو بكر بن عمر بن خرو فقتله بأخيه عبد الله ، واستقل

بأمر سكسيوة ومن اليهم . ثم خرج عليهم لاعوام من استقلاله ابن عم له من أهل بيته لم ينقل لي من تعريفه إلّا أن اسمه عبد الرحمن ، لان ثورته كانت بعد رحلتي الثانية من المغرب سنة ست وسبعين ، فأخبرني الثقة بأمره وانه ظفر بأبي بكر بن عمر وقتله . واستبد بأمر الجبل الى هذا العهد فيما زعم وهو سنة تسع وسبعين . ثم بلغني سنة ثمان وثمانين أن عبد الرحمن هذا ويعرف بأبي زيد بن مخلوف بن عمر آجليد قتله يحيى بن عبد الله ابن عمر ، واستبد بأمر هذا الجبل وهو الآن مالكه ، وهو أخو أيزم بن عبد الله. والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين .

بقية قبائل المصامدة

وأما بقية قبائل المصامدة من سوى هؤلاء السبع مثل هيلانة وحاحة ودكالة وغيرهم ممن أوطن هضاب الجبل أو ساحته فهم امم لا تنحصر . ودكالة منهم في ساحة الجبل من جانب الجوف مما يلي مراكش الى البحر من جانب الغرب . وهنالك رباط آسفى المعروف ببني ماكر من بطونهم وبين الناس اختلاف في انتسابهم في المصامدة أو صنهاجة وتجاورهم من جانب الغرب في بسيط ينعطف ما بين ساحل البحر وجبل درن في بسيط هنالك يفضي الى السوس ، يعمره من حاحة هؤلاء خلق أكثرهم

في خُمُرِ الشعراء من الشجر المعروف بارجان ، يتحصنون بملتفِّها وأدواحها ، ويعتصرون الزيت لادامهم من ثمارها . وهو زيت شريف طيب اللون والرائحة والطعم يبعث منه العمال الى دار الملك في هداياهم فيطرفون به

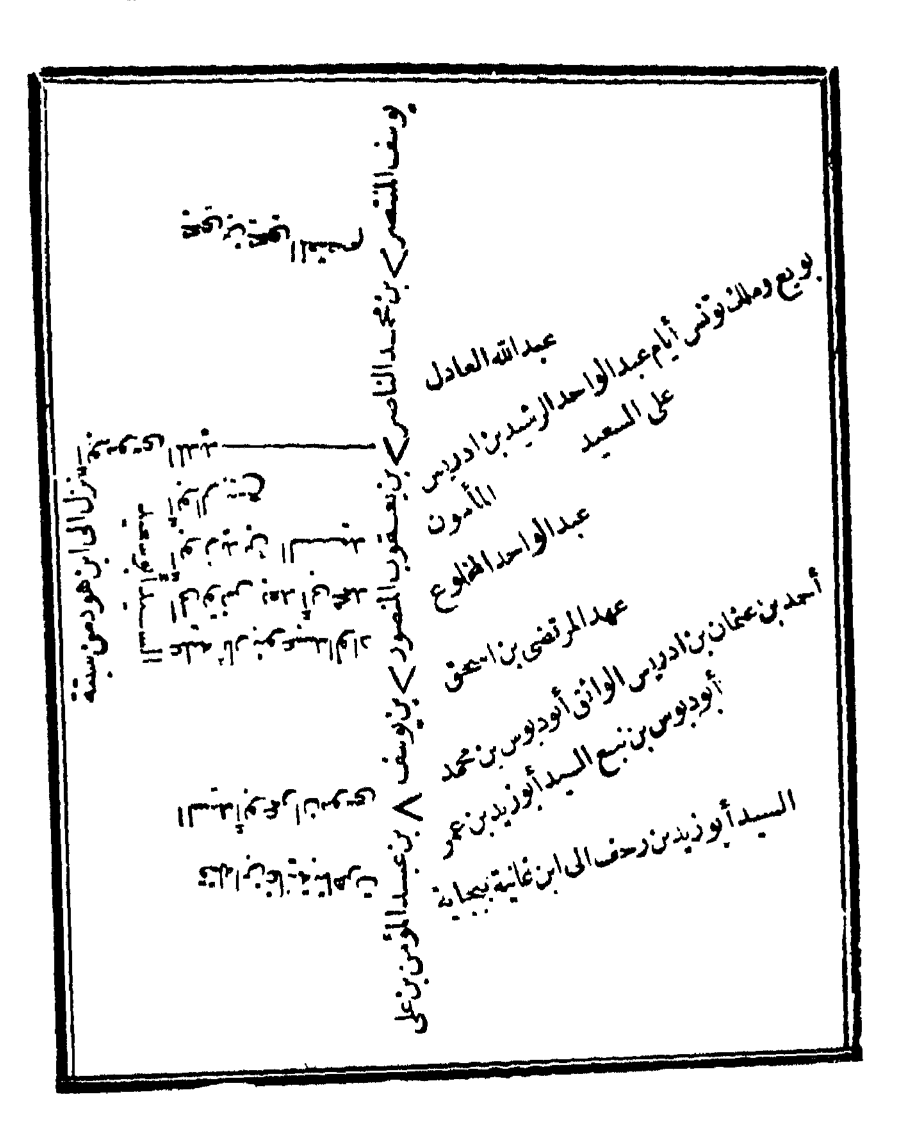
وبآخر مواطنهم مما يلي أرض السوس ، وفي القبلة عن جبل درن بلدة دنست وبها معظم هذه الشعراء ينزلها رؤساؤهم ، ورياستهم في بطن منهم يعرفون بمغراوة ، وكان شيخهم لعهد السلطان أبي عنان ابراهيم بن حسين بن حماد بن حسين ، وبعده ابنه محمد بن ابراهيم بن حسين ، وبعده ابن عمهم خالد بن عيسى بن حماد . واستمرت رياسته عليهم الى اعوام ست وسبعين وسبعمائة أيام استيلاء السلطان عبد الرحمن بن بطوسن على مراكش ، فقتله شيخ بني مرين علي بن عمر الورتاجي من بني ويغلان منهم وما أدري لمن صارت رياستهم من بعده وهم دكالة جميعاً اهل مغرم واسع وجباية موفورة فيما علمناه ، ولله الخلق والامر وهو خير الوارثين .

كان الواثق جهز لحرب أحد أمراء المصامدة ، فكان وزيره داخله في ذلك السيد أبا زيد ابن السيد أبي عمران خليفته وأخبره بما سمع ، وأمره بالقبض عليه وقتله فانفذ ذلك . ثم ارتحل الى السوس لتمهيده ، وحسم هلال بن يدّر فيه عِلَله ، وقدم يحيى بن وانودين لاستنفار قبائل السوس من كزولة ولمطة وصناكة

وغيرهم، وسار يتعدى المنازل ويستنفر القبائل وهو بتارودنت فوجدها قفراً خلاء إلّا قليلًا من الدور بخارجها. ونزل على حميدين صهر علي بن يدر وقريبه بحصن تيسخت على وادي السوس، كان لصنهاجة فغلبهم عليه ابن يدر وملكه فنازله أبو دبّوس وحاصره أياماً وهزم فيها جموعه.

وداخل محمد بن علي بن زكدان في افراج أبي دبوس على سبعين ألف دينار يؤدّيها اليه، فأعجله الفتح من ذلك ونجا بذمائه الى بيته، وطولب بالمال وبقي معتقلًا عند ابن زكدان، وامتنع علي ابن يدر بحصنه، ثم أطاع ووصلت رسله بطاعته فانصرف الواثق الى حضرته ودخلها سنة خمس وستين، وبلغه الخبر بانتقاض يعقوب بن عبد الحق وأنهى اليه فبعث بترتيبه الى تلمسان صحبة أبي الحسن بن قطران وابن أبي عثمان رسول يغمراسن. خرج اليهم من مراكش ابن أبي مديون الونكاسي دليلًا وسلك بهم على الثغر الى سجلماسة، وبها يحيى ابن يغمراسن فبعثهم مع بعض المعقل الى أبيه، وألفوه بجهة مليانة فأقام ابن قطران بتلمسان ينتظره. وكان يعقوب بن عبد الحق لما بلغه ذلك نهض الى مراكش بجيوش بني مرين ونزل بضواحي مراكش وأطاعه أهل النواحي ونهض اليه أبو دبوس بعساكر الموحدين فاستجرّه يعقوب الى وادي أعفر. ثم ناجزه الحرب فاختل مصافه وفرّ عسكره وانهزم يريد مراكش والقوم في اتباعه فأدرك

وقتــل . وبادر يعقوب بن عبد الحق فدخل مراكش في المحرّم فاتح سنه ثمان وستين وفرّ بقيــة المشيخــة من الموحدين الى معاقلهم بعــد ان كانوا بايعوا عبد الحق أحــد بني أبي دبوس



وسموه المعتصم مـدّة من خمسة أيام وخرج في جملتهم وانقرض مر بني عبد المؤمن والبقاء لله وحده اه .

الخبر عن بقايا قبائل الموحدين من المصامدة بجبال درن بعد انقراض دولتهم بمراكش وتصاريف أحوالهم لهذا العهد

لما دعى المهديُّ الى امره في قومه من المصامدة بجبال درن ، وكان اصل دعوته نفي التجسيم الذي اليه مذهب اهل المغرب باعتمادهم ترك التأويل في المتشابه من الشريعة ، وصرح بتكفير مَنْ أبى ذلك أخذاً بمذهب التكفير بالمثال . فسمى لذلك دعوته دعوة التوحيد ، واتباعه بالموحدين ، نعياً على الملثمين مثال مذاهبهم الى اعتقاد الجسمية ، وخص بالمزية من دخل في دعوته قبل تمكنها ، وجعل علامة تمكنها فتح مراكش ، فكان انما اختص بهذا اللقب اهل السابقة قبل ذلك الفتح وكان اهل تلك السابقة قبل فتح مراكش ثماني قبائل ، سبعة من المصامدة : هرغة وهم قبيلة الامام المهدي ، وهنتاتة ، وتينملل وهم الذين بايعوه مع هرغة على الاجارة والحماية ، وكنفيسة ، وهزرجة وكذميرة ووريكة

وثمانية قبائل الموحدين : كومية قبيلة عبدالمؤمن كبير صحابته ، دخلوا في دعوته قبل الفتح فكانت لهم المزية بسابقة عبد المؤمن

وسابقتهم فاختص هؤلاء القبائل بمزية هذه السابقة واسمها . وقاموا بالامر وحملوا سريره وانفقوا في مذاهبه وممالكه في سائر الاقطار على نسبة قربهم من صاحب الامر وبعدهم . وبقي من بقي منهم بجبالهم ومعاقلهم بقية حتوف . وجرت عليهم ذيل زناتة من بعد الملك اذيال الغلب والقهر حتى القوهم بالاتاوات وانتظموا فى عداد الغارمين من الرعايا ، وصاروا يولون عليهم من زناتة ومن رجالاتهم اخرى ، وفي ذلك عبرة وذكرى لاولي الالباب والملك لله يؤتيه من يشاء .

هرغة

فأما هرغة وهم قبيل الامام المهدي قد دثروا وتلاشوا وانتفقوا في القاصية من كل وجه ، لما كانوا اشد القوم بلاءً في القيام بالدعوة ، واصلاهم لنارها بقرابتهم من صاحبها وتعصبهم على امره . ولم يبق منهم إلّا أخلاط وأوشاب أمرهم الى غيرهم من رجالات المصامدة لا يملكون عليهم منه شيئاً .

تينملل

وكذا تينملل أخوانهم في التعصب على دعوة المهدي والاشتمال عليه والقيام بامره حتى تحيّز اليهم وبنى داره ومسجده

بينهم، فكان حظهم من الفناء بمقدار حظهم من الاستيلاء، وأبعدوا في ممالك الدولة وعمالاتها فانقرض رجالاتهم، وملك غيرهم من المصامدة امرهم عليهم، وقبر الامام بينهم لهذا العهد على حاله من التجلة والتعظيم وقراءة القرآن عليه احزاباً بالغدوّ والعشي، وتعاهده بالزيارة وقيام الحجاب دون الزائرين من الغرباء لتسهيل الاذن، واستشعار الابهة وتقديم الصدقات بين أيدي زيارته على الرسم المعروف في احتفال الدولة، وهم مصممون مع ذلك وكافة المصامدة ان الامر سيعود، وان الدولة ستظهر على اهل المشرق والمغرب وتملأ الارض كما وعدهم المهدي لا يشكّون في ذلك ولا يستريبون فيه.

هنتاتة

واما هنتاتة وهم تلو القبيلتين في الامر، وكل من بعدهم فانما جاء على اثرهم وتبعاً لهم، بما كانوا عليه من الكثرة والبأس ومكان شيخهم أبي حفص عمر بن يحيى من صحابة الامام والاعتزاز على المصامدة. وكانت لهم بافريقية دولة كما نذكره، فأنفقت الدولتان منهم عوالم في سبيل الاستظهار بهم، وبقي بموطنهم المعروف بهم من جبال درن، وهو الجبل المتاخم لمراكش على توسط من الاستبداد والخضوع. ولهم في قومهم مكان بامتناع معقلهم واطلاله على مراكش. ولمّا تغلّب بنو مرين على

المصامدة ، وقطعوا عنهم اسباب الدعوة كان لرؤسائهم أولاد يونس انحياش اليهم بما كانوا مسخوطين في آخر دولة بني عبد المؤمن ، فاختصوهم بالاثرة والمخالصة .

وكان علي بن محمد كبيرهم لعهد السلطان يوسف بن يعقوب ابن عبد الحق خالصة له من بين قومه . وهلك سنة سبع وسبعين [1] على يد ابن الملياني الكاتب بكتاب لبس فيه ، وانفذه عن السلطان لابنه امير مراكش بقتل رهط من مشيخة المصامدة في اعتقاله ، كان منهم : علي ابن محمد فقام السلطان لها في ركائبه ، وندم على ما فرط من امره في افلات ابن الملياني على ما نذكره من أمر هذه الواقعة في اخبار السلطان يوسف بن يعقوب . ولما ولي السلطان ابو سعيد وانقطع عن المصامدة ما كان لهم من اثر الملك والسلطان ، وانقادوا للدولة رجع بنو مرين الى التولية عليهم من رجالاتهم ، وتداولوا بينهم في ذلك واختار السلطان بعد صدر من دولته موسى بن علي بن محمد للولاية على المصامدة وجبايتهم ، فعقد له وانزله مراكش فاضطلع بهذه الولاية سنين رسخت فيها قدمه ، وأورثها أهل بيته ، وصار لهم بها في الدولة مكان انتظموا به في الولاية ، وترشحوا للوزارة .

ولما هلك موسى عقد السلطان من بعده لأخيه محمد ، وأجراه على سننه الى ان هلك فاستعمل السلطان بنيه في وجوه

(١) كذا وفي ب : سنة تسع وتسعين .

خدمته ، وعقد لعامر منهم على قومه . ولما ارتحل السلطان ابو الحسن الى افريقية صحبة عامر فيمن صحبه من امراء المصامدة وكافة الوجوه ، حتى اذا كانت نكبة القيروان سنة تسع واربعين وسبعماية عقد له على الشرطة بتونس على رسم الموحدين من تنويه الخطة وسعة الرزق . واستنام اليه فيها فكفاه مهمها . ولما فصل من تونس ركب الكثير من حرمه وحظاياه السفن لنظر عامر هذا ، حتى اذا غرق الاسطول بالسلطان أبي الحسن بما اصابهم من عاصف الريح رمى الموج بالسفينة التي كانوا بها الى المرية من ثغور الاندلس ، فانزل بها كرائم السلطان لنظره وبعث عنهن ابنه ابو عنان المستبدّ على ابيه بملك المغرب ، فامتنع من اسلامهنّ اليه وفاء بامانته في خدمتهم

وخلص السلطان ابو الحسن بعد النكبة البحرية الى الجزائر سنة خمسين ، وزحف الى بني عبد الواد ففلّوه ونهض الى المغرب ، وسلك لليه القفر حتى نزل بسجلماسة فقصده ابو عنان فخرج عنها الى مراكش وقام بدعوته المصامدة وعرب جشم ، فاحتشد ، ولقي ابنه ابا عنان بجهات أمّ ربيع فكانت الدبْرَةُ عليه ، ونجا الى جبل هنتاتة . وكان عبد العزيز ابن محمد شيخاً عليهم منذ مغيب عامر ، وكان في جملته ، وخلص معه فانزله عبد العزيز بداره ، وتدامر هو وقومه على اجارته والموت دونه فاعتصم بمعقلهم . وجاء السلطان ابو عنّان في كافة بني مرين الى

مراكش فخيم بظاهرها واحتشد لحصارهم اشهراً حتى هلك السلطان ابو الحسن كما نذكره بعد ، فحملوه على الاعواد ونزلوا على حكم أبي عنّان فكرّمهم ورعى لهم وسيلة هذا الوفاء ، وعقد لعبد العزيز على امارته ، واستقدم عامراً كبيره من مكانه بالمرية ، فقدم بمن لامانته[١] من حظايا السلطان وحرمه فلقاه السلطان مبرة وتكريماً ، واناله من اعتنائه حظاً

وتخلى له اخوه عبد العزيز عن الأمر فأقرّه نائباً . ثم عقد السلطان لعامر سنة اربع وخمسين على سائر المصامدة ، واستعمله لجبايتهم فقام بها مضطلعاً ، وكفاه مُهِمّ الاعمال المراكشية حتى عرف عناءه فيها وشكر له كفايته . وهلك السلطان ابو عنان ، واستبدّ على ابنه السعيد وزيره الحسن بن عمر الفودودي[٢] وكان ينفس عليه ما كان له من الترشيح للرتبة ، وبينهما في ذلك شحناء ، فخشي بادرته وخرج من مراكش الى معقله في جبل هنتاتة ، وحمل معه ابن السلطان أبي عنان الملقب بالمعتمد . وكان ابوه عقد له يافعاً قبيل وفاته على مراكش لنظر عامر فخلص به الى الجبل ، حتى اذا استوت قدم السلطان أبي سالم في الامر ، واستقلّ بملك المغرب سنة ستين . وفد عليه عامر بن محمد مع رسله اليه ، واوفد ابن اخيه محمد المعتمد فتقبّل السلطان وفادته ، وشكر

(١) كذا، وتصويب العبارة: فقدم بالذين كانوا لامانته .
(٢) كذا، وفي ب : المودودي .

وفاته ، واقام ببابه مدة . ثم عقد له على قومه ، ثم استنفره معه الى تلمسان ، ولم يزل مقيماً ببابه الى قبيل وفاته فانفذه لمكان امارته .

ولما هلك السلطان ابو سالم واستبد بالمغرب بعده عمر بن عبدالله بن عليّ على ما نذكره ، وكانت بينه وبين عامر بباب السلطان صداقة وملاطفة وصل يده بيده ، وأكّد العهد معه على سدِ تلك الفُرْجة ، وعوّل عليه في حوط البلاد المراكشيَّة وان لا يؤتى من قبله ، وكان زعيماً بذلك . وعقد له على الاعمال المراكشية وما اليها الى وادي ام ربيع . وفوّض اليه أمر تلك الناحية ، واقتسما المغرب شق الابلة [1] وخاص اليه الاعياص من ولد السلطان أبي سعيد أبو الفضل بن السلطان أبي سالم ، وعبدالمؤمن بن السلطان أبي علي ، فاعتقل عبد المؤمن وامكن أبا الفضل من امارته على ما نذكر بعد .

وساءت الحال بينه وبين عمر ونهض اليه من فاس بجموع بني مَرين وكافة العسكر ، واعتصم بجَبَله وقومه واستبد على الاميرين عنده . وحل عبْد المؤمن من معتقله يُحاجيء به بني مرين لما كانوا يؤملون من ولايته واستبداده لما اسفهم من حجر الوزراء لملوكهم . فلما رأوا استبداد عامر عليه أعرضوا عنه ، وانعقد السلم بينه وبين عمر بن عبدالله على ما كان عليه من مقاسمته اياه في

(١) كذا، وفي ب: الإبلة.

اعمال المغرب ، ورجع . واستقل عامر بناحية مراكش واعمالها ، حتى اذا هلك عمر بن عبدالله بيد عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن كما نذكره ، حدثت أبا الفضل بن السلطان أبي سالم نفسه بالفتك بعامر ابن محمد ، كما فتك عمه بعمر بن عبد الله . ونذر بذلك فاحتمل كرائمه وصعد الى داره بالجبل ، ففتك ابو الفضل بعبد المؤمن ابن عمه ، كان معتقلاً بمراكش . واستحكمت لذلك النفرة بينه وبين عامر بن محمد . وبعث الى السلطان عبد العزيز فنهض من فاس في جموعه سنة تسع وستين .

وفرّ ابو الفضل فلحق بتادِلا ، وتقبض عليه عمه السلطان عبد العزيز وقتله كما نذكر في اخباره . وطلب عامراً في الوفادة فخشيه على نفسه واعتصم بمعقله فرجع الى حضرته ، واستجمع عزائمه . وعقد على مراكش واعمالها لعلي بن أجّانا من صنائع دولتهم ، وأوعز اليه بمنازلة عامر فدافعه عامر وقومه عن معتصمه ، وأوقع به وتقبض على طائفة من بني مَرين وصنائع السلطان في المعركة أودعهم سجنه ، فحرّك بها عزائم السلطان ، ونهض اليه في قومه من بني مَرين وعساكر المغرب ، وأحاط به ونازله حولا كريتا [1] .

ثم تغلّب عليه سنة احدى وسبعين ، وانفضت جموعه .

(١) كذا بالأصل في النسخة التونسية، وبياض بالأصل في النسخة المصرية، طبعة بولاق. والأرجح : حولاً كاملاً.

وتقبض عليه عند اقتحام الجبل فسيق اسيراً الى السلطان فقيّده ، وقفل به الى الحضرة . ولمّا قضى نسك الفطر من سنته احضره ووبخه . ثم امر بـه فتلّ الى مصرعه ، وامتحن جلداً بالسياط وضرباً بالمقارع حتى فاض عفى الله عنه . وعقد السلطان عـلى قومه لفارس ابن اخيه عبـد العزيز ، كان نزع اليه بين يدي مهلك عمّه وعفا عن ابنه أبي يحيى بسابقته الى الطاعـة قبيل اقتحام الجبـل عليهم ، اشار عليه بذلك ابوه نظراً له فظفر من السلامة بحظ ، وأصاره السلطان في جملته .

ثم هلك بعد ذلك فارس بن عبد العزيز ، واضطرم المغرب فتنةً بعد مهلك السلطان عبد العزيز سنة اربع وسبعين . وصارت أعمال مراكش في ايالة السلطان عبد الرحمن بن علي الملقّب بابي يَفلُوسَن بن السلطان أبي علي . ونزع اليـه ابو يحيى بن عامر فعقد له على قومه . ثم اتهمه باحتجاز الاموال منذ عهد ابيه ، وشره الى استصفائه ، ونذر به ابن عامر فلحق ببعض قبائـل المصامدة جيرانهم باطراف السوس ، ونزل عليهم . وكان مهلكه فيهم اعوام ثمانين وسبعماية والله وارث الأرض ومن عليها .

كدميـوة

وأما كدميوةَ وكانوا تبعـاً لِهنْتاتَة وتَينَملّل في الأمر ، وجبلهم لصق جبل هنتاتة . وكان رؤساؤهم لعهد الموحّدين بنو

سعد الله . ولمَّا تغلب بنو مرين على المصامِدَة ، ووضعوا عليهم الضرائب ، امتنع يحيى بن سعد الله بعض الشيء بحصن تافرَكا وتَيْنَسْخْت من جبلهم ، وخالفه عبد الكريم بن عيسى وقومه الى طاعــة بني مرين ، واختلفت اليهم العساكر الى ان هلك يحيى ابن سعد الله سنة اربــع وتسعين وستماية ، وعساكر يوسف بن يعقوب مجمَّزة على حصاره ، فهدموا حصونه ، واذُلوا من قومه . واستخلص السلطان يوسف بن يعقوب عبــد الكريم بن عيسى منذ عهد ابيه فعقد له عليهم . ثم تقبض على امراء المصامدة ، واعتقله فيمن اعتقل منهم ، حتى اذا فعل ابن المليانى فعلته في استهلاكهم لعداوة عمه بتلبيس الكتاب على لسان السلطان لابنه على امير مراكش ، فقتل عبد الكريم فيمن قتل منهم ، وقتل معــه بنوه عيسى وعلي ومنصور ، وابن اخيه عبد العزيز بن محمد . وامتعض السلطان لذلك وافلت ابن المليانى من عسكره لحصار تِلِمسان فدخلها . ثم قام بامر كدميوة عبد الحق بن [1] من بيت بني سعد الله ايام السلطان أبي الحسن وابنه أبي عنَّان . وكانت بينه وبين عامر بن محمد فتنة جرَّها لصق العمالة ، شأن المجتورين من القبائل ، وقديم المداوة بين السلف . فلما استفحل امر عامر بالولاية على مراكش وسائر المصامدة ، نبذ الى عبد الحق العهد ونحله الخلاف والمداخلة للسكسيوي شيخ الفتنة المستعصي

(١) كذا بياض بالأصل، ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على اسم أبيه.

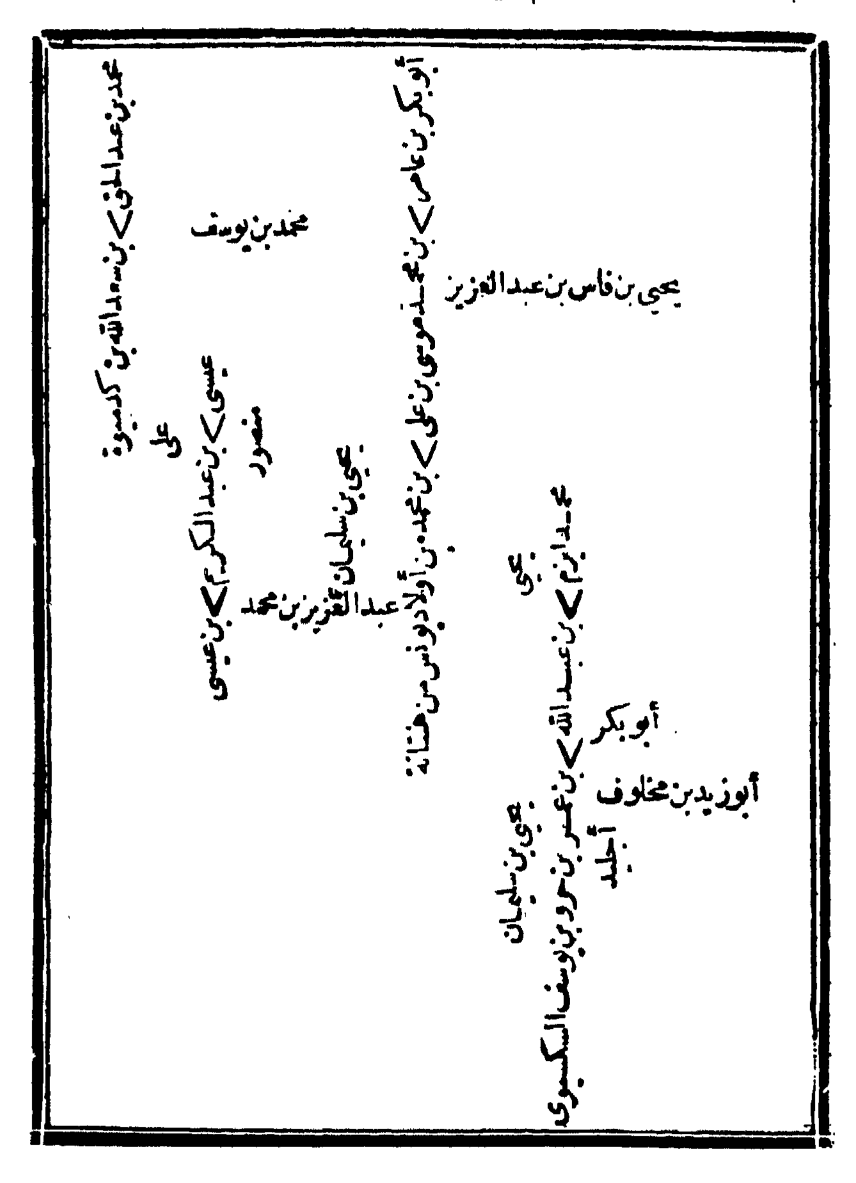
منذ اول الدولة ، فصمد اليه سنة سبع وخمسين وسبعماية في قومه ومسالح السلطان التي كانت بمراكش لنظره ، فافتتح عليه معقله عنوةً وقتله . واستولى على كدميوة ولحق بنو سعد الله بفاس ، فاقاموا بها ، حتى اذا خاض السلطان ابو سالم البحر الى ملكه بعد اخيه أبي عنان ونزل بغمارة ، نزع اليه يوسف بن سعد الله واعتقد منه ذمة بسابقته تلك . فلمّا استولى على البلد الجديد واستقل بسلطانه ، عقد له على قومه رعياً لوسيلته فاقام في ولايته مدة السلطان أبي سالم . وكان عامل مراكش محمد بن أبي العلي من حاشية السلطان ، وبيوت الولاة بالمغرب معولاً فيها على مظاهرته .

ولما هلك السلطان ابو سالم واستبد عمر بن عبدالله على الملوك بعده ، بادر لحين ثورته بالعقد لعامر على اعمال مراكش ليستظهر به ، وطيّر اليه الكتاب بذلك فنزل الى مراكش وقتل بها يوسف بن سعد الله ، ونكب بأبي العلي ثم قتله والحقه بأبيه عبدالحق . وذهبت الرئاسة من كدميوة برهة من الدهر ، ثم رجعت اليهم في بني سعدالله ، والله قادر على ما يشاء وبيده تصاريف الامور .

وريكة

واما وريكة فهم مجاورون لهنتاتة ، وبينهم فتنة قديمة وحرب متصلة ودماء مطلولة ، كانت بينهم سجالاً . وهلك فيها من

الفريقين أمم الى ان غلبهم هنتاتة باعتزازهم بالولاية ، فخضدوا منهم الشوكة واصاروهم في الجملة والله وارث الارض ومن عليها .



بنو يدّر أمراء السوس

الخبر عن بني يدَّر أمراء السوس من الموحدين بعد انقراض بني عبد المؤمن وتصاريف أحوالهم

كان ابو محمد بن يونس من علية وزراء الموحدين من هنتاتة، وكان المرتضى قد استوزره، ثم سخطه وعزله سنة خمسين وستماية والزمه داره بتامصلحت، وفر عنه قومه وحاشيته وقرابته. وكان من اهل قرابته علي بن يدّر من بني باداس ففر الى السوس وجاهر بالخلاف سنة احدى وخمسين، ونزل بحصن تانصاصت سفح الجبل حيث يدفع وادي السوس من درن، وشيّده وحصنه، وتغلّب على حصن تيسنخت من أيدي صنهاجة وشيده، وانزل فيه ابن عمه حمدين. ثم تغلب على بسيط السوس وجاجأ ببني حسّان من اعراب المعقل من مواطنهم من نواحي ملوية الى بلاد الريف، فارتحلوا اليه وعاث بهم في نواحي السوس، وأطاع له كثير من قبائله فاستوفى جبايتهم. واجلب على عامل الموحدين بتارودنت، وضيق عليه المسالك، وتفاقم امره. واتهم الوزير ابو محمد بن يونس بمداخلته، وعثر على كتابه الى علي بن يدّر فأمر المرتضى باعتقاله وقتله سنة اثنتين وخمسين. واغزى ابا محمد

ابن اصناك [١] الى بلاد السوس في عسكر الموحدين والجند ، وعقد له عليها فنزل تارودنت وتحصّن عليّ بن يدّر بتيونيوين ، وزحف اليه ابن اصناك في عسكره فهزمه ابن يدّر وقتل كثيراً منهم ، ورجع الى مراكش مفلولاً . واقام عليُّ بن يدّر على حاله من الخلاف ، واغزاه المرتضى محمد بن علي ازلماط في عسكر من الموحدين سنة ستين فهزمهم وقتل ابن ازلماط ، فعقد المرتضى من بعده على السوس لوزيره أبي زيد بن بكيت فزحف اليه ، ودارت الحرب بينهما ملياً ، وانقلب من غير ظفر . واستفحل امر ابن يدّر ببلاد السوس واستخدم الاعراب من بني الشبّانات وذوي حسّان . واطاعته القبائل من كزولة ولمطة وزكن ولخس من شعوب لمطة وصناكة . وجبى الاموال واستخدم الرجال يقال كان جنده الف فارس وكان بينه وبين كزولة فتن وحروب يستظهر في اكثرها بذوي حسّان .

ولمّا استولى ابو دبوس على مراكش سنة خمس وستين ، وفرغ من تمهيد ملكه بها اعتزم على الحركة الى السوس ورحل من مراكش ، وقدم بين يديه يحيى بن وانودين لاحتشاد القبائل ، ومرّ بالجبل ثم اسهل من تامسكروط الى بسيط السوس ، ونزل على بني باداس قبيلة ابن يدّر على فرسخين من تيونيوين . وقصد تيزخت ومر بتارودنت وعاين اثر الخراب الذي بها من عيث ابن

(١) كذا ، وفي ب : ابن أصال .

يدر ولما بلغ حصن تيزخت خيم بساحته وحشر أمماً من القبائل لحصاره ، وكان به حمدين ابن عم علي بن يدّر فحاصره اياماً . ولما اشتد عليه الحصار داخل عليّ بن زكداز من مشيخة بني مرين كان في جملة أبي دبوس فداخله في الطاعة ، وتقبل السلطان طاعته على النزول عن حصنه .

ثم اعجلته الحرب واقتحم عليهم الجبل ولجّوا الى الحصن ، وفر حمدين الى بيت علي بن زكداز فامره السلطان باعتقاله . واستولى السلطان على الحصن وانزل به بعض السادات لولايته . وارتحل ابو دبوس الى محاصرة علي ابن يدّر فحاصره اياماً ، ونصب عليه المجانيق . ولما اشتد عليه الحصار رغب في الاقالة ومعاودة الطاعة فتقبّل واقلع السلطان عن حصاره وقفل الى حضرته . ولما استولى بنو مرين على مراكش سنة ثمان وستين استبد علي بن يدّر بملك السوس ، واستولى على تارودنت وايفري وسائر امصاره وقواعده ومعاقله وارهف حده للاعراب فزحفوا اليه ، وكانت عليه الدّبَرَة وقتل سنة ثمان وستين ، وقام بامره علي ابن اخيه عبد الرحمن بن الحسن مدة . ثم هلك وقام بامرهم اخوه عليّ بن الحسن بن يدّر . ولما صار أبو علي بن السلطان أبي سعيد الى ملك سجلماسة بصلح عقده مع ابيه كما نذكر في أخبارهم ، فنزلها وشيد ملكه بها ، واستخدم كافة عرب المعقل فرغّبوه في ملك السوس واطمعوه في اموال ابن يدّر فغزاه من

سجلماسة . وفرّ ابن يدّر امامه الى جبال نكيسة . واستولى السلطان ابو علي على حِصْنه تانصاصت وسائر امصار السوس ، واستصفى ذخيرته وامواله ، ورجع الى سجلماسة .

ثم استولى السلطان ابو الحسن من بعد ذلك عليه وانقرض ملك بني يدّر . ولحق به عبد الرحمن بن عي بن الحسن ، وصار في جملته . وانزل السلطان بأرض السوس مسعود بن ابراهيم بن عيسى اليرنياني (1) من طبقة وزرائه ، وعقد له على تلك العمالة الى ان هلكْ . وعقد لاخيه حسون من بعده الى ان كانت نكبة القيروان . وهلك حسُّون وانفضّ العسكر من هنالك ، وتغلب عليه العرب من بني حسان والشبانات ، ووضعوا على قبائله الاتاوات والضرائب . ولما استبد ابو عنان بملك المغرب من بعد ابيه اغزى عساكره السوس لنظر وزيره فارس بن وردار سنة ست وخمسين فملكه ، واستخدم القبائل والعرب من اهله ، ورتّب المسالح بامصاره وقفل الى مكان وزارته فانفضت المسالح ولحقت به .

وبقي عمل السوس ضاحيا من ظل الملك لهذا العهد ، وهو وطن كبير في مثل عرض البلاد الجريدية وهوائها المتصلة من لدن البحر المحيط الى نيل مصر الهابط من وراء خط الاستواء في القبلة الى الاسكندرية . وهذا الوطن ، قبلة جبال درن ذو

(1) كذا، وفي ب: الرنياني، وفي نسخة: البريتاني.

عمائر وقرى ومزارع وفدن وامصار وجبال وحصون ، يخترقه وادي السوس ينصب من باطن الجبل الى ما بين كلاوة وسكسيوة ، ويدفع الى بسيطه ، ثم يمرّ مغرّباً الى ان ينصب في البحر المحيط والعمائر متصلة حفافي هذا الوادي ذات الفدن والمزارع واهلها يتخذون فيها قصب السكر . وعند مصبّ هذا الوادي من الجبل في البسيط مدينة تارودنت . وبين مصب هذا الوادي في البحر ومصب وادي ماسة مرحلتان الى ناحية الجنوب على ساحل البحر ، وهنالك رباط ماسة الشهير المعروف بتردد الاولياء وعبادتهم . وتزعم العامة ان خروج الفاطمي منه .

ومنه ايضاً الى زوايا أولاد بو نعمان مرحلتان في الجنوب كذلك على ساحل البحر ، وبعدها على مراحل مصب الساقية الحمراء وهي منتهى مجالات المعقل في مشاتيهم . وفي رأس وادي السوس جبل زكندر قبلة جبل الكلاوي . وفي قبلة جبال درن جبال نكيسة تنتهي الى جبال درعة ويعرف الآخر منها في الشرق بابن حميدي ويصب من جبال نكيسة وادي نول ويمر مغرّباً الى ان يصب في البحر . وعلى هذا الوادي بلد تاكاوصت محط الرفاق والبضائع بالقبلة ، وبها سوق في يوم واحد من السنة يقصده التجر من الافاق ، وهو من الشهرة لهذا العهد بمكان . وبلد ايفري بسفح جبل نكيسة بينها وبين تاكاوصت مرحلتان ، وأرض السوس مجالات لكزولة ولمطة . فلمطة منهم

مما يلي درن وكزولة مما يلي الرمل والقفر . ولما تغلّب المعقل على بسائطه اقتسموها مواطن ، فكان الشبانات اقرب الى جبال درن . وصارت قبائل لمطة من احلافهم ، وصارت كزولة من احلاف ذوي حسان . والأمر على ذلك لهذا العهد وبيد الله تصاريف الامور .

دَوْلَةُ بني أبي حفص

الخبر عن دولة بني أبي حفص ملوك افريقية من الموحدين ومبدأ أمرهم وتصاريف أحوالهم

قد قدّمنا أنّ قبائل المصامدةِ بجبل دَرن وما حوله كثير مثل : هِنتاتَة وتِينْمَلَل وهَرْغَة وكَنفيسَة وسَكسِيوَة وكَدْمِيْوَة وهَزرَجة ووُرَيكَة وهزميرَة ودِكْراكَة وحَاحَة وبني ماغوس وكِلاوَة ، وغيرهم ممن لا يحصى . وكان منهم قبل الاسلام وبعده رؤساء وملوك . وهنتاتة هؤلاء من أعظم قبائلهم واكثرها جمعاً وأشدّها قوّة ، وهم السابقون للقيام بدعوة الامام المهديّ والمَهّدون لأمره وأمر عبد المؤمن من بعده ، كما ذكرناه في أخباره . واسم هنتات جدّهم بلسان المصامدة بنتي ، وكان كبيرهم لعهد الامام المهدي الشيخ أبو حفص عُمَر ، ونقل البيذق

ان اسمه بلسانهم فاصكات .

وهنتاتة لهذا العهد يقولون انه اسم جدّه وكان عظيماً فيهم متبوع غير مدافع ، وهو أول من بايع للامام المهدي من قومه ، فجاء يوسف بن وانودين وأبو يحيى بن بكيت وابن يغمور وغيرهم منهم على اثره . واختصّ بصحابة المهديّ فانتظم في العشرة السابقين الى دعوته . وكان تلو عبد المؤمن فيهم ، ولم يكن مزية عبد المؤمن عليه إلا من حيث صحابة المهدي .

وأما في المصامدة فكان كبيرهم غير مدافع ، وكان يسمّى بين الموّحدين بالشيخ كما كان المهدي يسمى بالامام ، وعبد المؤمن بالخليفه . سمات لهؤلاء الثلاثة من بين أهل الدعوة تدل على اشتراكهم في الجلالة . وأما نسبه فهو عمر بن يحيى بن محمد بن وانودين بن علي بن أحمد بن والال بن ادريس بن خالد بن اليسع ابن الياس بن عمر بن وافتن بن محمد بن نخية بن كعب بن محمد ابن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب ، هكذا نسبه ابن نخيل وغيره من الموحدين . ويظهر منه ان هذا النسب القرشي وقع في المصامدة والتحم به ، واشتملت عليه عصَبيَّتهم شأن الانساب التي تقع من قوم الى قوم وتلتحم بهم كما قلناه اول الكتاب .

ولما هلك الامام وعهد بامره الى عبد المؤمن ، وكان بعيداً عن عصبية المصامدة ، إلّا ما كان له من اثرة المهديّ واختصاصه فكتم موت المهدي وعهد عبد المؤمن ابتلاء لطاعة المصامدة .

وتوقف عبد المؤمن عن ذلك ثلاث سنين ، ثم قال له ابو حفص نقدِّمك كما كان الامام يقدِّمك فاعلم ان امره منعقد . ثم اعلن بيعته وأمضى عهد الامام بتقديمه وحمل المصامدة على طاعته فلم يختلف عليه اثنان . وكان الحل والعقد في المهمَّات اليه سائر أيام عبد المؤمن وابنه يوسف ، واستكفوا به نوائب الدعوة فكفاهم مُهمَّها . وكان عبد المؤمن يقدِّمه في المواقف فيجلي فيهم . وبعثه على مقدّمته حين زحف الى المغرب الأَوسط قبل فتح مراكش سنة سبع وثلاثين ، وزناتة كلهم مجتمعون بمنداس لحرب الموحدين مثل : بني ومانوا وبني عبد الواد وبني ورسيفان وبني توجين وغيرهم ، فحمل زناتة على الدعوة بعد ان اثخن فيهم . ولأَول دخول عبد المؤمن لمراكش خرج عليه الثائر بماسة ، وانصرفت اليه وجوه الغوغاء وانتشرت ضلالته في النواحي وتفاقم أمره ، فدفع لحربه الشيخ ابا حفص فحسم داءه ومحا أثر غوايته .

ولما اعتزم عبد المؤمن على الرحلة الى افريقية حركته الاولى لم يقدِّم شيئاً على استشارة أبي حفص . ولما رجع منها وعهد الى ابنه محمد خالفه الموحدون ، ونكروا ولاية ابنه فاستدعى أبا حفص من مكانه بالاندلس ، وحمل الموحدين على البيعة له . واشار بقتل يصلاتي الهرغي رأس المخالفين في شأنه فقتله ، وتم أمر العهد لابنه محمد . ولمَّا اعتزم عبد المؤمن على الرحلة الى افريقية سنة اربع وخمسين حركته الثانية لفتح المهديَّة استخلف

الشيخ ابا حفص على المغرب ، وينقل من وصاة عبد المومن لبنيه انه لم يبق من اصحاب الامام إلّا عمر بن يحيى ويوسف بن سليمان . فأما عمر فانه من أوليائكم ، وأما يوسف فجهزه بعسكرة الى الاندلس تستريح منه . وكذلك فافعل بكل من تكرهه من المصامدة . وأما ابن مردنيش فاتركه ما تركك وتربّص به ريب المنون ، واخل افريقية من العرب وأجلهم الى بلاد المغرب ، وأذخرهم لحرب ابن مردنيش ان احتجت الى ذلك .

ولما ولي يوسف بن عبد المؤمن تخلّف الشيخ ابو حفص عن بيعته ، ووجم الموحدون لتخلّفه حتى استنبل غرضه في حكم امضاه بقعد سلطانه ، وأعجب بفضله فأعطاه صفقة يمينه ، وأعلن بالرضى بخلافته ، فكانت عند يوسف وقومه من اعظم البشائر ، وتسمّى لها بأمير المؤمنين سنة ثلاث وستين .

ولمّا ولي يوسف بن عبد المؤمن ، وتحركت الفتنة بجبال غمارة وصنهاجة التي تولى كبرها سبع بن منغفاد سنة اثنتين وستين ، عقد للشيخ أبي حفص على حربهم فجلى في ذلك . ثم خرج بنفسه فأثخن فيهم ، وكمل الفتح كما ذكرناه . ولما بلغه سنة أربع وستين تكالب الطاغية على الأندلس وغدره بمدينة بطليوس ، واعتزم على الاجازة لحمايتها قدم عساكر الموحدين اليها لنظر الشيخ أبي حفص ، ونزل قرطبة ، وأمر من كان بالاندلس من السادة ان يرجعوا الى رأيه فاستنقذ بطليوس من

هوة الحصار ، وكانت له في الجهاد هنالك مقامات مذكورة

ولمّا انصرف من قُرْطُبَة الى الحضرة سنة احدى وسبعين هلك عفا الله عنه في طريقه بسلا ودفن بها ، وكان ابناؤه من بعده يتداولون الامارة بالاندلس والمغرب وافريقية مع السادة من بني عبد المؤمن ، فولّى المنصور ابنه ابا سعيد على افريقيه لأول ولايته ، وكان من خبره مع عبد الكريم المنتزي بالمهدِيَّة ما ذكرناه . واستوزر أبا يحيى بن أبي محمد بن عبد الواحد ، وكان في مقدّمته يوم الاركة سنة احدى وتسعين فجلى عن المسلمين ، وكان له في ذلك الموقف من الصبر والثبات ما طار له به ذكر . واستشهد في ذلك الموقف وعُرِفَ اعقابه ببني الشهيد آخر الدهر ، وهم لهذا العهد بتونس .

ولمّا نهض الناصر الى افريقية سنة احدى وستماية ، لما بلغه من تغلّب ابن غانية على تونس فاسترجعها ، ثم نازل المهدية فتعاوت عليه ذئاب الأعراب . وجمعهم ابن غانية ونزل قابس ، فسرّح الناصر اليهم ابا محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص في عسكر من الموحّدين ، فأوقع بابن غانية بتاجرا من نواحي قابس سنة اثنتين وستماية ، وقتل جبارة اخو ابن عانية ، واثخن فيهم قتلًا وسبياً ، واستنقذ منهم السيّد ابا زيد بن يوسف بن عبد المؤمن الوالي كان بتونس ، وأسره ابن غانية ، ورجع الى الناصر بمكانه من حصار المهدية ، فكانت سبباً في فتحها . وكان

ذلك مما حمل الناصر على ولاية الشيخ أبي محمد بأفريقية حسبما نذكره ان شاء الله .

الخبر عن امارة أبي محمد بن الشيخ أبي حفص بافريقية وهي أولية أمرهم بها

لمّا تكالب ابن غانية واتباعه على افريقية واستولى على امصارها ، وحاصر تونس وملكها ، واسر السيد ابا زيد اميرها ، ونهض الناصر من المغرب سنة احدى وستماية كما ذكرناه فاسترجعها من ايديهم وشرّدهم عن نواحيها . وخيّم على المهدية يحاصرها ، وقد انزل ابن غانية ذخيرته وولده بها وأجلب في جموعه خلال ذلك على قابس ، فسرّح الناصر اليه الشيخ أبا محمد هذا في عساكر الموحدين . وزحف اليهم بتاجرا من جهات قابس فهزمهم واستولى على معسكرهم وما كان بايديهم ، واثخن فيهم بالقتل والسبي ، واستنقذ السيد أبا زيد من اسرهم ، ورجع الى الناصر بمعسكره من حصار المهدية ظافراً ظاهراً . وعاين اهل المهدية يوم مقدمه بالغنائم والاسرى فبهتوا وسقط في ايديهم ، وسألوا النزول على الامان . وكمل فتح المهدية ، ورجع الناصر الى تونس فأقام بها حولاً الى منتصف سنة ثلاث وستماية . وسرح اثناء ذلك اخاه السيد ابا اسحاق ليتتبّع المفسدين ، ويمحو مواقع

عيثهم فدوّخ مـا وراء طرابلس ، وأثخن في بني دمّر ومِطْمَاطة ونفوسه ، وشارف أرض سرت وبرقه ، وانتهى الى سويقة ابن مذكور. وفرّ ابن غانية الى صحراء برقة وانقطع خبره. وانكفأ السيّد راجعاً الى تونس . واعتزم الناصر على الرحلة الى المغرب وقد أفاء على افريقية ظل الامر ، وضرب عليهم سُرادِق الحماية . وبدا له أنّ ابن غانية سيخالفه اليهـا ، وأن مراكش بعيد عن الصريخ ، وانّه لا بُدّ من رجل يسدّ فيها مسدّ الخلافة ويقيم بها سوق الملك ، فوقف اختياره على ابي محمـد بن الشيخ أبي حفص ، ولم يكن ليبعدوه لمـا كان عليه هو وابوه في دولتهم من الجلالة ، وأن أمر بني عبد المؤمن إنّما تمّ بوفاق الشيخ أبي حفص ومظاهرته ، وان اباه المنصور كان قد أوصى الشيخ أبا محمد بـه وباخوته . وكان يولّيه صلاة الصبح إذا حضر شغـل وامثال ذلك .

وسرى الخبر بذلك الى أبي محمد[1] فامتنع ، وشافهه الناصر به فاعتذر ، فبعث اليه ابنه يوسف فأكرم موصله . وأجاب على شريطة اللحاق بالمغرب بعد قضاء مهمات افريقية في ثلاث سنين ، وان يختار عليهم من رجالات الموحدين ، وان لا يتعقّب عليه في تولية ولا عزل ، فقبل شرطه فنودي في الناس بولايتـه ، ورفعت بين الموحدين رايته . وارتحل الناصر الى المغرب ، ورجع

(١) كذا، وفي ب: أبي عمرو.

عنه الشيخ ابو محمد من باجة فقعد مقعد الامارة بقصبة تونس في السبت العاشر من شوال سنة ثلاث وستماية ، وانفذ اوامره ، واستكتب ابا عبد الله محمد من احمد بن نخيل ورجع ابن غانية الى نواحي طرابلس ، فجمع احزابه واتباعه من العرب من سُلَيم وهِلال .

وكان فيهم محمد بن مسعود البلط في قومه من الدواودة ، وعاودوا عيثهم ، وخرج اليهم ابو محمد سنة اربع وستماية في عساكر الموحّدين . وتحيّز اليه بنو عوف من سُلَيم وهم : مرداس وعلاق فلقيهم بشبرو ، وتواقفوا واحتربوا عامة يومهم ، ونزل الصبر . ثم انفضّ عسكر ابن غانية آخر النهار ، واتبعهم الموحدون والعرب واكتَسحوا اموالهم ، وافلت ابن غانية جريحاً الى اقصى مفرِّه . ورجع ابو محمد الى تونس بالظفر والغنيمة . وخاطب الناصر بالفتح واستنجاز وعده في التحول عن الولاية فحاطته بالشكر والعذر بمهات المغرب عن ادالته ، وانه يستأنف النظر في ذلك . وبعث اليه بالمال والخيل والكساء للانفاق والعطاء . كان مبلغها مايتا الف دينار اثنتان والف وثمان ماية كسوة ، وثلاثماية سيف ، ومماية فرس ، غير ما كان انفذ اليه من سبتة وبجاية ، ووعده بالزيادة . وكان تاريخ الكتب سنة خمس فاستمر ابو محمد على شانه وترادفت الوقائع بينه وبين يحيى الميورقي كما نذكره

وقيعة تاهرت وما كان من أبي محمد في تلافيها واستنقاذ غنائمها

كان يحيى بن غانية لما افلت من وقيعة شبرو بدا له ليقصدن بلاد زناتة بنواحي تلمسان ، وقارن ذلك وصول السيد أبي عمران بن موسى بن يوسف بن عبد المؤمن والياً عليها من مراكش ، وخروجه الى بلاد زناتة لتمهيد انحائهم وجباية مغارمهم. وكتب اليه الشيخ ابو محمد نذيراً بشانه ، وان لا يتعرض له وانه في اتباعه فابى من ذلك ، وارتحل الى تاهرت وصحبه بها ابن غانية فانفض معسكره . وفرّت زناتة في حصونها ، وقتل السيد ابو عمران . واستبيحت تاهرت فكان اخر العهد بعمرانها ، وامتلأت ايديهم من الغنائم والسبي ، وانقلبوا الى افريقية فاعترضهم الشيخ ابو محمد بموضع[1] فاوقع بهم واستنقذ الاسرى من ايديهم ، واكتسح سائر مغانمهم ، وقتل فيها كثير من الملثمين . ولحق فلهم بناحية طرابلس الى أن كان من امرهم ما نذكره .

واقعة نفوسة ومهلك العرب والملثمين بها

كان ابن غانية بعد واقعة شبرو واستفتاح أبي محمد تاهرت

---

(١) كذا بياض بالأصل ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على اسم الموضع.

من يده خلص الى جهات طرابلس ، وتلاحق به فلّ الملثمين واوليائه من العرب .

وكان المجلي معه في موافقة الدواودة من رياح ، وكبيرهم محمد بن مسعود فتدامروا واعتزموا على معاودة الحرب ، وتعاقدوا الثبات والصبر وانطلقوا يستالفون الأعراب من كل ناحية ، حتى اجتمع اليهم من ذلك امم كان فيهم من رياح وزغب والشريد وعوف ودباب ونفاث . واختلفوا في الاحتشاد وأجمعوا دخول افريقية فبادرهم ابو محمد قبل وصولهم اليها . وخرج من تونس سنة ست واغذّ السير اليهم ، وتزاحفوا عند جبل نفوسة ، واشتدت الحرب . ولما حمي الوطيس ضرب ابو محمد ابنيته وفساطيطه . وتحيّز اليه بعض الفرق من بني عوف بن سُلَيم واحتل مصاف ابن غانية . واتبعه الموحدون الى ان دخل في غيابات الليل وامتلأت ايديهم بالأسرى والغنائم ، وسيقت ظعائن العرب . وقد كانوا قدموها بين يديهم للحفيظة واللياذ في الكرِّ والفرِّ فاصبحت مغنماً للموحدين وربات خدورهم سبياً .

وهلك في المعركة خلق من الملثمين وزناتة والعرب ، كان فيهم عبد الله بن محمد بن مسعود البليط بن سلطان وشيخ الدواودة ، وابن عمه حركات بن أبي شيخ بن عساكر بن سلطان وشيخ بني قرّة وجرار بن ويغزن كبير مغراوة ومحمد بن الغازي بن غانية في آخرين من امثالهم . وانصرف ابن غانية مهيض الجناح

مفلول الحد محفوفاً بالباس من جميع جهاته ، وانقلب ابو محمد والموحدين أعزّة ظاهرين ، واستفحل امر أبي محمد بافريقية وحسم علل الفساد منها واستوفى جبايتها . وطالت مواقف حروبه ولم تهزم له فيها راية . وهلك الناصر وولي ابنه يوسف المستنصر ، واستبد عليه المشيخة لمكان صغره ، وشغلوا بفتنة بني مرين وظهورهم بالمغرب ، فاستكفى بالشيخ أبي محمد في افريقية وعوّل على غنائه فيها ، وضبطه لاحوالها وقيامه بملكها فأبقاه على عملها ، وسرب اليه الاموال لنفقاتها واعطياتها ، ولم يزل بها الى ان هلك سنة ثمان عشرة

الخبر عن مهلك الشيخ أبي محمد بن الشيخ أبي حفص وولاية ابنه عبد الرحمن

كانت وفاة الشيخ أبي محمد فاتح سنة ثمان عشرة . ولما هلك ارتاع الناس لمهلكه ، وافترق الموحدون في الشورى فريقين بين عبد الرحمن بن الشيخ أبي محمد وابرهيم ابن عمه اسمعيل ابن الشيخ أبي حفص ، فترددوا ملياً ثم اتفقوا على الأمير أبي زيد عبد الرحمن ابنه ، واعطوه صفقة ايمانهم ، واقعدوه بمجلس ابيه في الامارة ، فسكن الثائر وشمر للقيام بالامر عزائمه . وافاض العطاء وأجاز الشعراء . واستكتب ابا عبد الله بن أبي الحسين ،

وخاطب المستنصر بالشأن . وخرج في عساكره لتمهيد النواحي وحماية الجوانب الى ان وصل كتاب المستنصر بعزله لثلاثة أشهر من ولايته حسبما نذكره ، فارتحل الى المغرب ومعه اخوانه . وكاتبه ابن ابي الحسين ولحق بالحضرة .

الخبر عن ولاية السيد أبي العلا على افريقية وابنه أبي زيد من بعده وأخبارهم فيها واعتراضهم في الدولة الحفصية

لما بلغ الخبر الى مراكش بمهلك أبي محمد بن أبي حفص ، وقارن ذلك عزلة السيد أبي العلا من اشبيلية ، ووصوله الى الحضرة مسخوطاً : وهو ابو العلا ادريس بن يوسف عبد المؤمن اخو يعقوب المنصور ، وعبد الواحد المخلوع المبايع له بعد ذلك. وعول على الوزير ابن المثنى في جبر حاله فسعى له عند الخليفة ، وعقد له على افريقية ، ووصل الخطاب بولايته ونيابة ابراهيم ابن اسمعيل بن الشيخ أبي حفص عنه خلال ما يصل ، واستقدام أبناء الشيخ أبي محمد الى الحضرة . وقرىء الكتاب شهر ربيع الاول من سنة ثماني عشرة ، فقام الشيخ بالنيابة في أمره ، واستعمل احمد المشطب في وزارته ، وغلب عليه بطانته ، وأساء في الموالاة لقرابته . واختص ابناء الشيخ أبا محمد بقبيحة ، وظن امتداد الدولة له . ووصل السيد أبو العلا شهر ذي القعدة

من السنة ، فنزل بالقصبة [١] ونزل ابنه السيّد ابا زيد بقصر ابن فاخر من البلد ، ورتب الامور ونهج السنن .

ولشهر من وصوله تقبّض على محمد بن نخيل كاتب الشيخ أبي محمد ، وعلى اخويه أبي بكر ويحيى ، واستصفى اموالهم واحتاز عقارهم وضياعهم . وكان المُنْتَصِر عهد اليه بذلك ، لما كان أسْفَه بفلتات من القول والكتاب تنمى اليه أيام رياسته في خدمة أبي محمد ، فاعتقلهم السيّد ابو العلا ، ثم قتله وأخاه يحيى لشهر من اعتقالهما بعد ان فر من سجنه وتقبض فقتل . ونقل ابو بكر الى مطبق المهديّة فأزْدِعَ به [٢]

وخرج السيّد ابو العلا من تونس سنة تسع عشرة في عساكر الموحدين الى نواحي قابس لقطع اسباب ابن غانية منها ، فنزل قصر العروسيين ، وسرّح ولده السيد أبا زيد في عسكر من الموحدين الى درج وغدامس من بلاد الصحراء لتمهيدها وجبايتها . وقدّم بين يده عسكراً آخراً لمنازلة ابن غانية بودّان ، وواعدهم هنالك منصرفه من غدامس فأرجف بهم العرب في طريقهم بمداخلة ابن غانية . ومال بذله في ذلك فانفض العسكر ، وزحفوا الى قابس . واهمل السيد ابو زيد في غدامس اليهم فلقيه خبر مفرّهم . فلحق بابيه واخبره بالجلى في امرهم ، فسخط قائد العسكر وهمّ

(١) كذا، ويعني بالقصبة: مدينة تونس، كما وردت في مكان آخر من الكتاب.
(٢) كذا بالأصل، والأصح: فردع به بمعنى: صرع.

بقتله . وطرق السيّد ابا العلا المرض فرجع الى تونس . وبلغه ان ابن غانية نهض من ودّان الى الزاب ، وان اهل بسكرة اطاعوه فسرّح السيد ابا زيد في عساكر الموحّدين اليه ، ودخل ابن غانية الرمل فأعجزهم .

ورجع السيد ابو زيد الى بسكرة فأنزل بهم عقابه من النهب والتخريب ، ورجع الى تونس . ثم بلغه أنّ ابن غانية قد رجع الى جوانب افريقية ، واجتمع اليه اخلاط من العرب والبربر ، فسرّح السيد أبا زيد اليه في العساكر ونزل بالقيروان ، وخالفه ابن غانية الى تونس فقصده السيد أبو زيد ومعه العرب وهوارة بظعائنهم ومواشيهم . وتزاحفوا بمجدول فاتح احدى وعشرين ، واشتد القتال وعضت الموحدون الحرب ، وأبلى هوارة وشيخهم بعرة ابن حناش بلاء جميلا ، وضرب ابنته وتناغوا في الثبات والصبر فانهزم الملثّمون وانجلت المعركة عن حصيد من القتلى من اصحاب ابن غانية ، واستولى الموحدون على معسكرهم .

وكان بلغ السيد ابا زيد خبر مهلك ابيه السيّد أبي العلا بتونس في شعبان سنة عشرين . فلما فرغ من مواقعة ابن غانية رجع الى تونس واقصر عن متابعته . وخاطب المستنصر بمهلك ابيه وواقعة الملثمين ، وكان المستنصر قد عزله واستبدل منه بأبي يحيى بن أبي عِمران التِيْنمَلّي صاحب مَيورقَة ، ولم يصل اليه الخبر بعزله بعد . وهلك الملك المستنصر اثر ذلك سنة

عشرين ، وولي عبد الواحد المخلوع ابن يوسف بن عبد المؤمن فنقض تلك العقدة ، وكتب الى السيد ابي زيد بالابقاء على عمله ، ونقض ما اصدر المستنصر من عزله ، فأرسل عنانه في الولاية ، وبسط يده في الناس بمكروهه ، وتنكرت له الوجوه ، وانحرف عنه الناس ، بما كانوا عليه من الصاغية لأبي محمّد بن أبي حفص وولده ، الى ان عزل واستبدل بهم كما نذكره ، وركب البحر بذخائره وأهله فلحق بالحضرة .

الخبر عن ولاية أبي محمد عبد الله بن أبي محمد بن الشيخ أبي حفص وما كان فيها من الأحداث

لما هلك المخلوع وولي العادل ، ولى على افريقية أبا محمد عبد الله بن أبي محمد عبد الواحد . وولّى على بجاية يحيى بن الأطّاس التِّينَمَلّي ، وعزل عنها ابن يغمور . وكتب الى السيد ابي زيد بالقدوم . وكتب ابو محمد عبد الله إلى ابن عمِّه موسى ابن ابراهيم بن الشيخ أبي حفص بالنيابة عنه خلال ما يصل ، فخرج السيد أبو زيد في ربيع الآخر سنة ثلاث وعشرين ، واستقل ابو عِمْران موسى بأمر افريقية ، واستمرت نيابته عليها زهاء ثمانية اشهر . وخرج أبو محمد عبد الله من مراكش الى افريقية .

ولما انتهى الى بجاية قدّم بين يديه اخاه الأمير ابا زكريا ليعترضه طبقات الناس للقائه ، فوصل الى تونس في شعبان من هذه السنة بعد ان أوقع في طريقه بولهاصة . وكان أولاد شدّاد رؤساؤهم قد جمعوا لاعتراضه بناحية بونة ، فسرح اخاه الأمير ابا زكريا لحسم دائهم ولخروج الطبقات من اهل الحضرة للقائه فكان كذلك . وخرج في رمضان من سنته ، وخرج معه الناس على طبقاتهم فلقوه بسطيف ، ووصل الى الحضرة في ذي القعدة من آخر السنة ، وتزحزح ابو عمران عن النيابة . ثم لحقه من المغرب اخوه ابو ابراهيم في صفر سنة اربع وعشرين ، فعقد له على بلاد قسطيلية وعقد لأخيه الأمير أبي زكريا على قابس وما اليها ، وذلك في جمادى من هذه السنة .

وبعد استقراره بتونس بلغه أنّ ابن غانية دخل بجاية عَنْوَةً ، ثم تخطّى كذلك الى تدلس ، وانه عاث في تلك الجهات فرحل من تونس وعقد لأخويه كما ذكرناه . وأغذ السير الى فحص أبة فصبح به هوارة ، وقد كان بلغه عنهم السعي في الفساد ، فأطلق فيهم ايدي عسكره ، واعتقل مشايخهم وانفذهم الى المهديّة . ثم مر في اتباع ابن غانية ، فانتهى الى بجاية ، وسكن احوالها ، ثم الى متيجة ومليانة فأدركه الخبر انّ ابن غانية قصد سجلماسة فانكفأ راجعاً الى تونس ودخلها في رمضان سنة اربع وعشرين ، ولم يزل مستبداً بامارتـهِ الى ان ثار عليـه الأمير ابو زكريا ،

وغلبه على الأمر كما نذكر .

الخبر عن ولاية الأمير أبي زكريا ممهد الدولة لآل أبي حفص بافريقية ورافع الراية لهم بالملك وأولية ذلك وبدايته

لما قتل العادل بمراكش سنة اربع وعشرين ، وبويع المأمون بالأندلس بعث الى أبي محمد عبد الله بتونس ليأخذ له البيعة على من بها من الموحدين . وكان المأمون قد فتح امره بالخلاف ، ودعا لنفسه قبل موت أخيه العادل بايام ، فامتنع ابو محمد ورد رساله اليه ، فكتب بذلك لأخيه الأمير أبي زكريا وهو بمكانه من ولاية قابس . وعقد له على افريقية فأخذ له البيعة على من اليه ، وداخله في شأنها ابن مكي كبير المشيخة بقابس . واتصل ذلك بأبي محمد فخرج من تونس اليهم . ولما انتهى الى القيروان نكر عليه الموحدون نهوضه الى حرب اخيه ، وانتقضوا عليه وعزلوه . وطيّر بالخبر الى اخيه في وفد منهم فألفوه معملا في اللحاق برحاب بن محمد واعراب طرابلس ، فبايعوه ووصلوا به الى معسكرهم . وخلع ابو محمد نفسه ، ثم ارتحل الأمير ابو زكريا الى تونس فدخلها في رجب من سنة خمس وعشرين ، وانزل أخاه ابا محمد بقصر ابن فاخر ، وتقبض على كاتبه أبي

عمرو طرا من الاندلس. واستكتبه ابو محمّد فغلب على هواه، وكان يغريه باخيه، فبسط الأمير أبو زكريا عليه العذاب الى أن هلك. ثم بعث اخاه ابا محمد في البحر الى المغرب فاستبدّ بملكه، واستوزر ميمون بن موسى الهنتاتي، واستقامت اموره.

الخبر عن استبداد الأمير أبي زكريا بالأمر لبني عبد المؤمن

لما اتصل بـه ما أتاه المأمون من قتل الموحدين بمراكش، وخصوصاً هنتاتة وتينملل. وكان منهم اخواه ابو محمد عبد الله المخلوع وابراهيم، وانـه اشاع النكير على المهدي في العصمة، وفي وضع العقائد والنـداء للصلوات باللسان البربري، واحداث النداء للصبح وتربيع شكل الدرهم وغير ذلك من سننه. وانّه غيّر رسوم الدعوة، وبدل اصول الدولة. واسقط اسم الامام من الخطبة والسكة وأعان بلعنتـه. ووافق بلوغ الخبر بذلك وصول بعض العمال الى تونس بتوليـة المأمون فصرفهم، وأعان بخلعه سنة ست وعشرين. وحوّل الدعوة الى يحيى ابن اخيه الناصر المنتزي عليه بجبال الهساكرة. ثم اتصل بـه بعد ذلك عجز يحيى واستقلاله، فأغفله واقتصر على ذكر الامام المهدي، وتلقّب بالأمير ورسم علامته به في صدور مكتوباته. ثم جدّد البيعة لنفسه سنة اربع وثلاثين، وثبت ذكره في الخطبة بعـد

ذكر الامام مقتصراً على لفظ الامير لم يجاوزه الى امير المؤمنين.
وخاض أولياء دولته في ذلك حتى رفع اليه بعض شعرائه في
مفتتح كلمة مدحه بها :

ألا صلْ بالأَمير المؤمنينا فأنت بهـا أَحق العالَمينا

فزجرهم عن ذلك وأبى منه ، ولم يزل على ذلك الى آخر
دولته .

الخبر عن فتح بجاية وقسطنطينة

لما استقل الأَمير ابو زكريا بالأَمر بتونس ، وخلع بني
عبد المؤمن ، نهض الى قسطنطينة سنة ست وعشرين ، فنزل
بساحتها وحاصرها اياماً . ثم داخله ابن علناس في شأنها وأمكنه
من غرتها فدخلها ، وتقبض على واليها السيد [1] ابن السيد
أبي عبد الله الخرصاني بن يوسف العشري . وولّى عليها
ابن النعمان . ورحل الى بجاية فافتتحها ، وتقبّض على واليها
السيد أبي عمران ابن السيد أبي عبد الله الخرصاني وصيرهما معتقلين
في البحر الى المهدية . واجريت عليهما هنالك الارزاق ، وبعث
باهلها وولدهما مع ابن اوماز [2] الى الاندلس ، فنزلوا باشبيلية .
وبعث معها الى المهديّة في الاعتقال محمد بن جامع وابنه وابن

(١) كذا بياض بالأصل، ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على اسم هذا السيد.
(٢) كذا، وفي ب: أومازير.

اخيه جابر بن عون بن جامع من شيوخ مرداس عوف ، وابن أبي الشيخ بن عساكر من شيوخ الدواودة ، فاعتقلوا بمطبق المهدية وكان اخوه أبو عبد الله اللحياني صاحب اشغال بجاية فصار في جملته ، وولاه بعدها الولايات الجليلة ، وكان يستخلفه بتونس في مغيبه . وفي هذه السنة تقبض على وزيره ميمون ابن موسى واستصفى امواله ، واشخصه الى قابس فاعتقل بها مدة . ثم غرّبه الى الاسكندريّة ، واستوزر مكانه ابا يحيى بن أبي العلا بن جامع ، الى ان هلك ؛ فاستوزر بعده أبا زيد ابن اخيه الآخر محمد الى ان هلك .

الخبر عن مهلك ابن غانية وحركة السلطان الى بجاية وولاية ابنه الأمير أبي يحيى زكريا عليها

لما استقل الامير ابو زكريا بافريقية وخلع طاعة بني عبد المؤمن صرف عزمه أولاً الى مدافعة يحيى بن غانية عن نواحي اعماله فكانت له في ذلك مقامات مذكورة ، وشرّده عن جهات طرابلس والزاب وواركلا . واختط بواركلا المسجد لما نزلها في اتباعه ، وأنزل بالاطراف عساكره وعماله لمنعها دونه . ولم يزل ابن غانية واتباعه من العرب من أفاريق سُلَيم وهلال وغيرهم على حالهم من التشريد والجلاء ، الى ان هلك سنة احدى وثلاثين وستماية ، وانقطع عقبه فانقطع ذكره ، ومحا الله آثار

فتنته من الارض . واستقـام امر الدولة ونبضت منهـا عروق الاستيلاء واتساع نطاق الملك . ونهضت عزائمه الى تدويـخ أرض المغرب فخرج من تونس سنـة اثنتين وثلاثين يَؤُمّ بلاد زناتة بالمغرب الاوسط . وأغذّ السير الي بجاية فتلوّم بها . ثم ارتحل الى الجزائر فافتتحها وولى عليها . ثم نهض منها الى بلاد مغراوة فأطاعـه بنو منديل بن عبد الرحمن . وجاهر بنو توجين بخلافه فنزل البطحاء وأوقـع بهم . وتقبض عـلى رئيسهم عبد القوي ابن العباس فاعتقله ، وبعث به الى تونس ودوّخ المغرب الأوسط وقفل راجعاً الى حضرته . وعقد مرجعه من المغرب لابنه الامير أبي يحيى زكريا على بجاية وانزله بهـا . واستوزر له يحيى بن صالح بن ابراهيم الهنتاتي وجعل شواره لعبد الله بن أبي تهدى ، وجبايته لعبد الحق بن ياسين ، وكلهم من هنتاتة . وكتب اليه بوصيّته مشتملة على جوامع الخلال في الدين والملك والسياسة ، يجب اثباتها لشرف مغزاها وغرابة معناها ويأتى نصّها فيما بعد.

الخبر عن سطوة السلطان بهوارة

كان لهوارة هؤلاء بافريقية ظهور وعدد منذ عهد الفتح ، وكانت دولة العُبَيْديين قد جرت عليهم بكلكلها لما كان منهم في فتنة أبي يزيد كما نذكره في أخبارهم . وبقي منهم فلٌّ بجبـل أوراس وما بعده من بلاد افريقيـة وبسائطها الى أُبّة ومَرْماجنّة

وسُبَيْبَة وتبرسق . ولما انقرض ملك صنهاجة بالموحّدين وتغلب الأعراب من هلال وسليم على سائر النواحي بافريقية ، وكثّروا ساكنها ، وتغلّبوا عليهم أخذ هذا الفلُّ بمذهب العرب وشعارهم وشارتهم في اللبوس والزي والظعون وسائر العوائد . وهجروا لغتهم العجمية الى لغتهم ، ثم نسوها كأن لم تكن لهم ، شأن المغلوب في الاقتداء بغالبه . ثم كان لهم انحياش اول الدولة الى الطاعة بغلب عبد المؤمن وقومه . فلما استبد الأمير أبو زكريا ، وانقلبت الدولة الى بني أبي حفص ظهر منهم التياث في الطاعة ، وامتناع عن المغرم ، واضرار بالسابلة ، فاعتمل السلطان في امرهم . وخرج من تونس سنة ست وثلاثين مورياً بالغزو الى أهل أوراس ، وبعث في احتشادهم فتوافدوا في معسكره . ثم صبحهم في عسكره من الموحدين والعرب ففتك بهم قتلاً وسبياً ، واكتسح اموالهم وقتل كبيرهم أبو الطيّب بعرّة بن حناش وأفلت من افلت منهم ناجياً بنفسه ، عارياً من كسبه ، فالانت هذه البطشة من حدّهم وخضدت من شوكتهم ، واستقاموا على الطاعة بعد .

الخبر عن ثورة الهرغي بطرابلس ومآل أمره

كان هذا الرجل من مشيخة الموحدين وهو يعقوب بن يوسف بن محمد الهرغي ويكنّى بأبي عبد الرحمن ، وكان الامير

ابو زكرياء وقد عقد له على طرابلس وجهاتها ، وسرّح معه عسكراً من الموحدين لحمايتها من اعراب دباب من بني سليم ، فقام بامرها واضطلع بجباية رعاياها . واستخدم العرب والبربر الذين بساحتها وكان بينه وبين الجواهري مصدوقة ود . فلما قتل الجواهري سنة تسع وثلاثين كما قدّمناه استوحش لها يعقوب الهرغي واستقدمه السلطان فتلكأ ، وبعث عنه اخاه ابن أبي يعقوب فازداد نفاره ، وحدثته نفسه بالاستبداد لما كان اثرى من الجباية وشعر لها اهل البلد . فانطلقوا وهم يتخافون أن يعاجلوه قبل مداخلته العرب في أمره ، فتقبّضوا عليه وعلى اخيه وعلى اتباعهما ليلة اجمعوا الثورة في صباحها . وطيروا بالخبر الى الحضرة فنفذ الأمر بقتلهم فقتلوا ، وبعث برؤوسهم الى باب السلطان ، ونصبت اشلاؤهم باسوار طرابلس ، واصبحوا عبرة للمعتبرين وانشد الشعراء في التهنية بهم وقامت للبشائر سوق لكائنتهم

وكان ممن قتل معه محمد ابن قاضي القضاة بمراكش أبي عمران بن عمران . وصل عاقا[1] الى تونس وقصد طرابلس فاتصل بهذا الهرغي ، ونمى عنه انه انشأ خطبة ليوم البيعة فكانت سائقة حتفه . وكان بالمهدية رجل من الدعاة يعرف بأبي حمراء[2] اشتهر بالنجدة في غزو البحر وقدم على الاسطول فردد الغزو

(١) كذا، ولا معنى لها، وفي ب: غلقاً بمعنى: غضبان.
(٢) كذا، وفي ب: ابن أبي الأحمر.

حتى هابه الغُزّى من أمم الكفر ، وامنت سواحل المسلمين من طروقهم . وطار له فيها ذكر ونمي انه كان مداخلًا للجواهري والهرغي ، وان القاضي بالمهدية ابا زكرياء البرقي اطلع على دسيستهم في ذلك ، فنفذ الامر السلطاني للوالي بها أبي علي بن أبي موسى بن أبي حفص بقتل ابن أبي الأحمر ، واشخاص القاضي الى الحضرة معتقلا ، فامضى عهده . ولما وصل البرقي الى تونس فحص السلطان عن شأنه فبرىء من مداخلتهم ، فسرحه واعاده الى بلده . وقتل بالحضرة رجل آخر من الجند اتهم بمداخلتهم وسعايته فى قيامهم ، وكان له تعلق برحاب بن محمود امير دباب ، فاوعز السلطان الى بعض الدعار من زناتة ، فقتله غيلة ثم اهدرّ دمه . وتتبع اهل هذه الخائنة بالقتل حتى حسم الداء ، ومحا شوائب الفتنة

الخبر عن بيعة بلنسية ومرسية وأهل شرق الأندلس ووفدهم

لما استقل ابو جميل زيّان بن أبي الحملات مدافع بن أبي الحجّاج بن سعد ابن مردنيش بملك بلنسية ، وغلب عليها السيد ابا زيد بن السيد أبي حفص ، وذلك عند خمود ريح بني عبد المؤمن بالاندلس ، وخروج ابن هود على المأمون ، ثم فتنته هو مع ابن هود ، وثورة ابن الاحمر بارجونة ، واضطراب الاندلس بالفتنة . واسف الطاغية الى ثغور الاندلس من كل جانب . وزحف

ملك ارغون الى بلنسية فحاصرها وكانت للعدو سنة ثلاث وثلاثين سبع محلات لحصار المسلمين : اثنتان منها على بلنسية ، وجزيرة شقر وشاطبة . ومحلة بجيان ومحلة بطبيرة ومحلة بمرسية ومحلة بلبلة ، واهل جنوة من وراء ذلك على سبتة

ثم تملك طاغية قشتالة مدينة قُرْطُبَة ، وظفر طاغية أرغون بالكثير من حصون بلنسية والجزيرة ، وبنى حصن انيشة لحصار بلنسية . وانزل بها عسكره وانصرف ، فاعتزم زيان بن مردنيش على غزو من بقي بها من عسكره ، واستنفر اهل شاطبة وشقر وزحف اليهم فانكشف المسلمون ، واصيب كثير منهم . واستشهد ابو الربيع بن سالم شيخ المحدثين بالاندلس ، وكان يوماً عظيماً ، وعنواناً على اخذ بلنسية ظاهراً . ثم ترددت عليها سرايا العدو . ثم زحف اليها طاغية أرغون في رمضان سنة خمس وثلاثين فحاصرها واستبلغ في نكايتها . وكان بنو عبد المؤمن بمراكش قد فشل ريحهم ، وظهر أمر بني أبي حفص بافريقية ، فامل ابن مردنيش واهل شرق الاندلس الامير ابا زكرياء للكرة ، وبعثوا اليه بيعتهم ، وأوفد عليه ابن مردنيش كاتبه الفقيه ابا عبد الله ابن الأبار صريخاً ، فوفد وأدى بيعتهم في يوم مشهود بالحضرة ، وانشد في ذلك المحفل قصيدته على رويّ السين ، يستصرخه فيها للمسلمين وهي هذه :

أَدْرِكْ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللهِ أَنْدَلُسا   إِنَّ السَبيلَ إِلى مَنْجاتِها درسا

وهب لها مِنْ عَزيزِ النَصْرِ ما الْتَمَسَتْ
فَلَم يَزَلْ مِنْـكَ عِزُّ النَصْرِ مُلتَمسـا

وعاش ممـا تُعانيه حُشاشتهـا فطالما ذاقتِ البَلْوى صَباح مسا

وللْجَزيرَةِ أَضحى أَهلُهـا جَزَراً لِلنَّائِباتِ وأَمسى جَدُّها تَعِسـا

في كُلِّ شارِقَـةٍ الْمامُ بائِقَـةٍ يَعودُ مأتَمُهـا عِنْدَ العِدى عُرُسا

في كُلِّ غـارِبَةٍ اجحافُ نائِبَـةٍ تُثْني الأَمانَ حِذاراً والسُرورَ أَسا

تُقاسِم الرُوم لا نالَتْ مَقاسِمُهُمْ إلّا عَقائِلَها المحجوبَـةَ الأُنُسا

وفي بَلَنْسِيَةٍ منهـا وقُرْطُبَـة ما يُذْهِبُ النَفْسَ أَوْما يُنْزِفُ النَفَسا

مدائِنٌ حَلَّهـا الاشْراكُ مُبْتَسِماً جَذلانَ وارْتَحَلَ الايمانُ مُبْتَئِسا

وَصَيَّرَتْهـا العَـوادي عائِثـات بهـا
يَسْتَوْحِشُ الطَرْفُ مِنْها ضِعفَ ما أَنِسا

ما لِلمساجِدِ عادَتْ لِلعِدى بِيَعاً ولِلنِـداء يُرى أَثْناءَها جَرَسـا

لَهفاً عَلَيْها الى اسْتِرْجاعِ فائتها مَدارساً لِلمثاني أَصْبَحَتْ دُرسا

وأَرْبُعاً غنِمَتْ أَيْدي الربيع بها ما شِئْتَ خِلَعٍ من موشِيَّةٍ وكِسا

كانَتْ حَدائِقُ لِلأَحداق مونِقَةً فَصَوَّحَ النَضْرُ من أَذواحها وعسا

وَحـالَ ما حَوْلَها مِـن مَنْظَرٍ عَجَبٍ
يَسْتَوْقِفُ الرَكْبَ أَوْ يَسْتَرْكِبُ الجلسا

سِرْعانَ مـا عاثَ جَيْشُ الكُفْرِ وَاحَرَبا
عَيْثَ الدبا في مَغـانيها التي كَبَسـا

وابتَـزَّ بِزَّتَهـا ممـا تَحَيَّفَهـا تَحَيُّف الأَسَدِ الضاري لما افْتَرَسا

فأين عيش جنيناه بها خضرا   وأين غصن جنيناه بها سلسا

محا محاسنها طاغ اتيح لها   ما نام عن هضمها حيناً وما نعسا

ورجّ أرجاءها لمّا أحاط بها   فغادر الشمّ من أعلامها خنسا

خلا له الجوّ وامتدّت يداه إلى   إدراك ما لم تنل رجلاه مختلسا

وأكثر الزعم بالتثليث منفرداً   ولو رأى راية التوحيد ما نبسا

صل حبلها أيها المولى الرحيم فما   أبقى المراس لها حبلاً ولا مرسا

وأحي ما طمست منها العداة كما   أحييت من دعوة المهدي ما طمسا

أيام صرت لنصر الحق مستبقاً   وبتّ من نور ذاك الهدي مقتبسا

وقمت فيها لأمر الله منتصراً   كالصارم اهتزّ أو كالعارض انبجسا

تمحو الذي كتب التجسيم من ظلم   والصبح ماحية أنواره الغلسا

هذي رسائلها تدعوك من كثب   وأنت أفضل مرجوّ لمن يئسا

وافتك جارية بالنجح راجية   منك الأمير الرضى والسيد الندسا

خاضت خضارة يعلوها ويخفضها   عبابه فتعاني اللين والشرسا

وربما سبحت والريح عاتية   كما طلبت بأقصى شدة الفرسا

تؤمّ يحيى بن عبد الواحد بن أبي   حفص مقبّلة من تربه القدسا

ملك تقلّدت الأملاك طاعته   ديناً ودنيا فغشّاها الرضى لبسا

من كلّ غاد على يمناه مستلما   وكل صاد إلى نعماه ملتمسا

مؤيّد لو رمى نجماً لأثبته   ولو دعا أفقاً لبّى وما احتبسا

امارة تحمل المقدار رايتها   ودولة عزّها يستصحب القعسا

يبدي النهار بها من ضوئه شنبا   ويطلع الليل من ظلمائه لعسا

كأنَّهُ البَـدْرُ والعَلْيـاءُ هالَتُهُ تَحفُّ من حَولِهِ شُهْبُ القَنا حَرَسا

له الثرى والثُرَيّا خطَّتـان فلا أعزَّ من خطَّتَيْهِ ما سما ورسا

يأيها المَلِكُ المَنصورُ أنتَ لهـا عَلياء توسعُ أعداءَ الهُدى تَعسا

وقَدْ تواتَرَتِ الأنباءُ انَّكَ مِنْ يَحيى بقَتْلِ مُلوكِ الصُفْرِ أندَلُسا

طَهِّرْ بِلادَكَ مِنْهُـم إنَّهُمْ نَجَسٌ ولا طَهارَةَ ما لم تَغْسِلِ النجسا

وأوْطِئ الفَيْلَقَ الجَرّارَ أرْضَهُـمُ حتّى يُطأطِئ رأسَ كل مَن رأسا

وانصُرْ عَبيداً بأقصى شَرْقِها شَرِقَتْ عُيونهم أدْمُعاً تهمي زكا وخسا

هم شيعَةُ الأمرِ وهي الدارُ قـد نَهِـكَتْ

داءً متى لم تُباشِرْ حَسْمَـهُ انتكسا

امْلأْ هنيئاً لكَ التَمكينِ ساحَتها جُرداً سلاهبَ أوْ خَطِّيَـةً دعسا

واضرِبْ لها مَوْعِداً بالفتحِ تَرْقُبُه لَعَلَّ يومَ الأعادي قَدْ أتى وعسا

فاجاب الامير ابو زكرياء داعيتهم ، وبعث اليهم اسطوله مشحوناً بمدد الطعام والاسلحة والمال ، مع أبي يحيى بن يحيى بن الشهيد أبي اسحاق بن أبي حفص . وكانت قيمة ذلك مايـة الف دينار . وجاءهم الاسطول بالمدد وهم في هذا الحصار ، فنزل بمرسى دانية واستفرغ المدد بها ورجع بالناضّ إذا لم يخلص اليه من قبل ابن مردنيش من يتسلمه . واشتد الحصار على اهل بلنسية ، وعدمت الاقوات وكثر الهلاك من الجوع ، فوقعت المراوضة على اسلام البلد فتسلّمها جاقمة ملك أرغون في صفر سنة ست وثلاثين ، وخرج عنها ابن مردنيش إلى جزيرة شقر ، فأخذ البيعة على اهلها للأمير أبي زكريا . ورجع ابن الأبّار الى تونس ،

فنزل على السلطان وصار في جملته ، وألح العدو على حصار ابن مردنيش بجزيرة شقر ، وازعجه عنها الى دانية فدخلها في رجب من سنته ، وأخذ عليهم البيعة للامير أبي زكريا .

ثم داخل أهل مرسية،وقد كان بويع بها ابو بكر عزيز بن عبد الملك ابن خطاب في مفتتح السنة ، فافتتحها عليه في رمضان من سنته وقتله، وبعث ببيعتهم الى الامير أبي زكريا . وانتظمت البلاد الشرقية في طاعته ، وانقلب وفد ابن مردنيش اليه من تونس بولايته على عمله سنة سبع وثلاثين ، ولم يزل بها الى ان غلبه ابن هود على مرسية ، وخرج عنها الى لقنت الحصون سنة ثمان وثلاثين ، الى ان اخذها طاغية برشلونة من يده سنة اربع واربعين ، واجاز الى تونس ، والبقاء لله .

الخبر عن الجوهري وأوليته ومآل أمره

اسم هذا الرجل : محمّد بن محمد الجوهري ، وكان مشتهراً بخدمة ابن أكمازير الهنتاتي والي سبتة وغمارة من اعمال المغرب . وكان حسن الضبط مترامياً الى الرياسة . ولما ورد على تونس وتعلق باعمال السلطان نظر فيما يزلفه ويرفع من شأنه فوجد جباية اهل الخيام بافريقية من البرابرة الموّطنين مع الاعراب غير منضبطة ولا محصلة في ديوان ، فنبه على انها ما كلة للعمال ونهبة للولاة ، فدفع اليها فانمى جبايتها وقرر ديوانها ، وصارت

عملاً منفرداً يسمى عمل العمود وطار له بذلك بين العمال ذكر، جذب له السلطان ابو زكرياء بضبعه، وعول على نصيحته واثره باختصاصه. ووافق ذلك موت أبي الربيع الكنفيتي المعروف بابن الغريغر صاحب الاشغال بالحضرة، فاستعمل مكانه وكان لا يلي تلك الخطة إلاّ كبير من مشيخة الموحدين فرشحه السلطان لها لكفايته وعنائه، فظفر منها بحاجة نفسه، واعتدّها ذريعة الى امنيّته، فاتخذ شارة ارباب السيوف، وارتبط الخيل واتخذ الالة في حروبه مع أهل البادية اذا احتاج إليها.

وأسف أثناء ذلك أبا علي بن النعمان وأبا عبيد الله بن أبي الحسن بعدم الخضوع لهما، فنصبا له واغريا به السلطان وحذّراه غائلة عصيانه. وكان فيه اقدام اوجد به السبيل على نفسه، ويحكى ان السلطان استشاره ذات يوم في تقويم بعض اهل الخلاف والعصيان فقال له: عندي ببابك الف من الجنود أرم بها من تشاء من أمثالهم، فأعرض عنه السلطان واعتدّها عليه. وجعلها مصداقاً لما نمي عنه. ولما قدم عنه عبد الحق بن يوسف بن ياسين على الاشغال ببجاية مع زكرياء ابن السلطان، أظهر له الجوهري أنّ ذلك بسعايته، وعهد اليه بالوقوف عند امره والعمل بكتابه فالقى عبد الحق ذاك الى الامير أبي زكرياء فقام لها وقعد، وأنِفَ من استبداد الجوهري عليه. ولم تزل هذه وأمثالها تمدُّ عليه حتى حق عليه القول فسطا به الامير أبو زكرياء وتقبض

عليه سنة تسع وثمانين ، ووكل امتحانه الى اعدائه ابن برعان[(١)]
والندرومي ، فتجلد على العذاب واصبح في بعض أيامه ميتاً بمحبسه .
ويقال خنق نفسه والقي شلوه بقارعة الطريق فتفنن اهل الشمات
في العيث به ، والى الله المصير .

الخبر عن فتح تلمسان ودخول بني عبد الواد في الدعوة الحفصية

كان الامير ابو زكريا منذ استقل بامر افريقية واقتطعها
عن بني عبد المؤمن كما ذكرناه متطاولاً الى ملك الحضرة بمراكش
والاستيلاء على كرسي الدعوة . وكان يرى ان بمظاهرة زناتة له
على شأنه يتم له ما يسمو اليه من ذلك ، فكان يداخل امراء
زناتة فيه ويرغّبهم ويراسلهم بذلك على الاحياء من بني مرين وبني
عبد الواد وتوجين ومغراوة . وكان يُغْمُراسن منذ تقلّد طاعة
ال عبد المؤمن اقام دعوتهم بعمله متحيزاً اليهم سلماً لوليهم وحرباً
على عدوهم . وكان الرشيد منهم قد ضاعف له البر والخلوص ،
وخطب منه مزيد الولاية والمصافاة ، وعاوده الاتحاف بأنواع
الالطاف والهدايا تغمنا[(٢)] لمسراته ، وميلاً اليه عن جانب أقتاله
بني مرين المجلبين على المغرب والدولة ، فاستكبر السلطان أبو

(١) كذا، وفي ب: ابن برتمار، وفي نسخة: ابن لمان.
(٢) كذا بالأصل، وهو تحريف ظاهر. وفي ب: تضمناً، وفي نسخة تيمماً.

زكرياء اتصال الرشيد هذا بيغمراسن واله ، وهم جواره بالمحل القريب . وبينما هو على ذلك اذ وفد عليه عبد القوي امير بني توجين وبعض ولد منديل بن عبد الرحمن أمراء مغراوة صريخاً على يغمراسن فسهلوا له أمره ، وسوّلوا له الاستبداد على تلمسان . وجمع كلمة زناتة ، واعداد ذلك ركاباً لما يرومه من امتطاء ملك الموحدين بمراكش وانتظامه في أمره وسلما لارتقاء ما يسمو اليه من ملكه ، وباباً لولوج المغرب على اهله ، فحركه املاؤهم وهزّه الى النعرة صريخهم ، وأهاب بالموحدين وسائر الاولياء والعساكر الى الحركة على تلمسان . واستنفر لذلك سائر البدو من الاعراب الذين في طاعته من بني سليم ورياح بظعنهم ، فاهطعوا لداعيه .

ونهض سنة تسع وثلاثين في عساكر ضخمة وجيوش وافرة . وسرح امام حركته عبد القوي بن العباس واولاد منديل بن محمد لحشد من بأوطانهم من احياء زناتة وذؤبان قبائلهم واحياء زغبة احلافهم من العرب . وضرب معهم موعداً لموافاتهم في في تخوم بلادهم . ولما نزل صحراء زاغر قبلة تيطري منتهى مجالات رياح وبني سليم من المغرب ، تثاقل العرب عن الرحلة بظعنهم في ركاب السلطان ، وتلووا بالمعاذير فالطف الامير ابو زكرياء الحيلة . زعموا في استنهاضهم وتنبيه عزائمهم ، فارتحلوا معه حتى نازل تلمسان بجميع عساكر الموحدين وحشود زناتة

وظعن العرب بعد ان كان قدم الى يغمراسن الرسل من مليانة بالأعذار والدعاء الى الطاعة ، فرجّعهم بالخيبة . ولما حلّت عساكر الموحدين بساحة البلد ، وبرز يغمراسن وجموعه للقاء بصحبتهم ناشـئة السلطان بالنبل ، فانكشفوا ولاذوا بالجدران وعجزوا عن حماية الأسوار ، فاستمكنت المقاتلة من الصعود . ورأى يغمراسن ان قد احيط بالبلد فقصد باب العقبة من ابواب تلمسان ملتفاً في ذويه وخاصته . واعترضه عساكر الموحدين فصمم نحوهم وجندل بعض ابطالهم فافرجوا له ، ولحقوا بالصحراء ونسلت الجيوش الى البلد من كل حدب ، فاقتحموه وعاثوا فيه بقتل النساء والصبيان واكتساح الأموال .

ولما تجلى غشي تلك الهيعة ، وحسر تيّار الصدمة ، وخمدت نار الحرب ، راجع الموحدون بصائرهم وانعم الامير ابو زكريا نظره فيمن يقلّده امر تلمسان والمغرب الأوسط ، وينزله بثغرها لاقامة دعوته الدائلة من دعوة بني عبد المؤمن والمدافعة عنها . واستكبر ذلك اشرافهم وتدافعوه وتبرّأ امراء زناتة ضعفاً عن مقاومة يغمراسن علماً بأنّه الفحل الذي لا يُقْرَع أنفه ، ولا يطرق غيله ولا يصد عن فريسته .

وسرح يغمراسن الغارات في نواحي المعسكر فاختطف الناس من حوله ، واطلعوا من المراقب عليه . ثم بعث وفده متطارحين

على السلطان في الملامة والاتفاق، واتصال اليد على صاحب مراكش طالب الوتر في تلمسان وافريقية. وان يفرده بالدعوة الموحدية فاجابه الى ذلك. ووفدت أمه سوط النساء للاشتراط والقبول فأكرم موصلها واسنى جائزتها، واحسن وفادتها ومنقلبها، وسوّغ ليغمراسن في شرطه بعض الاعمال بافريقية، واطلق ايدي عماله على جبايته، وارتحل الى حضرته لسبع عشرة ليلة من نزوله.

وفي اثناء طريقه وسوس اليه الموحدون باستبداد يغمراسن، واشاروا باقامة منافسيه من زناتة وامراء المغرب الأوسط شجى في صدره، ومعترضاً عن مرامه، والباسهم ما لبس من شارة السلطان وزيّه، فاجابهم وقلد كلاًّ من عبد القوي بن عطية التوجيني، والعباس بن منديل المغراوي ومنصور المليكشي أمر قومه ووطنه، وعهد اليهم بذلك واذن لهم في اتخاذ الالة والمراسم السلطانية على سنن يغمراسن قريعهم، فاتخذوه بحضرته وبمشهد من ملأ الموحدين. وأقاموا مراسمها ببابه. وأغذّ السير الى تونس قرير العين بامتداد ملكه، وبلوغ وطره والاشراف على اذعان المغرب لطاعته وانقياده لحكمه، وادالة دعوة بني عبد المؤمن فيه بدعوته، فدخل الحضرة واقتعد أريكته وانشده الشعراء في الفتح، واسنى جوائزهم وتطاولت اليه اعناق الافاق كما نذكره.

الخبر عن دخول أهل الأندلس في الدعوة الحفصية ووصول بيعة اشبيلية وكثير من أمصارها

كان باشبيلية أبو مروان احمد الباجي من أعقاب أبي الوليد وابو عمرو بن الجدّ من اعقاب الحافظ أبي بكر الطائر الذكر ، ورثا التجِلّة عن جدّهما واجراهما الخلفاء على سننهم . وكانا مسمّيين وقورين متبوعين من اهل بلدهما مطاعين في افقهما . وكان السادة من بني عبد المؤمن يعوّلون على شوراهما في مِصْرِهما . وكان بعدوة الاندلس التياث في الملك منذ وفاة المستنصر ، وانتزى بها السادة وافترقوا . وثار بشرق الاندلس ابن هود وزيّان بن مردنيش ، وبغربها ابن الاحمر . وغلب ابن هود الموحدين وأخرجهم عنها . وملك ابن هود اشبيلية سنة ست وعشرين واعتقل من كان بها من الموحدين . ثم انتقضوا عليه سنة تسع بعدها واخرجوا اخاه ابا النجاة سالما ، وبايعوا الباجي وتسمى بالمعتضد ، واستوزر أبا بكر بن صاحب الرد ، ودخلت في بيعته قرمونة وحاصره ابن هود فوصل الباجي يده بمحمد بن الأحمر الثائر بارجونة وجيان بعد ان ملك قرطبة .

وزحف ابن هود اليهم فلقوه وهزموه ، ورجعوا ظافرين ، فدخل الباجي الى اشبيلية وعسكر بخارجها ، ثم انتهز فرصته في

اشبيلية وبعث قريبه ابن اشقيلولة مع اهل ارجونة والنصارى الى فسطاط الباجي فتقبّضوا عليه وعلي وزيره وقتلوهما سنة احدى وثلاثين . ودخل ابن الاحمر اشبيلية ، ولشهر من دخوله اليها ثار عليه اهلها ورجعوا الى طاعة ابن هود ، وولّى عليهم اخاه ابا النجاة سالماً . ولما هلك محمد بن هود سنة خمس وثلاثين صرف اهل اشبيلية طاعتهم الى الرشيد بمراكش ، وولوا على انفسهم محمد بن السيد أبي عمران الذي قدمنا انه كان والياً بقسطنطينة ، وان الامير ابا زكرياء غلبه عليها واعتقله ، وبعث ولده الى الاندلس فربي محمد هذا في كفالة امه باشبيلية . ولما سار اهل اشبيلية للرشيد قدموه على انفسهم ، وتولى كِبرَ ذلك ابو عمرو بن الجد ، وبعثوا وفدهم الى الحضرة فاقرّ السيد أبا عبد الله علي ولايتهم . واستمرت في دعوة الرشيد الى ان هلك سنة اربعين . وقد ملك الامير ابو زكرياء تلمسان واشرف علي اعمال المغرب ، فاقتدوا بمن تقدم الى بيعته من اهل شرق الاندلس ببلنسية ومرسية ، وبايعوا للامير ابي زكرياء بن أبي محمد بن أبي حفص واقتدى بهم أهل شريش وطريف ، وبعثوا اليه وفدهم ببيعته سنة احدى واربعين . وسألوا منه ولاية بعض اهل قرابته فولى عليهم ابا فارس ابن عمه يونس بن الشيخ أبي حفص ، فقدم اشبيلية وقام بامرها ، وسلم له ابن الجد في نقضها وابرامها

ثم انتقض عليه سنة ثلاث واربعين وطرده من البلد الى سبتة واستبد بامر اشبيلية ، ووصل يده بالطاغية . وعقد له السلم وضرب على أيدي اهل المغاورة من الجند واسقطهم من ديوانه فقتلوه بإملاء قائدهم شفاف[1] واستقل بامر اشبيلية . ورجّع ابا فارس بن أبي حفص وولاه بدعوة الامير ابي زكرياء فسخطهم الطاغية لذلك وانتقض عليهم وملك قرمونة ومرشانة . ثم زحف الى حصرهم وسألوه الصلح فامتنع . وصار امر البلد شورى بين القائد شفاف وابن شُعَيب ويحيى بن خلدون ومسعود ابن خيار وأبي بكر بن شريح ، ويرجعون في امرهم اخراً الى الشيخ أبي فارس بن أبي حفص

واقاموا في هذا الحصار سنتين ونازلهم ابن الاحمر في جملة الطاغية ، وبعث اليهم الامير ابو زكرياء المدد ، وجهز له الاسطول لنظر أبي الربيع بن الغريغر التينمللي . واوعز له الى سبتة بتجهيز اسطولهم معه فوصل الى وادي اشبيلية ، وغلبهم اسطول الطاغية على مرسية فرجع . واستولى العدو عليها صلحاً سنة ست واربعين بعد ان اعانهم ابن الاحمر بمدده وميرته . وقدم الطاغية على اهل الدخن بها عبدالحق بن أبي محمد البياسي من آل عبد المؤمن ، والامر لله .

---

(١) كذا، وفي ب: شقاف.

الخبر عن بيعة أهل سبتة وطنجة وقصر ابن عبد الكريم وتصاريف أحوالهم ومآل أمرهم

كان اهل سبتة بعد اقلاع المأمون عنهم، ونزول اخيه موسى عنها لابن هود قد انتقضوا واخرجوا عنهم القشتيني والي ابن هود، وقدموا عليهم احمد الينشتي وتسمى بالموفق. ثم رجعوا الى طاعة الرشيد عندما بايعه اهل اشبيلية سنة خمس وثلاثين. وتقبّضوا على الينشتي وابنه وادخلوا السيد ابا العباس ابن السيّد أبي سعيد، كان والياً بغمراة فولّوه عليهم. ثم عقد الرشيد على ديوان سبتة لأبي عليّ بن خلاص، كان من اهل بلنسية واتصل بخدمة الرشيد فجلى فيها، ودفعه الى الاعمال فضبطها فولاه سبتة فاستقل بها. وولى على طنجة يوسف ابن الامير قائداً على الرحل الاندلسي وضابطاً لقصبتها. حتى اذا هلك الرشيد سنة أربعين، وقد استفحل أمر الامير أبي زكريا بافريقية، واستولى على تلمسان وبايعه الكثير من أمصار الاندلس، فصرف ابن خلاص وجهه اليه.

وكان قد اقتنى الاموال واصطنع الرجال، فدخل في دعوته، وبعث الوفد ببيعته. واقتدى به في ذلك اهل قصر ابن عبد الكريم فبعثوا بيعتهم للامير أبي زكريا. وعقد لابن

خلاص على سبتة وما اليها ، فبعث بالهدية اليه في أسطول انشأه لذلك سمّاه الميمون ، واركب ابنه ابا القاسم فيه وافداً على السلطان ، ومعه الأديب ابراهيم بن سهل ، فعطب عند اقلاعه. ولما رجع الاسطول من اشبيلية كما قدّمناه على بقية هذا العطب وحزن أبي عليّ بن خلاص على ابنه ، رغب من قائده أبي الربيع بن الغُرَيْغِر أن يحمله بجملته الى الحضرة ، فانتقل باهله واحتمل ذخيرته . ولما مرّ الأسطول بمرسى وُهران نزل بساحلها فأراح ، وأحضِرَ له تين فأكله فأصابه مغص في معاه هلك منه فجاءة سنة ست وأربعين . وعقد السلطان على سبتة لأبي يحيى ابن زكريا ابن عمه أبي يحيى الشهيد بن الشيخ أبي حفص . وبعث معه على الجباية ابا عمر بن أبي خالد الاشبيلي ، كان صديقاً لشفاف وعدواً لابن الجد . ولما قتل شفاف لحق بالحضرة فولّاه الامير أبو زكريا اشغال سبتة ، واستمرت الحال الى ان كان من استبداد العزفي بسبتة ما نذكره .

الخبر عن بيعة المرية

لما هلك محمد بن هود بالمريّة سنة خمس وثلاثين كما ذكرناه واستبدّ وزيره ابو عبد الله محمد بن الرميمي بها ، وضبطها لنفسه وضايقه ابن الاحمر فبعث ببيعته سنة أربعين إلى الامير أبي زكريا

حين أخذ اهل شرق الاندلس بطاعته . ولم يزل ابن الاحمر يحاصره الى ان تغلّب عليه سنة ثلاث واربعين كما ذكرناه في اخباره . وخرج منها الى سبتة باهله وذخيرته ، وأحلّه ابو علي ابن خلاص محل البرّ والتكرمة ، وانزله خارج المدينة في بساتين بنيونش ، وأجمع الثورة بأبي خلاص ، فنذر به وتغيّر له . فلما رجع الأسطول من اشبيلية ركبه الرميمي ولحق بتونس ، فنزل على الامير أبي زكريا وحل من حضرته محل التكرمة . واستوطن تونس ، وتملك بها الضياع والقرى ، وشيّد القصور الى ان هلك والبقاء لله وحده .

الخبر عن بيعة ابن الاحمر

كان محمد بن الاحمر قد انتزى على ابن هود ببلده ارجونة ، وتملّك جَيّان وقُرْطُبَة واشبيلية وغرب الاندلس وطالت فتنته مع ابن هود وراجع طاعته . ثم انتقض عليه وبايع الرشيد سنة ست وثلاثين عندما بايعه اهل اشبيلية وسبتة ، فلم يزل على ذلك الى ان هلك الرشيد على حين استفحال ملك الامير أبي زكريا بافريقية وتأميله للنصرة والكرة ، فحول ابن الأحمر اليه الدعوة ، وأوفد بها ابا بكر بن عيّاش من مشيخة مالقّة فرجعهم الامير أبو زكريا بالاموال للنفقات الجهادية . ولم يزل يواصلها لهم

من بعد ذلك الى ان هلك سنة سبع واربعين ، فأطلق ابن الاحمر نفسه من عقال الطاعة واستبدّ بسلطانه .

الخبر عن بيعة سجلماسة وانتقاضها

كان عبد الله بن زكريا الهزرجي من مشيخة الموحدين والياً بسجلماسة لبني عبد المؤمن . ولما هلك الرشيد وبويع اخوه السعيد سنة اربعين ، ونميت اليه عن الهزرجي عظيمة من القول خشن بها صدره وبعث اليه مستعتباً فلم يعتبه . ومزّق كتابه فخشيه الهزرجي على نفسه ، واتصل به ما كان من استيلاء الأمير أبي زكرياء على تلمسان ونواحيها ، فخاطبه بطاعته واوفد عليه بيعته ، فعقد له الأمير أبو زكرياء على سجلماسة وانحائها ، وفوض اليه في أمرها ووعده بالمدد من المال والعسكر لحمايتها . وخطب له عبد الله بسجلماسة ، وفرّ اليه من مراكش أبو زيد الكدميوي ابن واكاك ، وأبو سعيد العود الرطب ، فلحق بتونس . وأقام ابو زيد معه بسجلماسة . وزحف اليه السعيد سنة احدى واربعين ، وقيل سنة اربعين ، ومن معسكره كان مفرّ اولئك المشيخة . وخاطب السعيد اهل سجلماسة وداخلهم ابو زيد الكدميوي فغدروا بالهزرجي وثاروا به ، فخرج من سجلماسة واسلمها وقام بأمرها ابو زيد الكدميوي . وطيّر بالخبر

الى السعيد فشكر له فعلته ، وغفر له سالفته . وتقبّض على عبد الله المزرجي بعض الاعراب ، وامكن منه السعيد فقتله وبعث برأسه الى سجلماسة فنصب بها ، ورجع من طريقه الى مراكش واقامت سجلماسة على دعوة عبد المؤمن الى ان كان من خبرها ما نذكره في موضعه .

الخبر عن بيعة مكناسة وما تقدمها من طاعة بني مرين

كان بين بني عبد الواد وبين بني مرين منذ أوليتهم وتقلّبهم في القفار فتن وحروب ، ولكل منهما أحلاف في المناصرة وأشياع . فلما التاثت دولة بني عبد المؤمن غلب كل منهما على موطنه ، وكانت السابقة في ذلك لبني عبد الواد ليعدهم عن حضرة مراكش حيث محشر العساكر ويعسوب القبائل . ولما استبد الأمير ابو زكرياء بأمر افريقية ، ودوخ المغرب الأوسط وافتتح تلمسان ، واطاعه بنو عبد الواد ، حذر بنو مرين حينئذ غائلتهم . وخافوا ان يظاهرهم الامير ابو زكرياء عليهم ، فالانوا له في القول ولاطفوه على البعد بالطاعة ، وخاطبوه بالتمويل ، واوجبوا له حق الخلافة ، ووعدوه ان يكونوا انصاراً لدعوته واعواناً في امره ، ومقدّمة في عسكره الى مراكش وزحفه . وحملوا من تحت ايديهم من قبائل المغرب وامصاره على طاعتهم ،

والاعتصام ببيعتهم ولم تزل المخاطبات بينهم وبين الامير أبي زكرياء في ذلك من أميرهم عثمان بن عبد الحق واخيه محمد من بعده . ورسلهم تفد عليه بذلك مرة بعد أخرى الى ان هلك الرشيد . وقد استولى الامير ابو زكرياء على تلمسان ، ودخل في دعوته قبائل زناتة بالمغرب الأوسط واستشرف أهل الأمصار من المُدْوَتَيْن الى ايالته . وكان اهل مكناسة قد اعتصموا بوصلة الأمير أبي يحيى بن عبد الحق ، وجاءهم والٍ من مراكش وأساء فيهم السيرة فتوثّبوا به وقتلوه . وبعثوا الى الامير أبي يحيى بن عبد الحق ، فحملهم على بيعة الأمير أبي زكرياء فانفذوها من انشاء قاضيهم أبي المطرف بن عميرة سنة ثلاث واربعين . وضمن ابو يحيى بن عبد الحق حمايتهم خلال ما يأتيهم أمر السلطان من تونس ومدده . وبلغ الخبر الى السعيد فارهف حدّه واعتزم على النهوض اليهم فخامهم الرعب ، وراجعوا طاعته واوفدوا صلحاءهم وعلماءهم في الاقالة واغتفار الجريرة ، فتقبّل ذلك الى ان كان من حركته بعد ذلك ومهلكه ما هو معروف .

الخبر عن مهلك الأمير أبي يحيى زكريا ولي العهد بمكان امارته من بجاية وتصيير العهد الى أخيه محمد

كان الامير ابو زكرياء قد عقد لابنه أبي يحيى زكرياء على ثغر بجاية قاعدة ملك بني حمّاد ، وجعل اليه النظر في سائر اعمالها

من الجزائر وقُسَنْطِينَة وبونة والزاب سنة ثلاث وثلاثين كما ذكرناه ، فاستقل بذلك ، وكان بمكان من الترشيح للخلافة بنفسه وجلاله ، وانتظامه في سلك اهل العلم والدين وايناس العدل . فولّاه الامير أبو زكرياء عهده سنة ثمان وثلاثين ، واحضر الملأ لذلك واشهدهم في كتابه ، واوعز بذكره في الخطبة على المنابر مع ذكره . وكتب اليه بالوصيّة التي تداولها الناس من كلامه ونصها :

أعلم سدّدك الله وارشدك ، وهداك لما يرضيه واسعدك ، وجعلك محمود السيرة ، مأمون السريرة ، ان أول ما يجب على من استرعاه الله في خلقه ، وجعله مسؤولاً عن رعيته في جُلّ امرهم ودقه ، ان يقدّم رضى الله عز وجل في كل امر يحاوله ، وأن يكل أمره وحوله وقُوّته لله ، ويكون عمله وسعيه وذبه عن المسلمين ، وحربه وجهاده للمؤمنين ، بعد التوكل عليه ، والبراءة من الحول والقوة اليه . ومتى فجأك أمر مقلق ، او ورد عليك نبأ مرهق ، فر يض لبّك ، وسكّن جاشك ، وارع عواقب امر تأتيه ، وحاوله قبل ان ترد عليه وتغشيه . ولا تُقْدِمْ اقدام الجاهل ، ولا تحجم احجام الاخرق المتكاسل . وأعلم ان الامر اذا ضاق مجاله ، وقصر عن مقاومته رجاله ، فمفتاحه الصبر والحزامة والأخذ مع عقلاء الجيش ورؤسائهم ، وذي التجارب من نبهائهم . ثم الاقدام عليه ، والتوكل على الله فيما

لديه ، والاحسان لكبير جيشك وصغيره الكثير على قدره ، والصغير على قدره. ولا تلحق الحقير بالكبير فتجري الحقير على نفسك ، وتغلّطه في نفسه وتفسد نية الكبير وتؤثره عليك ، فيكون احسانك اليه مفسدة في كلا الوجهين ، ويضيع احسانك وتشتت نفوس من معك.

واتّخذ كبيرهم أباً وصغيرهم ابناً ، واخفض لهم جناح الذلّ من الرحمة ، وشاورهم في الأمر ، فاذا عزمت فتوكّل على الله ، انّ الله يُحِبُّ المتوكلين. واتخذ نفسك صغيرة ، وذاتك حقيرة ، وحقّر امورك ، ولا تستمع اقوال الغالطين المغلطين ، بأنّك اعظم الناس قدراً ، واكثرهم بذلاً ، واحسنهم سيرة وأجملهم صبراً ، فذلك غرور وبهتان وزور.

واعلم انّ من تواضع لله رفعه الله. وعليك بتفقّد احوال رعيّتك والبحث عن عمالهم والسؤال عن سير قضاتهم فيهم ، ولا تنمّ عن مصالحهم ، ولا تسامح احداً فيهم. ومهما دعيت لكشف مُلِمَّة فاكشفها عنهم ، ولا تراع فيهم كبيراً ولا صغيراً اذا عدل عن الحق. ولا تراع في فاجر ولا متصرف إلاً ولا ذمّة ، ولا تقتصر على شخص واحد في رفع مسائل الرعيّة والمتظلمين. ولا تقف عند مراده في أحوالهم.

واتخذ لنفسك ثقاة صادقين مصدقين ، لهم في جانب الله أوفر نصيب ، وفي رفع مسائل خلقه اليك أسرع مجيب. وليكن

سؤالك لهم افذاذ [1] ، فأنك متى اقتصرت على شخص واحد في نقله ونصحه ، حمله الهوى على الميل ، ودعته الحمّية الى تجنب الحق ، وترك قول الصدق . واذا رفع اليك احد مظلمة ، وانت على طريق ، فأدعه اليك وسله حتى يوضح قصته لك . وجاوبه جواب مشفقٍ مصغٍ الى قوله ، مصيخ الى نازلته ونقله ، ففي اصاختك له وحنوّك عليه أكبر تأنيس ، وللسياسة والرئاسة في نفوس الخاصة والعامة ، والجمهور أعظم تأسيس .

وأعلم ان دماء المسلمين واموالهم حرام على كل مؤمنٍ بالله واليوم الآخر إلّا في حق أوجبه الكتاب والسنة ، وعضدته اقاويل الشرعيّة والحجة ، أو في مفسد عائث في طرقات المسلمين واموالهم جار على غيه في فساد صلاحهم واحوالهم ، فليس إلّا السيف فان أثره عفاء ووقعه لداء الأدمغة الفاسدة دواء ، ولا تقل عثرة حسود على النعم ، عاجز عن السعي ، فان اقالته تحمله على القول ، والقول يحمله على الفعل ، ووبال عمله عائد عليك . فاحسم داءه قبل انتشاره ، وتدارك أمره قبل إظهاره ، واجعل الموت نصب عَيْنَيك ، ولا تغترّ بالدنيا وان كانت في يَدَيك . لا تنقلب إلى ربّك إلّا بما قدّمته من عمل صالح ومتجر في مرضاته رابح .

واعلم ان الايثار اربح المكاسب وانجح المطالب ، والقناعة

(١) الفذ: الفرد. جمع أفذاذ وفذوذ.

مال لا ينفد . وقد قال بعض المفسرين في قوله عزّ من قائل : ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ﴾ انه النبأ الحسن في الدنيا على ما خلّد فيها من الأعمال المشكورة ، والفعلات الصالحة المذكورة . فليكفك من دنياك ثوب تَلبسُه وفرس تذُبُّ به عن عباده . وارجو بك متى جعلت وصيّتي هذه نصب عينيك ، لم تعدم من رّبك فتحاً يُيَسّره على يديك ، وتأييداً ملازماً لا يبرح عنك إلّا إليك ، بمنّ الله وحوله وطوله . والله يجعلك ممن سمع فوعى ، ولبّى داعي الرشد إذ دعا ، إنّه على كلّ شي قدير ، وبالاجابة جدير ، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

تمت الوصيّة المباركة ، فعظم ترشيح الأمير أبي يحيى لذلك ، وعلا في الدولة كعبه ، وقوي عند الكافة تأميله ، وهو بحالة من النظر في العلم والجنوح للدين ، إلى ان هلك سنة ست واربعين ، فأسى له السلطان ، واحتفل الشعراء في رثائه وتأبينه ، فكانوا يثيرون بذلك شجو السلطان ، ويبعثون حزنه ، وعقد العهد من بعده لأخيه الأمير أبي عبد الله محمد ، بحضور الملأ ، وايداع الخاصة كتابهم بذلك في السجل ، إلى ان كان من خلافته ما نذكره بعد .

الخبر عن مهلك السلطان أبي زكريا وما كان عقبه من الأحداث

كان السلطان أبو زكرياء قد خرج من تونس الى جهة قُسَنْطِينَة للاشراف على احوالها ، ووصل الى باغاية فعرض العساكر بها ، ووافته هنالك الدواودة ، وشيخهم موسى بن محمّد . وكان منه اضطراب فى الطاعة فاستقام . واصاب السلطان هنالك المرض فرجع الى قسطنطينة . ثم ابلّ من مرضه ، ووصل منها الى بونة ، فراجعه المرض . ولما نزل بظاهر بونة اشتدّ به مرضه . وهلك لسبع بقين من جمادى الآخرة سنة سبع واربعين لاثنتين وعشرين سنة من ولايته ، ودفن بجامع بونة . ثم نقل شلوه بعد ذلك الى قسطنطينة سنة ست وستين بين يدي حصار النصارى تونس . وبويع اثر مهلكه ابنه وليّ عهده ابو عبد الله محمد كما نذكره . وطار خبر مهلكه في الآفاق ، فانتقض كثير من أهل القاصِيَة ، ونبذوا الدعوة الحفصيّة ، وعطل ابن الأحمر منابره من الدعوة الحفصِيّة . وتمسّك بها يُغْمُراسِن بن زيّان صاحب المغرب الاوسط ، فلم يزالوا عليها حيناً من الدهر ، الى ان انقطعت في حصار تلمسان كما نذكره . ولما بلغ الخبر بمهلكه الى سبتة ، وكان بها أبو يحيى بن الشهيد من قبل الأمير أبي زكرياء كما نذكره ، وابو عمرو بن أبي خالد ، والقائد شفاف ، فثارت

العامة وقتل ابن أبي خالد وشفاف ، وطردوا ابن الشهيد فلحق بتونس . وتولى كبر هذه الثورة حجبون الرنداحي بمداخلة أبي القاسم العزفي .

واتفق الملأ على ولاية العزفي ، وحوّلوا الدعوة للمرتضى ، وذلك سنة سبع واربعين . وتبعهم اهل طنجة في الدعوة ، واستبدّ بها ابن الامير ، وهو يوسف بن محمد بن عبد الله بن أحمد الهمداني ، كان والياً عليها من قبل أبي علي بن خلاص . فلما صار الامر للعزفي والقائد حجبون الرنداحي ، خالفهم هو الى الدعوة الحفصية ، واستبدّ عليهم . ثم خطب للعباسي واشرك نفسه معه في الدعاء ، الى ان قتله بنو مرين غدراً كما نذكره ، وانتقل بنوه الى تونس ومعهم صهرهم القاضي ابو الغنم عبد الرحمن ابن يعقوب من جالية شاطِبَة ، انتقل هو وقومه الى طنجة أيام الجلاء ، فنزلوا بها واصهر اليهم بنو الأمير ، وارتحلوا معهم الى تونس . وعرف دين القاضي أبي القاسم وفضله ومعرفته بالأحكام والوثائق ، واستعمل في خطة القضاء بالحضرة ايام السلطان ، وكان له فيها ذكر .

ولما بلغ الخبر بمهلك الأمير أبي زكريا الى صقلية أيضاً ، وكان المسلمون بها في مدينة بلرم قد عقد لهم السلطان مع صاحب الجزيرة على الاشراك في البلد والضاحية ، فتساكنوا

حتى اذا بلغهم مهلك السلطان بادر النصارى الى العيث فيهم فلجؤوا الى الحصون والأوعار، ونصبوا عليهم ثائرا من بني عبس، وحاصرهم طاغية صقلية بمعقلهم من الجبل. وأحاط بهم حتى استنزلهم. وأجازهم البحر الى عدوته، وانزلهم بوجاره من عمائرها. ثم تعدى الى جزيرة مالطة فأخرج المسلمين الذين كانوا بها، وألحقهم باخوانهم. واستولى الطاغية على صقلية وجزائرها. ومحا منها كلمة الاسلام بكلمة كفره، والله غالب على أمره.

الخبر عن بيعة السلطان ابي عبد الله المستنصر وما كان في أيامه من الحوادث

لما هلك الأمير ابو زكريا بظاهر بونة سنة سبع وأربعين كما قدمناه اجتمع الناس على ابنه الأمير أبي عبد الله، وأخذ له البيعة عمه محمد اللحياني على الخاصة وسائر اهل العسكر، وارتحل الى تونس فدخل الحضرة ثالث رجب من السنة، فجدّد بيعته يوم وصوله وتلقّب المستنصر بالله. ثم جدد البيعة بعد حين، واختار لوضع علامته: « الحمد لله، والشكر لله » وقام باعباء ملكه، وتقبض على خاصة ابيه الخصي كافور، كان قهرمان داره، فاشخصه الى المهدية، وأوعز الى الجهات بأخذ البيعة على أهل العمالات فترادفت من كل جانب. واستوزر ابو عبد الله ابن ابي مهدي، واستعمل على القضاء أبا زيد التوزري وكان

يعلم ولد عمه محمد اللحياني الثائر عليه كما نذكره .

الخبر عن ثورة ابن عمه محمد اللحياني ومقتله ومقتل أبيه

كان للامير أبي زكريا من الاخوة اثنان : محمد وكان أسن منه ويعرف باللحياني لطول لحيته ، والاخر أبو ابراهيم ، وكان بينهم من المخالصة والمصافاة ما لا يعبر عنه . ولما هلك الأمير ابو زكريا ، وقام بالأمر ابنه ابو عبد الله المستنصر ، واستوزر محمد بن أبي مهدي الهنتاتي ، وكان عظيماً في قومه ، فأمل ان يستبدّ عليه لمكان صغره ، اذ كان في سنّ العشرين ونحوها . واستصعب عليه حجر السلطان بما كان له من الموالي العلوجيين ، والصنائع من بيوت الاندلس . فقد كان ابوه اصطنع منهم رجالاً ، ورتب جنداً كثروا الموحدين وزاحموهم في مراكزهم من الدولة . فداخل ابن أبي مهدي أخوي السلطان ، وبعث عندهما الأسف على ما فاتهما من الأمر ، فلم يجد عندهما ما أمّل من ذلك . فرجع الى ابن محمد اللحياني ، فأجابه الى ذلك . وبايعه ابن أبي مهدي سراً ، ووعده المظاهرة . ونمي الخبر بذلك الى السلطان من عمّه محمد اللحياني وحذره من غائلة ابنه ، وأبلغه ذلك ايضاً القاضي أبو زيد التوزري منتصحاً .

وباكر ابن أبي مهدي مقعده للوزارة بباب السلطان لعشرين من جمادى سنة ثمان وأربعين ، وتقبض على الوزير أبي زيد بن

جامع . وخرج ومشيخة الموحّدين معه ، فبايعوا لابن محمد اللحياني بداره ، واستركب السلطان اولياءه . وعقد للقائد ظافر على حربهم فخرج في الجند والاولياء ، ولقي الموحدين بالمصلّى خارج البلد ، ففضّ جمعهم ، وقتل ابن أبي مهدي وابن وازكلدن وسار ظافر مولى السلطان الى دار اللحياني عمّ السلطان فقتله وابنه صاحب البيعة ، وحمل رؤوسهما الى السلطان . وقتل في طريقه اخاه ابا ابراهيم وابنه ، وانتهب منازل الموحدين وخربت . ثم سكنت الهيعة وهدأت الثائرة ، وعطف السلطان على الجند والاولياء وأهل الاصطناع ، فأدرّ أرزاقهم ووصل تفقّدهم . وأعاد عبد الله بن أبي الحسين الى مكانه بعد ان كان هجر اول الدولة ، وتزحزح لابن أبي مهدي عن رتبته ، وتضاءل لاستطالته ، فرجع الى حاله واستقامت الامور على ذلك . ثم سعى عند السلطان بمولاه الظافر ، وقبحوا عنده ما اتاه من الافتيات في قتل عميه من غير جرم . ونذر بذلك فخشي البادرة ولحق بالدواودة ، وكان المتولي لكبر هذه السعاية هلال مولاه ، فقعد له مكانه واستنفر ظافر في جوار العرب طريداً ، الى ان كان من أمره ما كان .

الخبر عن الآثار التي أظهرها السلطان في أيامه

فمنها شروعه في اختطاط المصانع الملوكية ، وأولها المصيد

بناحية بنزرت . اتخــذه للصيد سنة خمسين ، فأدار سياجاً عـلى بسيط من الأرض قد خرج نطاقه عن التحديد ، بحيث لا يُراع فيـه سرب الوحش ، فاذا ركب للصيد تخطّى ذلك السياج الى قوره في لِمَّة من مواليه المتخصين [1] واصحاب بيزرته ، بما معهم من الجوارح بزاة وصقوراً وكلاباً سلوقيــة وفهودا ، فيرسلونهــا على الوحش في تلك القوراء ، وقد وثقوا باعتراض البناء لها من امام فيقضي وطراً من ذلك القنيص سائر يومــه ، فكان ذلك من أفخم ما عمل في مثلهــا . ثم وصل ما بين قصوره ورياض رأس الطائبة [2] بحائطين ممتدَّين يجوزان عرض العَشَرة أذرع او نحوها طريقاً سالكا ما بينهما ، وعلى ارتفاع عشرة اذرع يحتجب بــه الحرم في خروجهنّ الى تلك البساتين عن ارتفــاع العيون عليهنّ ، فكان ذلك مصنعاً فخماً واثراً على ايام الدولة خالدا .

ثم بنى بعــد ذلك الصرح العالي بفناء داره ويعرف بقبــة اساراك . واساراك باللسان المصمودي هو القوراء الفسيحــة . وهــذا الصرح هو ايوان مرتفع السمك متباعد الأقطـار متسع الأرجاء يشرع منه الى الغرب ، وجانبيه ثلاثة ابواب لكل باب منها مصرعان من خشب مؤلف الصنعة ينوء كل مصراع منهــا في فتحه وغلقه بالعصبة اولي القوة . ويفضي بابها الأعظم المقابل

---

(١) كذا، والأصح : خصية أو خصيان جمع خصي.

(١) كذا، وفي ب : الطابية.

لسمت الغرب الى معارج قد نصّت للظهور عليها عريضة ما بين الجوف الى القبلة بعرض الايوان ، يناهز عددها الخمسين او نحوها ، ويفضي البابان عن جانبيه الى طريقين ينتهيان الى حائط القوراء . ثم ينعطفان الى ساحة القوراء يجلس السلطان فيها على اريكته مقابل الداخل ايام العرض والفود[1] ومشاهد الأعياد ، فجاءت من أضخم الاواوين واحفل المصانع التي تشهد بأبّهة الملك وجلالة الدولة .

واتخذ أيضاً بخارج حضرته البستان الطائر الذكر المعروف بأبي فِهْر ، يشتمل على جنّاتٍ معروشات وغير معروشات ، اغترس فيها من شجره كلُّ فاكهةٍ من أصناف التين والزيتون والرمّان والنخيل والاعناب ، وسائر الفواكه واصناف الشجر . ونضّد كل صنف منها في دوحة حتى لقد اغترس من السدر والطلح والشجر البريّ ، وسمّى دوح هذه بالشِعْراء واتخذ وسطها البساتين والرياض بالمصانع والحوائر[2] وشجر النَوْرِ والنُزَهِ من اللّيم والنارِنْج والسَرْو والرَيحان ، وشجر الياسمين والخيري والنيلوفر وأمثاله . وجعل وسط هذه الرياض روضاً فسيح الساحة ، وصنع فيه للماء حائرا من عداد البحور ، جلب اليه الماء في القناة القديمة ، كانت ما بين عيون زغوان وقرطجنة

---

(١) كذا، وفي ب: والقود.

(٢) كذا، وفي ب: والحدائق.

تسلك بطن الارض في أماكن ، وتركب البنـاء العاديّ ذا الهياكل الماثلة والقسي القائمـة على الأرجل الضخمة في أخرى ، فعطف هذه القناة من أقرب السموات الى هذا البُستان . وأمطاها حائطاً وصل ما بينهما حتى ينبعث من فوهـة عظيمة الى جب عميق المهوى ، رصيف البناء متباعد الاقطـار مربّع القنا مجلل بالكلس ، الى ان يقممه الماء فيرسله في قناة اخرى قريبة الغاية ، فتنبعث في الصهريج الى ان يفهق حوضه ، وتضطرب امواجه تترفه الخطايا عن السمي بشاطئه لبعد مداه فيركبن في الجواري المنشئات ثبجه فيتبارى بهنّ تباري الفتح ، ومثلت بطرفي هذا الصهريج قبتان متقابلتان كبراً وصغراً على اعمدة المرمر ، مشيدة جوانبها بالرخام المنجّد ، ورفعت سقفها من الخشب المقدّر بالصنائع المحكمة والاشكال المنمّقة ، الى ما اشتملت عليه هـذه الرياض من المقاصير والاواوين والحوائز والقصور غرفاً من فوقها غرف مبنيّة تجري من تحتها الأنهار ، وتأنّق في مبانيه هذه واستبلغ وعدل عن مصانع سلفه ورياضهم الى متنزّهاته من هذه ، فبلغ فيها الغاية في الاحتفال وطار لها ذكر في الافاق .

الخبر عن فرار أخيه أبي إسحاق وبيعة رياح له وما قارن ذلك من الأحداث

كان الامير ابو اسحاق في ايالة اخيـه المستنصر ، وكان

يماني من خلقه وملكته عليه شدة ، وكان السلطان يخافه على امره وخرج سنة احدى وخمسين لبعض الوجوه السلطانيّة ، ففرّ الأمير ابو اسحاق من معسكره ، ولحق بالدواودة من رياح ، فبايعوه بروايا من نواحي نقاوس ، واجتمعوا على امره . وبايع له ظافر مولى ابيه النازع اليهم واعتقد منه الذمّة والرتبة ، وقصدوا بسكرة وحاصروها ، ونادى بشعار طاعتهم فضل بن علي ابن الحسن بن مزني من مشيختها . وائتمر به الملأ ليقتلوه ، ففَرّ اليه وصار في جملته . ثم بايع له اهل بسكرة ودخلوا في طاعته . ثم ارتحلوا الى قابس فنازلوها ، واجتمعت عليه الأعراب من كل أوب . وأهم السلطان شأنه ، وتقبّض على ولده فحبسهم بالقصبة جميعاً . ووكل بهم من يحوطهم والطف ابن أبي الحسين الحيلة في فساد ما بين الأمير أبي اسحاق ومولاه ظافر ، بتحذير القاه الى اخته بالحضرة تنصّحاً ، فبعثت به الى اخيها ، فتنكّر لظافر وفارقه ، وسار الى المغرب . ثم لحق بالاندلس ، وافترق جموع الأمير أبي اسحاق فلحق بتلمسان ، وأجاز منها الى الاندلس . ونزل على السلطان محمد بن الأحمر فرعى له عهد أبيه ، وأسنى له الجراية . وشهد هنالك الوقائع ، وأبلى في الجهاد . ولم يزل السلطان المستنصر يتاحف ابن الاحمر ويهاديه ، ويوفد عليه مشيخة الموحّدين مصانعة في شأن اخيه واستجلاءً لحاله ، الى ان هلك . وكان من ولاية اخيه ابي اسحاق ما نذكر . ولحين

مهلكه أجاز ظافر من الأندلس الى بجاية . وأوفد ولده علي الواثق مستعتباً وراغباً في السبيل الى الحج . وقلق المستولي على الدولة بمكانه ، وراسل شيخ الموحدين ابا هلال عياد (١) ابن محمد الهنتاتي صاحب بجاية في اغتياله عن قصده ، فذهب دمه هدراً وبقي ولده عند بني توجين حتى جاءوا في جملة السلطان ابي اسحاق ، وبيد الله تصاريف الامور .

الخبر عن بني النعمان ونكبتهم والخروج أثرها الى الزاب

كان بنو النعمان هؤلاء من مشيخة هنتاتة ورؤسائهم ، وكان لهم في دولة الأمير ابي زكريا ظهور ومكان ، وخلصت ولاية قسطنطينة لهم يستعملون عليها من قرابتهم . واتصل لهم ذلك اول دولة المستنصر ، وكان كبيرهم ابو علي وتلوه ميمون وعبد الواحد ، وكان لهم في مداخلة اللحياني اثر . فلما استوسق (٢) للسلطان امره ، وتمهدت دولته نكبهم وتقبّض عليهم سنة احدى وخمسين ، فأشخص ابا علي الى الاسكندرية ، وقتل ميمون وانقرض امرهم . وظهر اثر ذلك بالزاب خارج تسمّى بأبي حمارة ، فخرج السلطان من تونس وقصده بالزاب ، فأوقع به وبجموعه وتقبّض عليه ، وسيق الى السلطان فقتله ،

(١) كذا، وفي ب: عباد.
(٢) استوسق الأمر: انتظم.

وبعث برأسه الى تونس فنصب بها . وقفل السلطان الى مقرّه فنزل بها ، وسخط وجوهاً من سُلَيم : من مرداس ودباب ، كان فيهم رحاب بن محمود وابنه ، فاعتقلهم واشخصهم الى المهديّة فأودعهم بمطبقها ورجع الى تونس ظافراً غانماً .

الخبر عن دعوة مكة ودخول أهلها في الدعوة الحفصية

كان صاحب مَكَّة ومتوّلي أمرها من سادة الخلق وشرفائهم ولد فاطمة ، ثم من ولد ابنها الحسن صلوات الله عليهم اجمعين ، أبو نمى واخوه ادريس ، وكانوا قائمين بالدعوة العباسيّة منذ حولّها اليهم بمصر والشام والحجاز صلاح الدين يوسف بن أيّوب الكردي ، وأمر الموسم وولايته راجعة اليه ، والى بنيه ومواليه من بعده الى هذا العهد . وجرت بينهم وبين الشريف صاحب مكة مغاضبة وافقها استيلاء الططر على بغداد ، ومحوهم رسم الخلافة بها ، وظهور الدعوة الحفصية بافريقية ، وتأميل اهل الافاق فيها وامتداد الأيدي اليها بالطاعة . وكان أبو محمد بن سبعين الصوفي نزيلاً بمكة ، بعد ان رحل من بلده مَرْسِيَة الى تونس ، وكان حافظاً للعلوم الشرعية والعقلية ، وسالكاً مرتاضا بزعمه على طريقة الصوفية . ويتكلم بمذاهب غريبة منها ، ويقول برأي الوحدة كما ذكرناه في ذكر المتصوفة الغلاة ، ويزعم بالتصوف في الاكوان على الجملة ، فأرهق في عقيدته ، ورمي

بالكفر او الفسق في كلماته ، وأعان بالنكير عليه والمطالبة له شيخ المتكلمين باشبيلية ثم بتونس ابو بكر بن خليل السكوني ، فتنمّر له المشيخة من اهل الفتيا وحملة السنة وسخطوا حاته .

وخشي ان تأسره البينات فلحق بالمشرق ونزل مكة ، وتذمم بجوار الحرم الامين ، ووصل يده بالشريف صاحبها . فلما اجمع الشريف امره على البيعة للمستنصر صاحب افريقية ، داخله في ذلك عبد الحق بن سبعين وحرّضه عليه ، واملى رسالة بيعتهم ، وكتبها بخطه تنويهاً بذكره عند السلطان والكافة ، وتأميلاً للكرة ونصها :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على الاسوة المختار سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً . ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ .

هذا النوع من الفتح أعني المبين هو من كل الجهات داخل الذهن وخارجه ، وهو الذى خصّت به مكة ، وهو اعظم فتح نذر في ايام الدهر والزمان الفرد منه خير من ايام الشهر ، وبه تتم النعمة ، ويستقيم صراط الهداية ، وتحفظ النهاية ، وتغفر

ذنوب البداية ، ويحصل النصر العزيز ، ونور السكينة ، وتتمكن قواعد مكة والمدينة . وكلمة الله عاملة في الموجودات بحسب قسمة الزمان . ثم لا يقال انها متوقفة على شيء ، ولا في مكان دون مكان .

وهذا الفتح قد كان بالقصد الاول والقدر الاكمل ، للمتبوع الذي افاد الكمال الثاني كالسبع المثاني ، فانه هو الاسوة صلى الله عليه وسلم ، وكل نعمة تظهر على سعيد ترجع اليه مثل التي ظهرت على خليقته وعلى يديه . وان كانت نصبة مولده صلى الله عليه وسلم ورسالته تقتضي ختم الانبياء بهذا القرن الذي نحن فيه ، وأمامنا فيه هو ختم الاولياء . فمن فتح عليه بفتح مكة تمت له النعمة ، ورفعت له الدرجة ، وضفت عليه الرحمة . ومن وصل سلطانه اليها فقد هدي الرشد وسار على صراطه ، ورجح ميزان ترجيحه على اقرانه وارهاطه . ومن حرم هذا فقد حرم من ذلك ، والامر هكذا .

وسنة الله كذلك ، وصلى الله على رسوله الذي طلع المجد من مدينته بعد ما اطلعه من بلده ، ورضي الله عن خليفته المنتخب من عنصر خليفة عمر صاحب نبيه ، ثم من عمر صاحبه ووليّه والحمد لله على نعمه .

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيد ولد آدم محمد .

﴿ حمٓ ① وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ② إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ

﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾. قد صح أن هذه الليلة فيها تنزل الآيات وترتقب البيّنات، وفيها تخصيص القضايا الممكنة وأحكام الاكوان ويفرق الأمر، ويفسر الملك الموكل بقبض الأرواح بحمل الآجال في الأزمان، وفيها تقرر خطة الامامة والملك، وتقيض الامامة بالهلك، وهي في القول الأظهر في افضل الشهور، وفي السابع والعشرين منه كما ورد في الحديث المشهور . ثم هي في أمّ القرى وفي حرمها تقدّر بقدر زائد ، ويعم فضلها الا للحائد عن الفائد ، وانما قلت هذا ورسمته ليعلم من وقف على الخطبة التي اقتضبتها ، والليلة التي فيها قرأتها ، انها من افضل المطالب التي قصدت ، وان القرائن التي اجتمعت فيها ولها ، زادت على الفضائل التي لاجلها رصدت ، وايضاً تأخر فيها مجد امام عن امام ، وبعد مجد امامه وراء امام هو وراء الامام ، ورحمت فيها نفس خليفة عبرت وتلقب وعظمت فيها ذات خليفة تحيي التي سلفت ، فهذه نعمة بركة ينبغي ان يقرّر حدُها ويتحقّق مجدها ، ولا يقدر قدرها فانها ليلة قدر ، ليلة قدرها .

والحمد لله حمداً واصلا : بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على واحد الله في عنايته سيدنا محمد ﴿ طسٓمٓ ۝ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴾ الى قوله ﴿ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴾ الحق

الشاهد لنفسه المتفق من جميع جهاته، وفي سنة الله التي لا تحول ولا تبدّل والمتعارف من عادته التي ربطها بحكمته التي تعدّل ولا تعدّل، ان لكل هداية نبويّة ضلالة فرعونيّة، وكذا الحال في الاولياء، ومع كل مصيبة فرج، ولا ينعكس الامر في الاتقياء. ولكل ظلم ظالم متجبر قهر قاهر متكبّر، وعند ظهور ظفر المبطل يظهر قصد المحق المفضل. وفي عقب كل فترة او فيها كلمة قائم بحق يغلب لا يُغلَب، وفي كل دور أو قرن أمامة تطلب بشخصها ولا تطلب، وكواكب الكفر اذا طلعت على أفق الإيمان فيه نكب آفلة، وكلمة الله اذا عورضت تكر معارضتها قافلة. وانما ذكرت ذلك بعد الذكر المحفوظ ليتذكر بالايات الظاهرة الى الآيات القاهرة. وليعلم كل مومن ان كلمة الله متصلة الاستصحاب والسبب، وعاملة في الاشياء مع الازمان والحقب، وان رجال الملة الحنفية أعلى المنازل والرتب. ولذلك يقول في نوع فرعون الاذل، ونوع موسى الأجل: اشخاصها متعددة، واكوانها متحدة، والله غالب على امره. وقد قيل ان الملة الحنفية المضرية تنصرها السيرة العمرية المحمديّة المستنصرية.

ولعل الذي اقام الدين واطلعه من المشرق واتلفه منه، يجيره من المغرب ولا ينقله عنه، فينبغي لمن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسوله، وبما يجب كما يجب ان لا يتغير قصده ولا

يتوقف عند سماع المهلكات حمده ، قد قيدت اقدام قوم بشرك الشرك ، وحملهم الضجَر الى الهلك بطاعة الترك وكع [١] كيد الكنود هلك كنمان وكل بصر بصيرته ، ولبس لهم ثوب الذل بالعرض ، وجعل مصيبة الدين تفته مع جحوده لسلطان السنة والفرض . وأما هامان المرتدين فليس هم بالمؤمنين ، وعلا فرعون الشرفي الارض ، والله يمن على المستضعفين في الارض بنصر من عنده ، ويهلك المفسدين بجند من رفده . وينبغي او يجب ان نضرب عن ذكر كائنة مدينة السلام ، فانها تزلزل الطبع وتحمل الروح الى ساحة الشام او تفزع في صلاة كسوف شمس سرورها الى التسليم بالاستسلام ونكبر اربع تكبيرات على الانس ويودع بعد ذلك وعد وسلام ، وينتظر قيامه بقيام أمر محيي الدين والاسلام ، والحمد لله على كل حال .

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على الذي أعجزت خصاله العدّ والحدّ ، مسلم والطبقذ قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يكون في آخر أمتي خليفة يحثي المال حثياً لا يعدُّه عداً . وقال صلى الله عليه وسلم : يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعد . زاد ابو العبّاس الهمداني ، واشار بيده الى المغرب . وذكر بهاء الدين التبريزي في ملحمته التي زعم انه لا يثبت فيها من الاخبار الا ما صححته روايته ، ولا

---

(١) كذا، وفي ب : وكم .

يذكر من الاحكام المنسوبة الى الصنائع العمليّة إلّا ما ابرزتـه درايته . ولا يعتبر من الاعلام الدينيّة الى ما ادركته هدايته . قال في الترجمة الاولى : اذا خرجت نار الحجاز يقتل خليفة بغداد ، ويستقيم ملك المغرب وتنبسط كلمته في الاقطـار ، ويخطب له على منابر خلفاء بني العباس ، ويكثر الدر بالمعبر من بلاد الهند .

ذكرت هذا ليعلم المقام أيّده الله انه هو المشار اليه ، وانه الذي يعوّل في اصلاح ما فسد بحول الله عليه . ومن تأمّل قوله صلى الله عليه وسلم : يكون في آخر الزمان الحديث ، تبين له ما اردناه وذلك يظهر من وجوه ، منها : ان الخليفة المذكور لم يسمع به فيما تقدم ، ولا ذكر في الدول الماضية ، ولو ذكر لرددنا القول به واهملناه لاجل تقييده بآخر الزمان . والثاني : ان آخر الزمان الذي يراد به ظهور الشروط المتوسطة ، واكثر العلامات المنذرة بالساعة هو هذا بعينه . الثالث : لا خليفـة لاهل الملة في وقتنا هذا غير الذي قصدناه .

وهـذه اقطار الملة منحصرة ومعلومة لنا من كل الجهات ، والذي يشاركه في الاسم ويقاسمه في اطلاقـه فقط لا يصدق عليه ، اذ هو اضعف من ذرّة في كرة ، ومن نملة في رملة . وافقر من قصد طالب السراب ، ويده مع هذا أيبَس من التراب فصح بالسبر والتقسيم ، وبتصفح الموجودات والازمان والدول والمراتب والنعوت انـه هو لا شريك له فيها ، والمصحح لذلك

كـله ، والذي يصدق وينطبق عليه مدلول الحديث كرمه الذي يعجز عنه الحد ، ولا يتوقف فيه العد . وهذا خليفة الملة كذلك ، وهذه دلائله هي اوضح من نار على علم . وهذه خصاله شاهدة له بفضائل السيف والقلم ، وهـذه خزائنه تغلب الطالب وتعجز عن الدافع ، وهذه سعوده في صعوده ، وهذه متاجر تعويله على الله رابحة وهذه احواله بالكلية صالحة ، وهذه سعايته ناجحة . ثم هـذه موازين ترجيحه راجحة ، والحمد لله كما يجب .

ومـا النصر الا من عند الله وصلى الله على عبده محمد بن عبد الله انه من بكة وانه للحق وانه بسم الله الرحمن الرحيم ، وانه الى خضر لا تحصر الخصر ويحدر فيها الندر [1] ويحافظ على سنة الرءوف الرحيم . صلى الله عليه وسلم اما بعـد فبهداهم اقتده ، الحمد لله الذي احسن بمقام الاحسان وتمم النعمة ، وبين لمن تبين علم البيـان ، وحكم لمن احكم الحكمة وسبقت في صفات افعاله صفة الرحمـة وذكر الهداية في كتابه بعـد ذكر النعمة ، هو الرءوف بالبرية وهو الرحيم والحفي بالخفية ، وهو القاهر الماضي المشيئة الذي يقبض ويبسط ويمضي المشيئة . شهد له بالكمال الممكن الذي ابرزه وخصصه وعرّفه بالجلال من يسره

---

(١) كذا، وفي ب: النذر.

لذلك وخلصه. هو الذي استعمل عليها من اختاره لاقامة النافلة والفرض، وأعمى من أهلها ميرين توسل له بنية العرض واعتق العقاب وسر العقاب واهمل العقاب بطاعة من يستعمر به الربع المعمور، وانعم على المستضعفين في الارض بامام بحر المجد في بحر خصاله يعد بعض البعض.

سنته محمدّية، وسيرته بكرّية وسريرته علويّة، وسلالته عُمَريّة. فهذه ذرية وانواع مجد بعضها من بعض، بل هذه خطوط فصل الطول فيها مثل العرض. عرف بالرياسة العالية، ووصف بالنفاسة السالية، وشهد له بذلك الخاص والعام ونزه من النقائص. النزيه النفس ومن نزهه في سلطانه علمه العام. صلى الله على الاسوة الرءوف بالمؤمنين، سيدنا محمد الذي ازل عليه التنزيل، وكتب اسمه في صحيح القصص والنصوص، ونبي الله به وبائمة امته الذين شبههم بالبنيان المرصوص، وعلى آله وصحبه الكرام البررة الذين اصطفاهم وطهرهم، ثم أيدهم فطهروا الارض من الكفرة الفجرة. وأخرج من ظهورهم ذرياتهم بالدين اظهرهم، ويسر بهم السبيل ثم السبيل يسرهم.

ومنهم الخليفة المستنجد بالله المفضّل على الناس، ولكن اكثرهم ورضي الله عنهم وعنه، وضاعف للمحب الثواب الدائم منهم ومنه. وبعد خدمة يتقدم فيها بعد الحمد والتصلية والدعاء

للدولة الدالة على قبول الدعوة اصلية ، تحية بعضها مكية وكلها ملكوتية ، وروضة ريحها حضرة القدس ونشرها يدرك فيه صحبة النفث ، روح القدس . وتكبر عن ان تشتبه بالعنبر والند والورد وأزهار الربى والرياض . لان المفارق للمادة مفارق لغير المفارق لها مفارقة السواد للبياض . ثم هي مع هذا واجية القصد عذبة الورد ، تذكر الذاكر الذكي بعرفها الذكي لمدركات جنة الخلد والنعيم. وفي مثل هذه فليتنافس المتنافسون .

وتدرك النفس النفيسة لذة النعيم لانها ظاهرة طيبة ، وكريمة صيّبة ، واقفة على حضرة الملك والسلطان ، ومدار فلك النسك ومستقر الامامة والجلالة ، ومعقل الهداية والدلالة ، واصل الاصالة ودار المتقين ، وبيت العدالة وحزب اليقين . وانسانها الاعظم معلي الموحدين على الملحدين وقائم الدين وقيمه ، ومقر الاسلام ومقدّمه ، القائم بالدعوة العامة بعد ابيه امام المجد والفخر ، ثم الامة الذي اذا عزم أوهم بتخصيص مهمل ، اتخذ في خلده ما هو بالفعل مع ما هو بالقوّة ، وان يعرض له في طريق اعراضه الممكن العسير يسره سعده وساعده ساعد القوة وان سمع بالحد في جهة حد به [1] بخاصة خصاله بعد مجد الابوة وفخر النبوة ، لا يذكر معه ولا عنده صعب الامور الا بالضد ، فانه مظهر العناية الالاهية ، ومرآه المجد والجد . هو علم العلم

(١) كذا، وفي ب: حد له.

ثم هو محل الحلم، اسمه متوحد في مدلوله كالاسم العلم، وعهده
لا يتوقف على اللسان ولا على رسوم القلم.

كتب في السماء وسمع به في الكرسي وكذلك العرش،
وما هنا انما هو مما هنالك فهو الاعلى. وان كان في الفرش هو
شامخ القدر ظاهر الفضل شديد البطش . ثم هو مما ظهر عليه
عُلم ان الشجاعة لم تتنقل من الانسان الى الاسد. ولا يقال هذا
بحر العلم فينقل من الطبيعة الى بحر الخلد، لان ذلك كله فيه
بوجه اكمل وبه وعليه، وفي يديه بنوع افضل بلغ ذروة النهاية
المخصوصة، بالمطالب العالية وحصل في الزمان الفرد ما حصله
الفرد في الايام الخالية . وبلغ في تبليغ حمده بصفاته ما بلغ
الاشد عمره ونال غاية الانسان، ويتعجب منه في القيامة عمره،
ويسره امره طلعت سعوده على مولده، ومطالعه كلمة مجده
لاحكام الفلك وطالعه . ان حرر القول فيه وفهم شأنه، قيل
هو من فوق الاطلس والمكوكب، وان قيس سعده بالكمالات
الثلاثة كان كالبسيط مع المركب.

أي غاية تطلب بعد طاعته، وأي تجارة تنظر مع بضاعته،
له الحمد بيده الملك والامانة، بل له الكل بفضل الله وفيه
المقصد والسلامة، لا بل له الفتح المبين وتتميم النعمة والهداية
ونور السكينة، وفيه الامارة والعلامة. منير مكة بازاء بيت
بكة خطب بخطبته، والذي ذهب بالمدينة يطلب فلعله يسعفه

في خطبته افئدة السر تطير اذا سمعت بذكره ، والمهندات البتر تلين لباس ساعده . ويقول طباع اربابها بشكره دولة التوحيد ، توحدت له اذ هو واحدها الأوحد ، وسياسة التسديد تحكمت له فهو مدبّرها الأرشد . ومع هذا كتابته اهملت صيت الصادين ، وكورت شمس الفتح ، ثم الفتح والصادين . .

وكذلك الثلاثة الذين من قبلهم لا نذكر معه الاديب حبيب في رد الأعجاز على الصدور ، فانه الذي يعتبر في ذلك والذي يصدر عنه هو واقع في الصدور ، وافعل في طباع المهرة وفي نفوس الصدور بتأخر عن شعره شعر الرجلين . وبعده نذكر الطبقة ، ثم شعراء نجد ، والخبب والجبلي والولد بعده والهذلي ، والمؤكد هو تقديمه في المغرب من ذلك . والهذلي علوم الادب ، الخمسة تممها وسادسها وسابعها زاده من عند نفسه . وخليل النحو لو حضر عنده كان خليله في تحصيل نوعه وجنسه ، والفارسي تلميذه ثم الآخر بعده والاخفش الكبير ثم الصغير ما ضرب لهم من قبل في مثله بنصيب . وأقام ائمة النحو تنحو نحوه بنحو ينحوه نحو نحوه ، ثم لا يكون كالمصيب . وكل كوفي بل كل بصري يحب الظهور اذا سمع به اختفى ، والمنصف منهم هو الذي بنحوه اكتفى . اقيسة الفقه الثلاثة هذّبها وحصلها ، واصوله كما يجب علمها وفصلها . والمسائل الطبولية تكلم على مفصلها ومجملها ، وسهّل الصعب من مخصّصها ومهملها .

وان فسر كتاب الله المعجز عجز ارباب البلاغة باعجاز بعد اعجازه ، وان تعرض لعوارض الفاظه اظهر العجب في اختصاره[1] وايجازه . وان شرع في شرح قصصه وجدله ، وفي تفسير ترغيبه وترهيبه . ومثله يبصر الناظر فيه والمستمع لما لم يسمع وما لم يبصر ، فانه سلك بقدم كماله وتكميله على قنطرة بعد لم تعبر ويضطر الزعيم به بتحصيله الى تجديد قنطرة اخرى ، وبعد هذا يفتقر في بيانه اليه في الاولى والى الله في الاخرى . وان تكلم على متشابهه ومحكمه علم الاصطلاح . ثم بيان النوع للخبير به ويحكمه ، وكذلك القول على الناسخ والمنسوخ والوعد والوعيد . وان يشاء طول في مطولاتهم واختصر من مختصراتهم ، فبيده الزيادة وضد المزيد ، وأما تحرير أمره ونهيه وأسراره ورقائقه ، وفواتح سوره وحقائقه . والذي يقال انه لا من جنس الذي يكتسب والذي هو اعظم من الذي يرد ، واليه الاحوال تنتسب فهو الشارح لها والخبير بها ، وان تأخر . وينوع في ذلك ويزيد غير الاول وان تكرر . واما علوم الحديث وانواعها السبعة فهو يعلمها ، وصناعته بجملتها للعلماء يعلمها . والوراقة والضبط والخط وقفت عليه مهنه غايتها ، وحمله الامر علوم الشريعة كلها عرفها ووعاها ورعاها حق رعايتها . وكل العلوم العقليّة والنقليّة ورجالها على ذهنه الطاهر من دنس

(١) كذا، وفي ب: اختياره، وهو تحريف.

النسيان ، والمقامات السنية المستنزلات العلويّة ادركها بعد التبيان . فمن اراد ان يمدحه ويعدل عن اطلاق القول فقد اقترف اعظم الذنب . ومن ذكره ولم يتلذذ بذلك فقد جاء بما ينضح حمله الخبب ، ونعوت جمالها يمنع عن ادراكها نور المتصل ، وحضرة جلاله محفوظة بِجِدِّها وَجَدِّها وقاطعها المنفصل . ذلك فضل الله يوتيه من يشاء ، قل اللهم مالك الملك ، الله اعلم حيث يجعل رسالاته .

هذه كلها . اياته والرابعة : وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها فانها هباته ان حدث المحدث بكرمه يقول ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعده ؛ ونصر الله اذا جاء لا يرده ، وفتحه من ذا الذي عن السعيد يصدّه ، والمؤرخ يتذكر بتذكره الكلمات الهذلي من حيث المطالب ، اذ قال وقد سئل عن الامام علي ابن ابي طالب هو الامام وفيه اربعة وهو واحدها حتى في رفع التشبيه وقطع السبب ، العلم والحلم والشجاعة وفضل الحسب ، يسر بحكمته ويغتبط بها متى يتبع جملته ، الباحث الحكيم ولا يشعر بشعره اذا تصفح نعوته الشاعر العليم ، وينشد طبعه في الحين والوقت والحزة ويخرج الحروف من مخارج الهمزة .

شهدتُ لقد أوتيتَ جامعَ فضلِه وأنتَ على عِلمي بذاك شَهيدُ

وَلَوْ طُلِبَتْ فِي الغَيْبِ مِنْكَ سَجِيَّةٌ لَقَدْ قَرَّ [١] مَوْجودٌ وعَزَّ وُجودُ

ادام الله له المجد الذي يسلك به على النجدين ، وحفظ عليه مقامه الذي لا يحتقر فيه إلّا جوهر النقدين ، وبسط له في العلم والقدرة ، وبارك له في نصيب النصرة ، وجهّز به العسرة ، ورد به على الشرك والفتن الكرّة ، وعرفه في كل ما يعتزمه صنعاً جميلًا ، ولطفاً خفياً جليلا . وكفاه الشر المحض وخير الشرين ، كما كشف له عن الخير المحض وعلم السرّين ، وأيده بروح منه في السر والهريرة ، وحفظه في حركاته وسكناته من الصغيرة والكبيرة . وجعل كلمته غالبة للضد والجند ، وبلغ صيته الجزائر والبربر ، ثم الى السند والهند . وخلد ملكه وسلم فلكه ، ورفعه على اوج المجد بحده الطويل العريض . واهبط عدوّه من الشرف الأعلى الى الحضيض .

وفتح الله به باب الفتح في المشرق والمغرب بعد فتح الثغور ، وشرح بنصره وفتحه اوساط الصدور ، وما استنبطته الضمائر من نفثات الصدور وجبر به كسر الظفر ، ووصل به ما انقطع من الاسباب . وعصم جنده من ضد الدنف الانف ، وردّهم الى ردم الابواب وقدّس كلمته بعد الحرمين في البيت المقدس ، وسلك به مسالك السبل في المقيل والمعرس . وبعد هذا فهذه ادعيتنا ، بل هذه اوديتنا ، وهذه مسائلنا بل هذه وسائلنا ،

(١) كذا، وفي ب : قر.

وهـذه تحية حياها ذو الفطرة السليمة ، وهذه خدمة يفتخر بها طبيعة النفس العليمـة . واستنبت فيها الكتاب واستثبت فيهـا الجواب ، والموجب لاصدارها محبة أصلها ثابت وفرعها في العلى وحفز عليهـا حافزان : شوق قديم ، ورعاية الآخرة والاولى ، بل الامر الذي هو في خير الامور من أوسطها ، واذا نظم في عقد الاسباب الموجبة لهـذه الخطابة يكون في وسطها ، فانه يحكي احكام الشان والقصة ، ويعلم المقام أيده الله الذي حصل له في حرم الله وحرم نبيه من النصيب والحصة ، وفيه ينبغي ان تذهب الالفاظ وتلحظ عيون الاغراض وينفح المقاصد ويحمل على جواهر الكمالات كالاعراض ، فمن ذلـك ذكر الملة التي كملت وكبرت ، والاخرى التي كانت ثم غمرت وصغرت . والمنبر الذي صعد خطب خطبته على الخطيب ، وعرج الى سماء السمو وهو على درجه ، والاخر الذي درج عنه خطيبه وضاق صدره الامر حرجه ، وقرئت سورة الامام بحرف المستنجد المستبصر ، لا بحرف المستعصم بن المستنصر .

بسط القول واطلق ترجمة عبد الله بعد ما قبضه الذي امات واحيا ، وقبض على مقامه ودفع الامام محمد بن يحيى ، وكان ذلك في يوم وصول الخبر بمصيبة الاختبار ، ثم في ليلة الايات والاعتبار . ومن ذلك ايضاً بعمـة الحمد والدعاء الظاهر القول والمقبول في الحرم الشريف ، وانقياد الذي ظهر على طائفة الحق

والسيد والشريف . ومن ذلك صعود علم الاعـلام على جبل معظم الحج ومقر وفوق الحاج ، ووقف به المتكلم في مقام من كانت له سقاية الحاج ، وذكر كما يجب بما يجب في موقف الامام مالك ، وعرف هنالك انه الامام والمالك لكل مالك . وتعرفت نكرة دعوة التوحيد بتخصيص خصوصية المخصوص بعرفـه ، وتعارف بها من تعارف معه هنالك ونعم التعارف والمعرفة .

ثم ذكر عنـد المشعر الحرام وفي جهات حدود حرم المسجد الحرام ، وعظم اسمه بعد ذكر الله وذكر الوالدين ، وطلع الذاكر التركيب الى الجدين الساكنين في الخلد والخالدين . فلما وصل الحجيج الى عقبة الجمرات ، ذكر مع السبع الاولى سبع مرات . وكذلك عند الركوع في مسجد الخيف ، وكل كلمات تمجيده بالكم والكيف ، وعند التوجه من هنالك ويوم النفر قررت اياتـه المذكورة في كتاب الجفر . ثم جدد الذكر حول البيت العتيق بالحمد والشكر . فلما وصل العلم بانتقال بيت الملك والسلطان من بغـداد في شهر رمضان ، اظهر الخفي المكنون فكان ذلك مع التسبيح والقرآن ، وكان الخادم في الزمان الاول وفي الذاهب يتنظر الخطفـة من نحو عراق والمغرب . والان وجد نفسها من نحو اليمن اقليم الاعراب والعرب .

والذي حمل على هـذا كله طاعة كاملة وغبطة عامـلة ، والله تعالى بفضله يعصمه من كيد المعاند ، فانه في اظهار دعوة

التوحيد كالمجاهد والمكايد ، ومعاد التحية على المقام الأرفع والمقرّ الأنفع ، وعلى خدام حضرته العلية ، وارباب دعوته الجلية وانواع رحمته تعالى وبركاته . والحمد لله كما يجب وصلى الله على نبيّه محمد وعلى آله وسلم . كتب تجاه الكعبة المعظمة في الجانب الغربي من الحرم الشريف ، والحمد لله رب العالمين . ولما وصلت هذه البيعة استحضر لها السلطان الملأ والكافة ، وقرئت بجمعهم وقام خطيبهم القاضي ابو البراء في ذلك المحفل فاسحنفر في تعظيمها والاشادة بحسن موقعها ، واظهار رفعة السلطان ودولته بطاعة اهل البيت والحرم ودخولهم في دعوته . ثم جار بالدّعاء للسلطان وانفض الجمع فكان من الايام المشهودة في الدولة .

الخبر عن الوفود من بني مرين والسودان وغيرهم

كان بنو مرين كما قدّمناه قد تمسكوا بطاعة الأمير أبي زكريا ودخلوا في الدعوة الحفصيه ، وحملوا عليها من تحت ايديهم من الرعايا مثل : اهل مكناسة وتازى والقصر ، وخاطبوا السلطان بالتمويل والخضوع . ولما هلك السلطان وولي ابنه المستنصر ، وقارن ذلك ولاية المرتضى بمراكش . ثم كان بينهم وبين المرتضى من الفتنة والحرب ما ذكرناه ونذكره ، فاتصل ذلك بينهم وبعث الأمير أبو يحيى بن عبد الحق بيعة اهل فاس ،

وأوفد بها مشيخة بني مرين على السلطان وذلك سنة اثنتين وخمسين فكان لها موقع من السلطان والدولة . وقابلهم من الكرامة كل على قدره ، وانصرفوا محبورين الى مرسلهم . ولما هلك ابو يحيى بن عبد الحق ، واستقل اخوه يعقوب بالامر أوفد اليه ثانية رسله وهديته ، وطلب الاعانة من السلطان على المرتضى وأمر مراكش على ان يقيموا بها الدعوة له عند فتحها . ولم يزل دأبهم هذا الى ان كان الفتح .

وفي سنة خمس وخمسين وصلت هدية ملك كانم من ملوك السودان ، وهو صاحب بُرْنو مواطنه قبلة طرابلس ، وكان فيها الزرافة وهو الحيوان الغريب الخلق المنافر الحلي والشيات ، فكان لها بتونس مشهد عظيم برز اليها الجفلى من اهل البلد حتى غصّ بها الفضاء ، وطال اعجابهم بشكل هذا الحيوان وتباين نعوته ، واخذها من كل حيوان بشبه . وفي سنة ثمان وخمسين وصل دون الرنك أخو ملك قشتالة مغاضباً لاخيه ، ووفد على السلطان بتونس فتلقاه من المبرّة والحباء بما يلقى به كرام القوم وعظماء الملوك ، ونزل من دولته باعزّ مكان . وكان تتابع هذه الوافدات مما شاد بذكر الدولة ورفع من قدرها .

الخبر عن مقتل ابن الابار وسياقة أوليته

كان هذا الحافظ ابو عبد الله بن الابار من مشيخة اهل

بلنسية ، وكان علّامة في الحديث ولسان العرب ، وبليغاً في الترسيل والشعر . وكتب عن السيد أبي عبد الله بن أبي حفص ابن عبد المؤمن ببلنسية . ثم عن ابنه السيد أبي زيد . ثم دخل معه دار الحرب حين نزع الى دين النصرانية ، ورجع عنه قبل ان يأخذ به . ثم كتب عن ابن مردنيش . ولما دلف الطاغية الى بلنسية ونازلها بعث زيان بوفد بلنسية وبيعتهم الى الامير أبي زكريا ، وكان فيهم ابن الابار هذا الحافظ ، فحضر مجلس السلطان وانشد قصيدته على رويّ السين يستصرخه ، فبادر السلطان باغاثتهم وشحن الاساطيل بالمدد اليهم من المال والاقوات والكسى فوجدهم في هوة الحصار ، الى ان تغلب الطاغية على بلنسية . ورجع ابن الابار باهله الى تونس غبطة باقبال السلطان عليه فنزل منه بخير مكان ، ورشحه لكتب علامته في صدور رسائله ومكتوباته ، فكتبها مدة . ثم ان السلطان أراد صرفها لأبي العبّاس الغساني لما كان يحسن كتابتها بالخط المشرقي ، وكان آثر عنده من الخط المغربي فسخط ابن الابار انفة من ايثار غيره عليه ، وافتأت على السلطان في وضعها في كتاب امر بانشائه لقصور الترسيل يومئذ في الحضرة عليه ، وأن يبقى مكان العلامة منه لواضعها فجاهر بالرد ووضعها استبداداً وانفة ، وعوتب على ذلك فاستشاط غضباً ورمى بالقلم وانشد متمثلاً .

واطْلُبِ العِزَّ في لَظى وَذَرِ الذُّل وَلَوْ كانَ في جِنانِ الخُلودِ

فنمى ذلك الى السلطان فأمر بلزومه بيتـه ، ثم استعتب السلطان بتأليف رفعه اليه عدّ فيـه من عوتب من الكتاب ، واعتب . وسماه اعتاب الكتاب . واستشفع فيه بابنه المستنصر فغفر السلطان له واقال عثرته ، واعاده الى الكتابة . ولما هلك الامير ابو زكريا رفعـه المستنصر الى حضور مجلسه مع الطبقـة الذين كانوا يحضرونه من أهل الاندلس واهل تونس ، وكان في ابن الأبار أنَفَةٌ وبَأْوٌ[1] وضيق خلق ، فكان يزري على المستنصر في مباحثه ويستقصره في مداركه ، فخشن له صدره مع مـا كان يسخط به السلطان من تفضيل الاندلس وولايتها عليه .

وكانت لابن أبي الحسين فيه سعاية لحقد قديم ، سببـه أن ابن الأبار لما قدم في الاسطول من بلنسية نزل ببنزرت ، وخاطب ابن أبي الحسن بغرض رسالته ، ووصف اباه في عنوان مكتوبه بالمرحوم . ونبه على ذلك فاستضحك وقال : إن أباً لا تعرف حياته من موته لأب خامل . ونميت الى ابن أبي الحسين فأسرّها في نفسه ، ونصب له الى ان حمل السلطان على اشخاصه مـن بجاية . ثم رضي عنه واستقدمه ورجّعه الى مكانه من المجلس . وعـاد هو الى مساءة السلطان بنزعـاته الى ان جرى في بعض الايام ذكر مولد الواثق وساءل عنه السلطان فاستبهم فعدا عليه ابن الأبار بتاريخ الولادة وطالعها ، فاتُّهم بتوقّع المكروه للدولة

(١) بأى، بأواً ـ عليهم: فخر، تكبر ـ قاموس.

والتربُّص بها كما كان اعداؤه يشنعون عليه ، لما كان ينظر في النجوم فتقبّض عليه . وبعث السلطان الى داره فرفعت اليه كتبه أجمع ، والقى اثناءها فيما زعموا رقعة بابيات اولها :

طفى بتونس حلف سموه ظلماً خَليفة

فاستشاط لها السلطان وامر بامتحانه ثم بقتله قعصاً بالرماح وسط محرم من سنة ثمان وخمسين ، ثم احرق شلوه وسيقت مجلدات كتبه واوراق سماعه ودواوينه فاحرقت معه

الخبر عن مقتل اللياني وأوليته وتصاريف أحواله

اصل هذا الرجل من لُليانة قرية من قرى المهدية ، مضمومة اللام مكسورة الثانية ، وكان ابوه عاملًا بالمهدية ، وبها نشأ ابنه ابو العباس . وكان ينتحل القراءة والكتاب حتى حذق في علوم اللسان . وتفقه على أبي زكريّاء البرقي . ثم طالع مذاهب الفلاسفة ، ثم صار الى طلب المعاش من الامارة فولي أعمال الجباية . ثم صودر في ولايته على مال اعطاه وتخلّص من نكبته ، فنهض في الولايات حتى شارك كل عامل في عمله بما اظهر من كفايته وتنميته للاموال حتى قصر بهم واديل منهم .

وكان الكثير منهم متعلِّقاً من ابن ابي الحسين رئيس الدولة بذمة خدمة ، فاسفه بذلك واغرى به بطانة السلطان ومواليه ،

حتى سعوا به عند السلطان ، وانه يروم الثورة بالمهديّة ، حتى خشن له باطن السلطان . فدخل عليه ذات يوم ابو العباس الغساني فاستجازه السلطان في قوله : « اليوم يوم المطر » فقال الغساني : «ويوم رفع الضرر » فتنبّه السلطان واستزاده فانشد : « والعام تسعة كشل عام الجوهري » فكانت اغراء باللياني ، فامر ان يتقبض عليه وعلي عدوه ابن العطار ، وكان عاملاً . وامر ابا زيد بن يغمور بامتحانهما فعذّبهما حتى استصفى اموالهما ، والميل في ذلك على اللياني . وكان في ايام امتحانه يباكر موضع عمله . ثم نمي عنه انه يروم الفرار إلى صقلية ، وبوحث بعض من داخله في ذلك فاقرّ عليه ، فدفع الى هلال كبير الموالي من العلوج فضربه الى ان قتله ، ورمى بشلوه الى الغوغاء فعبثوا به وقطعوا رأسه ، ثم تتبع اقاربه وذووه بالنكال الى ان استنفدوا .

الخبر عن انتقاض أبي علي المليانى بمليانة على يد الأمير أبي حفص

كان المغرب الاوسط من تلمسان واعمالها الى بجاية في طاعة السلطان منذ تغلب ابوه الامير ابو زكرياء عليه ، وفتح تلمسان واطاعه يُغمُراسن وكان بين زناتة بتلك الجهات فتن وحروب شأن القبائل اليعاسيب ، وكانت مليانة من قسمة مغراوة بني ورسيفان ، وكانوا اهل بادية . وتقلّص ظل الدولة عن تلك الجهات بعض

الشيء . وكان ابو العباس الملياني من مشيخة مليانة صاحب فقه ورواية وسمت ودين ، رحل اليه الأعلام وأخذ عنه العلماء ، وانتهت اليه رئاسة الشورى ببلده . ونشأ ابنه أبو علي خلواً من الخلال متهالكاً في الرياسة متبعاً غواية الشبيبة ، فلما رأى تقلّص ظل الدولة وفتن مغراوة مع يغمراسن ومزاحمته لهم ، حدّثته نفسه بالاستبداد فخلع طاعة آل ابي حفص ونبذ دعوتهم ، وانبرى بها داعياً لنفسه . وبلغ الخبر الى السلطان فسرّح اليه اخاه الأمير ابا حفص ، ومعه الأمير أبو زيد ابن جامع ، ودن الرنك اخو الفنش ، وطبقات الجند . فخرج من تونس سنة تسع وخمسين وأغذّ السير الى مليانة فنازلها مدة ، وشد حصارها حتى اقتحموها غلاباً . وفر ابو علي المليـاني ولحق ببني يعقوب من آل العطاف احد شعوب زغبة فأجاروه وأجازوه الى المغرب الاقصى ، الى ان كان من خبره ما نذكره بعد .

ودخل الأمير أبو حفص مليانة ومهّد نواحيها وعقد عليها الى ابن منديل امير مغراوة فلكها مقيماً فيها لدعوة السلطان شأن غيرها من عمالات مغراوة . وقفل الامير ابو حفص الى تونس ، ولقيه بطريقه كتاب السلطان بالعقد له على بجاية وامارتها ، فكره ذلك غبطة بجوار السلطان . وتردّدت في ذلك رغبته فأديل منها بالشيخ أبي هلال عياد بن سعيد الهنتاتي ، وعقد له

على بجاية . ولحق الأمير ابو حفص بالحضرة الى ان كان من خلافته ما نذكر بعد . وهلك شقيقه ابو بكر بن الأمير أبي زكريا ثانية مقدمه الى تونس سنة احدى وستين ، فتفجّع له الخليفة والقرابة والناس وشهد السلطان جنازته ، والبقاء لله وحده .

الخبر عن فرار أبي القاسم بن أبي زيد بن الشيخ أبي محمد وخروجه في رياح

كان ابو القاسم بن أبي زيد هذا في جملة ابن عمه الخليفة ، وتحت جرايته ، وأبوه أبو زيد هو القائم بالامر بعد ابيه الشيخ أبي محمد . ولحق بالمغرب . وجاء ابو القاسم في جملة الأمير أبي زكريا ، وأوصى به ابنه الى ان حدثته نفسه بالتوثب والخروج . وخامره الرعب من اشاعة تناقلها الدهماء ، سببها ان السلطان استحدث سكة من النحاس مقدرة على قيمته من الفضة ، حاكى بها سكة الفلوس بالمشرق تسهيلًا على الناس في المعاملات باسرافها وتيسيراً لاقتضاء حاجاتهم . ولما كان لحق سكة الفضة من غش اليهود المتناولين لصرفها وصوغها ، وسمى سكته التي استحدثها بالخندوس . ثم أفسدها الناس بالتدليس وضربها اهل الريب ناقصة عن الوزن ، وفشا فيها الفساد . واشتد السلطان في العقوبة عليها فقطّع وقتل ، وصارت ريبة لمن تناولها . وأعلن الناس بالنكير في شأنها وتنادوا بالسلطان في قطعها وكثر الخوض

في ذلك وتوقعت الفتنة. واشيع من طريق الحدثان الذي تكلف به العامة ان الخارج الذي يثير الفتنة هو ابو قاسم بن أبي زيد، فأزال السلطان تلك السكة وعفا عليه، وأهمَّه شأن أبي القاسم ابن عمه، وبلغه الخبر فخامره الرعب الى ما كان يحدث نفسه من الخروج، ففرّ من الحضرة سنة احدى وستين، ولحق برياح ونزل على اميرهم شبل بن موسى بن محمد رئيس الدواودة، فبايع له وقام بامره. ثم بلغه اعتزام السلطان على النهوض اليه فخشي بادرته واضطرب امر العرب من قبيله. ولما أحسّ ابو القاسم باضطرابهم وخشي ان يسلموه اذا ازادهم السلطان عليها، تحوّل عنهم ولحق بتلمسان واجاز البحر منها الى الاندلس، وصحب الأمير ابا اسحاق ابن عمه في مثوى اغترابها بالاندلس. ثم ساءت افعاله وعظم استهتاره. وفشا النكير عليه من الدولة فلحق بالمغرب واقام بتينملل مدة. ثم رجع الى تلمسان، وبها مات. وقام الامير ابو اسحاق بمكانه من جوار ابن الاحمر الى ان كان من امره ما نذكره.

الخبر عن خروج السلطان الى المسيلة

لما اتصل بالسلطان شان أبي قاسم ابن عمه أبي زيد وفصاله عن رياح الى المغرب بعد عقدهم بيعته، واجلابهم على البلاد

معه ، خرج من تونس سنة اربع وستين في عساكر الموحدين وطبقات الجند لتمهيد الوطن ، ومحو آثار الفساد منه ، وتقويم العرب على الطاعة . وتنقَّل في الجهات الى ان وصل بلاد رياح فدوخها ومهد أرجاءها ، وفرّ شبل بن موسى وقومه الدواودة الى القفر ، واحتل السلطان بالمسيلة آخر وطن رياح . ووافاه هنالك محمد من عبد القوي أمير بني توجين من زناتة مجدداً لطاعته ، ومتبرّكاً بزيارته ، فتلقَّاه من البرور تلقي أمثاله ، وأثقل كاهله بالحباء والجوائز ، وجنب له الجياد المقربات بالمراكب المثقلة بالذهب ، واللجم المحلات . وضرب له الفساطيط الفسيحة الارجاء من ثياب الكتان وجدل القطن ، الى ما يتبع ذلك من المال والظهر والكراع والاسلحة . واقطع له مدينة مقرة وبلد اوماش من عمل الزاب ، وانقلب عنه الى وطنه .

ورجع السلطان الى تونس وفي نفسه من رياح ضغن الى ان صرف اليهم وجه تدبيره كما نذكره ، ولثانية احتلاله بالحضرة سنة خمس وستين كان مهلك مولاه هلال ، ويعرف بالقائد ، وكان له في الدولة مكان بما كان تلادا للسلطان ، وكان شجاعاً جواداً خيّراً محبباً سهلاً مقبلا على اهل العلم وذوي الحاجات ، وله في سبيل الخير آثار منقولة طار له بها ذكر ، فارتمض السلطان لمهلكه .

الخبر عن مقتل مشيخة الدواودة

كان شبل بن موسى وقومه من الدواودة قد فعلوا الافاعيل في اضطراب الطاعة ، ونصب من لحق بهم من اهل هذا البيت الملك ، فبايعوا للأمير أبي اسحق كما ذكرناه . ثم بعده لأبي القاسم ابن عمه أبي زيد . وخرج اليهم السلطان سنة اربع وستين ودوخ أوطانهم ، ولحقوا بالصحراء ودافعوه على البعد بطاعة ممرضة فتقبّلها ، وطوى لهم على النشا . ورجع الى تونس فاوعز الى أبي هلال عياد عامل بجاية من مشيخة الموحدين باصطناعهم واستئلافهم لتكون وفادتهم عليه من غير عهد . وجمع السلطان أحلافه من كعوب بني سليم ودباب وافاريق بني هلال . وخرج من تونس سنة ست وستين في عساكر الموحدين وطبقات الجند . ووافاه بنو عساكر بن سلطان اخوة بني مسعود ابن سلطان من الدواودة فعقد لمهدي بن عساكر على امارة قومه وغيرهم من رياح . وفرّ بنو مسعود بن سلطان مصحرين في اثرهم حتى نزل نقاوس وعسكروا بثنايا الزاب ، ورسلهم تختلف الى ابي هلال ايناسا للمراجعة على يده للدخله السابقة ، فاشار عليهم بالوفادة على السلطان وفاء بقصده من ذلك ، فتقبلوا اشارته .

ووفد اميرهم شبل بن موسى بن محمد بن مسعود وأخوه

يحيى ، وبنو عمها اولاد زيد بن مسعود : سباع بن يحيى بن دريد ، وابنه ، وطلحة بن ميمون بن دريد ، وحداد بن مولاهم ابن خنفر بن مسعود وأخوه ، فتقبّض عليهم لحينهم ، وعلى دريد ابن تازير من شيوخ كرفة . وانتهبت اسلابهم وضربت اعناقهم ونصبت اشلاؤهم بزراية حيث كانت بيعتهم لأبي القاسم ابن أبي زيد ، وبعث برءوسهم الى بسكرة فنصبت بها ، وأغذّ السير غازياً الى احيائهم وحللهم بمكانها من ثناية الزاب .

وصبحهم هنالك فأجفلوا وتركوا الظهر والكراع والأبنية ، فامتلأت ايدي العساكر وسدويكش منها ، ونجوا بالعيال والولد على الاقتاب ، والعساكر في اتباعهم ، الى ان أجازوا وادي شدى قبلة الزاب ، وهو الوادي الذي يخرج أصله من جبل راشد قبلة المغرب الاوسط ، ويمر الى ناحية الشرق مجتازاً بالزاب الى ان يصب في سبخة نفزاوة من بلاد الجريد . فلما اجاز فلُّهم الوادي اصحروا الى المفازة المعطشة والأرض الحرة السوداء المستحجرة المسماة بالحمادة ، فرجعت العساكر عنهم وانقلب السلطان من غزاته ظافراً ظاهراً ، وانشده الشعراء في التهنئة ، ولحق فلُّ الدواودة بملوك زناتة ، فنزل بنو يحيى بن دريد على يغمراسن بن زيّان ، وبنو محمد بن مسعود على يعقوب بن عبد الحق ، فأجاروهم وأوسعوهم حباءً وملأوا ايديهم بالصلات ، ومرابطهم بالخيل ، وأحياءهم بالابل ، ورجعوا الى مواطنهم

فتغلبوا على وار كلا وقصور ريغة واقتطعوها من ايالة السلطان . ثم زحفوا الى الزاب فجمع لهم عامله ابن عتُّو وكان موطناً بمقره ، ولقيهم على حدود ارض الزاب فهزموه واتبعوه الى قطاوة فقتلوه عندها ، واستطالوا على الزاب وجبل أوراس ، وبلاد الحضنة الى ان اقتطعتهم الدول اياها من بعد ذلك ، فصارت ملكا لهم .

الخبر عن طاغية الافرنجة ومنازلته تونس في أهل نصرانيته

هذه الامة المعروفة بالافرنجة ، وتسميها العامة بالافرانسيس نسبة الى بلد من أمهات أعمالهم تسمى افرانسة . ونسبهم الى يافث بن نوح ، وهم بالعدوة الشمالية من عدوتي هذا البحر الرومي الغربي ما بين جزيرة الاندلس وخليج قسطنطينة ، مجاورون الروم من جانب الشرق والجلالقة من جانب الغرب . وكانوا قد أخذوا بدين النصرانية مع الروم ، ومنهم لقنوا دينها . واستفحل ملكهم عند تراجع ملك الروم ، وأجازوا البحر الى افريقية مع الروم فلكوها ونزلوا امصارها العظيمة مثل : سُبَيْطِلة وجَلولا وقرطاجنة ومرناق وباغاية ولمس وغيرها من الامصار . وغلبوا على كل من كان بها من البربر حتى اتبعوهم في دينهم وأعطوهم طاعة الانقياد

ثم جاء الاسلام وكان الفتح بانتزاع الأعراب من أيديهم سائر أمصار افريقية ، والعدوة الشرقية والجزر البحرية مثل

اقريطش ومالطة وصقلية وميورقة ورجوعهم الى عدوتهم . ثم أجازوا خليج طنجة ، وغلبوا القوط والجلالقة والبشكنس ، وملكوا جزيرة الاندلس وخرجوا من ثناياها ودورها الى بسائط هؤلاء الافرنجة فدوخوها وعاثوا فيها . ولم تزل الصوائف تتردّد اليها صدراً من دولة بني أمية بالاندلس ، وكان ولاة افريقية من الاغالبة ومن قبلهم ايضاً يرددون عساكر المسلمين وأساطيلهم من العدوة حتى غلبوهم على الجزر البحرية ، ونازلوهم في بسائط عدوتهم فلم تزل في نفوسهم من ذلك ضغائن ، فكان يخالجها الطمع في ارتجاع ما غلبوا عليه منها .

وكان الربع أقرب الى سواحل الشام وطمع فيها . فلما وصل أمر الروم بالقسطنطينيّة ورومة ، واستفحل مالك الفرنجة هؤلاء ، وكان ذلك على هيئة سموّ الخلافة بالمشرق ، فسموا حينئذ الى التغلب على معاقل الشام وثغوره ، وزحفوا اليها وملكوا الكثير منها واستولوا على المسجد الأقصى وبنوا فيه الكنيسة العظمى بدل المسجد ، ونازلوا مصر والقاهرة مراراً حتى جاد الله للاسلام من صلاح الدين أبي أيوب الكردي صاحب مصر والشام في أواسط المائة السادسة جنة واقية ، وعذاباً على أهل الكفر مصبوباً ، فأبلى في جهادهم وارتجع ما ملكوه ، وطهّر المسجد الاقصى من افكهم وكفرهم ، وهلك على حين غرّة من الغزو والجهاد .

ثم عاودوا الكرّة ونازعوا مصر في المائة السابعة على عهد الملك الصالح صاحب مصر والشام ، وأيام الأمير أبي زكريا بتونس ، فضربوا أبنيتهم بدمياط وافتتحوها وتغلبوا في قرى مصر . وهلك الملك الصالح خلال ذلك ، وولي ابنه المعظم وأمكنت المسلمين في الغزو فرصة أيام فيض النيل ، ففتحوا الغياض وأزالوا مدد الماء فأحاط بمعسكرهم وهلك منهم عالم ، وقيد سلطانهم أسيراً من المعركة الى السلطان فاعتقله بالاسكندرية ، حتى مرّ عليه بعد حين من الدهر وأطلقه على أن يمكنوا المسلمين من دمياط فوفوا له . ثم على شرط المسالمة فيما بعد فنقضه لمدة قريبة ، واعتزم على الحركة الى تونس متجنياً عليهم فيما زعموا بمال ادعياء تجار أرضهم ، وانهم أقرضوا اللياني . فلما نكبه السلطان طالبوه بذلك المال وهو نحو ثلثمائة دينار بغير موجب يستندون اليه ، فغضبوا لذلك واشتكوا الى طاغيتهم فامتعض لهم ورغبوه في غزو تونس لما كان فيها من المجاعة والموتان .

فأرسل الفرنسيس طاغية الافرنج واسمه سنلويس بن لويس وتلقب بلغة الافرنج روا فرنس ومعناه ملك افرنس ، فأرسل الى ملوك النصارى يستنفرهم الى غزوها ، وأرسل الى القائد خليفة المسيح بزعمهم فأوعز الى ملوك النصرانية بمظاهرته ، وأطلق يده في أموال الكنائس مدداً له . وشاع خبر استعداد النصارى

للغزو في سائر بلادهم ، وكان الذين أجابوه للغزو ببلاد المسلمين من ملوك النصرانية ملك الانكتار وملك اسكوسيا وملك تورك وملك برشلونة واسمه ريدراكون وجماعة آخرون من ملوك الافرنج ، هكذا ذكر ابن الاثير . وأهمّ المسلمين بكل ثغر شأنهم وأمر السلطان في سائر عمالاته بالاستكثار من العدّة ، وأرسل في الثغور لذلك باصلاح الاسوار واختزان الحبوب ، وانقبض تجار النصارى عن تعاهد بلاد المسلمين . وأوفد السلطان رسله الى الفرنسيس لاختبار حاله ومشارطته على ما يكف عزمه . وحملوا ثمانين ألفاً من الذهب لاستتمام شروطهم فيما زعموا ، فأخذ المال من أيديهم وأخبرهم أنّ غزوه الى ارضهم . فلما طلبوا المال اعتل عليهم بأنه لم يباشر قبضه ووافق شأنهم معه وصول رسول عن صاحب مصر ، فأحضر عند الفرنسيس واستجلس فأبى وأنشده قائلاً من قول أبي مطروح شاعر السلطان بمصر :

قُل للفَرَنسيس إذا جئتَه مَقالَ صِدقٍ من وَزيرٍ نَصيح[1]
آجرك اللهُ على ما جرى من قَتْلِ عباد نصارى المسيح
أتيت مصراً تبتغي مُلكَها تحسَبُ أن الزمر بالطبل ريح
فساقكَ الحَيْنُ إلى أدْهَمٍ ضاقَ به عن ناظِرَيْك الفَسيح
وكل أَصحابِك أَوْدَعْتَهم بسوء تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفاً لا يرى منهم إلّا قتيل أو أسير جريح

(١) كذا، وفي ت: من قؤول فصيح .

أَلْهَمَكَ اللهُ الى مِثْلِها لعلَّ عيسى منكم يَسْتَرِيح
ان كان باباكم بِذا راضِياً فربَّ غُشٍّ قد أتى من نَصِيح[1]
فاتَّخِذوه كاهناً إنه أنصح من شقٍّ لكم أو سطيح
وقل لهم إن أزمعوا عَوْدَةً لأخذ ثارٍ أو لشغل قبيح
دارُ ابن لقمان على حالها والقيد باقٍ والطواشي صبيح

يعني بدار ابن لقمان موضع اعتقاله بالاسكندرية ، والطواشي في عرف أهل مصر هو الخصي . فلما استكمل انشاده لم يزد ذلك الطاغية إلّا عتواً واستكباراً ، واعتذر عن نقض العهد في غزو تونس بما يسمع عنهم من المخالفات عذراً دافعهم به ، وصرف الرسل من سائر الآفاق ليومه . فوصل رسل السلطان منذرين بشأنهم ، وجمع الطاغية حشده وركب أساطيله الى تونس آخر ذي القعدة سنة ثمان وستين ، فاجتمعوا بسردانية وقيل بصقلية . ثم واعدهم بمرسى تونس وأقلعوا ونادى السلطان في الناس بالنذير بالعدو والاستعداد له ، والنفير الى أقرب المدائن ، وبعث الشواني لاستطلاع الخبر ، واستبهم اياماً[2] .

ثم توالت الاساطيل بمرسى قرطاجنة ، وتفاوض السلطان مع أهل الشورى من الاندلس والموحدين في تخليتهم وشأنهم من

(١) ورد هذا البيت في النسخة التونسية هكذا:
إن يكون البابا بذا راضياً فرب عسر قد أتى من نصيح
(٢) كذا، وفي ت : عبارة زائدة وهي : «ثم كان عينه فراره» وهذا مثل يضرب لما دل ظاهره على باطنه.

النزول بالساحل أو صدهم عنه ، فأشار بعضهم بصدهم حتى تنفذ ذخيرتهم من الزاد والماء ، فيضطرون الى الاقلاع. وقال آخرون اذا أقلعوا من مرسى الحضرة ذات الحامية والعدد صبحوا بعض الثغور سواها فملكوه واستباحوه ، واستصعبت مغالبتهم عليه فوافق السلطان على هذا وخلوا وشأنهم من النزول فنزلوا بساحل قرطاجنة بعد ان ملئت سواحل رودس بالمرابطة بجند الاندلس والمطّوعه زهاء أربعة آلاف فارس ، لنظر محمد بن الحسين رئيس الدولة .

ولما نزل النصارى بالساحل وكانوا زهاء ستة آلاف فارس ، وثلاثين ألفاً من الرجالة فيما حدثني أبي عن أبيه رحمهما الله. قال: وكانت أساطيلهم ثلثمائة بين كبار وصغار ، وكانوا سبعة يعاسيب كان فيهم الفرنسيس واخوة جرون[1] صاحب صقلية وصاحب الجزر ، والعلجة زوج الطاغية تسمى الرينة ، وصاحب البر الكبير ، وتسميهم العامة من أهل الاخبار ملوكا ويعنون انهم متباينون إذ ظاهروا على غزو تونس ، وليس كذلك. وانما كان ملكاً واحداً وهو طاغية الفرنجة واخوته وبطارقته ، عدّ كل واحد منهم ملكاً لفضل قوته وشدة بأسه ، فانزلوا عساكرهم في المدينة القديمة من قرطاجنّة ، وكانت ماثلة الجدران اضطرم المعسكر بداخلها ، ووصلوا ما فصله الخراب من أسوارها بألواح الخشب ونضدوا

(١) كذا، وفي ب: جرول.

شرفاتها ، وأداروا على السور خندقاً بعيد المهوى وتحصنوا . وندم السلطان على اضاعة الحزم في تخريبها أو دفاعهم عن نزلها. وأقام ملك الفرنجة وقومه متمرسين بتونس ستة اشهر ، والمدد يأتيه في أساطيله من البحر من صقليه والعدوة بالرجل والاسلحة والاقوات .

وسلك بعض المسلمين طريقاً في البحيرة ، واتبعهم العرب فأصابوا غرّة في العدوّ فظفروا وغنموا وشعروا بمكانهم ، فكلفوا بحراسة البحيرة وبعثوا فيها الشواني بالرماة ومنعوا الطريق اليهم وبعث السلطان في ممالكه حاشداً فوافته الامداد من كل ناحية ، ووصل أبو هلال صاحب بجاية وجاءت جموع العرب وسدويكش وولهاصة وهوارة حتى أمده ملوك المغرب من زناتة وسرّح اليه محمد بن عبد القوى عسكر بني توجين لنظر ابنه زيان . وأخرج السلطان ابنيته[1] وعقد لسبعة من الموحدين على سائر الجند من المرتزقة والمطوعة وهم : اسمعيل بن أبي كلداسن وعيسى بن داود ويحيى بن أبي بكر ويحيى بن صالح وأبو هلال عياد صاحب بجاية ومحمد بن عبو ، وأمرهم كلهم راجع ليحى بن صالح ويحيى ابن أبي بكر منهم .

واجتمع من المسلمين عدد لا يحصى ، وخرج الصلحاء

---

(١) كذا بالاصل، وأظن أن المراد: أخرج السلطان من كان في ابنيته. أو: وخرج السلطان من ابنيته، أو وأخرج السلطان ابنتيه.

والفقهاء والمرابطون لمباشرة الجهاد بأنفسهم والتزم السلطان القعود بايوانه مع بطانته وأهل اختصاصه وهم الشيخ أبو سعيد المعروف بالعود ، وابن ابي الحسين وقاضيه أبو القاسم بن البراء وأخو العيش . واتصلت الحرب ، والتقوا في منتصف محرم سنة تسع بالمنصف ، فزحف يومئذ يحيى صالح وجرون . فات من الفريقين خلق ، وهجموا على المعسكر بعد العشاء وتدامر المسلمون عنده ثم غلبوا عليه بعد ان قتل من النصارى زهاء خمسمائة ، فاصبحت ابنيته مضروبة كما كانت . وأمر بالخندق على المعسكر فتعاورته الأيدي ، واحتفر فيه الشيخ أبو سعيد بنفسه ، وابتلي المسلمون بتونس ، وظنوا الظنون . واتهم السلطان بالتحول عن تونس الى القيروان .

ثم ان الله أهلك عدوّهم وأصبح ملك الفرنجة ميتاً يقال حتف أنفه ، ويقال أصابه سهم غرب في بعض المواقف فأبته[1] ويقال أصابه مرض الوباء ، ويقال وهو بعيد ان السلطان بعث اليه مع ابن جرام الدلاصي بسيف مسموم وكان فيه مهلكه . ولم هلك اجتمع النصاري على ابنه دمياط ، سمي بذلك لميلاده بها فبايعوه ، واعتزموا على الاقلاع . وكان أمرهم راجعاً الى العلجة فراسلت المستنصر أن يبذل لها ما خسروه في مؤنة

(١) كذا بالأصل، ولا معنى لها هنا، ومقتضى السياق: فأماته. وفي ت: فاثبته، ولا تتناسب كذلك مع السياق.

حركتهم ، وترجع بقومها فاسعفها السلطان لما كان العرب اعتزموا على الانصراف الى مشاتيهم .

وبعث مشيخة الفقهاء لعقد الصلح في ربيع الاول سنة تسع وستين فتولى عقده وكتابه القاضي ابن زيتون لخمسة عشر عاماً . وحضر أبو الحسن علي بن عمرو وأحمد بن الغماز وزيان بن محمد ابن عبد القوى أمير بني توجين ، واختص جرون صاحب صقلية بسلم عقده على جزيرته . وأقلع النصارى باساطيلهم ، وأصابهم عاصف من الريح أشرفوا منه على العطب ، وهلك الكثير منهم . واغرم السلطان الرعايا ما أعطى العدو من المال فأعطوه طواعية . يقال انه عشرة أحمال من المال ، وترك النصارى بقرطاجنة تسعين منجنيقاً . وخاطب السلطان صاحب المغرب وملوك النواحي بالخبر ودفاعه عن المسلمين وما عقده من الصلح ، وأمر بتخريب قرطاجنة وأن يؤتى بنيانها من القواعد ، فصيّر ابنيتها طامسة ورجع الفرنجة الى دعوتهم فكان آخر عهدهم بالظهور والاستحفال ، ولم يزالوا في تناقص وضعف الى أن افترق ملكهم عمالات . واستبد صاحب صقلية لنفسه ، وكذا صاحب نابل وجنوة وسردانية ، وبقي بيت ملكهم الاقدم لهذا العهد على غاية من الفشل والوهن . والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين .

الخبر عن مهلك رئيس الدولة أبي عبد الله بن أبي الحسين وأبي سعيد العود الرطب

اصل هذا الرجل من بني سعيد رؤساء القلعة المجاورة لغرناطة ، وكان كثير منهم قد استعملوا أيام الموحدين بالعدوتين ، وكان جده ابو الحسن سعيد صاحب الاشغال بالقيروان . ونشأ حافده هذا في كفالته . ولما عزل وقفل الى المغرب هلك ببونة سنة اربع وستماية ، ورجع حافده محمد الى تونس والشيخ ابو محمد بن أبي حفص صاحب افريقية لذلك العهد فاعتلق بخدمة ابنه أبي زيد . ولما ولي الامر بعد وفاة أبيه غلب محمد هذا على هواه . ثم جاء السيد ابو علي من مراكش على افريقية ، وارتحل ابو زيد الى مراكش ومحمد بن أبي الحسين الى تونس ، واتصل بالامير أبي زكرياء لأول استبداده فغلب على هواه ، وكان مبختاً في صحابة الملوك . ولما ولي المستنصر اجراه على سننه برهة ، ثم تنكر له اثر كائنه اللحياني ، وعظمت سماية اعدائه من البطانة واشاعوا بمداخلته لابي القاسم ابن مخدومه أبي زيد بن الشيخ أبي محمد ، فنكبه السلطان واعتقله بداره تسعة اشهر . ثم سرحه واعاده الى مكانه وثار من اعدائه ، واستولى على امور السلطان الى ان هلك سنة احدى وسبعين .

وكان ابن عمه سعيد بن يوسف بن أبي الحسن صاحب اشغال

الحضرة ، وكان قد أفنى مالاً جسيماً ، ونال من الحضرة منالا . وكان الرئيس أبو عبد الله متفنناً في العلوم مجيداً في اللغة . يقرض الشعر فيحسن ، ويرسل فيجيد . وله من التواليف : كتاب ترتيب المحكم لابن سيدة على نسق الصحاح للجوهري واختصاره ، وسماه الخلاصة . وكان في رياسته صليب الرأي قوي الشكيمة عالي الهمة ، شديد المراقبة والحزم في الخدمة ، وله شعر نقل منه التجاني وغيره . ومن اشهر ما نقل عنه من شعره يخاطب عنان بن جابر عن الأمير أبي زكريا لما خالف واتبع ابن غانية ، وهي على رويّ الراء ، كان قبلها اخرى على روي الدال . وكان له ولد اسمه سعيد ، وترقى في حياة ابيه المراتب السلطانية . ثم اغتبط دون غايته . وفي ثالثة مهلكه كان مهلك الشيخ أبي سعيد عثمان بن محمد الهنتاتي المعروف بالعود الرطب ، ويعرف اهل بيته بالمغرب ببني أبي زيد . وكان منهم عبد العزيز المعروف بصاحب الاشغال كان فرّ من المغرب ايام السعيد لجفوة نالته ، ولحق بسجلماسة سنة احدى وأربعين . وقد كان انتزى بها عبد الله الهزرجي ، وبايع للأمير أبي زكريا فأجازه عبد الله الى تونس ، ونزل على الامير أبي زكريا ونظمه في طبقات مشيخة الموحدين واهل مجلسه . ثم حظي عند ابنه المستنصر بعد نكبة بني النعمان حظوةً لا كفاء لها . واستولى

على الرأي والتدبير الى ان هلك سنة ثلاث وسبعين فشيّع طيب الذكر ملحفاً بالرضوان من الخاصة والكافة، والله مالك الامور.

الخبر عن انتقاض أهل الجزائر وفتحها

كان اهل الجزائر لما رأوا تقلّص ظل الدولة عن زناتة وأهل المغرب الأوسط حدثوا انفسهم بالاستبداد والقيام على امرهم، وخلع ربقة الطاعة من اعناقهم فجاهروا بالخلعان. وسرّح السلطان اليهم العساكر سنة تسع وستين، وأوعز الى صاحب ثغر بجاية، وهو ابو هلال عياد بن سعيد الهنتاتي فزحف اليها في عساكر الموحدين سنة احدى وسبعين، ونازلها مدة حول. وامتنعت عليه فأقلع عنها ورجع الى بجاية، وهلك بمعسكره ببني ورا سنة ثلاث وسبعين.

ثم ان السلطان صرف عزمه الى منازلتهم سنة اربع وسبعين وسرح اليهم العساكر في البر، وأنفذ الاساطيل في البحر وعقد على عسكر تونس لأبي الحسن بن ياسين، وأوعز الى عامل بجاية بانفاذ عسكر آخر فأنفذه لنظر أبي العبّاس ابن أبي الأعلام، ونهضت هذه العساكر براً وبحراً الى ان نازلتها وأحاطت بها من كل جانب، واشتد حصارها. ثم اقتحمت عَنْوَةً واستحرّ فيهم القتل، وانتهبت المنازل، وافتضح الكرائم في ابكارهن.

وتقبّض على مشيخة البلد فنقلوا الى تونس مصفّدين ، واعتقلوا بالقصبة الى ان سرّحهم الواثق بعد مهلك السلطان .

الخبر عن مهلك السلطان المستنصر ووصف شيء من أحواله

كان السلطان بعد فتح الجزائر قد خرج من تونس للصيد وتفقد العمالات ، فأصابه في سفره مرض ورجع الى داره ، واشتدت علته وكثر الارجاف بموته . وخرج يوم الاضحى سنة خمس وسبعين يتهادى بين رجلين ، ورجلاه لا يخطّان الأرض . وجلس للناس في منبر متجلداً . ثم دخل بيته وهلك لليلته رضوان الله عليه ، وكان شأن هذا المستنصر في ملوك آل ابي حفص عظيماً . وشهرته طائرة الذكر بما انفسح امد سلطانه ، ومدت اليه ثغور القاصية من العدوتين يد الاعتصام به . وما اجتمع بحضرته من أعلام الناس الوافدين على ابيه وخصوصاً الاندلس ، من شاعر مفلق وكاتب بليغ وعالم نحرير وملك أروع وشجاع أهيس ، متفيئين ظلّ ملكه متناغين في اللياذ به ، لطموس معالم الخلافة شرقاً وغرباً على عهده ، وخفوت صوت الملك إلاّ في ايوانه .

فقد كان الطاغية التهم قواعد الملك بشرق الاندلس وغربها ، فاخذت قرطبة سنة ثلاث وثلاثين ، وبلنسية سنة ست بعدها ،

واشبيلية سنة ست واربعين . واستولى الططر على بغداد دار خلافة العرب بالمشرق وحاضرة الاسلام سنة ست وخمسين ، وانتزع بنو مرين ملك بني عبد المؤمن . واستولوا على حضرة مراكش دار خلافة الموحدين سنة ثمان وستين ، كل ذلك على عهده وعهد ابيه ودولتهم أشدّ ما كانت قوةً وأعظم رفاهية وجباية ، واوفر قبيلًا وعصابة واكثر عساكر وجنداً ، فأمّله اهل العالم للكرة ، واجفلوا الى الامساك بحقويه . وكانت له في الأُبهة والجلال أخبار ، وفي الحروب والفتوح آثار مشهورة ، وفي ايامه عظمت حضارة تونس ، وكثر ترف ساكنها . وتأنّق الناس في الملابس والمراكب والمباني والماعون والابنية ، فاستجادوها وتناغوا في اتخاذها وانتقائها الى ان بلغت غايتها . ثم رجعت من بعده ادراجها ، والله مالك الامور ومصرّفها

الخبر عن بيعة الواثق يحيى بن المستنصر وهو المشهور بالمخلوع وذكر أحواله

لما هلك السلطان المستنصر سنة خمس وسبعين كما قدّمناه ، اجتمع الموحدون وسائر الناس على طبقاتهم الى ابنه يحيى ، فبايعوه ليلة مهلك ابيه ، وفي غدها وتلقّب الواثق . وافتتح امره برفع المظالم وتسريح اهل السجون وافاضة العطاء في الجند واهل الديوان ، واصلاح المساجد ، وازالة كثير من الوظائف

عن الناس . وامتدحه الشعراء فاسنى جوائزهم ، واطلق عيسى ابن داود من اعتقاله ، ورده الى حاله . وكان المتولي لاخذ البيعة على الناس والقيام بامره سعيد بن يوسف بن أبي الحسين لمكانه من الدولة ورسوخه في الشهرة ، فقام بالامر ولم يزل على ذلك الى ان نكبه وادال منه بالحَبَّر

الخبر عن نكبة ابن أبي الحسين واستبداد ابن الحبَّر على الدولة

كان هذا واسمه يحيى بن عبد الملك الغافقي وكنيته ابو الحسن اندلسيًّا من اعمال مرسية ، وفد مع الجالية من شرق الاندلس ايام استيلاء العدو ، وكان يحسن الكتاب ولم يكن له من الخلال سواها ، فصرف في الاعمال ثم ارتقى الى خدمة ابن أبي الحسين فاستكتبه ، ثم رقّاه الى ولاية الديوان فعظمت حاله وكانت له اثناء ذلك مداخلة للواثق ابن السلطان اعتدّها له سابقة . فلما استوسق الأمر للواثق رفع منزلته واختصه بالشورى ، وقلّده كتاب علامته . وكان سعيد بن أبي الحسين مزاحماً له منافساً لما كان اسف منه بقديه . فاغرى به السلطان ورغّبه في ماله فتقبض على سعيد بن أبي الحسين لستة اشهر من الدولة سنة ست وسبعين واعتقل بالقصبة . وتقبّض على نقله ابن ياسين وابن صياد الرجالة وغيرهم ، وقدم على الاشغال مدافع من الموالي

العلوجي . ووكل ابو زيد بن أبي الأعلام من الموحدين بمصادرة ابن ابي الحسين على المال وامتحانه

ولم يزل يستخرج منه حتى ادعى الاملاق واستحلف فحلف، ثم ضرب فادعى مؤتمناً من ماله عند قوم استكشفوا عنه فادوه. ثم دلّ بعض مواليه على ذخيرة بداره دفينة فاستخرج منها زهاء ستماية الف من الدنانير، فلم يقبل بعدها مقالهُ، وبسط عليه العذاب الى ان هلك في ذي الحجة من سنته، ودفن شلوه بحيث لم يعرف مدفنه واستبد ابو الحسن الحَبّر على الدولة والسلطان، وبعث اخاه ابا العُلى والياً على بجاية، واسف المشيخة والبطانة بعتوه واستبداده وما يتحشمونه من مباكرة بابه، الى ان عاد وبال ذلك على الدولة كما نذكره .

الخبر عن إجازة السلطان أبي اسحاق من الأندلس ودخول أهل بجاية في طاعته

كان السلطان المستنصر قد عقد على بجاية سنة ستين لأبي هلال عيّاد بن سعيد الهنتاتي، وادال به من أخيه الأمير أبي حفص، فأقام والياً عليها الى ان هلك ببني ورا سنة ثلاث وسبعين كما ذكرناه . وعقد عليها من بعده لابنه محمد، فكان له غناء في ولايته، واضطلع بامره الى ان هلك المستنصر، وولى ابنه الواثق فبادر الى ايتاء طاعته، وبعث وفد بجاية بيعتهم .

ثم قلد ابو الحسن الجبّر القائم بالدولة اخاه ادريس ولاية الاشغال ببجاية ، فقام بها واقتنى الاموال ، وتحكم في المشيخة . وانف محمد بن أبي هلال من استبداده عليه ، فهمّ ادريس بنكبته فخشي محمد بن ابي هلال بادرته ، وداخل بعض بطانته في قتله . وفاوض الملك فيه فعدوا عليه لأول ذي القعدة سنة سبع وسبعين بمقعده من باب السلطان ، فقتلوه ورموا برأسه الى الغوغاء والزعانف فعبثوا به .

ووافق ذلك حلول السلطان أبي اسحاق بتلمسان وكان عند بلوغ الخبر اليه بمهلك اخيه المستنصر ، اجمع امره على الاجازة لطلب حقه بعدما تردد برهة . ثم اعتزم واجاز الى تلمسان ، ونزل على يغمراسن ابن زيان فقام لمورده ، واحتفل في مبرّته . وفعل اهل بجاية وابن أبي هلال فعلتهم ، وخشوا بوادر السلطان بالحضرة فخاطبوا السلطان ابا اسحاق ، واتوه بيعتهم وبعثوا وفدهم يستحثونه للملك ، فأجابهم ودخل اليهم آخر ذي القعدة من سنته ، فبايعه الموحدون والملأ من أهل بجاية . وقام بأمره محمد بن أبي هلال . ثم زحف في عساكره الى قسطنطينة فنازلها ، وبها عبد العزيز ابن عيسى بن داود ، فامتنعت عليه فأقلع عنها الى أن كان من امره ما نذكره .

الخبر عن خروج الأمير أبي حفص بالعساكر للقاء السلطان أبي اسحاق ثم دخوله في طاعته وخلع الواثق

لما بلغ الخبر الى الواثق ووزيره المستبد عليه ابن الحبّر بدخول السلطان أبي اسحاق بجاية ، سرّح العساكر الى حربه ، وعقد عليها لعمه أبي حفص . واستوزر له ابا زيد بن جامع ، فخرج من تونس واضطرب معسكره بيجاية . وعقد الواثق على قسطنطينة لعبد العزيز بن عيسى بن داود لذمة صهر كانت له من ابن الحبّر ، فتقدم الى قسطنطينة ، ومانع عنها الامير أبا اسحاق كما ذكرناه . ثم اضطرب رأي ابن الحبّر في خروج الأمير أبي حفص ، وأراد انفضاض عسكره فكتب الواثق الى أبي حفص ووزيره ابن جامع يغري كلّ واحد منهما بصاحبه ، فتفاوضا واتفقا على الدعاء للأمير أبي اسحاق ، وبعثوا اليه بذلك . واتصل الخبر بالواثق وهو بتونس منتبذاً عن الحامية والبطانة ، فاسيقن ذهاب ملكه ، واشهد الملأ ، وانخلع عن الامر لعمه السلطان أبي اسحاق غرة ربيع الاول من سنة ثمان وسبعين ، وتحوّل عن قصور الملك بالقصبة الى دار الأقوري وانقرضت دولته وامره ، والبقاء لله وحده .

الخبر عن استيلاء السلطان أبي اسحاق على الحضرة

لما بلغ السلطان أبا اسحاق كتاب أخيه الأمير أبي حَفْصٍ وابن جامع من باجة، بادر مُغِذّاً اليهم. ثم وافاه خبر انخلاع الواثق ابن اخيه بتونس، فارتحلوا جميعاً وتسايل أهل الحضرة على طبقاتهم إلى لقائه، وأتوه طاعتهم. ودخل الحضرة منتصف ربيع الآخر سنة ثمان وسبعين، ومحمد بن أبي هلال شيخ دولته. وعقد على حِجابَتِه لأبي القاسم بن الشيخ كاتب ابن أبي الُحسَيْن، وعلى خطة الأشغال لابن أبي الَحسَن بن خلدون. كان مع وفد ابيه الحسن على الامير أبي زكرياء من اشبيلية لذمة رعاها لهم، بما كانت ام ولده ام الخلائف من هدايا ابن المحتسب أبي زكرياء محلهم.

ورحل الحسن الى المشرق ومات هنالك، وبقي ابنه أبو بكر بالحضرة، فاستعمله الأمير ابو اسحاق لأول دخوله في خطة الاشغال، ولم يكن يليها إلا الموحدون كما قلناه. وعقد لفضل ابن علي بن مزني على الزاب، ولم يكن أيضاً يليها إلا الموحدون. لكن رعى لفضل بن مزني ذمّة اغترابه معه الى الاندلس، فعقد له على الزاب، ولاخيه عبد الواحد على بلاد قسطيلية. ثم تقبّض على ابن الحَبَّر، وأمر باعتقاله ودفعه الى موسى ابن محمد بن ياسين للمصادرة والامتحان. ووجد مكان التمائم عليه

طوابع وطلسمات مختلفة الاشكال والصور ، يسحر بها فيما زعموا مخدومه فحاق به وبالها . وكان شانه في الامتحان والاستخلاف والهلاك بالعذاب ، شأن سعيد بن أبي الحسين منكوبه أيام دولته ، الى أن هلك شهر جمادى الاولى من سنته ، والله لا يظلم مثقال ذرة

ولما اقتعد السلطان ابو اسحاق كرسي ملكه ، واستوثقت عرى خلافته ، تقبّض على محمد بن أبي هلال ، وقتله لحين نكبته سنة ست وسبعين ، لما كان يتوقع منه من المكروه في الدولة ، وما عرف به من المساعي في الفتنة

الخبر عن مقتل الواثق وولده

لما انخلع الواثق عن الامر وتحول الى دار الأقوري فاقام بها أياماً ، وكان له ثلاثة من الولد اصاغر : الفضل والطاهر ، والطيب ، فكانوا معه . ثم نمي عنه للسلطان أبي اسحاق انه يروم الثورة ، وانه داخل في ذلك بعض رؤساء النصارى الجند ، فاقلق السلطان مكان ترشيحه ، واعتقله بمكان اعتقال بنيه هو من القصبة أيام اخيه المستنصر . ثم بعث إليهم لليلته فذبحوا جميعاً شهر صفر سنة تسع وسبعين . واستوسق له الامر ، واطلق من عنان الامارة لولده ، الى ان كان من شأنهم ما يذكر .

الخبر عن ولاية الأمير أبي فارس بن السلطان أبي اسحاق على بجاية بعهد أبيه والسبب في ذلك

كان للسلطان أبي اسحاق من الابناء خمسة : ابو فارس عبد العزيز ، وكان اكبرهم ، وابو محمد عبد الواحد ، وابو زكرياء يحيى ، وخالد وعمر . وكان السلطان المستنصر قد حبسهم ، عند فرار أبيهم الى رياح في ايامه ، ببعض حجر القصر واجرى عليهم رزقاً فنشؤا في ظل كفالته وجم رزقه ، الى ان استولى أبوهم السلطان ابو اسحاق على الملك فطلعوا بافاقه. وطالت فروعهم في دوحه ، واشتملوا على العزّ ، واصطنعوا أهل السوابق من الرجال ، وأرخى السلطان لهم ظلّهم في ذلك . وكان المجلّي فيها كبيرهم أبو فارس بما كان مرشحاً لولاية العهد ، وكان ممن اصطنعه وألقى عليه رداء محبته في الناس وعنايته ، احمد بن أبي بكر بن سيد الناس اليعمري ، وأخوه ابو الحسين ، لسابقة رعاها لهما . وذلك ان اباهما أبا بكر ابن سيد الناس ، كان من بيوت اشبيلية حافظاً بالحديث رواية له . ظاهرياً في فقهه على مذهب داود واصحابه . وكانت لاهل اشبيلية خصوصاً من بين الاندلس وصلة بالامير أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص وبنيه ، منذ ولايته غرب الاندلس .

فلما تكالب الطاغيه على العُدْوَة ، والتهم ثُغورها واكتسح بسائطها ، وأسفّ الى قواعدها وأمصارها ، أجاز الاعلام وأهل

البيوت الى ارض المغربين وافريقية . وكان قصدهم الى تونس أكثر لاستفحال الدولة الحفصيّة بها . فلما رأى الحافظ ابو بكر اختلال احوال الأندلس وقبح مصائرها ، وخفة ساكنها ، أجمع الرحلة عنها الى ما كان بتونس من سابقته عند هؤلاء الخلفاء ، فأجاز البحر ونزل بتونس ، فلقّاه السلطان تكرمة ، وجعل اليه تدريس العلم بالمدرسة عند حمام الهوا التي اسستها امّه أم الخلائف .

ونشأ بنوه احمد وابو الحسين في جوّ الدولة وحجر كفالتها للاختصاص الذي كان لأبيهم بها . وعدلوا عن طلب العلم الى طلب الدنيا ، وتشوّقوا الى مراتب السلطان ، واتصلوا بابناء السلطان أبي اسحاق بمكانهم من حجر القصر ، حيث انزلهم عمهم بعد مذهب أبيهم فخالطوهم واستخدموا لهم . ولما استولى السلطان على الامر ورشح ابنه ابا فارس للعهد ، واجراه على سنن الوزارة ، فاصطنع احمد ابن سيّد الناس ، ونوّه باسمه وخلع عليه لبوس كرامته . واختصّه بلقب حجابته ، وأخوه ابو الحسين يناهضه في ذلك عنده . ونفس ذلك عليهما البطانة فأغروا السلطان ابا اسحاق بابنه ، وخوّفوه شأنه . وان احمد بن سيّد الناس داخله في التوثّب بالدولة . وتولّى كِبَرَ هذه السعاية عبد الوهّاب بن قائد الكلاعي من عليه الكتّاب ووجوههم . كان يكتب العلامة يومئذ ، فسطا السلطان بابن سيّد الناس سنة

تسع وستين آخر ربيع ، استدعي الى باب القصر فتعاورته السيوف هبراً ، ووري شلوه ببعض الحفر . وبلغ الخبر الى الأمير أبي فارس فركب الى ابيه في لبوس الحزن ، فعزّاه ابوه عن ذلك بانه ظهر لابن سيد الناس على المكر والخديعة بالدولة . وأماط سواده بيده ، ونجا ابو الحسين من هذه المهلكة . واعتُقِلَ في لمة من رجال الأمير أبي فارس وبطانته ، بعد ان توارى أياماً إلى ان أطلق من محبسه ، وكان من امره ما نذكره بعد . واستبلغ السلطان في تانيس ابنه ، ومسح الضغينة عن صدره ، وعقد له على بجاية واعمالها ، وانفذه اليها اميراً مستقلاً . وانفذ معه في رسم الحجابة جدي محمد ابن صاحب أشغاله أبي بكر بن الحسن بن خلدون ، فخرج اليها سنة تسع وستين ، وقام بامرها الى آخر دولته كما نذكره .

الخبر عن ثورة ابن الوزير بقسطنطينة ومقتله

اسم هذا الرجل أبو بكر بن موسى بن عيسى ، ونسبته في كومية من بيوت الموحدين . كان مستخدماً لابن كلداسن الوالي بقسطنطينة بعد ابن النُعمان من مشيخة الموحدين ايام المستنصر . ووفد ابن كلداسن على الحضرة ، وأقام ابن وزير نائباً عنه بقسطنطينة ، فكان له غناً وصرامة . وولاه السلطان

حافظاً عـلى قُسَنْطِينَة . واتصلت ولايته ، وهلك المستنصر ، واضطربت الاحوال . ثم وَلِيَ الواثق ، ثم السلطان ابو اسحاق وكان ابن وزير هذا طموحاً جموح الأمل ، وعلم ان قسطنطينة معقل ذلـك القطر وحِصْنَه فحدّثته نفسه بالامتناع بهـا ، والاستبداد على الدولة . وساء اثره في أهلها فرفعـوا أمرهم الى السلطان أبي اسحاق ، واستعدوه فلم يعدهم لما رأى من مخايـل انحرافه عن الطاعة . وكتب هو بالاعتذار والنكير لما جاءوا به فتقبّل وأغضى له عن هناته . ولما مرّ به الأمير ابو فارس الى محل امارته من بجاية سنة تسع وسبعين ، قعد عن لقائه واوفد عليه جمعاً من الصلحاء بالمعاذير والاستعطاف ، فنحه مـن ذلك كفـاء مرضاته ، حتى اذا ابعد الامير ابو فارس الى بجـاية ، اعتزم هو على الانتزاء . وكاتب ملك أرغون في جيش النصارى يكون معه في ثغره ، يردد بهم الغزو على ان يكون فيما زعموا داعيةً له فاجابه ووعده ببعث الاسطول اليه ، فجاهر بالخلعان ، وانتزى بثغر قسطنطينة داعياً لنفسه آخر سنة ثمانين

وزحف اليه الامـير أبو فارس من بجـاية في عساكره ، واحتشد الأعراب وفرسان القبائل الى ان احتل بميلة . ووفد عليه مشيخة من اهل قسطنطينة بكر من الرغبة والتوسل ، بعثهم بهـا ابن وزير ، فأعرض عنهم وصبح قسطنطينـة في اول ربيع سنة احدى وثمانين ، فنازلها وجمع الايدي على حصارها .

ونصب المجانيق وقرب مقاعد الرماة ، وقاتلها يوماً او بعض يوم ، وتسوّر عليهم المعقل من بعض جهاته . وكان المتولي لتسوّره حاجبه محمد بن ابي بكر بن خلدون ، وابلى ابن وزير عند الصدمة حتى احيط به ، وقتل هو واخوه واشياعها ، ونصبت رؤوسهم بسور البلد . وتمشّى الأمير في سكك البلد مسكناً ومؤنساً ، وامر برّم ما تثلم من الأسوار وباصلاح القناطر . ودخل الى القصر ، وبعث بالفتح الى ابيه بالحضرة . وجاء اسطول النصارى الى مرسى القل في مواعدة ابن وزير ، فاخفق مسعاهم ، وارتحل لامير ابو فارس ثالثة الفتح إلى بجاية ، فدخلها آخر ربيع من سنته .

الخبر عن قيادة أبناء السلطان العساكر الى الجهات

كان السلطان يؤثر ابناءه بمراتب ملكه ، ويوليهم خطط سلطانه شغفاً بهم وترشيحا لهم ، فعقد في رجب سنة احدى وثمانين لابنه أبي زكرياء على عسكر من الموحدين والجند ، وبعثه الى قفصة للاشراف على جهاتها . وضم مجابيها فخرج اليها وقضى شانه من حركته ، وانصرف الى تونس في رمضان من سنته . ثم عقد لابنه الآخر أبي محمد عبد الواحد على عسكره ، وانفذه الى وطن هُوارّة لاقتضاء مغارمهم وجباية ضرائبهم وفرائضهم ، وبعث معه عبد الوهاب ابن قائد الكلاعي مباشراً لذلك وواسطة

بينه وبين الناس ، فانتهى الى القيروان ، وبلغه شان الدعي وظهوره في دباب بنواحي طرابلس ، فطيّر بالخبر الى السلطان واقبل على شانه . ثم انتشر أمر الدعي فانكفأ راجعاً الى تونس

الخبر عن صهر السلطان مع عثمان بن يغمراسن

كان السلطان لما اجاز البحر من الأندلس لطلب ملكه ، ونزل على يُغْمُراسن ابن زيّان بتلمسان ، فاحتفل لقدومه ، واركب الناس للقائه ، واتاه بيعته على عادته من سلفه لما علم انه أحق بالأمر ، ووعد النصرة من عدوه والمؤازرة على امره ، واصهر اليه في احدى بناته المقصورات في خيام الخلافة بابنه عثمان تشريفا خطبه منه ، فولآه الاسعاف به . ولما استولى السلطان على حضرته واستبد باحوال ملكه بعث يغمراسن ابنه ابراهيم المكنّى بأبي عامر في وفد من قومه لاتمام ذلك العقد ، فاعتمد السلطان مبرّتهم واسعف طلبتهم ، واقاموا بالحضرة أياما . وظهر من اقدامهم في فتن الدعي مقامات ، وانصرفوا بظعينهم سنة احدى وثمانين مجبورين محبورين . وابتنى بها عثمان لحين وصولها فكانت من عقائل قصورهم ومفاخر دولتهم ، وذكراً لهم ولقومهم اخر الايام .

الخبر عن ظهور الدعي ابن أبي عمارة وما وقع من الغريب في أمره

هو احمد بن مرزوق بن أبي عمارة من بيوتات بجاية الطارئين عليها من المسيلة ، ونشأ ببجاية وسيما محترفاً بصناعة الخياطة غرّاً غمراً . وكان يحدث نفسه بالملك لما كان العارفون زعم يخبرونه بذلك . وكان هو بخط فيريه خطه ذلك . ثم اغترب عن بلده ولحق بصحراء سجلماسة ، واختلط بعرب المعقل وانتمى الى اهل البيت ، وادعى انه الفاطمي المنتظر عند الأغمار ، وانه يحيل المعادن الى الذهب بالصناعة فاشتملوا عليه وتحدثوا بشأنه اياماً . اخبرني طلحة بن مظفّر من شيوخ العمارية احدى بطون المعقل انه رآه ايام ظهوره في المعقل ملتبساً بتلك الدعوى حتى فضحه العجز . ثم لما زهدوا فيه لعجز مدّعاه ذهب يتقلّب في الارض حتى وصل الى جهات طرابلس ، ونزل على دباب وصحب بينهم الفتى نصير مولى الواثق بن المستنصر ، وتلقّب نوبى . ولما رآه تبين فيه شبهاً من الفضل ابن مولاه فطفق يبكي ويقبّل قدميه فقال له ابن أبي عمارة : ما شأنك ؟ فقص عليه الخبر فقال له : صدقني في هذه الدعوى وانا اثيرك من قاتلهم .

واقبل نصير على امراء العرب منادياً بالسرور بابن مولاه ،

حتى خيّل عليهم . ثم لبس بما دس الى ابن عمارة من محاورات وقعت بين العرب وبين الواثق ، قصَّها عليهم ابن ابي عمارة تفياً للريب بأمره فصدقوا واطمأنوا واتوه بيعتهم . وقام بامره مرعم ابن صابر بن عسكر أمير دباب . وجمع له العرب ونازلوا طرابلس ، وبها يومئذ محمد بن عيسى الهنتاتي ـ ويشهر بعنق الفضة ـ فامتنعت عليهم ، ورحلوا الى مجريس الموطنين بزنزور وجهاتها من هوارة فأوقعوا بهم . ثم سار في تلك النواحي واستوفى جبايته لماية وزوارة وزواغة ، واغرم نفوسه وغريان ومقر من بطون هوارة وضائع الزمهم إياها واستوفاها . ثم زحف الى قابس فبايع له عبد الملك بن مكي في رجب سنة احدى وثمانين ، واعطاه صفقته طواعية ، وفاه بحق ابائه فيما طوّقوه ذريعة الى الاستقلال الذي كان يؤمله ، واعلن بخلافته ونادى في قومه واستخدم له بني كعب من سليم ورياستهم إذ ذاك في بني شيحة [1] لعبد الرحمن بن شيحة ، فأجابوا داعية وانابوا الى خدمته . وتوافت إليه بيعة اهل جربة والحامة وقرى نفزاوة . ثم زحف الى توزر وبلاد قسطيلية فأطاعوه . ثم رجع الى قفصة فبايع له اهلها ، وعظم امره وعلا صيته . فجهّز اليه السلطان ابو اسحاق العساكر من تونس كما نذكره .

---

(١) كذا، وفي ب: بني شيخة.

الخبر عن انفضاض عساكر السلطان وتقويضه عن تونس

لما تفاقم أمر الدعي بنواحي طرابلس ، ودخل الكثير من اهل الأمصار في طاعته جهّز السلطان عساكره وعقد لابنه الأمير أبي زكريا على حربه ، فخرج من تونس ونزل القيروان ، واقتضى منها غرامات ووضائع واستأثر منها باموال . ثم ارتحل الى لقاء الدعي وانتهى الى تمودة ، وبلغه هنالك ما كان من استيلاء الدعي على قفصة ، فأرجف به المعسكر وانفضّوا من حوله . ورجع الى تونس فدخلها آخر يوم من رمضان من سنته ، وارتحل الدعي على أثره من قَفْصَة واحتل بالقيروان ، فبايع له اهلها واقتدى بهم اهل المهدية وصفاقس وسوسة فبايعوا له وكثر الارجاف بتونس ، فاضطرب السلطان معسكره بظاهر البلد وسط شوال . وضرب الغزو على الناس واستكثر من العدد ، وخرج الى معسكره بالمهديّة وتلوّم بها لازاحة العلل . وارتحل الدعي من القيروان زاحفاً اليه فتسربت اليه طبقات الجنود ومشيخة الموحدين ، رضي بمكانه وصاغية الى بني المستنصر خليفتهم الطويل امد الولاية عليهم ، ورحمة لما نال الواثق وابناءه من عمهم . ثم انفضّ عن السلطان كبير الدولة موسى بن ياسين في معظم الموحدين ولقي الدعي بطريقه فاختل أمر السلطان وانتقضت على ملكه وفر الى بجاية كما نذكره .

الخبر عن لحاق السلطان أبي اسحاق ببجاية ودخول الدعي ابن أبي عمارة الى تونس وما كان أمره بها

ولما انفضّ معسكر السلطان أبي اسحاق آخر شوال من سنة احدى وثمانين ركب في خاصته وبعض جنوده ذاهباً الى بجاية ، ومر بتونس فوقف عندها حتى احتمل اهله وولده ، وسار في كلب البرد فكان يعاني من قلة الأقوات وتعاور المطر والثلج شدة . وكان يصانع القبائل في طريقه ببذل ماله . ثم مر بقسطنطينة فمنعه عاملها عبدالله بن يوقيان الهرغي من دخولها ، وقرب اليه بعض القرى من الأقوات ، وارتحل الى بجاية فكان من أمره ما يذكر . ودخل الدعي بن أبي عمارة الى الحضرة ، وقلّد موسى بن ياسين وزارته وأبا القاسم احمد بن الشيخ حجابته . وتقبّض على صاحب الأشغال أبي بكر بن الحسن بن خلدون فاستصفاه وصادره على مال امتحنه عليه . ثم قتله خنقاً ، وصرف خطة الجباية الى عبد الملك بن مكي رئيس قابس . واستكمل ألقاب الملك ، وقسم الخطط بين رجال الدولة وصرف همه الى غزو بجاية .

الخبر عن استبداد الأمير أبي فارس بالأمر عند وصول أبيه اليه

لما وصل السلطان ابو اسحاق الى بجاية شهر ذي القعدة من

سنته طريداً عن ملكه عاطلاً عن حلي سلطانه ، انتقض عليه ابنه الامير أبو فارس ومنعه من الدخول الى قصره ، فنزل بروض الرفيع ، واراده على الخلع فانخلع له . وأشهد الملأ من الموحدين ومشيخة بجاية بذلك ، وانزله قصر الكوكب ودعا الناس الى بيعته آخر ذي القعدة ، فبايعوه وتلقَّب المعتمد على الله . ونادى في أوليائه من رياح وسدويكش . وخرج من بجاية زاحفاً الى الدعي ، واستخلف عليها أخاه الأمير أبا زكريا . وخرج معه عمه الأمير أبو حفص واخوته ، فكان من امرهم ما نذكر .

الخبر عن زحف الأمير أبي فارس للقاء الدعي ثم انهزامه أمامه واستلحامه وأخوته في المعركة وما كان أثر ذلك من مهلك أبيهم السلطان أبي اسحاق وفرار أخيهم الأمير أبي زكريا الى تلمسان

لما بلغ الخبر الى الدعي باستبداد الأمير أبي فارس على ابيه واستعداده للقائه تقبض على اهل البيت الحفصي ، فاعتقلهم بعد ان هم بقتلهم . وخرج من تونس في عساكره من الموحدين وطبقات الجند في صفر سنة اثنتين وثمانين ، فانتهى الى مرماجنّة ، وتراءى الجمعان ثالث ربيع الأول فاقتتلوا عليه يومهم . ثم اختلّ مصاف الأمير أبي فارس . وتخاذل انصاره فقتل في المعركة ، وانتهب معسكره وقتل اخواته جميعاً صبراً : عبد الواحد قتله الدعي بيده ، وعمر وخالد ومحمد بن عبد الواحد . وبعث برؤوسهم الى

تونس ، فطيف بها على الرماح ونصبت باسوار البلد . وتخلص عمه الامير ابو حفص من الواقعة الى ان كان من امره ما نذكر

وبلغ خبر الواقعة الى بجاية فاضطرب اهلها وماجوا بعضهم في بعض . وجمعهم قاضيهم أبو محمد عبد المنعم بن عتيق الجزائري للحديث في الشأن فتكالبوا ، وزجرهم انه فقتلوا . ثم اشخصوا القاضي الى بلده في البحر . وخرج السلطان ابو اسحاق وابنه الامير ابو زكرياء الى تلمسان ، فقدم اهل بجاية عليهم محمد بن اسرعين قائما فيهم بطاعة الدعي ، وخرج في اتباع السلطان فادركه بجبل بني غبرين من زواوة ، فتقبّض عليه ، ونجا الامير ابو زكرياء الى تلمسان ، وبقي السلطان ابو اسحاق ببجاية معتقلًا ريثما بلغ الخبر الى تونس ، وارسل الدعي محمد بن عيسى بن داود فقتله اخر ربيع الاول سنة اثنتين وثمانين ، وانقضى امره والله عاقبة الامور

الخبر عن ظهور أبي حفص وبيعته وما كان على أثر ذلك من الأحداث

قد ذكرنا ان الامير ابا حفص حضر واقعة بني أخيه مع الدعي بمرماجنة ، فخلص من المعركة راجلًا ، ونجا الى قلعة سنان معقل هُوارة القريب من مكان الملحمة ، ولاذ به في ذهابه الى منجاته ثلاثة من صنائعهم : ابو الحسين ابن ابي بكر ابن سيد الناس ، ومحمد بن القاسم بن ادريس الفازازي ، ومحمد

ابن أبي بكر بن خلدون ، وهو جدّ المؤلف الاقرب . وربما كانوا يتناقلونه على ظهورهم اذا اصابه الكلال . ولما نجا الى قلعة سنان تحدث به الناس ، وشاع خبر منجاته اليها

وكان الدعي قد اسف العرب وثقلت وطأته عليهم بما كان يسيء الملكة فيهم . فليوم دخوله شكى اليه الناس عيثهم فتقبّض على ثلاثة منهم وقتلهم وصلبهم . ثم سرح شيخ الموحدين عبد الحق بن تافراكين لحسم عللهم واوعز اليه بالاثخان فيهم ، فاستلحم من لقي منهم . ثم تقبض على مشايخ بني علاق ، واودع سجونه منهم نيفا على ثمانين ، فساء اثره فيهم وتطلبوا أعياص البيت ، وتسامعوا بخبر الامير أبي حفص بمكانه من قلعة سنان ، فدخلوا اليه واتوه بيعتهم في ربيع سنة ثلاث وثمانين . وجمعوا له شيئا من الالة والاخبية وقام بامره ابو الليل بن احمد اميرهم . وبلغ الخبر الى الدعي فداخلته الظنة في أهل دولته . وتقبّض على أبي عمران بن ياسين شيخ دولته ، وعلى أبي الحسن بن ياسين وابن وانودين ، وعلى الحسين بن عبد الرحمن يعسوب زناتة فامتحنهم واستصفى اموالهم . ثم قتلهم آخراً ، وتوجع لهم الناس واضطرب امر الدعي الى ان كان ما نذكره

الخبر عن خروج الدعي ورجوعه واستيلاء السلطان أبي حفص على ملكه وغلبه ومهلكه

لما ظهر السلطان ابو حفص وبايعه العرب تسامع اهل الحضرة

واجتمع اليه الناس ، واوقع الدعي باهل الدولة فقتوه . وخرج من تونس يريد قتاله فارجف به اهل معسكره ورجع منهزما . ودخلت البلاد في طاعة السلطان ابي حفص ونهض الى تونس فنزل بسحوم قريباً منها . وعسكر الدعي بظاهر البلد تجاهه ، وطالت بينهما الحرب أياماً والناس في كل يوم يستوضحون خبء الدعي ومكره الى ان تبرءوا منه واسلموه ، ودخل من مكان معسكره ولاذ بالاختفاء . ودخل السلطان البلد في ربيع الاخر سنة ثلاث وثمانين واستولى على سرير ملكه وطهره من دنس فاضحه ودعيّه ، واختفى الدعيّ بتونس وغاص في لجة ساكنها واحاط به البحث فعثر عليه لليال من مدخل السلطان بدور بعض السوقه يعرف بأبي القاسم القرمادي فهدمت لحينها . وتلّ الى السلطان فأحضر له الملاْ ووبخه وساءله فاعترف بادعائه في بيتهم فأمر بامتحانه وقتله . وذهب في غير سبيل مرحمة ، وطيف بشلوه ، ونصب رأسه . وكان عبد الله بن يغمور المباشر لقتله ، وكان خبره من المثلات . واستبدّ السلطان بملكه وتلقّب المستنصر بالله . وبرز الناس الى الدخول في طاعته . وبعث اهل القاصية بيعتهم من طرابلس وتِلِمْسان وما بينهما . وعقد للشيخ أبي عبد الله الفازازي على عسكره وعلى الحروب والضاحية ، واقطع البلاد والمغارم للعرب رعياً لذّمة قيامهم بامره ، ولم يكن لهم قبلها اقطاع . وكان الخلفاء قبله يتحامون عن ذلك ولا

يفتحون فيه علـى انفسهم باباً ، وأقام متملّياً ملكه وادعـاً في حضرته الى ان كان ما نذكر .

الخبر عن استيلاء العدو على جزيرة جربة وميورقة ومنازلته المهدية واجلابه على السواحل

كان من اعظم الحوادث في ايام هذا السلطان تكالب العدو على الجزر البحريّة فاستولت أساطيلهم على جزيرة جربة في رجب من سنة ثلاث وثمانين ورياستها يومئذ من محمد بن سمّون شيخ الوَهبيَّة ، ويخلف بن امغـار [١] شيخ التكارة ، وهمـا فرقتا الخوارج . وزحف اليها المراكيا صاحب صقلية نائبا عن الفدريك ابن الريداكون ملك برشلونة في اساطيله البحريـة ، وكانوا فيما قيـل سبعين أسطولا من غربان وشواني ، وضايقهم مراراً . ثم تغلّبوا عليها فانتهبوا اموالها واحتملوا اهلها اسرى وسبياً ، يقال انهم بلغوا ثمانيـة آلاف بعد ان رموا بالرُّضع في الجبوب [٢] ، فكانت هـذه الواقعة من اشجى الوقائـع للمسلمين . ثم بنوا بساحلها حصناً واعتمروه وشحنوه حامية وسلاحاً . وفرض عليهم المغرم ماية الف دينـار في سنة ، وأقاموا عـلى ذلك . وهلك المراكيا على رأس الماية ، وبقيت الجزيرة في ملكة النصارى الى

(١) كذا ، وفي ب : أومغار .

(٢) جمع جب : وهي البئر العميقة .

ان اعادها الله في أواخر الاربعين والسبعماية كما نذكر .

وفي سنة خمس وثمانين ظفر العدو بجزيرة ميورقة ركب اليها طاغية برشلونة في اساطيله في عشرين الفاً من الرجال المقاتلة ، ومروا بميورقة كأنهم سفر من التجار وطلبوا من أبي عمر بن حكم رئيسها النزول للاستقاء فأذن لهم . فلما تساحلوا آذنوا أهلها بالحرب فتزاحفوا ثلاثا يثخن فيهم المسلمون في كلها قتلاً وجراحة بما يناهزوا الآلاف ، والطاغية في بطارقته قاعد عن الزحف فلما كان في اليوم الثالث واستولت الهزيمة على قومه زحف الطاغية في العسكر فانهزم المسلمون ، ولحق الى قلعتهم فانحصروا بها وعقدوا لابن حكم ذمة في اهله وحاشيته ، فخرجوا الى سبتة ونزل الباقون على حكم العدو فأجازهم الى جارتهم منورقة [1] واستولى على ما فيها من الذخيرة والعدد والامر بيد الله .

وفي سنة ست وثمانين بعدها غدر النصارى بمرسى الخرز فاقتحموها بعد ان ثلموا اسوارها واكتسحوا ما فيها ، واحتملوا اهلها اسرى واضرموا بيوتها ناراً . ثم مروا بمرسى تونس وانصرفوا الى بلادهم ، وفيها او في سنة تسع بعدها نازل اسطول العدو مدينة المهدية ، وكان فيهم الفرسان لقتالها فزحفوا اليها ثلاثاً ظفر بهم المسلمون في كلها . ثم جاء مدد اهل الاجم فانهزم العدو حتى اقتحموا عليهم الاسطول ، وانقلبوا خائبين وتمت النعمة .

(١) كذا، وفي ب : ميورقة .

الخبر عن استيلاء الأمير أبي زكريا على الثغر العربي بجاية والجزائر وقسطنطينة وأولية ذلك ومصائره

كان للامير أبي زكرياء ابن السلطان أبي اسحاق من الترشيح للامر بهذيه وشرف همته وحسن ملكته ، ومخالطته اهل العلم ما شهد له بغبّة حاله ، وهو الذي اختط المدرسة للعلم بازاء دار الاقوري حيث كان سكناه بتونس . ولما لحق بتلمسان بعد منجاته من مهلك أبيه ببجاية ، نزل على صهره عثمان بن يغمراسن بتلمسان ، وجاء في اثره ابو الحسين بن أبي بكر بن سيد الناس صنيعة ابيه واخيه ، بعد ان خلص مع السلطان أبي حفص من الواقعة الى مرماجنة . فلما بايع له العرب وبدت مخائل الملك رأى أبو الحسين ايثار السلطان للفازازي عليهم فتكب عنه ، ولحق بالامير أبي زكرياء بتلمسان واستحثّه لطلب ملكه . واستقرض من تجار بجاية هنالك مالا انفقه في اقامه ابهة الملك له ، وجمع الرجال واصطنع الاولياء

وفشا الخبر بما يرومه من ذلك فصدّه عثمان بن يغمراسن عنه ، لما كان تقلد من طاعة السلطان أبي حفص على سننهم مع الخلفاء بالحضرة قبله ، فاعتزم الأمير ابو زكرياء على شأنه ، وخرج من تلمسان مورياً بالصيد الذي كان ينتحله ايام مقامه بينهم ، ولحق بداود ابن هلال بن عطاف أمير بني يعقوب ، وكافة بني عامر

من زغبة وأوعز عثمان ابن يغمراسن الى داود برده اليه فابى من اخفار ذمته ، وارتحل معه بقومه الى اخر بلاد زغبة ، ونزلوا على عطيّة بن سليان بن سباع من رؤساء الدواودة ، فتلقاه بالطاعة وارتحلوا جميعاً الى ضواحي قسطنطينة فدخل العرب وسدويكش في طاعته

ونزل البلد سنة ثلاث وثمانين ، وعاملها يومئذ ابن يوقيان من مشيخة الموحدين ، وكان صاحب الجباية بها ابو الحسن بن طفيل . كان له من العامل فداخل الأمير ابا زكرياء في شان البلد ، وشرط لنفسه وصهره فامضى السلطان شرطهم وامكنوه من البلد . واقاموا بها دعوته ، وارتحل الى بجاية وكانت قد حدث فيها اضطراب بين اهلها أدّى الى الخلاف والتباين . واستحثوا الامير ابا زكرياء فاغذّ السير اليهم ودخلها سنة اربع وثمانين . ويقال ان ملكه لبجاية كان سابقاً على ملكه لقسطنطينة وهو الاصح فيما سمعناه من شيوخنا . وبعث اليه اهل الجزائر وتدلس بطاعتهم فاستولى على هذه الثغور الغربية ، وتلقب المنتخب لاحياء دين الله . واغفل ذكر امير المؤمنين ادباً مع عمه الخليفة بالحضرة حيث ملأ الموحدين اهل الحل والعقد من الجماعة . ونصب للحجابة ابا الحسين بن سيد الناس فقام بها ، ورشح ملكه وملك بنيه بهذه الناحية الغربية ، وانقسمت به الدولة الى ان خلص الامر للملوك من عقبه واستولوا على الحضرة كما نذكر

الخبر عن حركة الأمير أبي زكريا الى ناحية طرابلس ومنازلة عثمان بن يغمراسن بجاية في مغيبه

لما استولى الامير ابو زكرياء على الناحية الغربية ، واقتطعها من اعمال الحضرة اعتمل في الحركة على تونس فنهض اليها في سنة خمسة وثمانين . ووفد عليه عبد الله بن رحاب بن محمود من مشيخة دباب ، ومانعه الفازازي عن احواز تونس فنازل قابس وحاصرها ، وكان له في قتالها اثر واستوت الهزيمة على مقاتلها ذات يوم فأثخن فيهم قتلاً واسراً ، وهدم ربضها واحرق المنازل في غابتها والنخل . وارتحل إلى مسراته ، وانتهى الى الابيض واطاعه الجواري والحاميد وآل سالم وعرب برقة ، وبلغه بمكانه من مسراته ان عثمان ابن يغمراسن اسف الى منازلة بجاية ، وكان من خبره ان الامير ابا زكرياء لما فصل من تلمسان لطلب ملكه على كره منه ، وامتنع جاره داود بن عطاف من رده امتلأ له عداوة وانحرافا ، وجدد البيعة لصاحب تونس ، واوفد بها على ابن محمد الخراساني من صنائعه . وكان له اثناء ذلك ظهور على بني توجين ومغراوة بالمغرب الأوسط وضاق ذرع اهل الحضرة بمكان الأمير أبي زكرياء من مطالبتهم وتدويخه لقاصيتهم ، فداخلوا عثمان بن يغمراسن في منازلة معقله ثغر بجاية ليردوه الى عقبه عنهم ، فزحف الى بجاية سنة ست وثمانين ، ونازلها أيّاماً ، وامتنع

عليه سائر ضواحيها ، ولم يظفر باكثر من الاطلال عليها . وانكفأ الأمير ابو زكرياء راجعاً الى بجاية سنة ست وثمانين الى ان كان من امره ما نذكر

الخبر عن فاتحة استبداد أهل الجريد

كان في بعض الايام بين سدّادة وكنّومة من عمل تقيوس فتنة قتل فيها ابن لشيخ سدادة ، واقسم ليثأرَنّ فيه بشيخ كنومة نفسه ، وكان عامل توزر محمد بن يحيى بن أبي بكر التينملّي من مشيخة الموحدين ، فتذمّم شيخ كنومة به ، وبذل له مالا على نصره من عدوه فكاتب الحضرة واعلن بخلاف اهل سدادة . واحتشد لهم اهل نفطة وتقيوس ، وخرج هو في حشد أهل توزر غزاهم في بلدهم ولاذ باعطاء الرهن ، وبذل المال فلم يقبل فامدهم اهل نفزاوة وزحفوا اليه ، فانهزمت جموعه واثخنوا فيهم قتلًا واسراً الى توزر ، وذلك سنة ست وثمانين . ثم عاود غزوهم عقب ذلك فبلخوا[1] عليه ثم عقد لهم سلماً على الوفاء بمغارمهم واشترطوا ان لا حكم عليهم في سواهم ، وان رؤساء نفزاوة معهم فامضى شرطهم وكانت اول استبداد الجريد كما نذكر

---

(١) كذا، وفي ب : ففتحوا عليه . ومعنى بلخ : تكبر وحمق .

الخبر عن خروج عثمان ابن السلطان أبي دبوس داعيا لنفسه بجهات طرابلس

كان أبو دبّوس آخر خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش لما قتل سنة ثمان وستين وستماية، وافترق بنوه وتقلّبوا في الارض، لحق منهم عثمان بشرق الاندلس. ونزل على طاغية برشلونة فاحسن تكريمه، ووجد هنالك اعقاب عمه السيد أبي زيد المتنصّر اخي ابي دبوس في مثواهم من ايالة العدو. وكان لهم هنالك مكان وجاه لنزوع ابيهم السيد ابي زيد عن دينه الى دينهم فاستبلغوا في مساهمة قريبهم هذا الوافد، وخطبوا له من الطاغية حظا. ووافق ذلك حصول مرغم بن صابر بن عسكر شيخ الجواري من بني دباب في قبضة اسره، وكان قد اسره العدى من اهل صقلية بنواحي طرابلس سنة اثنتين وثمانين، وباعوه من اهل برشلونة فاشتراه الطاغية، واقام عنده اسيراً الى ان نزع اليه عثمان بن أبي دبوس هذا كما ذكرناه. وشمر لطلب حقه في الدعوة الموحدية حيث كانت. وامل الظفر في القاصية لبعدها عن الحامية، فعبر البحر الى طرابلس وكان من حظوظ كرامته عند الطاغية ان اطلق له مرغم بن صابر، وعقد له حلفاً معه على مظاهرته، وجهز لهما الاساطيل، وشحنها بالمدد من المقاتلة والاقوات على مال شرطوه

له فنزلوا على طرابلس سنة ثمان وثمانين ، واحتشد مرغم قومه وحملهم على طاعة ابن ابي دبوس ، ونازلوا البلد معه ومع جنده من النصرانيّة فحاصروها ثلاثاً ، وساء اثرهم فيها . ثم دخل النصارى باسطولهم وأرسوا بأقرب السواحل الى البلد وتنقّل ابن أبي دبوس ومرغم في نواحي طرابلس بعد ان أنزلوا عليها عسكراً للحصار ، فاستوفوا من جباية المغارم والوضائع مالاً دفعوه للنصارى في شرطهم ، وانقلبوا باسطولهم . واقام ابن أبي دبوس يتقلب مع العرب . واستدعاه ابن مكي من بعد ذلك لأنه يشبه به في استبداده ، فلم يتم امره الى ان هلك بجربة والله وارث الارض ومن عليها .

الخبر عن مهلك أبي الحسين بن سيد الناس صاحب بجاية وولاية ابن أبي جبي مكانه

قد قدمنا سلف هذا الرجل وأوليته ، وانه لحق بالأمير أبي زكريا بتلمسان وأبلى في خدمته ، فلما استولى الأمير أبو زكريا على الثغر الغربي ، واقتطعه عن اعمال الحضرة . ونزل بجاية وضاهى بها تونس ، عقد لأبي الحسين بن سيّد الناس على حجابته ، وفوّض اليه فيما وراء بابه ، وأجراه في رياسته على سنن ابن أبي الحسين الرئيس قبله في دولة المستنصر الذين كانوا يتلقنون طرقه ، وينزعون الى مراميه ، بل كانت رياسة هذا

في حجابته ابلغ من رياسة ابن أبي الحسين لخلاء جو الدولة ببجاية من مشيخة الموحدين الذين يزاحمونه ، كما كان ابن ابي الحسين مزاحماً بهم ، فاستولى ابو الحسين بن سيد الناس على الدولة ببجاية ، وقام بأمر مخدومه احسن قيام ، وصار الى الحل والعقد وانصرفت اليه الوجوه وتمكن في يده الزمام ، الى ان هلك سنة تسعين اعظم ما كان رياسة واقرب من صاحبه مكاناً وسراً فأقام الامير ابو زكريا مكانه ، كاتبه ابا القاسم ابن أبي جبى ، لا أدري من اوليته اكثر من انه من جالية الاندلس ، وورد على الدولة ، وتصرف في اعمالها ، واتصل بأبي الحسين بن سيد الناس فاستكتبه ثم رقاه وخلطه بنفسه ، وأجره رسنه ، وتناول زمام الدولة من يد ابن سيد الناس ، فقادها في يد مطهر [1] خدمته حتى عنت اليه الوجوه وامله الخاصة ، واضطلع السلطان على اضطلاعه وكفايته في امور مخدومه . وهلك ابو الحسين بن سيد الناس فرشحه السلطان بخطته فقام بها سائر ايام ابنه الامير أبي البقاء حتى كان من أمره ما نذكره بعد .

الخبر عن خروج الزاب عن طاعة الأمير أبي حفص الى طاعة الأمير أبي زكريا صاحب بجاية وانتظام بسكرة في عمله

كان السلطان ابو اسحاق قد عقد على الزاب لفضل بن علي

(١) كذا، وفي ب: مظهر.

ابن مزني من مشيخة بسكرة كما قدمناه ، فقام بامره . ولما هلك السلطان عدا عليه بعض افاريق العرب الموطنين قرى الزاب بمداخلة قوم من اعدائه ، وقتلوه سنة ثلاث وثمانين كما نذكره . واملوا الاستبداد بالبلد فدفعهم عنها المشيخة من بني رمان ، واستقلوا بامر بلدهم ، وبايعوا للامير أبي حفص صاحب الحضرة ودانوا بطاعته على السنن . وتوقعوا عادية منصور بن فضل بن مزني . وكان لحق بالحضرة عند مهلك ابيه فخاطبوا فيه السلطان ابا حفص ورموه بالدواهي فأمر باعتقاله ، وأودع السجن سبع سنين الى ان فر منه ولحق بكرفة من احياء هلال بن عامر ، وهم العرب المتولون امر جبل اوراس . ونزل على الشبه من افاريقهم فأركبوه وكسبوه ولحق ببجاية سنة اثنتين وتسعين فنزل بباب السلطان . ورغبه في ملك الزاب ، وصانع الحاجب ابن أبي جبى بانواع التحف ، وضمن له تحويل الدعوة بالزاب لسلطانه الأمير أبي زكريا وتسريب جبايته اليه ، فاستماله بذلك وعقد له على الزاب وأمده بالعسكر ، ونازل بسكرة فامتنعت عليه . ورأى مشيختها بنو رمان بعدهم عن صريخ تونس ، والحاح عدوهم منصور ابن فضل عليهم فأعلنوا بطاعة الأمير أبي زكريا وبعثوا اليه بيعتهم ووفدهم ورفع عادية ابن مزني عنهم ، فرجعهم بما أملوه من القبول ، وان تكون احكامهم الى قائد عسكره . ونظر ابن مزني مصروفاً الى الجباية فقط . ولما وصل

الوفـد الى بسكرة خرجوا الى القائـد ومنصور بن مزني ، فأدخلوهما البلد ودانوا بالطاعة ، وتصرفت الامور على ذلك الى ان كان من امر منصور بن مزني ما نذكره في اخبـاره ، ولم يزل الزاب في دعوة الامير أبي زكريا وبنيه الى ان استولى على الحضرة وبعده لهذا العهـد ، كما تراه في الاخبار بعد ان شاء الله تعالى .

الخبر عن مهلك أبي عبد الله الفازازي شيخ الموحدين والحاجب أبي القاسم بن الشيخ رؤساء الدولة بالحضرة

كان ابو عبد الله الفازازي من مشيخة الموحّدين ، وكان خالصة للسلطان أبي حفص ، وعقد له على العساكر كما قدّمناه ودفعه الى الحروب وتمهيد النواحي ، فقام في ذلك المقام المحمود ، ودوّخ الجهات واستنزل الثوار ودفعهم ، وجبى الخراج ، وكانت له في ذلك آثار مذكورة ، وفي بلاد الجريد ومشيختها تصاريف واحوال . وهو الذي امتحن احمد بن يملول بسعاية المشيخة من أهل توزر ، وكبح عنانه عن مراميه الى الرياسة عليهم ، وهلك آخر حركاته الى بلاد الجريد على مرحلتين من تونس سنة ثلاث وتسعين . ولسنة منها كان مهلك الحاجب أبي القاسم بن الشيخ وكان من خبر أوليته انـه قدم من بلده دانية الى بجايـة سنة ست وعشرين ، واتصل بعاملهـا محمد بن ياسـين ، فاستكتبه

وغلب عليه .

واستدعى ابن ياسين الى الحضرة وابن الشيخ في جملتـه ، والتمس السلطان من يرشحه لكتابته ويخف عليه ، فاطنب ابن ياسين في وصف كاتبه أبي القاسم بن الشيخ وحلاه ، وابتلاه السلطان فلم يرضه وصرفه ، ثم راجع رأيه فيه واستحسنه ورسمه في خدمته . وأمر ابن أبي الحسين بتلقينه الآداب وتصريفه في وجوه الخدمـة ومذاهبها ، فكان له في ذلك غناء وخفة عـلى مخدومه الى ان هلك ابن أبي الحسين . وكان الخرج بدار السلطان موقوفاً على نظره من جملة ما اليه . وكان قلمه عاملاً فيه فأفرد ابن الشيخ بذلك بعد مهلكه الى آخر ايام السلطان المستنصر . ولما ولي الواثق استبد ابن الحبَّر عليـه كما قلناه ، فأبقاه على خطته واختصه لنفسه ودرجه في جملته . ثم جاءت دولة السلطان أبي اسحاق فأقامه في رسمه وزاحمه بأبي بكر بن خلدون صاحب أشغاله . وكانت الرياسة الكبرى عـلى عهده لبنيه أبي فارس ، ثم أبي زكريا وأبي محمد عبد الواحد من بعده . ثم كانت مضلة الدعي ، واستولى على ملكهم فاستخلص أبا القاسم بن الشيـخ ، واستضاف له الى خطة التنفيذ كتاب العلامة في فواتح السجلات . فلمـا ارتجع السلطان ابو حفص ملكه وقتل الدعي ، خافه ابن الشيخ لمـا كان من رتبته عند الدعي فلاذ بالصلحاء لاثارة من الخير والعبادة وصلت بينهم وبينه فشفعوا له وتقبلها السلطان ،

وأظهر لهم ذات نفسه في الحاجة الى استعماله وقلده حجابته مجموعة الى تنفيذ الخرج وصرف العلامـة الى غير ذلك من طبقة الدولة فلم يزل على ذلك الى ان هلك سنة اربـع وتسعين . وبقي اسم الحجابة من بعده في هذه الخطط الثلاث، وأمر التدبير والحرب ورياستهما راجع الى مشيخة الموحدين الى ان تصرفت الأحوال، وأديل بعضها من بعض كما يأتيك اثناء الاخبار، وقلّد السلطان من بعد ابن الشيخ حجابته لأبي عبد الله التحتي [1] من طبقة الجند فقام بها الى آخر الدولة، والله وارث الارض ومن عليها .

الخبر عن مهلك السلطان أبي حفص وعهده بالأمر من بعده

لم يزل السلطان ابو حفص على اكمل حالات الظهور والدعة الى ان استوفى مدته، واصابه وجعـه اول ذي الحجة من سنة اربع وتسعين . ثم اشتد به الوجع وأهمه امر المسلمين وما قلدوه من عهدتهم، فعهد لابنـه عبد الله بالخـلافة ثاني ايام التشريق . ونكره الموحدون لتخلفه عن المراتب بصغره، وانـه لم يحتلم، وتحدثوا في ذلك. وافضى الخبر الى السلطان فاسخطـه، وعدل عنهم الى الشورى مع الولي أبي محمد المرجاني . وكان رأيه فيه جميلاً وظنه به صالحاً . وكان الواثق بن المستنصر لما قتل هو

(١) كذا، وفي ب: الشخشي.

وبنوه بمجبسهم فرت احدى جواريه ، وقد اشتملت على حمل منه الى رباط هذا الولي فوضعته في بيته فسمّاه الشيخ محمداً وعق عليه ، واطعم الفقراء يومئذ عصيدة الحنطة ، فلقب بأبي عصيدة آخر الدهر . ثم صار بعد الاختفاء ودواعيه الى قصورهم ونشأ في ظل الخلفاء من قومه ، حتى شب وبقيت له مع الولي أبي محمد ذمة يثابر كل منهما على الوفاء بها ، فلما فاوضه السلطان أبو حفص في شأن العهد ، وقص عليه نكير الموحدين لولده ، اشار عليه الشيخ بصرف العهد الى محمد بن الواثق فتقبل اشارته وعلم ترشيحه ، وانفذ بذلك عهده بمحضر الملأ ومشيخة الموحدين ، وهلك آخر ذي الحجة سنة اربع وتسعين والى الله المصير .

الخبر عن بيعة السلطان أبي عصيدة وما كان أثرها من الأحوال

لما هلك السلطان ابو حفص اجتمع الملأ من الموحدين والاولياء والجند والكافة الى القصبة ، فبايعوا بيعة عامة لولي عهده السلطان أبي عبدالله محمد ، ويلقّب كما ذكرناه بأبي عصيدة ابن السلطان الواثق في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة اربع وتسعين ، فانشرحت لبيعته الصدور ورضيته الكافة ، وتلقّب المستنصر بالله ، وافتتح امره بقتل عبدالله ابن السلطان أبي حفص لمكان ترشيحه ، وقلّد وزارته محمد بن بريزيكن من

مشيخة الموحدين ، وابقى محمد الشخشي على خطة الحجابة ، وصرف التدبير والعساكر ورياسة الموحدين الى أبي يحيى زكرياء ابن احمد بن محمد اللحياني قتيل السلطان المستنصر ، عند تعرض ابنه للبيعة ، واستنامة الخلافة فقام بما دفع اليه من ذلك . وضايقه فيه عبدالحق بن سليمان رئيس الموحدين قبله ، حتى اذا نكب وهلك استبدّ هو على الدولة ، واستقل الشخشي بحجابته . وكان محمد بن ابراهيم بن الدباغ رديفاً له فيها .

وكان من خبر ابن الدبّاغ هذا انّ ابراهيم اباه وفد على تونس في جالية اشبيلية سنة ست واربعين ، فولد هو بتونس ونشأ بها ، وافاد صناعة الديوان وحسبانه من المبرزين كان فيه أبي الحسن وأبي الحكم ابني مجاهد ، واصهر اليهما في ابنه أبي الحسن فانكحاه ورشحاه للامانة على ديوان الاعمال . ولما استقل ابو عبد الله الفازازي بالرياسة استكتبه وكان طياشاً مستضعفاً على الخليفة ، فكان كاتبه محمد بن الدباغ يروضه لأغراض الخليفة اذا دسها اليه الحاجب ابن الشيخ فيقع ذلك من الخليفة احسن المواقع . ولما ولي السلطان ابو عصيدة وكانت له عنده سابقة رعاها ، وكان حاجبه الشخشي بهمة غفلاً من ادوات الكتاب ؛ فاستكتب السلطان ابن الدباغ ثم رقّاه الى كتاب علامته سنة خمس وتسعين . وكان يتصرف فيها فاصبح رديفاً للشخشي في حجابته ، وجرت امور الدولة على ذلك الى ان هلك الشخشي

سنة سبع وتسعين ، وقلّده السلطان حجابته فاستقل بها على ما قدمنا من ان التدبير والحرب مصروف الى مشيخة الموحدين .

الخبر عن نكبة عبد الحق بن سليمان وخبر بنيه من بعده

كان أبو محمد عبد الحق بن سليمان رئيس الموحدين لعهد السلطان أبي حفص ، واصله من تينملل الموطنين بتبرسق مذ اول الدولة ، كانت له ولسلفه الرياسة عليهم ، وصارت اليه رياسة الموحدين كافة بالحضرة أيام هذا السلطان وكان له خالصة وشيعة ، وكان حريصاً على ولاية ابنه عبدالله للعهد . وكان يدافع نكير الموحدين في ذلك ، فاسرها له السلطان ابو عصيدة .. ولما استوثق له الامر ، وقتل عبد الله بمحبسه تقبض على أبي محمد بن سليمان ، واعتقله في صفر سنة خمس وتسعين . ولم يزل معتقلاً الى ان قتل بمحبسه على رأس المائة السابعة . وفرّ عند نكبته ابناه محمد وعبد الله ، فأما عبدالله فلحق بالامير أبي زكريا ، وصار في جملته الى ان دخل تونس مع ابنه السلطان أبي البقاء خالد . واما محمد فابعد المفرّ ولحق بالمغرب الاقصى ، ونزل على يوسف ابن يعقوب سلطان بني مرين بمعسكره من حصار تلمسان ، فاستبلغ في تكريمه واقام عنده مدة . ثم عاود وطنه ونزع عن طريقه الى النسك ولبس الصوف ، وصحب الصالحين وقضى فريضة

الحج ، واستمد عمره وحسنت فيه ظنون الكافة ، واعتقدوا فيه وفي دعــائه ، وكثرت غاشيته لالتماس البركة منه . واوجب له الخلفاء ازاء ذلك تجلة اخرى ، واوفدوه على ملوك زناتة مرة بعد مرة في مذاهب الود .وقصود الخير . وحضر في بعضها الجهاد بجبل الفتح عندما نازلته عساكر السلطان أبي الحسن ، ولم يزل هذا دأبه الى ان هلك في الطاعون الجارف في منتصف المــاية الثامنة .

الخبر عن مراسلة يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين ومهاداته

كان السلطان ابو عصيدة لما استفحل امره واستوسق ملكه حدث نفسه بغزو الناحية الغربية وارتجاع ثغورها من يد الامير أبي زكرياء ، وكان الامير ابو زكرياء قــد انتقض عليه اهــل الجزائر بعد مهلك عامله عليهــا من الموحدين من بني الكمازير ، وانبرى بها بعــده محمّد بن علاّن من مشيختها . واستفحــل امر عــثمان بن يُغْمُراسن وبني عبد الواد من ورائــه ، وتغلّبوا على توجين ومغراوة ، ومليكش ، وكان شيعة لصــاحب الحضرة بما كان متمسّكاً بدعوتهم ومتقبّلا مذهب ابيه في بيعتهم ، فقويت غرائم السلطان أبي عصيدة لذلك ، ونهض من الحضرة سنة خمس وتسعين . وتجاوز تخوم عمله الى اعمال قسطنطينة واجفلت امامه الرعايا والقبــائل ، وانتهى الى ميلة ، ومنهــا كان منقلبه الى

حضرته في رمضان من سنته .

ولما ضايق عمل بجاية بغزوه اعمال الأمير ابو زكرياء نظره في تسكين الناحية الغربية ليفرغ عنها الى مدافعة السلطان صاحب الحضرة ، فوصل يده بعثمان بن يغمراسن وأكّد معه قديم الصهر بحادث الود والمواصلة . وفي خلال ذلك زحف يوسف ابن يعقوب سلطان بني مرين الى تلمسان والقى عليها بكلكله . واستجاش عثمان بن يُغْمُراسن بالأمير أبي زكرياء ، فامده بعسكر من الموحدين لقيهم عسكر من بني مرين بناحية تدلس فهزموهم واثخنوا فيهم قتلاً . ورجع فلُّهم إلى بجاية ، وسرح يوسف بن يعقوب عساكر بني مرين الى بجاية ، وعقد عليها لاخيه أبي يحيى بعد ان كان عثمان بن سبّاع وفد عليها نازعاً عن صاحب بجاية اليه ، ومرغِباً له في ملكها فاوسع له في الحباء والكرامة ما شاء ، وبعث معه هذا العسكر فانتهى الى بجاية ، وضايقوها ثم جاوزوها الى تاكرارت وبلاد سدويكش ، وعاثوا في تلك الجهات ودوّخوها وانقلبوا راجعين الى السلطان يوسف بن يعقوب بمعسكره من تلمسان .

وكان السلطان ابو عصيده صاحب الحضرة لما علم بامداد الامير أبي زكرياء لعثمان بن يغمراسن بعث الى يوسف بن يعقوب عدوّهم وحرّضه على بجاية ونواحيها ، وسفر بينهما في ذلك رئيس الموحدين ابو عبدالله بن اكماريز اولى سفاراته . ثم سفر ثانية سنة

ثلاث وسبعماية بهدية ضخمة اغرب فيها بسرج وسيف ومهامز من الذهب مرصعة الحلي بالفاخر من حصباء الياقوت والجوهر . ووافقه في هذه السفارة الثانية وزير الدولة ابو عبدالله بن برزيكن ، ورجعا بهديه ضخمة من يوسف بن يعقوب كان من جملتها ثلاثماية من البغال . واتصلت المخاطبات والسفارات والهدايا والملاطفات . وكان يوسف ابن يعقوب يكاتب السلطان في تلك الشؤون تعريضاً ، ويكاتب رئيس الموحدين ابا يحيى بن اللحياني تصريحاً ، وترددت عساكر بني مرين الى نواحي بجاية الى أن هلك يوسف بن يعقوب كما يأتي في اخباره .

الخبر عن مقتل هداج وفتنة الكعوب وبيعتهم لأبي دبوس وما كان بعد ذلك من نكبتهم

كان هؤلاء الكعوب قد اثرتهم الدولة واصطنعتهم منذ قيامهم بأمر الأمير أبي حفص ، فاعتزوا ونموا وبطروا النعمة ، وكثر عيثهم وفسادهم وطال اضرارهم بالسابلة وحطمهم للجنات وانتهابهم للزرع ، فاضطغن لهم العامة وحقدوا عليهم سوء آثارهم . ودخل رئيسهم هداج بن عبيد سنة خمس وسبعماية الى البلد فخزرته العيون ، وهمّت به العامة . وحضر المسجد لصلاة الجمعة فتجنّوا عليه بانه وطئ المسجد بخفّه . وقال لمن نكر عليه ذلك : « اني ادخل به مجلس السلطان » فثاروا به عقب الصلاة وقتلوه ، وجروا شلوه في سكك المدينة ، فزاد عيثهم واجلابهم

على السلطان . واستقدم احمد بن أبي الليل شيخ الكعوب لذلك العهد عثمان ابن أبي دبّوس من مكانه بنواحي طرابلس ، ونصبه للأمر ، واجلب به على الحضرة ونازلها .

وخرج اليهم الوزير أبو عبد الله بن برزيكن في العساكر فهزمهم ، وسار بالعساكر لتمهيد الجهات وتسكين ثائر العرب ، فوفد عليه أحمد بن أبي الليل ، ومعه سليمان بن جامع من رجالات هُوارة بعد ان راجع الطاعة . وصرف ابن أبي دبوس الى مكانه فتقبّض عليهما ، وبعث بهما إلى الحضرة فلم يزالا معتقلين الى ان هلك احمد بمحبسه سنة ثمان . وقام بامر الكعوب محمد ابن أبي الليل ومعه حمزة ومولاهم ابنا اخيه عمر رديفين له . ثم خرج الوزير بالعساكر ثانية سنة سبع ، واستوفد مولاهم ابن عمر ، وتقبّض عليه وبعث به الى الحضرة فاعتقل مع عمّه أحمد . وجاهر اخوه حمزة بالنفاق واتبعه عليه قومه فكثر عيثهم ، واضروا بالرعايا وكثرت الشكاية من العامة ، ولغطوا بها في الاسواق وتصايحوا . ثم نفروا الى باب القصبة يريدون الثورة فسدّ الباب دونهم فرموا بالحجارة ، وهم في ذلك يعتدون ما نزل بهم من الحاجب ابن الدباغ ويطلبون شفاء صدورهم بقتله . ورفع امرهم الى (١) واستلحامهم جميعاً فأبى من ذلك السلطان ، وأمر بملاطفتهم

(١) كذا بياض بالأصل في جميع النسخ ، ولم نعثر في المراجع التي لدينا على صويب العبارة. ومقتضى سياق العبارة : ورفع أمرهم إلى السلطان للاقتصاص منهم واستلحامهم .

الى ان سكنت هيعتهم . ثم تتبّع العقاب من تولى كبر ذلك منهم ، وانحسم الداء ، وكان ذلك في رمضان من سنة ثمان . واستمرّ العرب في غلوائهم الى ان هلك السلطان فكان ما يأتي ذكره .

الخبر عن انتقاض أهل الجزائر واستبداد ابن علان بها

قد قدمنا ما كان من انتقاض اهل الجزائر ايام المستنصر ودخول عساكر الموحدين عليهم عَنْوَةً واعتقال مشيختهم بتونس ، حتى اطلقوا بعد مَهلكه ، ولما استقل الامير أبو زكرياء الأوسط بملك الثغور الغربية من بجاية وقسطنطينه . وكان الوالي على الجزائر ابن اكازير [1] من مشيخة الموحدين فبادر الى طاعته باتفاق من مشيخة الجزائر ، ووفدوا عليه . وكتب لابن اكازير بولايتها فلم يزل والياً عليهم الى ان كان شأن بني مرين وزحفهم الى بجاية . وكان ابن اكازير قد اسنّ وهرم فادركته الوفاة خلال ذلك . وكان ابن علاّن من مشيخة الجزائر مختصاً به ومتصرّفاً في اوامره ونواهيه ومصدراً لامارته . حصلت له بذلك الرياسة على اهل الجزائر سائر ايامه . ويقال كان له معه صهر . فلما هلك ابن اكازير حدثته نفسه بالاستبداد والانتزاء بالجزائر ، فبعث عن اهل الشوكة من نظرائه ليلة هلاك اميره ، وضرب

(١) كذا وفي ب : أكمار.

اعناقهم واصبح منادياً بالاستبداد . وشغل الامير ابو زكرياء عنه بما كان من منازلة بني مرين ببجاية الى ان هلك ، وبقيت في انتقاضها على الموحدين آخر الدهر الى ان تملكها بنو عبدالواد كما نذكره .

الخبر عن مهلك الأمير أبي زكريا صاحب بجاية وبيعة ابنه أبي البقاء خالد

كان الامير ابو زكرياء قد استولى على الثغور الغربيّة كما قلناه ، واقتطعها من اعمال الحضرة ، وقسم الدعوة الحفصيّة بدولتين . وكان على غاية من الحزم والتيقّظ والصرامة لم يبلغها سواه . وكان كثير الاشراف على وطنه والمباشرة لاعماله بنفسه وسد خلله . ولم يزل على ذلك الى ان هلك على رأس المائة السابعة . وكان قد عهد بالامر لابنه الأمير أبي البقاء خالد سنة ثمان وتسعين قبلها ، وعهد له على قسطنطينة وانزله بها . فلما هلك الامير ابو زكرياء جمع الحاجب ابو القاسم ابن أبي جبى مشيخة الموحدين وطبقات الجند واخذ بيعتهم للامير أبي البقاء ، وطيّر له بالخبر واستقدمه فقدم ، وبويع البيعة العامة . وأبقى ابن أبي جبى على حجابته واستوزر يحيى بن أبي الاعلام ، وقدم على صنهاجة ابا عبد الرحمن يعقوب بن خلوف منهم ، وتسمى المزوار . وقلّد رياسة الموحدين ابا زكرياء يحيى بن زكرياء من اهل البيت

الحفصي ، واستمر الامر على ذلك الى ان كان ما نذكره .

الخبر عن سفارة القاضي الغبريني ومقتله

قد قدمنا ما كان من زحف بني مرين الى بجاية بمداخلة صاحب تونس . ولما ولي السلطان أبو البقاء اعتزم على المواصلة مع صاحب تونس قطعاً للزبون عنه ، وعين للسفارة في ذلك شيخ القرابة ببابه أبا زكرياء الحفصي ليحكم شأن المواصلة بينه وبينه . وبعث معه القاضي ابا العباس الغبريني كبير بجاية وصاحب شوراها ، فأدوا رسالتهم وانقلبوا الى بجاية ، ووجد بطانة السلطان السبيل في الغبريني فاغروه به واشاعوا انه داخل صاحب الحضرة في التوثّب بالسلطان . وتولى كبر ذلك ظافر الكبير وذكره بجرائره ، وما كان منه في شأن السلطان أبي اسحاق وأنه الذي اغرى بني غبرين به ، فاستوحش منه السلطان وتقبّض عليه سنة اربع وسبعماية . ثم اغروه بقتله فقتل بمحبسه تلك ، وتولى قتله منصور التركي ، والله غالب على امره .

الخبر عن سفارة الحاجب ابن أبي جبي الى تونس وتنكر السلطان له بعدها وعزله

ولما ولي السلطان ابو البقاء كانت عساكر بني مرين مترددة الى اعمال بجاية بمداخلة صاحب تونس كما ذكرناه ، فدوخوا نواحيها .

وكان ابن أبي جبى مستبداً على الدولة في حجابته ، فضاق ذرعه بشأنهم وأهمته حال الدولة معهم . ورأى ان اتصال اليد بصاحب الحضرة مما يكف عن غربهم فعزم على مباشرة ذلك بنفسه لوثوقه من سلطانه . فخرج من بجاية سنة خمس وسبعماية وقدم على الحضرة رسولاً عن سلطانه ، فاهتزت له الدولة وتلقي بما يجب له ولمرسله من البر ، وانزله شيخ الموحدين ومدبر الدولة ابو يحيى زكرياء بن اللحياني بداره استبلاغاً في تكريمه . وقضى من امر تلك الرسالة حاجة صدره ، وكان بطانة الامير ابي البقاء خالد لما خلا لهم وجه سلطانهم منه تهافتوا على التنصح اليه والسعاية بابن أبي جبى عنده .

تاريخ العلامة

ابن خلدون

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر
في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم
من ذوي السلطان الاكبر
وهو تاريخ وحيد عصره
العلامة عبد الرحمن
ابن خلدون المغربي

المجلد السادس

من تاريخ العلامة ابن خلدون

القسم الرابع

١٢

دار الكتاب اللبناني بيروت


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القسم الرابع

المجلد السادس

من تاريخ العلامة ابن خلدون

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

وشمّر لذلك يعقوب بن غمر وجلّى فيه وتابعه عليه عبد الله الرخامي كاتب ابن أبي جبى وصديقه، بما كان ابن طفيل قريبه يسخط عليه الناس، ويوغر له صدورهم بيأوه وتحقيره بهم، فألحّ له العداوة في كل جانحة واسخطه على عبد الله الرخامي. وكان صديقه ومداخله فتولى من السعاية فيه مع يعقوب بن غمر كبرها، والقوا الى السلطان أن ابن أبي جبى داخل صاحب الحضرة في تمكينه من ثغر قسطنطينة وبجاية، بما كان علي بن الامين العامل بقسطنطينة صهراً لابن أبي جبى، وهو الذي ولاه عليها فاستراب السلطان به، وتنكر له بعد عوده من تونس. وخشي كل واحد منهما بادرة صاحبه. ثم رغب ابن أبي جبى في قضاء فرضه وتخلية سبيله اليه، فاسعف وخرج من

بجاية ذاهباً الى الحج ، ولحق بالقبائل من ضواحي قسطنطينة وبجاية فنزل عليهم واقام بينهم مدة . ثم لحق بتونس واقام بها الى حين مهلك السلطان أبي عصيدة وبيعة أبي بكر الشهيد وحضر دخول الأمير أبي البقاء عليه بتونس ، وخلص من تيار تلك الصدمة فلحق بالمشرق وقضى فرضه . ثم عاد الى المغرب ومرّ بافريقيه ولحق بتلمسان وأغرى ابا حمو بالحركة على بجاية فكان ما نذكره .

الخبر عن حجابة أبي عبد الرحمن بن غمر ومصائر أموره

هو يعقوب بن أبي بكر بن محمد بن غمر السَلَمي ، وكنيته ابو عبد الرحمن . كان جدُّه محمد فيما حدثني أهل بيتهم قاضياً بشاطبة ، وخرج مع الجاليه ايام العدو الى تونس ، ونزل بالربض الجوفي ايام السلطان أبي عصيدة ، وانتقل ابناؤه ابو بكر ومحمد الى قسطنطينة ، ونزلا على ابن اوقيان العامل عليها من مشيخة الموحدين لعهد الأمير أبي زكرياء الأوسط ، فاوسعهما عناية وتكرمة . وولّى أبا بكر على الديوان بالقل واستخلصه لنفسه . وكان يتردّد الى الحضرة ببجاية في شؤونه فاتصل ببرجان الخصي من موالي الأمير أبي زكرياء وخواص داره ، واستخدم على يده للأمير خالد وامّه من كرائم السلطان ، فحظي عندهم

وتزوّج ابنه يعقوب من ربيبـات القصر ، وخوله ، ونشأ في جو تلك العناية . واعلنوا بصحبة الحاج فضل قهرمان دار السلطان وخاصته ، فاستخدم له سائر ايامه الى ان هلك . وكان الحـاج فضل كثيراً ما يتردد الى الاندلس لاستجـلاب الثياب الحريرية من هنالك وانتقاء اصنافها . وكذلك الى تونس لاستجادة الثياب منها .

وبعثه السلطان آخر أمره الى الاندلس فاستصحب ابن غمر وهلك الحاج فضل هنالك ، فعدل السلطان عن خطاب ابنه محمد الى خطاب ابن غمر ، فأمره باتمام ذلك العمل والقدوم به فقدم هو وابن الحاج فضل وساءلهما عن عملها فكان ابن غمر اوعى من صاحبـه فحلي بعينه وخفّ عليه ، واعتاق بذمـة من خدمته احظته عند السلطان ورقته فاستعمل في الجباية . ثم قلّد اعمال الاشغال وزاحم ابن أبي جبى وعبـد الله الرخامي ، وغصّوا به فأغروا السلطان بنكبته . واشخصه الى الاندلس فاقام هنالك ، واستعطف السلطان ابا البقاء بعد مهلك ابيـه ، وتشفّع بوسائل خدمته فاستقدمه . وقدم مع علي وحسين ابني الرنداحي ، ركب معهما البحر الى بجاية في مغيب ابن أبي جبى عن الحضرة فصادف من السلطان قبولاً ، وشمر في السعاية بابن أبي جبى مع مرجان الى ان تم له ما إراد من ذلـك . وصرف ابن أبي جبى كما ذكرناه فقلد السلطان حجـابته ليعقوب بن غمر ، وقدّم عـلى

الاشغال عبد الله الرخامي ، وكان ناهضاً في امور الحجابة لمباشرتها مع مخدومه ، فاصبح رديفاً لابن غمر وخص بمكانه فاغرى به السلطان ، ودله على مكامن ثورته وعداوته ، فنكب وصودر وامتحن وغرب الى ميورقة ، حتى افتداه يوسف بن يعقوب سلطان بني مرين من اسره ، واستقدمه ليقلّده اشغاله عند تنكره لعبدالله بن أبي مدين كما نذكره في اخباره . فهلك يوسف بن يعقوب دون ما امل من ذلك ، واقام الرخامي بتلمسان وبها كان مهلكه . واستقل يعقوب بن غمر باعباء خطته واضطلع بها ، وفوض اليه السلطان في الابرام والنقض فحول المراتب بنظره وأجرى الامور على غرضه . وكان اول ما اتاه صرعته لمرجان مصطنعه ملأ صدر السلطان عليه ، وحذّره مغبته فتقبّض عليه وأُلقِيَ في البحر يلتقمه الحوت ، فخلا وجه السلطان لابن غمر ، وتفرّد بالعقد والحلّ الى ان استولى السلطان ابو البقاء على الحضرة ، وكان من امره ما نذكره .

الخبر عن ثورة ابن الأمين بقسطنطينة وبيعة السلطان أبي عصيدة ثم فتح السلطان أبي البقاء خالد لها وقتله

كان يوسف بن الأَمين الهمداني بعد ان قتله بطنجة ابناء أبي يحيى بن عبد الحق من بني مَرين كما يأتي في اخبارهم ، انتقل بنوه الى تونس ايام المستنصر ورعى لهم السلطان وسيلة

قيامهم بالدعوة الحفصيّة أيّام أبي علي بن خلاص بسبتة وبعدها الى ان غلبهم عليها العزفي كما نذكر في اخباره ، فلقّاهم مبرّة وتكريماً ، ونزلوا في الحضرة خير نُزُل ، تحت جراية ونعمة وعناية . وكان كبيرهم متحمِّقاً متعاظماً ، فربما لقي من الدولة لذلك عسفاً . الا ان الابقاء عليهم كان مانعاً من اضطهادهم . ونشأ بنوهم في ظل ذلك النعيم .

ثم هلك السلطان واضطربت الامور ، وضرب الدهر ضرباته ، ولحق علي منهم بالثغر الغربي وتأكدت له مع ابن أبي جبى لحمة نسب وذمة صهر وشجت بينهما عروقها . فلما استقل ابن أبي جبى بحجابة الأمير أبي زكرياء لم يأل جهداً في مشاركة علي ابن الأمين وترقيته المنازل الى ان ولأه ثغر قسطنطينة مستقلاً بها وحاجباً للسلطان أبي بكر ابن الأمير أبي زكرياء وانزله معه فقام بحجابته . واظهر فيها غناءه وحزمه ، حتى اذا سخط السلطان ابن أبي جبى وصرفه عن حجابته تنكر أبو الحسن بن الامين وخشي بوادر السلطان فحول الدعوة الى صاحب الحضرة ، وطيّر اليه بالبيعة ، واستدعى المدد والنائب فوصله رئيس الموحدين والدولة ابو يحيى زكرياء ابن أحمد بن محمد اللحياني ، وعقد البيعة لسلطانه سنة اربع وسبعماية .

وبلغ الخبر الى السلطان أبي البقاء ببجاية فنهض اليه بالعساكر آخر سنة اربع وسبعماية ، ونازله اياماً فامتنع عليه ، وهمّ

بالافراج عنه . ثم داخل رجل من بطانة ابن الامين يعرف بابن موزة أبا الحسن بن عثمان من مشيخه الموحدين، وكان معسكره بباب الوادي فناجزهم الحرب من هنالك حتى انتهى الى السور، فتسنمه المقاتلة باغضاء ابن موزة لهم عنه . وركب السلطان في العساكر عند الصدمة ووقف على باب البلد ، وقد استمكن اولياؤه منه فخرج اليه بنو الغنفل [1] وبنو باديس ومشيخة البلد ، فاقتحم البلد عنوةً . ومضى ابو محمد الرخامي في رجال السلطان الى دار ابن الامين ففشيه بها وقد انفض عنه الناس ، واستحصن بغرفة من غرف داره واستمات ، فلاطفه الرخامي واستنزله . ثم حمله على برذون مستدبراً ، واحضره بين يدي السلطان فقتل ، ونصب شلوه ، واصبح آية للمعتبرين .

الخبر عن حركة السلطان أبي البقاء الى الجزائر

قد قدمنا ما كان من خبر انتقاض الجزائر على الامير أبي زكرياء واستبداد ابن علان بها . فلما استولى السلطان أبو البقاء على الأمر وتمهدت له الاحوال ، وأقلع بنو مَرين بعد مهلك يوسف بن يعقوب عن تِلِمْسان اعمل السلطان نظره في الحركة اليها ، فخرج اليها سنة سبع او ست ، وانتهى الى متيجة

(١) كذا، وفي ب: بنو الغنفذي.

ودخل في طاعته منصور بن محمد شيخ مليكش وجميع قومه ، ولجأ اليه راشد بن محمد بن ثابت بن منديل امير مغراوة هارباً امام بني عبد الواد فاواه الى ظله والقى عليه جناح حمايته . واحتشد جميع من في تلك النواحي من القبائل . وزحف الى الجزائر وأقام عليها أياماً فامتنعت عليه ، وانكفأ راجعاً الى حضرته ببجاية ، وأقام مليكش على طاعته ومطاولته الجزائر بالقتال ، الى ان كان من امرها وتغلب بني عبد الواد عليها ما نذكره في اخبارهم . وجاء معه راشد بن محمد الى بجاية متذمماً بخدمته الى ان قتله عبد الرحمن بن خلوف كما يذكر في موضعه .

الخبر عن السلم وشروطه بين صاحب تونس وصاحب بجاية

لما افتتح السلطان ابو البقاء خالد قسطنطينة وقتل ابن الامين وفرغ من ذلك الشان ادرك اهل الحضرة الندم على ما استدبروا من مهادنة صاحب الثغر ، وقارن ذلك مهلك يوسف ابن يعقوب الذي كانوا يرجونه شاغلاً له فجنحوا الى السلم ، وبعثوا وفدهم في ذلك اليه فاسدوا والحوا . وشرط عليهم السلطان ابو البقاء ان من هلك منهما قبل صاحبه فالأمر من بعده للآخر والبيعة له ، فتقبلوا الشرط وحضر الملأ والمشيخة

من الموحدين ببجاية ، ثم بتونس فاشهدوا بها على انفسهم ، وربط ذلك العقد واحكمت اواخيه الى ان نقضه اهل الحضرة عند مهلك السلطان أبي عصيدة كما نذكره .

الخبر عن سفر شيخ الدولة بتونس أبي يحيى اللحياني لحصار جربة ومضيه منها الى الحج

لما انعقد امر هذا الصلح واستتم راجع رئيس الدولة ابو يحيى زكرياء بن اللحياني نظره لنفسه ، واعمل فكره في الخلاص من انشوطته وكان يؤمل رجوع الوفد المغربين بالمهدية من امراء الديار المصرية الى يوسف بن يعقوب فيصحبهم لقضاء فرضه ، وابطأ عليه شأنهم فاعتزم على قصده ووري بحركته الى جزيرة جربة لاسترجاعها من ايدي النصارى والرجوع عنها من بعد ذلك الى الجريد لتمهيد احواله . وتناول الرأي في الظاهر من امره مع السلطان فاذن له . وسرّح معه العساكر فخرج من تونس في جمادى سنة ست غازياً الى جربة . ولم يزل يغذّ السير حتى انتهى الى مجازها . ثم عبر منه الى الجزيرة ، وكان النصارى لما تغلّبوا عليها سنة ثمان وثمانين شيدوا بها حصناً لاعتصام الحامية سمّوه بالقشتيل ، فنزل في العساكر عليه . وانفذ الشيخ ابو يحيى عماله للجباية واقام في منازلته شهرين . ثم انقطعت

الاقوات واستعصي الحصن إلّا بالمطـاولة فرجع الى قابس . ثم ارتحل الى بلاد الجريد وانتهى الى توزر ونزلها ، وأعنى في خدمته أحمد بن محمد بن يملول من مشيختها ، فاستوفى جباية الجريد وعاد الى قابس .

وانزله عبد الملك بن عثمان بن مكي بـداره ، وصرح بما روى عنه من حجه . وصرف العساكر الى الحضرة وولي بعده رياسة الموحدين وتـدبير الدولة ابو يعقوب بن يزدوتن ، وتحوّل عن قابس الى بعض جبالها تجافياً عن هوائهـا الوخم . واقام في انتظار الركب الحجازي وكان مريضاً الى ان ابلّ فتحوّل عنـه الى طرابلس ، وأقام بها عاماً ونصفه الى ان وصـل وفد الترك من المغرب الاقصى آخر سنة ثمان ، فخرج معهم حاجاً حتى قضى فرضه وعاد فكان من شأنه واستيلائه عـلى منصب الخلافة ما يأتي ذكره . ووصل مـدد النصرانيّة الى قشتيل جربة سنة ثمان بعد منصرف العساكر عنهم وفيهم فردريك بن الطاغية صاحب صقلية ، فقاتلهم اهل الجزيرة من النكارين لنظر أبي عبد الله بن الحسن من مشيخة الموحدين ومعه ابن اومغار في قومه من اهل جربة فاظفرهم الله بهم . ولم يزل شأن هـذه الجزيرة مع العدو كذلك منذ التاثت دولة صنهاجة ، وربما وقعت الفتنة بين اهلها من النكارة فتصل احدى الطائفتين يدها بالنصارى الى ان كان

ارتجاعها في هذه النوبة سنة [1] واربعين لعهد مولانا السلطان أبي يحيى كما نذكر في اخباره .

الخبر عن مهلك السلطان أبي عصيدة وبيعة أبي بكر الشهيد

كان السلطان ابو عصيدة بعد تملي سلطانه وتمهيد ملكه طرقه مرض الاستسقاء فازمن منه . ثم مات على فراشه في ربيع الآخر سنة تسع ، ولم يخلف ابناً ، وكان بقصرهم سبط من اعقاب الأمير ابي زكرياء جدهم . ثم من ولد أبي بكر ابنه الذي ذكرنا وفاته في خبر شقيقه أبي حفص في فتح مليانة ايام السلطان المستنصر ، فلم يزل بنوه بقصورهم وفي ظل ملكهم . ونشأ منهم ابو بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر في ايالة السلطان أبي عصيدة ، وربي في جميم نعمته . فلما هلك السلطان ابو عصيدة ولم يعقِّب ، وكان السلطان ابو البقاء خالد قد نزع اليه حمزة بن عمر عند ياسه من خروج اخيه من محبسه فرغبه في ملك الحضرة واستحثه عليها . ثم وصل ابو علي بن كبير فنعى السلطان ابا عصيدة واستنهض السلطان ابا البقاء لملك تونس ، فنهض كما نذكره . واستراب الموحدون بتونس بشأن حركته وخافوه على انفسهم فبايعوا لهذا الامير أبي زكرياء الذي عرف

(١) كذا بياض بالأصل في جميع النسخ ، ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على هذه السنة .

بالشهيد بما كان من قتله لسبع عشرة ليلة من بيعته ، وابقى ابا عبدالله بن يرزيكن على وزارته وزحزح محمد بن الدباغ عن رتبة الحجابة . وتوعده لما كان يحقد عليه من التقصير به ايام سلطانه ، فكان عوناً عليه الى ان هلك عند استيلاء السلطان أبي البقاء كما نذكره .

الخبر عن استيلاء السلطان أبي البقاء على الحضرة وانفراده بالدعوة الحفصية

لما بلغ السلطان ابا البقاء بمكانه من بجاية واعمالها الخبر بمرض السلطان أبي عصيدة مع ما كان من العقد بينهما بان من مات قبل صاحبه جمع الأمر من بعده للآخر ، داخلته الظنة ان ينقض اهل الحضرة هذا الشرط فاعتزم على النهوض لمشارفة الحضرة ، ووصل اليه حمزة بن عمر نازعاً عنهم ، فرغّبه واستحثه ، وخرج من بجاية في عساكره ، وورى بالحركة الى الجزائر لما كان من انتقاضهم على ابيه ، واستبداد ابن علاّن بها . ثم ارتحل الى قصر جابر وعند بلوغه اليه ورد الخبر بهلك السلطان أبي عصيدة وبيعة الموحدين بعده لأبي بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر ابن الأمير أبي زكرياء ، فاضطغنها على الموحدين .

واغذّ السير ، وانحاش اليه كافة اولاد أبي الليل . واجتمع اقتالهم اولاد مهلهل الى صاحب تونس ، وخرج معهم شيخ الدولة أبو يعقوب بن يزدوتن والوزير ابو عبدالله بن يرزيكن ، في

العساكر للقاء ، ووقوا سلطانهم بانفسهم . فلما زحف اليهم السلطان ابو البقاء اختل مصافهم وانهزموا وانتهب المعسكر ، وقتل الوزير بن يرزيكن ، واجفلت احياء العرب الى القفر ودخل العسكر الى البلد واضطرب الامر ، وخرج الامير أبو بكر بن عبد الرحمن فوقف بساحة البلد قليلًا . ثم تفرق عنه العسكر وتسايلوا الى السلطان أبي البقاء . وفرّ ابو بكر ثم ادرك ببعض الجنات فتلّ الى السلطان واعتقله في بعض الفازات ، وغدا على السلطان اهل الحضرة من مشيخة الموحدين والفقهاء والكافة فعقدوا بيعته . وقتل الامير أبو بكر فسمّي الشهيد آخر الدهر ، وباشر قتله ابن عمه أبو زكرياء يحيى بن زكرياء شيخ الموحدين . ودخل السلطان من الغد الى الحضرة واستقل بالخلافة ، وتلقب الناصر لدين الله المنصور . ثم استضاف الى لقبه المتوكل . وأبقى أبا يعقوب بن يزدوتن في رياسته على الموحدين مشاركاً لأبي زكرياء يحيى بن أبي الاعلام الذي كان رئيساً عنده قبلها واستمر على خطة الحجابة ابو عبد الرحمن يعقوب بن غمر ، وولى على الاشغال بالحضرة منصور بن فضل ابن مزني ، وجرت الحال على ذلك الى ان كان ما نذكره .

الخبر عن بيعة ابن مزني ليحيى بن خالد ومصائر أموره

كان يحيى بن خالد ابن السلطان ابي اسحاق في جملة

السلطان ابي البقاء خالد ، وتنكرت له الدولة لبعض النزعات فخشي البادرة وفرّ ولحق بمنصور بن مزني . وكان منصور قد استوحش من ابن غمر فدعاه الى القيام بامره فاجاب وعقد له على حجابته ، وجمع له العرب واجلب على قسطنطينة أيّاماً ، وبها يومئذٍ ابن طُفَيْل ، وكان قد اجتمعت ليحيى بن خالد زعنفة من الاوغاد ، واشتملوا عليه واشتمل عليهم واغروه بابن مزني فوعدهم الى حين ظفره ، واطلع ابن مزني على سوء دخلته ودخلتهم فقبض يده من طاعته ، وانصرف عنه الى بلده ، وانفضّت جموعه . وراجع ابن مزني طاعة السلطان أبي البقاء وخالصة بطانته وحاجبه فتقبلوه ، ولحق يحيى بن خالد بتلمسان مستجيشاً ، ونزل على اميرها أبي زيّان محمد بن عثمان بن يُغْمُراسن فهلك لأيام من مقدمه . وولي بعده اخوه ابو حمو موسى بن عثمان فامدّه وزحف الى محاربة قسطنطينة فامتنعت عليه . ثم استدعاه ابن مزني الى بسكرة فأقام عنده واسنى له الجراية ، ورتّب عليه الحرس . وكان السلطان ابن اللحياني يبعث اليه من تونس بالجائزة مصانعة له في شأنه ، حتى لقد اقطع له بتونس من قرى الضاحية ، فلم يزل في اسهام بنيه من بعده الى ان هلك يحيى بن خالد بمكانه عنده سنة احدى وعشرين .

الخبر عن بيعة السلطان أبي بكر بقسطنطينة على يد الحاجب ابن غمر وأولية ذلك

لما نهض السلطان ابو البقاء الى الحضرة عقد على بجايه لعبد الرحمن بن يعقوب بن الخلوف مضافاً الى رياسته على قومه كما كانوا يستخلفون أباه عليها عند سفرهم عنها ، وكان يلقب المزوار ، وجعله حاجباً لاخيه الأمير أبي بكر على قسطنطينة فانتقل اليها . وعكف السلطان ابو البقاء بتونس على لذاته وارهف حدّه وعظم بطشه فقتل عدوان بن المهدي من رجالات سدويكش ودعا بن حريز (١) من رجالات الأثابج فتفاوض رجال الدولة في شأنه وخشوا بادرته ، واعمل الحاجب ابن غمر وصاحبه منصور بن فضل عامل الزاب الحيلة في التخلص من ايالته واستغضب (٢) راشد بن محمد امير مغراوة ، كان نزع اليهم عند استيلاء بني عبد الواد على وطنه ، فتلقوه من الكرامة بما يناسبه واستقر في جملتهم ، وعليه وعلى قومه كانت تدور رحا حروبهم .

واستصحبه السلطان ابو البقاء خالد الى الحضرة أميراً على زناتة فرفع بعض حشمه الى الحاجب في مقعد حكمه ، وقد

(١) كذا، وفي ب : ابن جرير.
(٢) كذا، وفي ب : واستصعب.

استمدى عليه بعض الخدم فأمر بقتله لحينه. واحفظ ذلك الامير راشد بن محمد فركب لها عزائمه، وقوّض خيامه لحينه مغاضباً، فوجد الحاجب بذلك سبيلًا الى قصده وتمت حيلته وحيلة صاحبه. وأهمّ السلطان شأن بجاية ونواحيها، وخشي عليها من راشد بما كان صديقاً ملاطفاً لعبد الرحمن ابن الخلوف وفاوضها فيمن يدفعه اليها فأشار عليه الحاجب بمنصور بن مزني، وأشار منصور بالحاجب وتدافعها اياماً حتى دفعها جميعاً اليها. وطلب ابن غمر من السلطان العقد لاخيه أبي بكر على قسطنطينة فعقد له، وولى علياً ابن عمه على الحجابة بتونس نائباً عنه. وفصل من الحضرة ولحق بقسطنطينة، وصرف منصور بن فضل الى عمله بالزاب فكان من خلافه ما يذكر. وقام ابن غمر بخدمة السلطان أبي بكر فتصرّف في حجابته. ثم داخله في الانتقاض على اخيه، وبدت مخايل ذلك عليهم فارتاب لهم السلطان ابو البقاء واحسّ علي بن غمر بارتيابه فلحق بقسطنطينة. وجهّز السلطان ابو البقاء عسكراً وعقد عليها لظافر مولاه المعروف بالكبير، وسرّحه الى قسطنطينة فانتهى الى باجة واراح بها الى ان كان من امره ما نذكره. وبادر ابن غمر الى المجاهرة بالخلعان، ودعا مولانا السلطان أبا بكر اليه فاجابه، واخذ له البيعة على الناس فتمت سنة احدى عشرة وسبعماية، وتلقب بالمتوكل

وعسكر بظاهر قسطنطينة الى ان بلغه مجاهرة ابن الخلوف بخلافهم فكان ما نذكره .

الخبر عن استيلاء السلطان على بجاية ومقتل ابن خلوف وما كان من الاحارة في ذلك

كان يعقوب بن الخلوف ويكنى أبا عبد الرحمن كبير صنهاجة جند السلطان الموطّنين بنواحي بجاية ، وكان له مكان في الدولة وغناء في حروبهم ودفاع عدوهم . ولما نزلت عساكر بني مرين على بجاية مع ابي يحيى بن يعقوب بن عبد الحق سنة ثلاث وسبعمائة كان له في حروبهم مقامات مذكورة وآثار معروفة . وكان الامير ابو زكرياء وابنه يستخلفونه ببجاية ازمان سفرهم عنها ، وكان يلقّب بالمزوار . ولما هلك خلفه في سبيله تلك ابنه عبد الرحمن واستخلفه السلطان ابو البقاء خالد على بجاية عندما نهض الى تونس سنة تسع وانزله بها ، وكان طموحاً لجوجاً مدلّاً بأسه وقومه ومكانه من الدولة . فلما دعا السلطان ابو بكر لنفسه وخلع طاعة أخيه ، وأخذ له ابو عبد الرحمن بن غمر البيعة على الناس وخاطبوه بأخذ البيعة له على من يليه ببجاية واعمالها فأبى منها ، وتمسك بدعوة صاحبه ، ونفس على ابن غمر ما تحصّل له بذلك من الحظ فجاهر بخلافهم

وجمع واحتشد وتقبض على صاحب الاشغال عبد الواحد

ابن القاضي ابي العباس الغماري وعلى صاحب الديوان محمد ابن يحيى القالون مصطنع الحاجب ابن غمر من اهل المريّة كان اسدى اليه عند اجتيازه به معروفاً ، ورحل اليه عندما استولى على الرتبة ببجاية فكافأه عن معروفه واصطنعه والقى اليه محبته ورقّاه الى الرتب ، وصرّفه في اعمال الجباية وقلّده ديوان بجاية فتقبّض عبد الرحمن بن الخلوف عليه وعلى صاحبه . وجمع الناس واعلن بالدعوة للسلطان أبي البقاء خالد . وارتحل السلطان ابو بكر من معسكره بظاهر قسطنطينة واغذّ السير الى بجاية ، ونزل مطلاً عليها ، واقتتل الناس عامة يومهم . وشرط ابن الخلوف على السلطان عزلة ابن غمر ، وتردّدت الرسل بينهم في ذلك . وكان الوزير ابو زكرياء بن أبي الأعلام من الساعين في هذا الاصلاح بما كان له من الصهر مع ابن الخلوف . وحين رجع اليه بامتناع السلطان عن شرطه منعه من الرجوع اليهم وحبسه عنده ، وارجف اهل المعسكر بالسلطان ، وخاموا عن لقاء صنهاجة ومن معهم من مغراوة اهل الشوكة والعَصَبيّة والعديد والقوّة .

وأجفل السلطان من معسكره فانتهب واخذت التّه ، وسلب من كان في المعسكر من اخلاط الناس ، ودخل السلطان الى قسطنطينة في فلّ من عسكره . وبعث ابن خلوف عسكراً في اتباعه فوصلوا الى ميلة فدخلوها عنوةً . ثم وصلوا الى قسطنطينة

فقاتلوهـا اياماً ، ورجعوا الى بجـاية . واقام السلطان واضطرب امره ، وتوقّع زحف ظافر اليه من باجة ، واتصل به ان ابا يحيى زكرياء بن احمد اللحياني قفل من المشرق ، وانه لما انتهى الى طرابلس دعا لنفسه لما وجد بافريقية من الاضطراب ، فبويع وتوافت اليه العرب من كل جهة ، فرأى السلطـان من مذاهب الحزم ان يبعث اليه بالحاجب ابن ابي عبد الرحمن بن غمر ليشيد من سلطـانه ، ويشغل اهل الحضرة عنـه ، فورى بالفرار عن السلطان وتواطأ معه على المكر بابن خلوف في ذلك .

ولحق ابن غمر باللحياني واستحثـه لملك تونس وهون عليه الأمر ، وغدا السلطان عند فصول ابن غمر على منازله فكبسها وسطا بحاشيته ، وولّى حجابته حسن بن ابراهيم بن أبي بكر بن ثابت رئيس اهل الجبل المطل على قسطنطينة والفلّ من كتامة ، ويعرف قومـه ببني تليلان (١) وكان قـد اصطنعه من قبل ، وارتحل بالعسكر الى بجـاية سنة اثنتي عشرة . واستخلف على قسطنطينة عبد الله بن ثابت اخا الحاجب .

واشيـع بالجهات ان السلطان تنكر لابن غمر وسخطه ، وانه ذهب الى ابن اللحياني واستجاشه على الحضرة ، وبلغ ذلك ابن خلوف واستيقن اضطراب حال السلطان خـالد بتونس فطمع في حجابة السلطان أبي بكر . وتوثق لنفسه منه بالعهد بمداخلة عثمان

(١) كذا، وفي ب: ضيلان، وفي نسخة أخرى: تيلان.

ابن شبل وعثمان بن سباع بن يحيى من رجالات الدواودة والولي يعقوب الملاري من نواحي قسطنطينة . واغذّ السير الى بجاية ، ولقي السلطان بفرجيوه من بلاد سدويكش فلقّاه مبرّة ورحباً . ثم استدعاه من جوف الليل الى رواقه في سرب من مواليه المعلوجي فعاقرهم الخمر الى ان ثمل ، واستغضبوه ببعض النزعات فغضب واقذع فتناولوه طعناً بالخناجر الى ان قتلوه ، وجرّوا شلوه فطرحوه بين الفساطيط ، وتقبّض على سائر قومه وحاشيته ، وفرّ كاتبه عبد الله بن هلال فلحق بالمغرب . وارتحل السلطان مغذّاً الى بجاية فدخلها على حين غفلة . واستولى على ملك ابنه بالناحية الغربية واستوثق له امرها ، واقام في انتظار حاجبه ابن غمر الى ان كان من الامر ما نذكره .

الخبر عن مهلك السلطان أبي البقاء خالد واستيلاء السلطان أبي يحيى بن اللحياني على الحضرة

كان السلطان ابو البقاء خالد بعد بيعة السلطان أبي بكر بقسطنطينة قد اضطرب احواله وجهز اليه العساكر لمنازلة قسطنطينة ، وعقد عليها لمولاه ظافر المعروف بالكبير ، فعسكر بباجة واراح ينتظر امر السلطان . وكان ابو يحيى زكرياء بن أحمد بن محمد اللحياني بن أبي محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص قد بويع بطرابلس لما قفل من المشرق ، ورأى اضطراب

الاحوال ووفد عليه الحاجب ابو عبد الرحمن بن غمر بهديّة من السلطان أبي بكر ، وأنّه ممده ومظاهره على شأنه ، فاحكم ذلك من عقدته وشدّ من امره ، وتوافت اليه رجالات الكعوب اولاد ابي الليل وغيرهم ، فبايعوه واستحثّوه للحضرة ، فارتحل اليها وبعث في مقدّمته اولاد ابي الليل ، ومعهم شيخ دولته ابو عبد الله محمد بن محمد المزدوري فاغذّوا السير الى الحضرة .

وبعث السلطان الى مولاه ظافر بمكانه من باجة مستجيشاً فاعترضوه قبل وصوله ، واوقعوا به واعتقلوا ظافراً وصبحوا تونس ثامن جمادى سنة احدى عشرة ، ووقفوا بساحتها فكانت هيعة بالبلد قتل فيها شيخ الدولة ابو زكرياء الحفصي ، وعدا القاضي ابو اسحاق بن عبد الرفيع على السلطان . وكان متبوعاً صارماً قوي الشكيمة ، فاغراه بمدافعة العدو فخام عن لقائه ، واعتذر بالمرض واشهد بالانخلاع عن الامر وحلّ البيعة . ودخل ابو عبد الله المزدوري القصر فاستمكن من اعتقاله

ثم جاء السلطان ابو يحيى زكرياء بن اللحياني على اثره ثاني رجب فبويع البيعة العامة بظاهرها ودخل الى البلد ، واستولى عليها وولّى على حجابته كاتبه ابا زكرياء يحيى بن علي بن يعقوب ، وعلى الاشغال بالحضرة ابن عمه محمد بن يعقوب . وبنو يعقوب هؤلاء اهل بيت بشاطبة من بيوت العلم والقضاء ، قدموا الى الحضرة مع الجالية ، وكان منهم ابو القاسم عبد الرحمن بن

يعقوب ، وفد مع ابن الأمين صاحب طنجة كما قدّمناه ، وتصرّف في القضاء بافريقية وولاه السلطان المستنصر قضاء الحضرة . وسفر عنه الى ملوك مصر ، وكان بنو علي هؤلاء عبد الواحد ويحيى ومحمد من اقاربه ، وكان لهم ظهور في دولة السلطان أبي حفص وبعدها . وكان عبد الواحد منهم صاحب جباية الجريد ، وهلك بتوزر سنة اثنتين وسبعماية . وكان السلطان ابو يحيى بن اللحياني قد استكتب أخاه أبا زكرياء يحيى ايام رياسته على الموحدين فحظي عنده واختصّه ولازمه ، وحجّ معه . فلما ولي الخلافة احظاه وولّاه حجابته . ولما استقرّ بتونس ، واستوثق له الامر أعاد الحاجب ابا عبد الرحمن بن غمر الى مرسله السلطان أبي يحيى بعد ان وثق العهد معه على المهادنة ، وضمن له ابن غمر من ذلك ما رضيه وتمسّك بابن عمه على ابن غمر فاقام عنده مكرماً متسع الجراية والاسهام الى ان كان من الامر ما نذكر .

الخبر عن قدوم ابن غمر على السلطان ببجاية ونكبة ابن ثابت وظافر الكبير

لما قدم ابن غمر على بجاية استبدّ بحجابته وكفالته كما كان ، وليوم وصوله فرّ عبد الله بن هلال كاتب ابن خلوف ، ولحق بتلمسان وشمر ابن غمر عزائمه للاضطلاع بامره ، ودفع حسن بن ابراهيم بن ثابت عن الرتبة فلم يتزحزح له ، وخرج لجباية الوطن .

ثم اغرى به السلطان وحذّره من استبداده بقسطنطينة لمكان معقله المجاور لها وسعايات تنصح بها حتى صادفت القبول لمكانه والوثوق بنصائحه. وخرج السلطان في العساكر من بجاية الى قسطنطينة سنة ثلاث عشرة لنظر احوالها. فلما انتهى الى فرجيوه لقيه عبد الله بن ثابت فتقبّض عليه وعلى اخيه حسن ابن الحاجب سنة ثلاث عشرة وقتلهما بعد ان استصفى اموالهما، ويقال انه بعد خروج حسن بن ثابت الى اعمال قسطنطينة بعث في اثره بعض مواليه، واوعز معهم الى عبد الكريم بن منديل ورجالات سدويكش فقتلوه بوادي القطن. وانّ السلطان لم يباشر نكبته. وكان ظافر الكبير بعد انهزامه وحصوله فى اسر العرب كما قدّمناه امتنعوا عليه واطلقوه، ولحق بالسلطان أبي بكر فاثره واستخلصه كما كان لاخيه، وولّاه على قسطنطينة عند نكبة ابن ثابت. واستكتب له ابا القاسم بن عبد العزيز لخلوه من الادوات فاقام ظافراً والياً بقسطنطينة. ثم استقدمه السلطان الى بجاية وقد غص ابن غمر بمكانه، فأغرى به السلطان فتقبّض عليه، واشخصه في السفين الى الاندلس.

الخبر عن منازلة عساكر بني عبد الواد بجاية وما كان في أثر ذلك من الأحداث

كان السلطان ابو يحيى بعد انهزامه عن بجاية سنة عشر،

وبعث سعيد بن يخلف من مواليه الى ابي حمو موسى بن عثمان ابن يُغْمُراسن . وكان قد اتيح له في زناتة المغرب الأوسط ظفر واعتزاز . وتملّك امصاره من أيدي بني مرين بعد مهلك يوسف ابن يعقوب على تِلِمْسان ودوخ جهاته . واستولى على اعمال مغراوة وتوجين، وملك الجزائر، واستنزل منها ابن علاّن الثائر بها. وملك تدلس من يد ابن خلوف فبعث اليه السلطان في المواصلة والمظافرة، وان تكون يدهما على ابن خلوف واحدة، فطمع لذلك موسى بن عثمان في ملك بجاية . ثم بلغه مهلك ابن خلوف، واستيلاء السلطان على ثغره فاستمر على المطالبة، وادعى ان بجاية له في شرطه، وقارن ذلك لحاق صنهاجة اليه عند مهلك صاحبهم فرغبوه في ملك بجاية وضمنوا له امرها . ثم قدم عثمان بن سبّاع بن يحيى مغاضباً للسلطان لما كان من افتياته عليه في ابن خلوف واخفار ذمته وعهده فيه، واستقر عنده ابن أبي جبى منذ منصرفه عن الحجابة ورجوعه من الحج فرغبوه في ذلك واستحثوه لطلب بجاية، فسرح العساكر اليها لنظر محمد ابن عمه يوسف ابن يُغْمُراسن ومسعود ابن عمه أبي عامر ابراهيم، ومولاه مسامح . وبعث معها أبا القاسم بن أبي جبى الحاجب ففصلوا عنه من دار مقامته بشلف، فاغذّوا السير . وهلك ابن أبي جبى بجبل الزاب ونازلوا البلد . ثم جاوزوها الى الجهات الشرقية فاثخنوا فيها ودخلوا جبل ابن ثابت، واستولوا عليه

واستباحوه سنة ثلاث عشرة .

ونالت منهم الحامية في المدافعة بالقتل والجراحة اعظم النيل ، وقفلوا راجعين فشيّدوا حصناً بأصفون وشحنوه بالاقوات . ولما وصل محمد بن يوسف ومسامح وبّخهما وطوفها ذنب القصور والعجز ، وعزلهما . وبعث السلطان عسكراً في البر واسطولا في البحر بعد رجوعه من قسطنطينة سنة اربع عشرة لهدم حصن بني عبد الواد بأصفون فخرب وانتهبت أقواته وعدده . وسرّح ابو حمو عسكراً لحصار بجاية عقد عليه لمسعود ابن عمه أبي عامر ابراهيم بن يغمراسن فنازلوها سنة خمس عشرة ، واتصل بهم خروج محمد بن يوسف بن يغمراسن وبني توجين معه على أبي حمو ، وأنهم اوقعوا به وهزموه ، واستولوا على معسكره فاجفل مسعود بن أبي عامر وعسكره وافرجوا عن بجاية . ووصل على اثرها خطاب محمد بن يوسف بالطاعة والانحياش فبعث السلطان اليه صنيعته محمد بن الحاج فضل بالهدية والآلة ، ووعده بالمظاهرة وتسويغ الاسهام التي كانت ليغمراسن بافريقية . وشغل بنو عبد الواد عن بجاية ، وخرج السلطان في عساكر الاشراف على وطنه الى ان كان ما نذكره .

الخبر عن استبداد ابن غمر ببجاية

لم يزل ابن غمر مستبداً على السلطان في حجابته يرى ان

زمامه بيده ، وامره متوقف على انفاذه . وصار يغريه ببطانته فيقتلهم ويغرّبهم ، وربما كان السلطان يأنف من استبداده عليه . وداخله بعض اهل قسطنطينة سنة ثلاث عشرة في اغتياله ابن غمر فهموا بذلك ، ولم يتم ففطن لها ابن غمر فأوقع بهم وقسمهم بين النكال والعذاب فرقاً . ثم رجع السلطان الى بجاية سنة ثلاث عشرة لما اهمهم حصاره ، واتصلت حاله معه على ذلك النحو من الاستبداد الى ان بلغ السلطان أشده وارهف حده ، وسطا بمحمد ابن فضل فقتله في خلوة معاقرته من غير مؤامرة الحاجب . وباكر ابن غمر مقعده بباب السلطان فوجد شلوه ملقى في الطريق مضرّجاً في ثيابه ، واخبر ان السلطان سطا به فداخله الريب من استبداد السلطان وارهاف حدّه ، وخشي بوادره ، وتوقع سعاية البطانة ونجي الخلوة . وتحيّل في بعده عنه واستبداده بالثغر دونه فاغراه بطلب افريقية من يد ابن اللحياني ، وجهّزه بما يصلحه من الآلة والفساطيط والمساكر والخدام ، ورتب له المراتب . وارتحل السلطان الى قسطنطينة سنة خمس عشرة . ثم تقدم غازياً الى بلاد هُوارة ، واجفل عنها ظافراً بن[1] تعاطى قائدها من مواليهم فاستوفى جباية هُوارة . وقفل الى قسطنطينة سنة ست عشرة واستبدّ ابن غمر ببجاية ومدافعة العدوِ من زناتة عنها . واستخلف على حجابته السلطان محمد بن القالون ،

(١) كذا، وفي ب: ثم.

وقرّت عينه بما كان يؤمل من استبداده الى ان كان من امره ما نذكر .

الخبر عن سفر السلطان أبي يحيى اللحياني الى قابس وتجافيه عن الخلافة

كان هذا السلطان ابو يحيى بن اللحياني قد طعن في السن وكان بصيراً بالسياسة مجرباً للامور ، وكان يرى من نفسه العجز عن حمل الخلافة واستحقاقها مع ابناء الأمير أبي زكرياء الأكبر . وعلم مع ذلك استفحال صاحب الثغور الغربيّة الامير أبي بكر واستغلاظ امره بمن انتظم في ملكه [(١)] وارتسم في ديوان جنده من اعياص زناتة وفحول شولهم ، من توجين ومغراوة وبني عبد الواد وبني مرين . كانوا ينزعون اليه مع الايام عن ملوكهم خشية على انفسهم ، لما قاسموهم في النسب وساهموهم في يعسوبيّة القبيل وفحوليّة الشول . ومنهم من غلبوا على مواطنهم وملكوها عليهم مثل مغراوة وبني توجين ومليكش ، فاستكثف بذلك جند السلطان وكثرت جموعه وهابه الملوك .

ونهض سنة ست عشرة الى افريقية وجال في بلاد هُوارة وأخذ جبايتها كما ذكرناه ، فتوقع السلطان ابن اللحياني زحفه اليه بتونس . وكانت افريقية مضطربة عليه ، وكان تعويله في

(١) كذا، وفي ب : في جملته .

الحماية والمدافعة على اوليائه من العرب ، تولى منهم حمزة بن علي عمر بن أبي الليل فحكمه في امره واشركه في سلطانه وافرده برياسة العرب وأجرّه الرسن ، وسرب اليه الاموال ، وكثر بذلك زبون العرب واختلافهم عليه ، فاعتزم على التقويض عن افريقية ونفض اليد من الخلافة ، فجمع الاموال والذخيرة وباع ما كان بمودعاتهم من الآنية والفرش والخرثي والماعون والمتاع ، حتى الكتب التي كان الامير ابو زكرياء الاكبر جمعها واستجاد أصولها ودواوينها . أخرجت للورّاقين فبيعت بدكاكينهم . فجمع من ذلك زعموا قناطير من الذهب تجاوز العشرين ، وجواليقين من حصى الدر والياقوت . وخرج من تونس الى قابس مورياً بمشارفة عملها فاتح سبع عشرة بعد ان رتّب الحامية بالحضرة وباجة والحمامات ، واستخلف بالحضرة ابا الحسن ابن وانودين وانتهى الى قابس فقام بها ، وصرف العمال في جهاتها الى ان كان من بيعة ولده بتونس ما نذكره بعد إن شاء الله تعالى .

الخبر عن نهوض السلطان أبي بكر الى الحضرة ورجوعه الى قسطنطينة

لما خرج السلطان من هُوارَة إلى قسطنطينة سنة ست عشرة كما قدمناه ، استبلغ في جهاز حركة اخرى الى تونس ، فاحتشد وقسم العطاء وازاح العلل ، وأُعترض الجنود عن طبقاتهم

من زناتة والعرب وسدويكش . واستخلف على قسنطينة الحاجب محمد بن القالون . وبعث الى حاجبه الأعظم أبي عبد الرحمن بن غمرَ بمكانه من امارة بجاية في مدد المال في النفقات والأعطيات . فبعث اليه منصور بن فضل بن مزني عامل الزاب ، وكان ابن غمر لما رأى من كفايته وانه جمّاعة للمال ، استضاف له عمل جبل اوراس والحضنة وسدويكش وعياض وسائر اعمال الضاحية ، فكانت اعمال الجباية كلها لنظره واموالها في حسبان دخله وخرجه . فبعث ابن غمر [1] ليقيم انفاق السلطان . واستخلفه على خطة حجابته ، وارتحل السلطان من قسنطينة في جمادى سنة سبع عشرة يطوي المراحل . ولقيه في طريقه وفود العرب ، وانتهى الى باجة فانفضّت حاميتها الى تونس .

وكان السلطان ابو يحيى اللحياني قد خرج عنها الى قابس كما قدمناه ، واستخلف عليها ابا الحسن بن وانودين ، وبعث اليه بنهوض السلطان أبي بكر الى تونس ، وانه محتاج الى المدافعة ، فاعتذر لهم اللحياني بما قبله من الاموال ، واطلق يدهم في الجيش والمال فاركبوا واستلحقوا ورتّبوا الديوان واخرجوا ابنه محمد ، ويكنى ابا ضربة فاطلقوه من اعتقاله .

وبلغتهم الخبر باشراف السلطان أبي بكر على باجة فخرجوا جميعاً من تونس . وخالفهم الى السلطان مولاه ابن غمر بن أبي

---

(١) كذا بالأصل: ابن غمر في طبعة ت. وفي ب: ابن عمر.

الليل . كان مضطغناً مع الدولة متربصاً بها لما كان اللحياني يؤثر عليه اخاه حمزة ، فلقي السلطان في دوين باجة ، فاعطاه صفقته واستحثّه ، ووصل الى تونس ، فنزل روض السناجرة من رياض السلطان في شعبان من سنة سبع عشرة . وخرج اليه الملأ وترددوا في البيعة بعض الشيء انتظاراً لشان أبي ضربة واصحابه. وكان من خبرهم ان السلطان لما أغذّ السير من باجة ، بادر حمزة بن عمر الى بطانة اللحياني واوليائه بتونس فلقيهم وقد خرجوا عنها ، فاشار عليهم ببيعة ابي ضربة ابن السلطان اللحياني ، ومزاحمة القوم به فبايعوه وزحفوا الى لقاء السلطان .

ودس حمزة الى اخيه مولاهم ان يزحف بالمعسكر فاجفل السلطان من مقامته من روض السناجرة لسبعة ايام من احتلاله قبل ان يستكمل البيعة وارتحل الى قسطنطينة ورجع عنه مولاهم من تخوم وطنه . وسرح منصور بن مزني الى ابن غمر ببجاية ودخل ابو ضربة بن اللحياني والموحدون الى تونس منتصف شعبان من سنته . وبويع بالحضرة البيعة العامة وتلقّب بالمستنصر . وأراد أهل تونس على ادارة سور بالارباض يكون سياجاً عليها فاجابوه الى ذلك وشرع فيه . وارهقه العرب في مطالبهم واشتطوا عليه في شروطهم الى ان عاود مولانا السلطان حركته كما نذكر .

الخبر عن استيلاء السلطان أبي بكر على الحضرة وايقاعه بابي ضربة وفرار أبيه من طرابلس الى المشرق

لما قفل السلطان من تونس الى قسنطينة بعث قائده محمد بن سيّد الناس بين يديه الى بجاية ، فارتاب ابن غمر بوصوله [1] وتنكر له وشعر بذلك السلطان ، واغضى له عنها وطلبه في المدد ، فاحتفل في الحشد والالة والأبنية . وبعث اليه سبعة من رجال الدولة بسبعة عساكر وهم : محمد بن سيّد الناس ، ومحمد بن الحكم ، وظافر السنّان وأخوه من موالي الامير ابي زكرياء الأوسط ، ومحمد المديوني ومحمد المجرسي ومحمد البطوني . وبعث له من فحول زناتة وعظمائهم عبد الحقّ بن عُثمان من أعياص بني مرين ، كان ارتحل اليه من الاندلس كما نذكر في خبره ، وأبا رشيد بن محمد بن يوسف من اعياص بني عبد الواد في من كان معهم من قومهم وحاشيتهم .

وتوافوا بعساكرهم عند السلطان بقسطنطينة فاعتزم على معاودة الزحف الى تونس ، وكان قد اختبر احوال افريقية واحسن في ارتيادها فخرج في صفر من سنة ثمان عشرة ، واستعمل على حجابته ابا عبد الله بن القالون ، ومرادفه ابو الحسن بن عمر ، ووافاه بالأُرْبُس وفد هُوارة ، وكبيرهم سليمان

(١) كذا، وفي ب: فارتاب لذلك ابن عمر بوصول أمره.

ابن جامع ، واخبروه بان ابا ضربة بن اللحياني اجفل من باجة بعد ان نزلها معتزماً على اللقاء ، فارتحل مولانا السلطان منذ[3]ا ، ولقيه مولاهم بن عمر فراجع الطاعة ، وارتحلوا في اتباع أبي ضربة وجموعه حتى شارفوا على القيروان ، فخرج اليه عاملها ومشيختها فالقوا اليه باليد واعطوا الطاعة .

وارتحل السلطان راجعاً عن اتباع عدوه الى الحضرة وقد ترك بها ابو ضربة بن اللحياني من بطانته محمد بن الفلاق ليمانع دونها ، فاخرج الرماة الى ساحتها ، وقاتل العساكر ساعة من النهار . ثم اقتحموها عليه ، واستبيح عامة أرباضها وقتل ابن الفلاق ودخل السلطان الى الحضرة في ربيع من سنته ، فاقام خلال ما انعقدت العامة . وقدّم على الشرطة ميمون بن أبي زيد واستخلفه على البلد . ورحل في اتباع أبي ضربة بن اللحياني وجموعه فاوقع بهم بمصوح [1] من جهات بلاد هُوارة .

وقتل من مشيخة الموحدين ابو عبد الله بن الشهيد من اهل البيت الحفصي ، وابو عبدالله بن ياسين . ومن طبقات الكتاب ابو الفضل البجائي [2] وتقبض على شيخ الدولة أبى محمد عبد الله ابن يغمور . وقيد الى السلطان فعفا عنه ونوهه [3] ليومه . ثم

---

(١) كذا، وفي ف بمصرح، وفي نسخة بمصبوح.
(٢) كذا، وفي ب : النجاني.
(٣) كذا، وفي ب : وقومه.

اعاده الى خطته بعد ذلك . ورجع السلطان الى تونس في رجب من سنته . وكان السلطان ابو عيسى بن اللحياني لما بلغه الخبر بنهوض السلطان الى تونس حركته الثانية سنة سبع عشرة ، وما كان من بيعة الموحدين والعرب لابنه أبي ضربة ارتحل من مقامته بقابس الى نواحي طرابلس . ثم بلغه رجوع السلطان الى قسطنطينة فاوطن طرابلس فبنى مقعداً لملكه بسور البلد مما يلي البحر سماه الطارمة ، وبعث العمال في الجهات لجباية الاموال . وبعث على جبال طرابلس ابا عبد الله بن يعقوب قريب حاجبه ومعه هجرس بن مرغم كبير الجواري من دبّاب فدوخ البلاد وفتح المعاقل وجبى الاموال وانتهى الى برقة . واستخدم آل سالم وآل سليمان من عرب دباب ، ورجع الى سلطانه بطرابلس . ووافاه الخبر بانهزام أبي ضربة ابنه فبعث حاجبه ابا زكريّاء بن يعقوب ووزيره ابا عبد الله بن ياسين بالاموال لاحتشاد العرب ففرقوها في علاق ودباب ، وزحف ابو ضربة الى القيروان . وبلغ الخبر الى السلطان أبي بكر فخرج من تونس آخر شعبان سنة ثمان عشرة ، فاجفلوا عن القيروان . ثم تدامروا وعقلوا رواحلهم مستميتين بزعمهم ، حتى اطلّت عليهم العساكر بمكان فج النعام ، فانفضت جموعهم وشردت رواحلهم وارتحلوا منهزمين ، والقتل والنهب يأخذ منهم مأخذه . ونجا ابو ضربة في فلّه الى المهديّة ، وكانوا مقيمين على دعوة أبيه فامتنع بها الى ان كان

من شأنه ما سنذكره .

وبلغ الخبر الى ابيه بمكانه من طرابلس ، فاضطرب معسكره وبعث الى النصارى في اسطول يحمله الى الاسكندرية فوافوه بستّة اساطيل فاحتمل اهله وولده ، وركب البحر ومعه حاجبه ابو زكرياء بن يعقوب الى الاسكندرية واستخلف على طرابلس ابا عبدالله بن أبي عِمْران من ذوي قرابته وصهره ، فلم يزل بها الى ان استدعاه الكعوب ونصبوه للأمر ، وأجلبوا به على السلطان مراراً كما نذكره بعد . وركب السلطان ابو يحيى ابن اللحياني البحر الى الاسكندرية فنزل بها على السلطان محمد بن قلاون من ملوك الترك بمصر والشام . واستقدمه الى مصر فعظّم من مقدمه واهتزّ للقائه ونوّه من مجلسه واسنى من جرايته واقطاعه ، الى ان هلك سنة ثمان وعشرين . ورجع السلطان ابو بكر الى تونس بعد الواقعة على أبي ضربة وقومه بفجّ النعام ، فدخلها في شوال من سنته . واستقامت افريقية على طاعته ، وانتظمت امصارها وثغورها في دعوتها إلا المهدية وطرابلس كما ذكرناه ، إلى ان كان ما يأتي ذكره .

الخبر عن مهلك الحاجب ابن غمر ببجاية وولاية الحاجب محمد بن القالون عليها ثم الإدالة منه بابن سيد الناس

كان الحاجب ابن غمر لما استبد ببجاية سنة خمس عشرة ،

وانتقل السلطان الى قسطنطينة ولم يراجعها بعد. ثم رجع من تونس ثانية حركاته سنة سبع عشرة ، صرف اليه منصور بن فضل وبعث في اثره قائده ابا عبد الله محمد ابن حاجب ابيه أبي الحسن بن سيّد الناس يهيىء قصوره ببجاية للتحوّل اليها ، فردّه ابن غمر وتنكر وطالبه السلطان في المدد فبادر به فاقطعه جانب الرضى. وعقد له على بجاية وقسطنطينة كما ذكرنا ذلك كله قبل. فاستبد ابن غمر بالثغر وما اليه من الأعمال مقتصراً على ذكر السلطان في الخطبة ، واسمه في السكة. وأقام على ذلك الى ان ملك السلطان تونس واستولى على جهاتها ، وبعث اليه بابن عمه محمد بن غمر فعقد أبو عبد الرحمن الحاجب على قسطنطينة فمضى اليها ، وهو في خلال ذلك كلّه يدافع عساكر زناتة عن بجاية.

وقد كان ابو حمو صاحب تِلِمْسان بعد ظهوره على محمد بن يوسف ، واسترجاعه بلاد مغراوة وتوجين من يده كما قدمناه يسرب العساكر لحصارها. وابتنى بالوادي على مرحلتين منها قلعة تكر ليجمر بها الكتائب لحصارها. ثم هلك ابو حمو وولي ابنه ابو تاشفين من بعده سنة ثمان عشرة فتنفّس مخنق الحصار عن بجاية ريثما كانت حركة السلطان الى تونس وفتحها. ثم خرج ابو تاشفين من تلمسان لتمهيد اعماله ، وقتل محمد بن يوسف بمعقله من جبل وانْشَريش كما ذكرناه في اخبارهم ، فارتحل من هنالك غازياً الى بجاية ، فأطلّ عليها في سنة تسع عشرة ، وبدا له من

حصنها وكثرة مقاتلتها وامتناعها ما لم يحتسب ، فانكفأ راجعاً الى تلمسان ، واصاب ابن غمر المرض فبعث عن علي ابن عمه من مكان عمله بقسطنطينة ، وعهد اليه بامره والقيام بولاية بجاية الى ان يصل امر السلطان .

وهلك لايام على فراشه في شوال من سنة تسع عشرة ، وقام علي بن غمر بامر بجاية ، واتصل الخبر بالسلطان فاهمَّه شأن الثغر . وطيّر ابن سيّد الناس اليه مع قهرمانة داره لتحصيل تراثه ، والبحث عن ذخيرته فاستوفى من ذلك فوق الكثرة من الصامت والذخيرة ، وقدم به على السلطان واستقدم معه علي بن غمر ، فاولاه السلطان من رضاه ما احسب امله . واقام بالحضرة الى ان كان منه خلاف مع ابن عمران . ثم راجع الطاعة وقد احفظ السلطان بولاية عدوه . فلما عاد الى تونس اوعز الى مولاه نجاح وهلال بقتله فاغتالوه خارجاً من بستانه فاشووه ، وهلك من جراحته .

الخبر عن امارة الامير أبي عبد الله على قسطنطينة وأخيه الأمير أبي زكريا على بجاية وتولية القالون على حجابته

لما هلك ابن غمر اهم السلطان شان بجاية بما كانت عليه من شأن الحصار ، ومطالبة بني عبد الواد لها فرأى ان يكشف الحامية بالثغور الغربيّة ، وينزل بها ابناءه للمدافعة والحماية ،

فعقد على قسنطينة لابنه الامير أبي عبد الله وعقد على بجاية لابنه الآخر الأمير أبي زكرياء . وجعل حجابتها لأبي عبد الله ابن القالون مستبداً عليهما لمكان صغرهما . واكثف له الجند وامره بالمقام ببجاية لممانعتها من العدوِ الملحّ على حصارها . وارتحلوا من تونس فاتح سنة عشرين في احتفال من العسكر والصحاب والأبهة . وابقى خطة الحجابة خلواً ممن يقوم بها . وابقى علي ابن القالون . وبقي للتصرُّف في الامور من رجالات السلطان ابو عبد الله محمد بن عبد العزيز الكردي الملقَّب بالمزوار . وكان مقدَّماً على بطانة السلطان المعروفين بالدخلة ، وعلى الاشغال الكاتب ابو القاسم بن عبد العزيز ، وسنذكر اوليتهما بعد . وانصرف الى بجاية رافلاً في حلل العزِ والتنويه الى ان كان من امره ما نذكر .

الخبر عن استقحام ابن القالون والإدالة منه بابن سيد الناس في بجاية وبظافر الكبير في قسنطينة

لما انصرف ابو عبد الله بن يحيى بن القالون الى بجاية ، وخلا وجه السلطان فيه لبطانته عند ولايته بجاية ، بثُّوا فيه السعايات ونصبوا له الغوائل . وتولّى كِبَر ذلك المزوار ابن عبد العزيز بمداخلة أبي القاسم بن عبد العزيز صاحب الأشغال . وعظمت السعاية فيه عند السلطان حتى داخلت فيه المِظَنَّة . وعقد لمحمد

ابن سيد الناس على بجاية ، نقله اليها من عمله باجة ، وكتب له عهده بخطه . واستقدم صاحبه محمد بن القالون فقدم ، وقد تغير السلطان له ودخل ابن سيد الناس بجاية ، وقام بامر حصارها وحجابة اميرها الى ان استقدم للحجابة وكان من امره ما نذكره . ومر ابن القالون بقسنطينة في طريقه الى الحضرة فحدثته نفسه بالامتناع بها ، وداخل مشيختها في ذلك فابوا عليه ، فاشخصهم الى الحضرة نكالا بهم .

ونمي الخبر بذلك الى السلطان فاسرّها لابن القالون وعزم على استضافة الحجابة بقسنطينة لابن سيد الناس فاستعفى مشيختها من ذلك ، واروه ان ابن الامين قريبه وابن اخيه ، وذكروه ثورة ابيه فاقصر عن ذلك ، وصرف اعتزامه الى مولاه ظافر الكبير وذلك عند قدومه من المغرب ، وكان من خبره انه كان من موالي الأمير أبي زكرياء ، وكان له في دولة ابنه السلطان أبي البقاء ظهور ، وهو الذي زحف بالعسكر عندما استراب السلطان ابو البقاء باخيه السلطان أبي بكر فأقام بباجة . وجاء المزدوري والعرب الى تونس في مقدمة ابن اللحياني ، فزحف اليهم ففضوه وتقبضوا عليه كما ذكرنا ذلك كله . ثم لحق بعدها بمولانا السلطان أبي يحيى واعاده الى مكانه من الدولة ، وولاه قسنطينة عند مهلك ابن ثابت سنة ثلاث عشر

ثم غص به ابن عمر واغرى به السلطان فاشخصه في سفين

الى الاندلس واجاز الى المغرب . ونزل على السلطان أبي سعيد الى ان بلغه الخبر بمهلك ابن عمر فكر راجعاً الى تونس ، ولقّاه السلطان مبرّة وتكريماً . ووافق ذلك وصول الحاجب ابن القالون من بجاية ، فعقد السلطان لظافر هذا على حجابة ابنه بقسطنطينة الأمير أبي عبد الله فقدمها وقام بامرها ، واستعمل ذويه وحاشيته في وجوه خدمتها وصرف من كان هنالك من الخدام اهل الحضرة الى بلدهم . وكان بها ابو العباس ابن ياسين متصرفاً بين يدي الامير أبي عبد الله ، والكاتب ابو زكرياء بن الدبّاغ على اشغال الجباية ، وكانا قدما من الحضرة في ركاب الأمير أبي عبد الله فصرفها القائد ظافر لحين وصوله ، واستقل بامره الى ان كان ما نذكره

الخبر عن ظهور ابن أبي عمران وفرار ابن القالون اليه

كان محمد بن ابي عمران هذا من عقب أبي عمران موسى بن ابراهيم بن الشيخ ابي حفص ، وهو الذي ولي افريقية نائباً عن أبي محمد عبد الله ابن عمه الشيخ ابي محمد عبد الواحد كتب له بها من مراكش لأوّل ولايته ، فاقام والياً عليها ثمانية اشهر الى ان قدم اخر سنة ثلاث وعشرين وستماية ، واقام ابو عمران هذا في جملتهم الى ان هلك ونشأ بنوه في ظلّ دولتهم الى كان من

عقبه ابو بكر والد محمد هذا ، فكان له صيت وذكر . وكان السلطان ابو يحيى زكرياء ابن اللحياني قد رعى له ذمّة قرابته ، ووصله بصهر عقده لابنه محمد على ابنته . واستخلفه على تونس عند خروجه عنها . ثم استخلفه على طرابلس عند ركوبه السفين الى الاسكندرية . وكان ابو ضربة بعد انهزامه وافتراق جموعه اعتصم بالمهدية ، ونازله بها السلطان ابو بكر فامتنعت عليه ، فاقلع عنها على سلم عقده لأبي ضربة . واقام حمزة بن عمر في سبيل خلافه على السلطان ، ويتقلّب في نواحي افريقية حتى عظم زبونه على السلطان ونزع اليه الكثير من الاعراب وكثرت جموعه ، فاستقدم محمد بن أبي عِمران من مكان ولايته بثغر طرابلس .

وزحف الى تونس معارضاً للسلطان قبل اجتماع عساكره وكمال تعبيته ، فخرج السلطان ابو بكر من تونس في رمضان سنة احدى وعشرين ولحق بقسطنطينة ، وصحبه اليها مولاهم ابن عمر . وكان الحاجب محمد بن يحيى ابن القالون قد غصته البطانة والحاشية بالسعاية فيه عند السلطان ، وتبيّن له انحرافه عنه . وكان معز بن مطاعن الفزاري وزيره حمزة بن عمر وصاحب شواره صديقاً للقالون ومخالصاً ، فداخله في الاجلاب بابن عمران . فلما خرج السلطان امام زحفه تخلف القالون بتونس ، وركب من الغد في البلد منادياً بدعوة ابن أبي عمران . ودخل محمد بن أبي

عمران ثانية خروج السلطان ، واستولى على الحضرة واقام بها بقيّة سنته ، وصدر من الاخرى ولحق السلطان بقسطنطينة فجمع عساكره واحتشد جموعه . وازاح العلل واستكمل التعبية وزحف منها في صفر سنة اثنتين وعشرين . وخرج ابن أبي عمران للقائه مع حمزة بن عمر في جموع العرب ، فلقيهم السلطان اولى وثانية بالرجلة واوقع بهم ، وقتل شيخ الموحدين ابا عبدالله ابن أبي بكر . وكان على مقدّمتهم محمد بن منصور بن مزني وغيرهم ، واثخنت العساكر فيهم قتلاً واسراً ، وكان للسلطان فيها ظهور لا كفاء له . ثم تقبض على مولاهم ابن عمر فكان من خبره ما نذكره .

الخبر عن مقتل مولاهم بن عمر وأصحابه من الكعوب

لما اتيح للسلطان من الظهور على ابن عمران واتباعه والظفر بهم ما اتيح وصنع له فيهم رغم أنف مولاهم ابن عمر ، وظهرت من اصحابه كلمات انبأت بفساد دخلتهم . ثم نمي للسلطان ان مولاهم داخل في الفتك به ابنه منصور وربيبيه زعدان [١] ومعدان ابني عبدالله بن أحمد بن كعب ، وسليمان بن جامع من شيوخ هوارة . وشى بذلك عنهم ابن عمهم عون بن عبدالله

(١) كذا، وفي ب: جعدان.

ابن أحمد بعد ان داخلوه فيها فتنصَّح بها للسلطـان . فلما عدوا على السلطان تقبّض عليهم وبعثهم الى تونس فاعتقلوا بها ، ورجع هو الى الحضرة فدخلها في جمادى من سنته . وجدّد البيعة على الناس ، وزحفت العرب في اتباعه حتى نزلوا بظاهر البلد وشرطوا عليه اطلاق مولاهم واصحـابه ، فانفـذ السلطان قتلهم فقتلوا بمحبسهم ، وبعث باشلائهم الى حمزة فعظم عنده موقع هذا الحزن ، وصرخ في قومه وتدامروا ان يثيروا بصاحبهم ، واغذّوا السير الى الحضرة وابن أبي عِمْران معهم على حـين افتراق العساكر واراحة السلطان . وظنوا انهم ينتهزون الفرصة فخرج السلطـان عن تونس لاربعين يوماً من دخوله ، ولحق بقسطنطينة ودخل ابن أبي عمران الى تونس فـاقام بهـا ستة اشهر خلال ما احتشد السلطان جموعه واستكمل تعبيته . ونهض من قسطنطينة وزحف اليه ابن أبي عمران وحمزة بن عمر في جموعهم ، فاوقع السلطان بهم واثخن فيهم وشردهم في النواحي ، وعاد الى تونس فدخلها في صفر سنة ثلاث وعشرين ، ومضى حمزة لوجهه الى ان كان من امره ما نذكره .

الخبر عن واقعة رغيس مع ابن اللحياني وزناتة وواقعة الشقة مع ابن أبي عمران

لما انهزم حمزة بن عمر وابن أبي عِمْران عن تونس مرة بعد

اخرى ، ورأى حمزة انّ ابن أبي عمران غير مغن عنه فصرفه الى مكان عمله بطرابلس ، وبعث الى أبي ضربة ابن السلطان اللحياني بمكانه من المهدية فداخله في الصريخ بزناتة والوفود على سلطان بني عبد الواد ، فرحل معه ابو ضربة ووفدوا على أبي تاشفين صاحب تلمسان ورغّبوه في الظفر ببجاية ، وان يشغل صاحب تونس عن مددها بترديد البعوث وتجهيز العساكر اليه ، فسرّح معهم السلطان آلافاً من العساكر عقد عليها لموسى بن علي الكردي صاحب الثغر بتيمرزدكت ، وكثير الحاشية والرجالات . وارتحلوا من تلمسان يغذّون السير ، وبلغ السلطان خبر فصولهم من تلمسان فبرز للقائهم من تونس في عساكره حتى انتهى الى رغيس بين بونة وقسطنطينة .

ولما اطلت عساكر زناتة والعرب اختل مصاف السلطان ، وانهزمت المجنبات وثبت في القلب وصدق العزيمة واللقاء ، فاختل مصافهم وانهزموا في شعبان سنة ثلاث وعشرين وامتلأت أيدي العساكر من اسلابهم من نساء زناتة ، ومنّ عليهنّ السلطان واطلقهنّ . ورجع ابو ضربة وموسى بن عليّ الكردي في فلّهم الى تلمسان ، وعاد السلطان الى حضرته لأيام من هزيمتهم . ولقيه الخبر في طريقه باجتماع العرب وابن أبي عمران بنواحي القيروان ، فتخطّى الحضرة اليهم ولقيهم بالشقّة ، واوقع بهم ورجع الى تونس في شوال من سنة اربع وعشرين . فاتبعه حمزة ومن معه الى

تونس عندما افترقت العساكر ، ومعه ابراهيم بن الشهيد من البيت الحفصي

وسبق اليهم بخبرهم عامر بن بو علي بن كثير وسحيم بن[1] فخرج للقائهم من يومه في خفٍّ من الجنود بعد ان بعث عن عساكر باجة ، وقائدها عبد الله العاقل مولاه فصحبه العرب بنواحي شادلة فقاتلوه صدرها ، وحمي الوطيس ، ووصل عبد الله العاقل والناس متواقفون ، واشتدت الحرب . ثم كانت الهزيمة على العرب ، واستبيحت حرماتهم وافترقت جموعهم ، ورجع السلطان الى البلد واستقرّ بالحضرة .

الخبر عن اجلاب حمزة بابراهيم بن الشهيد وتغلبه على الحضرة

لما انهزم ابو ضربة بن اللحياني وحمزة بن عمر وعساكر بني عبد الواد لحق ابو ضربة بتلمسان فهلك بها ، ولقي حمزة بعده من الحروب مع السلطان ما لقي ، ويئس الكعوب من غلابه وتدامروا لفتنته والاجلاب عليه ، فوفد حمزة بن عمر على أبي تاشفين صريخاً ، ومعه طالب بن مهلهل ، قرنه في قومه ، ومحمد ابن مسكين شيخ بني حكيم من اولاد القوس وكلهم من سُلَيم ومعهم الحاجب ابن القالون ، فاستحثوا عساكره لصريخهم فكتّب

(١) كذا بياض بالأصل في جميع النسخ ، ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على هذا الاسم .

لهم السلطان كتيبة عقد عليها لموسى بن علي الكردي واعاده معهم . ونصب لهم لملك تونس من اعياص أبي حفص ابراهيم بن الشهيد منهم ، وابوه الشهيد هو أبو بكر بن أبي الخطاب عبد الرحمن الذي نصب للأمر عند مهلك السلطان أبي عصيدة ، وقتله السلطان ابو البقاء خالد كما ذكرناه . وكان ابراهيم هذا قد لحق بالعرب ونصبوه للامر ، واجلبوا به على تونس اثر واقعة رعيس . وبرزت اليهم العساكر فانهزموا كما ذكرناه ، ولحق بتلمسان ، وجاء هذا الوفد على اثره فنصبه السلطان ابو تاشفين لهم ، واستعمل على حجابته محمد بن يحيى بن القالون . وبعث معهم العساكر لنظر موسى بن علي الكردي ، وزحفوا الى افريقية . وخرج السلطان أبو بكر من تونس لمدافعتهم ذا القعدة من سنة اربع وعشرين ، وانتهى الى قسطنطينة وعاجلوه قبل استكمال التعبية فنزلوا بساحتها . واقام موسى بن علي على منازلتها بعساكر بني عبد الواد . وتقدم ابراهيم ابن الشهيد وحمزة بن عمر الى تونس فدخلها في رجب سنة خمس وعشرين واستمكن منها ، وعقد على باجة لمحمد بن داود من مشيخة الموحدين . وثار عليه بعض ليالي رمضان بعض بطانة السلطان كانوا بالبلد في غيابات الاختفاء ، وكان منهم يوسف بن عامر بن عثمان ، وهو ابن اخي عبد الحق بن عثمان من اعياص بني مرين ، وفيهم القائد بلاط من وجوه الترك المرتزقة بالحضرة ، وابن جسار نقيب الشرفاء

فاعتدُّوا واجتمعوا من جوف الليل ، وهتفوا بدعوة السلطان . وطافوا بالقَصَبَة فامتنعت عليهم فعمدوا الى دار كشلي من الترك المرتزقة ، وكان بطانة لابن القالون فقاتلوها وامتنعت عليهم . ثم أعجلهم الصباح عن مرامهم وتتبعوا بالقتل ، وفرغ من شأنهم وكان موسى بن علي ومن معه من العساكر لما تخلّفوا عن ابن الشهيد لحصار قسطنطينة اقام عليها اياماً . ثم اقلع عنها لخمس عشرة ليلة من منازلته ، ورجع الى صاحبه بتلمسان . وخرج السلطان من قسطنطينة ، فاستكمل الحشد والتعبية ، ونهض الى تونس فاجفل منها ابن الشهيد وابن القالون ، ودخلها السلطان في شوال سنة خمس وعشرين واستولى على دار ملكه ، واقام بها الى ان كان من أمره ما نذكره .

الخبر عن حصار بجاية وبناء تيمرزدكت وانهزام عساكر السلطان عليها

كان ابو تاشفين منذ خلا له الجو ، وتمكنت في الامر منه القدم يلحُّ على بجاية بترديد البعوث ومطاولة الحصار ، والسلطان ابو بكر يدفع لحمايتها من رجالات دولته وعظماء وزرائه الأول فالأول من اهل الكفاية والاضطلاع بما يدفع اليه من ذلك . وسرب اليهم المدد من الاموال والاسلحة والجنود وتعهد اليهم بالصبر والثبات في المواطن ونظره من وراء ذلك . وكان ابو

تاشفين كلما أحسّ من السلطان أبي بكر بنهوض الى المدافعة عنها ، او عزم على غزو كتائبه المجمرة عليها رماه بشاغل يوهن عن عزمه ويمسك عنان بطشه . وكانت فتنة حمزة بن عمر من أدهى الشواغل في ذلك بما كان يجنب العرب عن الطاعة ، ويجمع الاحزاب للاجلاب على الحضرة ، وينصب الاعياص يُطْمِعُهم فيما ليس لهم من نيل الخلافة . وكان ذلك ديدناً متّصلاً ازمان تلك المدة .

ولما سرح ابو تاشفين العساكر سنة خمس وعشرين مع ابراهيم ابن الشهيد ، وحمزة بن عمر وأوليائهم من أهل افريقيه ، وعقد عليها لموسى بن علي من رجالاته ، فنازل قسطنطينة ثم اقلع عنها وعاود حصارها سنة ثمان وعشرين . وشن الغارة في نواحيها ، واكتسح الاموال ورجع الى وادي بجاية فاختط مدينة بتيكلات على مرحلة منها ، وعلى قارعة الطّريق الشارع من الغرب الى الشرق ، وبما كانت بجاية زائغة عنه الى البحر ، فاختطوا تلك المدينة وشيّدوها وجمعوا الأيدي عليها ، وقسموها مسافات على جيوشهم ، فاستتمت لأربعين يوماً وسمُّوها تيمرزدكت باسم حصنهم الأقدم بالجبل قبالة وجدة ، حيث امتنع يُغْمُراسن على السعيد ونازله وهلك عليه كما ذكرناه في اخباره . وشحنوا هذه المدينة بالاقوات والمدد ، وعمروها بالمقاتلة من الرجل والفرسان والقبائل ، واخذت بمخنق البلد .

وفاق السلطان بمكانها فاوعز الى قواد عساكره واصحاب عمالاته من مواليه وصنائعه ان ينفروا بعساكرهم الى صاحب الثغر محمد بن سيّد الناس، ويزحفوا معه الى هذا البلد المخروب، ويستميتوا دون تخريبه فنهض ظافر الكبير من قسطنطينة، وعبدالله العاقل من هوارة، وظافر السنان من بونة: وتوافوا ببجاية سنة سبع وعشرين. وبلغ موسى بن علي خبرهم فاستنفر من وراءه من عساكر بني عبد الواد. وخرجت العساكر جميعاً من بجاية تحت لواء ابن سيّد الناس. وزحف الى العدو بمخيّمهم من تيكلات فكانت الدبرة عليه وعلى اصحابه، فقتل ظافر الكبير ورجع فلّهم الى بجاية. وداخلت ابن سيد الناس فيهم الظنّة بما كان يداخل موسى بن عيسى في الزبون كل واحد منهما لصاحبه على سلطانه، فنعهم من دخول البلد ليلتئذ واسحروا قافلين الى اعمالهم، وعقد السلطان على قسطنطينة لأبي القاسم بن عبد العزيز اياماً. ثم استقدمه الى الحضرة ليستعين به محمد بن عبد العزيز المزوار في خطة حجابته بما كان غفلاً من الادوات التي تحتاج اليها الحجابة. وعقد على حجابة ابنه الأمير أبي عبدالله بقسطنطينة لمولاه ظافر السنان الى ان كان من تحويل بنائه ما نذكره.

الخبر عن مهلك الحاجب المزوار وولاية ابن سيد الناس مكانه ومقتل ابن القالون

هذا الرجل محمد بن القالون المعروف بالمزوار ، لا ادري من أوليته اكثر من انه كردي من الاكراد الذين وفد رؤساؤهم على ملوك المغرب ، أيام اجلاهم الططر عن اوطانهم بشهرزور عند تغلبهم على بغداد سنة ست وخمسين وستماية : فنهم من اقام بتونس ومنهم من تقدم الى المغرب ، فنزلوا على المرتضى بمراكش فاحسن جوارهم . وصار قوم منهم الى بني مرين وآخرون الى بني عبد الواد حسبما نذكر في اخبارهم .

ومن المقيمين بالحضرة كان سلف ابن عبد العزيز هذا الى ان نشأ هو في دولة الأمير ابي زكرياء الأوسط صاحب الثغور الغربية ، وتحت كنف من اصطناعه . واختلط بابنائه وقدم في جملة ابنه السلطان أبي بكر الى تونس مقدماً في بطانته ورئيساً على الحاشية المسمين بالدخلة ، وكان يعرف لذلك بالمزوار . وكان شهماً وقوراً متديناً ، وله في الدولة حظٌ من الظهور ، وهو الذي تولّى كِبَر السعاية في الحاجب ابن القالون ، حتى ارتاب بمكانه . وفر الى ابن أبي عمران سنة احدى وعشرين كما قدمناه . وولاه السلطان الحجابة مكانه فقام بها مستعيناً بالكاتب أبي القاسم بن عبد العزيز لخلوّه هو من الأدوات . وانما كان شجاعاً بهمة .

ولم يزل علـى ذلك الى ان هلـك في شعبان سنة سبـع وعشرين ، واراد السلطان على الحجـابة محمد بن خلدون جـدنا الأقرب فابى ، ورغب في الاقـالة فاجحف ، جنوحاً لما كان بسبيله منذ سنين من الصاغية الى الدين ، والرغبة في السكون ، والفرار من الرتب . واشار على السلطان بصاحب الثغر محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس لتقديمـه سلفه مع سلف السلطان ، وكثرة تابعه وحاشيته وقوة شكيمته في الاضطلاع بما يدفع اليه . اخبرني بهذا الخبر أبي رحمه الله ، وصاحبنا محمد بن منصور ابن مزني ، قال لي : حضرت لاستدعـاء جدكم الى معسكر السلطان بباجة يوم مهلك المزوار ، وادخله السلطان الى رواقه ، وغاب ملياً ثم خرج وقد استفاض بين البطانـة والحاشية انه دعي الى الخطة فاستنكرها . واقام السلطان يومئـذ في خطة الحجـابة الكاتب ابا القاسم بن عبـد العزيز يقـيم الرسم . واستقـدم خالصته محمد ابن حاجب ابيه أبي الحسين بن سيد الناس ، فقدم في محرم فاتح ثمان وعشرين ، وولاه حجابته فاضطلع بها ، وجدد له العقد على بجاية وحجابة ابنه بها ، فدفع اليها للنيابة عنـه في الحجابة صنيعته محمد بن فرحون ، ومعه كاتبـه ابو القاسم بن المريد . وجرى الحال على ذلك ببجاية ، وعساكر زناتـة تجوس خلالها ومعاقلهم تأخذ بخنقها . وقدم القالون دوين مقـدم ابن سيد الناس بشفاعة من نزيله علي بن احمد سيد الدواودة ، وطمع

في عوده الى الخطة

وكان من خبره انه لما تخلّف عن السلطان بتونس في خدمة ابن أبي عِمران اراد ركوب السفين الى الاندلس ، فأعجلهم السلطان عن ذلك ، وخرج مع ابن ابي عمران فاجاب معه على الحضرة مراراً ، ولحق بتلمسان . ثم جاء مع ابن الشهيد وفعل الافاعيل ، ثم انحلَّ أمر ابن الشهيد ، ولحق هو بالدواودة من رياح . ونزل على علي بن أحمد رئيسهم لذلك العهد فاجاره وانزله بطولقة من بلاد الزاب . وخاطب السلطان في شأنه واقتضى له الامان حتى أُسعِف ووفد على الحضرة مع اخيه موسى بن أحمد ، وفي نفس القالون طمع في الخطة . وسبقه ابن سيد الناس الى السلطان فاستقل بها . وجاء القالون من بعد فاوصله السلطان الى نفسه واعتذر اليه ووعده ، وعقد له على قفصة فسار اليها وصحب موالي السلطان من المعلوجي بشير وفارح ، واوعز ابن سيد الناس الى مشيخة قفصة ان يتقبّضوا على حاميته ليتمكن الموالي منه . فلما نزل بساحة البلد دخل كشلي من جند الترك المرتزقة كان في جملته منذ ايام حجابته وكان يستظهر بمكانه . فلما دخل الى البلد قتل في سككها فكانت لمقتله هيعة تسامع الناس لغطها من خارج البلد . وبرز القالون من فسطاطه وقد جث الرغب فتقدم اليه الموالي الذين جاءوا معه ، وتناولوه طعناً بالخناجر الى ان هلك ، والله وارث الارض ومن عليها

الخبر عن ولاية الفضل على بونه

كان السلطان قد عقد على بونة منذ اول دولته لمولاه مسرور المعلوجي فقام واضطلع بولايتها ، وكان من الغلاظة ومراس الحروب بمكان . وكان لذلك غشوماً جباراً . وخرج الى ولهاصة سنة[١] فاضطهدهم ، وذهبوا الى مدافعته عن اموالهم فحاربهم . وبلغ خبر مهلكه الى السلطان فعقد على بونة لابنه أبي العباس الفضل ، وبعثه اليها . وولّى على حجابته وقيادة عسكره ظافراً السنّان من مواليه المعلوجي[٢] فقام بما دفع اليه من ذلك احسن قيام الى ان كان من امرهم ما نذكره .

الخبر عن واقعة الرياس وما كان قبلها من مهلك الأمير أبي فارس أخي السلطان

كان السلطان أبو بكر لما قدم الى تونس قدم معه اخوته الثلاثة محمد وعبد العزيز وعبد الرحمن ، وهلك عبد الرحمن منهم ، وبقي الاخران ، وكانا في ظلٍّ ظليل من النعمة ، وحظ كبير من المساهمة في الجاه . وكان في نفس الأمير أبي فارس تشوّق

(١) كذا بياض بالأصل في جميع النسخ ، ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على هذه السنة .
(٢) كذا ، وفي ب : المعلوجين .

الى نيل المرتبة وتربص بالدولة . وكان عبد الحق بن عثمان بن محمد بن عبد الحق من فحول بني مرين واعياص ملكهم قدم على الحضرة نازعاً اليها من الاندلس ، فنزل على ابن عمر ببجاية قبيل مهلكه سنة ثمان عشرة . ثم لحق بالسلطان فلقّاه مبرّة ورحباً ، ووفر حظه وحظّ حاشيته من الجرايات والاقطاع . وجعل له ان يستركب ويستلحق ، وكان يستظهر به في مواقف حروبه ، ويتجمل في المشاهد بمكانه من سريره بما كان سيّداً في قومه . وكان قد انعقدت له بيعة على اهل وطنه ، وكانت فيه غلظة وانفة واباء . وغدا في بعض ايامه على الحاجب ابن سيد الناس فتلقاه الاذن بالغدر فذهب مغاضباً ، ومرّ بدار الأمير أبي فارس فحمله على ذات صدره من الخروج والثورة ، وخرجا من يومها في ربيع سنة تسع وعشرين ، ومروا ببعض احياء العرب فاعترضها أمير الحي فعرض عليهما النزول : فأما عبد الحق فأبى وذهب لوجهه الى ان لحق بتلمسان ، وأما الامير ابو فارس فاجاب ونزل ، وطيّر بالخبر الى السلطان فسرح لوقته محمد بن الحكيم من صنائعه وقواد دولته في طائفة من العسكر والنصارى ، وصبحوه في الحي واحاطوا ببيت نزله فامتنع من الالقاء باليد ، ودافع عن نفسه مستميتاً فقتلوه قعصاً [1] بالرماح ، وجاءوا بشلوه الى الحضرة فدفن بها .

(١) قعصه قعصاً وأقعصه: قتله مكانه، أجهز عليه.

ونزل عبد الحق بن عثمان على أبي تاشفين خير نزل ، ورغبه فيما كان بسبيله من مطالبة الدولة الحفصية وتدويخ ممالكها ، ووفد على اثره حمزة بن عمر ورجالات سُلَيْم صريخاً على عادتهم. فاجاب ابو تاشفين صريخهم ونصب لهم محمد بن أبي عمران وكان من خبره انه تركه السلطان اللحياني عاملاً على طرابلس . فلما انهزم ابو ضربة وانحلّ امره استقدمه العرب واجلبوا به على الحضرة سنة احدى وعشرين فملكها ستة اشهر . ثم اجفل عنها عند رجوع السلطان اليها ، ولحق بطرابلس الى ان انتقض عليه اهلها سنة اربع وعشرين ، وثاروا به واخرجوه فلحق بالعرب واجلبوا به على السلطان مراراً ينهزمون عنه في كلها .

ثم لحق بتلمسان واستقر بها عند أبي تاشفين في خير جواره كرامة وجراية ، الى ان وصل هذا الوفد اليه سنة تسع وعشرين ، فنصبه للامر بافريقية . وأمدّهم بالعساكر من زناتة ، عقد عليهم ليحيى بن موسى من بطانته وصنائع ابيه . ورجع معهم عبدالحق ابن عثمان بمن في جملته من بنيه وعشيرته ومواليه وحاشيته . وكانوا احلاس حرب وفتيان كريهة ، فنهضوا جميعاً الى تونس فزحف السلطان للقائهم ، وتراءى الجمعان بالرّياس من نواحي بلاد هوارة سنة سبع وعشرين فدارت الحرب واختل مصافُّ السلطان ، وفلّت جموعه . واحيط به فافلت بعد عصب الريق ، واصابته في حومة الحرب جراحة وهن لها ، وقتل كثير من بطانته

وحاشيته ، وكان من اشهرهم محمد المديوني . وانتهب المعسكر وتقبّض على احمد وعمر ابني السلطان فاحتملا الى تلمسان ، حتى اطلقهما ابو تاشفين بعد ذلك في مراسلة وقعت بينه وبين السلطان فاتحه فيها ابو تاشفين ، وجنح الى السلم واطلق الابنين . ولم يتم شأن الصلح من بعد ذلك . وتقدم ابن أبي عمران بعد الواقعة الى تونس فدخلها في صفر سنة ثلاثين . واستبد عليه يحيى بن موسى قائد بني عبد الواد ، وحجر عليه التصرف في شيء من امره ، ثم عاد يحيى بن موسى الى سلطانه . ونهض السلطان ابو بكر من قسطنطينة الى تونس بعد ان استكمل الحشد والتعبية ، فاجفل ابن ابي عمران عنها ، ودخل اليها السلطان في رجب من سنته الى ان كان ما نذكره .

الخبر عن مراسلة ملك المغرب في الاستجاشة على بني عبد الواد وما تبع ذلك من المصاهرة

كان السلطان ابو بكر لما خلص من واقعة الرياس نجا الى بونة ، وركب منها البحر الى بجاية ، وقد ضاق ذرعه بالحاح عبد الواد على ممالكه وتجهيز الكتائب على ثغره وترديد البعوث الى وطنه ، فاعمل نظره في الوفادة على ملك المغرب السلطان أبي سعيد ليذكره ما بين سلفه وسلفهم من السابقة ، مع ما لهم عند بني عبد الواد من الأوتار والإحن ، ليبعث بذلك دواعيهم

على مطالبة بني عبد الواد فياخذ بحجزتهم عنه . ثم عيَّن للوفادة عليه ابنه الامير ابا زكرياء ، وبعث معه أبا محمد عبد الله بن تافراكين من مشيخة الموحدين لساناً لخطابه ونجياً لشوراه . وركب البحر من بجاية فنزلوا بمرسى غساسة، واهتز صاحب المغرب لقدومه وأكرم وفادته واستبلغ في القرى والاجارة، واجاب دعاءهم الى محاربة عدوِّهم وعدوِّه على شريطة اجتماع اليد عليها وموافاة السلطان أبي سعيد والسلطان أبي يحيى بعساكرهما تلمسان لموعد ضربوه لذلك .

وكان السلطان ابو سعيد قد بعث سنة احدى وعشرين يحيى الزنداجي[1] قائد الاسطول بسبتة الى مولانا السلطان أبي بكر في الاصهار على احدى كرائمه ، وشغل عن ذلك بما وقع من شأن ابن أبي عِمْران . فلما وفد عليه ابن السلطان واولياؤه اعاد الحديث في ذلك ، وعين للنيابة عنه في الخطبة من السلطان ابراهيم بن أبي حاتم العزفي ، وصرفه مع الوفد فوافوا السلطان بتونس اخر سنة ثلاثين ، وقد طرد عدوه وشفا نفسه فجاءوه بامنيته من حركة صاحب المغرب على تلمسان . وخطب منه ابراهيم للأمير أبي الحسن ابن السلطان أبي سعيد ، فعقد على ابنته فاطمة شقيقة الأمير أبي زكرياء السفير اليهم ، وزفّها اليه في اساطيله سنة احدى وثلاثين . وتقدّم لزفافها من مشيخة الموحدين ابو القاسم بن عتو ، ومحمد بن سليمان الناسك ، وقد

(١) كذا، وفي ب: الرنداحي .

مر ذكره فنزلت على محل وثير من الغبطة والعز وكان الشأن في مهرها وزفافها ومشاهد اعراسها وولائمها وجهازها كله من المفاخر الدولتين ، ولم يزل مذكوراً على الايام

الخبر عن حركة السلطان الى المغرب وفرار بني عبد الواد وتخريب تامزدكت

كان مهلك السلطان أبي سعيد على تفيئة ما قدمناه من الاخبار آخر سنة احدى وثلاثين ، وولي السلطان ابو الحسن من بعده فبعث الى ابن تاشفين يخاطبه في الغض عن عنان عيثه في بلاد الموحدين وطغيانه عليها ، فلج واستكبر واساء الرد ، فنهد اليه في سبيل الصريخ لهم سنة اثنتين وثلاثين وطوى البلاد طياً الى تلمسان ، وافرجت عساكرهم عن بجاية الى سلطانهم . وتقدم السلطان عن تلمسان لمشارفة احوال بجاية والأخذ بحجرة العدو المحاصر لها . وبعث عسكراً من قومه مدداً لها ، عقد عليهم لمحمد السطوي ، واركبهم اساطيله من سواحل وهران فدخلوها وقوبلوا بما يناسبهم من الكرامة والجراية . واستنهض السلطان ابو الحسن السلطان ابا بكر لحصار تلمسان معه كما كان الشرط بين أبيه وبين ابنه الامير أبي زكرياء ، فشرع السلطان في جهاز حركته وازاحة علله . واقام السلطان ابو الحسن بتاسالة في انتظاره شهراً حتى انصرم فصل الشتاء .

وبلغه بمعسكره من تاسالة ان اخاه السلطان أبا علي صاحب سجلماسة انتقض وخرج الى درعة، فقتل عامله بها بعد أن كان داخله وعقد له بعد ابيه على المهادنة والتجافي عنه بمكانه من سجلماسة. فلما بلغه هذا الخبر كر راجعاً الى المغرب لاصلاح شأنه. وكان السلطان ابو بكر قد خرج من تونس واحتفل في الحشد والتعبية فانتهى الى بجاية وبعث مقدماته الى ثغور بني عبد الواد المحيطة ببجاية فهزموا كتائبها. ثم زحف بجملته الى تيمرزدكت، وفرت عنها الكتائب المجمرة بها فاناخ عليها حتى خربها وانتهب اموالها واسلحتها. ونسف اثارها وقفل عنها الى بلد المسيلة اختها في الغي، وموطن اولاد سبّاع ابن يحيى من الدواودة، كانت مشيختهم سليمان ويحيى ابنا علي بن سبّاع وعثمان بن سباع عمهم وابنه سعيد، قد تمسكوا بطاعة أبي تاشفين وحملوا عليها قومهم، ونهجوا للعساكر السبيل الى وطىء بلاد الموحدين والعيث فيها ومجاذبة حبلها.

واقطعهم ابو تاشفين بلد المسيلة وجبل متنان ووانوغة وجبل عياض فأصاروها من اعمالها، فلما شرد السلطان عساكرهم عن بجاية وهدم ثغرهم عليها واسترجع اعمال بجاية اليها سار في جموعه الى هذا الوطن ليسترجع اعماله ويجدد بها دعوته. وزاد في اغرائه بذلك علي بن احمد كبير اولاد محمد أقتال أولاد سبّاع هؤلاء ونظرائهم وأهل اوتارهم ودخولهم، فارتحل غازياً الى المسيلة حتى

المسيلة حتى نزلها ، واصطلم نعمها وخرّب اسوارها ، وبلغه بمكانه منها شأن عبد الواحد ابن السلطان اللحياني واجلابه على تونس ، وكان من خبره انه قدم من المشرق بعد مهلك ابيه السلطان أبي يحيى زكرياء سنة تسع وعشرين ، فنزل على دباب وبايع له عبد الملك بن مكي رئيس المشيخة بقابس ، وتسامع به الناس وافريقيّة شاغرة من الحامية والعساكر لنهوضهم مع السلطان ، فاغتنم حمزة بن عمر الفرصة ، واستقدمه فبايع له ورحل به الى الحضرة فنزل بساحتها ، ودخل عبد الواحد بن اللّحياني وحاجبه ابن مكي الى البلد فاقاموا بها ريثما بلغ الخبر الى السلطان ، فقفل الى الحضرة وبعث في مقدمته محمد البطوي من بطانته في عسكر اختارهم لذلك ، فاجفل ابن اللحياني وجموعه من تونس لخمس عشرة ليلة من نزولهم ، ودخل البطوي اليها وجاء السلطان على اثره أيام عيد الفطر سنة اثنتين وثلاثين

الخبر عن نكبة الحاجب محمد بن سيد الناس وولاية ابن عبد العزيز وابن الحكيم من بعده

قد قدمنا أولية هذا الرجل ، وان اباه ابا الحسين كان حاجباً للأمير أبي زكرياء ببجاية . ولما هلك سنة تسعين وستماية خلف ابنه محمد هذا في كفالة السلطان ومرعى نعمته ، فاشتمل قصرهم عليه واواه الى حجره وارضعه مع الكثير من بنيه ، ونشأ

في كنفه . وكان الحجاب للدولة من بعد ابيه مثل ابن أبي جبى والرخامي صنائع لابيه فكانوا يعرفون حقه ويؤثرونه في التجلة على انفسهم . ولم يدرك في سن الرجولة والسعي في المجد إلا أيام ابن عمر اخرهم ، فكان له منه مكان . حتى اذا ارتحل السلطان أبو يحيى الى قسطنطينة لطلب تونس ، وجهز له ابن عمر الالات والعساكر ، واقام له الحجاب والوزراء والقواد كان فيمن سرح معه محمد بن سيد الناس قائداً على عسكر من عساكره . وكان ظئراً للسلطان فكانت له عنده اثرة واختصاص ، وعقد له من بعد مهلك ابن عمر على بجاية لما عزل عنها القالون كما قدمناه ، فاستبد بها على السلطان وحماها دون عساكر زناتة ، ودفع في صدورهم عنها وكان له في ذلك كله مقامات مذكورة

وكانت بينه وبين قائد زناتة موسى بن علي مداخلة في زبون كل واحد منهما بمكان صاحبه على سلطانه وفطن لامرهما . فاما ابو تاشفين فنكب موسى بن علي كما نذكره في اخباره ، واما السلطان ابو بكر فاغضى لابن سيد الناس عنها . ثم استدعاه وقلده حجابته سنة سبع وعشرين كما قدمناه ، واستخلف على مكانه ببجاية محمد بن فرحون واحمد بن المزيد للقيام بما كان يتولاه من مدافعة العدو وكفالة الامير أبي زكرياء ابن السلطان . وقدم هو على السلطان واسكنه بقصور تملكه ، وفوض اليه امور سلطانه تفويض الاستقلال فجرى في طلق الاستبداد عليه وارخى

له السلطان حبل الامهال، واعتد عليه فلتات الدالة مع ما كانت الظنون ترجم فيه بالمداهنة في شأن العدو والزبون على مولاه باستغلاظهم. وامهله السلطان لمكانه من حماية الثغر ببجاية والاستقلال به دونه، حتى اذا تجلّت غيابتهم واطل ابو الحسن عليهم من مرقبه، ونهض السلطان ابو بكر الى بجاية وخرب تيمرزدكت، فاغراه البطانة حينئذ بالحاجب محمد بن سيد الناس.

وتنبه له السلطان فاحفظه له استبداده، وتقبّض عليه مرجعه من هذه الحركة في ربيع سنة ثلاث وثلاثين واعتقله. ثم امتحنه بانواع العذاب لاستخراج المال منه فلم ينبس بقطرة، فما زال يستغيث ويتوسّل بسوابقه من الرضاع والمربى، وسوابق ابيه عند سلفه حتى لذعه العذاب فافحش ونال من السلطان واقذع، فقتل شدخاً بالعصي، وجر شلوه فاخرق خارج الحضرة وعفا رسمه كان لم يكن، والى الله عاقبة الامور.

ولما تقبّض السلطان على ابن سيد الناس ومحا اثر استبداده قلّد حجابته الكاتب ابا القاسم بن عبد العزيز، وقد كان قدم من الحمّة عند مبايعة ابن مكي لعبد الواحد بن اللحياني فلحق بالسلطان في طريقه الى تيمرزدكت فلم يزل معه الى ان دخل حضرته، وتقبّض على ابن سيد الناس فولّاه الحجابة وكان مضعّفاً لا يقوم بالحرب، فعقد السلطان على الحرب والتدبير لصنيعته وكبير بطانته يومئذ محمد بن الحكيم وفوّض له فيما وراء الحضرة، وهو محمد

ابن عليّ محمد ابن حمزة بن ابراهيم احمد اللخمي ونسبه في بني العزفي الرؤساء بسبتة . وجده أحمد هو ابو العباس المذكور بالعلم والدين والد أبي القاسم المستقل برياسة سبتة بعد الموحدين، وكان من خبر اوليته فيما حدثني به محمد بن يحيى بن أبي طالب العزفي آخر رؤساء العزفيين بسبتة والمنقضي امرهم بها بانقضاء رياسته. وحدثني لها ايضاً حسين ابن عمه عبد الرحمن بن أبي طالب، وحدثني بها ايضاً الثقة عن ابراهيم ابن عمها أبي حاتم قالوا جميعاً : ان ابا القاسم العزفي كان له اخ يسمى ابراهيم، وكان مسرفاً على نفسه واصاب دماً في سبتة، وحلف اخوه ابوالقاسم ليقتدنّ منه، ففرّ ولحق بديار المشرق، هذا آخر خبرهم . وان محمد هذا من بنيه .

وبقية الخبر عن اهل هذا البيت من سواهم ان ابراهيم انجب محمداً وانجب محمد حمزة، ثم انجب حمزة علياً فكلف بالقراءة واستظهر علم الطبّ واستقرّ في ايالة السلطان أبي زكرياء بالثغور الغربية. واصاب السلطان وجع في بعض أزمانه واعيى دواؤه فجمع له الاطباء وكان فيهم علي هذا فحدس على المرض واحسن المداواة، فوقع من السلطان احسن المواقع واستخلصه لنفسه وخلطه بخاصته واهل خلوته، وصار له من الدولة مكان لا يجاريه احد فيه. وكان يدعى في الدولة بالحكيم، وبه عرف ابنه من بعده واصهر الى احدى بيوت قسطنطينة فزوجوه وخلط اهله بحرم السلطان، وولد

له محمد ابنه بقصره، ورضع مع الأمير أبي بكر ابنه ونشأ في حجر الدولة وكفالتها وعلى احسن الوجوه من ترتيبها. ولما بلغ أشده صرف اليه رئيس الدولة يعقوب بن غمر وجه إقباله واختصاصه، فكان له منه مكان اكسبه ترشيحاً للرياسة فيما بعد من بين خواص السلطان وخلصائه.

لما نهض السلطان ابو يحيى الى افريقية قلّده قيادة بعض العساكر، ثم عقد له بعد مهلك ابن غمر على عمل باجة حين رقى ابن سيد الناس عنها الى بجاية. وكان عمل باجة من اعظم الولايات في الدولة فاضطلع به. ثم لما امر السلطان بطانته في نكبة ابن سيّد الناس دفعه لذلك، فولي القبض عليه وكمن له في عصبة من البطانة في بعض الحجر من رياض رأس الطابية. واستدعى ابن سيد الناس الى السلطان ويمر بمكانهم، فلما انتهى اليهم توثبوا به وشدوه كتافاً وتلّوه الى محبسه بالبرج المعدّ لقشاف [1] مثله بالقصبة. وتولى ابن الحكيم من امتحانه وعذابه ما ذكرناه الى ان هلك، وعقد له السلطان مكانه على الحرب والتدبير من خططه، وفوّض اليه فيما وراء الحضرة كما قلناه. وجعل تنفيذ الاموال والكتاب على الاوامر لابن عبد العزيز، فكان عدله في حمل الدولة، إلّا ان ابن الحكيم كان أسفّ فيه لما كان اليه من التدبير في الحرب والرئاسة على الكتابة، لرياسة السيف على القلم فاضطلع برياسته واحسن الغناء

(١) كذا، ولم نجد لها معنى في كتب اللغة. وفي ب: لعقاب وهو الأصح.

والولاية ، الى ان كان من خبره ما نذكر .

الخبر عن فتح قفصة وولاية الأمير أبي العبّاس عليها

كان اهل الجريد منذ تقلّص عنهم ظل الدولة عند انقسام الملك بين الثغور الغربية والحضرة وما اليها ، وصار امرهم الى الشورى بين المشيخة الا في الاحايين يؤملون الاستبداد كما كانوا عليه من قبل الموحدين ، فقد جاء عبد المؤمن الى افريقية وبنو الرند على قفصة وقسطيلية ، وابن واطاس على توزر وابن مطروح على طرابلس فاملوا مثلها ، وشغل مولانا السلطان أبا بكر عنهم بعد استقلاله بالامر وانفراده بالدعوة الحفصية شان الفتنة مع ال يغمراسن ابن زيّان واجلاب عساكرهم مع حمزة بن عمر على اوطانه . حتى اذا اخذ السلطان ابو الحسن بحجرتهم واطلّ عليهم من مراقبه فعادوا الى اوكارهم بعد ان اسفوا ، وتنفس مخنق الثغور الغربية من حصارهم ، وزال عن كاهل الدولة إصر معاناتهم . وسكن اضطراب الخوارج على الدولة وخفتت اصوات المرجفين في ممالكها ، وصرف السلطان نظره في أعطاف ملكه ومحو الشقاق من سائر اعماله ، وسمت همته الى تدويخ القاصية من بلاد الجريد واستنقاذ اهلها من أيدي الذئاب العاوية والكلاب لعادية زعماء امصارها واعراب فلاتها ، فنهض الى قفصة

سنة خمس وثلاثين . وقد كان استبد بشوراها يحيى بن محمد بن علي بن عبد الجليل بن العابد الشريدي من بيوتاتها ، فنازلها أياماً والعساكر تلح عليها بانواع القتال ، ونصب عليها المجانيق فامتنعوا . ثم جمع الأيدي حتى قطع نخيلهم واقلاع شجرائهم[1] فنادوا بالامان فأمنهم . وخرج اليه ابن عبد الجليل في ربيع الآخر من سنته فاشخصه الى الحضرة وانزله بها ورجالات من قومه بني العابد . وفرّ سائرهم الى قابس فنزل في جوار ابن مكي ودخل اهل البلد في حكمه ، وتفيؤا بعد أن كانوا ضاحين من الملك كله فاحسن التجاوز عنهم ، وبسط المعدلة فيهم . واحسن امل ذوي الحاجات منهم بالاسهام والاقطاع وتجديد ما بايديهم من المكتوبات السلطانية . ثم آثرهم بسكنى ولده المخصوص بعدئذ بعهده الأمير أبي العباس ، وانزله بين ظهرانهم واوصاه بهم ، وعقد له على قسطيلية وما اليها . وجعل معه على حجابته ابا القاسم ابن عتو من مشيخة الموحدين ، وقفل الى حضرته فدخلها في رمضان من سنته .

الخبر عن ولاية الأمير أبي فارس بن عزوز وأبي البقاء خالد على سوسة ثم اضافة المهدية اليهما

لما نكب السلطان حاجبه ابن سيد الناس ، وولّى محمد بن فرحون

(١) كذا، وفي ب: حتى قطع نخيلهم، وامتناع صرائخهم.

على حجابة ابنه الأمير أبي زكرياء ، وقارن ذلك ما نزل بيغمراسن من عدوهم وتفرغ السلطان للنظر في ملكه وتمهيد احواله ، وان يرسي قواعد اعماله بنجباء ابنائه : فعقد على سوسة والبلاد الساحلية لولديه الأميرين عزوز وخالد شريكين في الامر ، وانزلهما بسوسة ، وانزل معهما محمد بن طاهر من صنائع الدولة ومن بيوت اهل الاندلس القادمين في الجالية ، ورياسة سلفهم بمرسية معروفة في اخبار الطوائف . وكان اخوه ابو القاسم صاحب الاشغال بالحضرة فاقاما كذلك . ثم هلك محمد بن طاهر فاستقدم السلطان محمد بن فرحون من بجاية ثقة باستبداد ابنه ، وان يولي من شاء على حجابته . وانزل ابن فرحون مع هذين الاميرين لصغرهما سنة خمس وثلاثين . ثم استدعاه الأمير ابو زكرياء فرجع اليه واقام هذان الاميران بسوسة ، حتى اذا نكب السلطان قائده محمد بن الحكيم واستنزل قريبه محمد بن الركراك من المهدية كان انزله بها ابن الحكيم لما افتتحها من يد المتغلب عليها من اهل رجيس ، ويعرف بابن عبد الغفار واتخذها حصناً لنفسه ، وانزل بها قريبه هذا واشحنها بالمدد والاقوات فلم يغن عنه . ولما هلك استنزل ابن الركراك وبعث السلطان عليها ابنه الامير ابا البقاء ، وافرد الامير ابا فارس بولاية سوسة فاقاما كذلك الى ان كان من خبر مهلكهما ما نذكره .

الخبر عن وفاة الأمير أبي عبد الله صاحب قسنطينة من الأبناء وولاية بنيه من بعده

كان الامير ابو عبد الله مخصوصاً من ابيه من بين ولده بالاثرة والعناية قد صرف اليه اقباله والقى عليه محبته لما كان يتوسم في شواهده من الترشيح ، وما تحلى به من خلال الملك . وكان الناس يعرفون له حق ذلك . وذلك ان ابن عمر كان مستبداً بالثغور الغربية : بجاية وقسطنطينة ومدافعاً عنها العدو من زناتة المطالبين لها . فلما هلك ابن عمر سنة تسع عشرة كما قدمناه صرف السلطان نظره الى ثغوره ، فعقد على بجاية لابنه الامير أبي زكرياء ، وعقد على حجابته لابن القالون وسرحه معه لمدافعة العدّو ، وعقد على قسطنطينة لابنه الامير أبي عبد الله ومعه احمد بن ياسين . وخرجوا جميعاً من تونس سنة عشرين ونزل كل بعمله . وقدم ظافر الكبير من الغرب فولّاه السلطان حجابة ابنه بقسطنطينة وانزله بها الى ان هلك سنة سبع وعشرين على تيمرزدكت كما ذكرناه ، فجاء بحجابته من تونس ابو القاسم بن عبد العزيز الكاتب فاقام اربعين يوماً .

ثم رجع الى الحضرة واضاف السلطان حجابة قسطنطينة لابن سيّد الناس الى حجابة بجاية ، وبعث اليها نائباً عنه مولاه هلال النازع اليه عن موسى بن علي قائد بني عبد الواد ، فقام بحضرة

الامير أبي عبد الله الى ان كانت نكبة ابن سيّد الناس عندما بلغ الامير ابو عبد الله اشدّه وجرى في طلق استبداده ففوّض له في عمله السلطان واطلق من عنانه ، وكان يؤامره في شأنه ويناجيه فى خلوته . وانزل معه بقسطنطينة مولاه نبيلًا من المعلوجي يقيم له رسم الحجابة . ثم استدعى ظافر السنان من تونس سنة اربع وثلاثين لقيادة الاعِنّة والحرب ، فقدم لذلك وأقام سنة ونصفها . ثم رجع وقام نبيل بحجابته كما كان . ودفع ليعيش بن [1] من صنائع الدولة لقيادة العساكر وحماية الاوطان ، فقاسمه لذلك مراسم الخدمة ورتب الدولة . واستمرت حال الامير أبي عبدالله على ذلك ، والايام تزيده ظهوراً ومساعيه الملوكية تكسبه خلالاً وترشيحاً الى ان اغتبط دون غايته، واعتاقه الاجل عن مداه فهلك رضوان الله عليه آخر سبع وثلاثين ، وقام بامره من بعده كبير بنيه الامير أبو زيد عبد الرحمن ، فعقد له السلطان أبو بكر على عمل ابيه لنظر نبيل مولاهم لمكان صغره ، واستمرت حالهم على ذلك الى آخر الدولة ، وكان من امرهم ما نذكره بعد ، والله تعالى أعلم .

---

(١) كذا بياض بالأصل في جميع النسخ ، ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على هذا الاسم.

الخبر عن شأن العرب ومهلك حمزة ثم اجلاب بنيه على الحضرة وانهزامهم ومقتل معز وزيرهم وما قارن ذلك من الأحداث

لما ملك السلطان ابو الحسن تلمسان وأعمالها وقطع دابر آل زيّان ، واجتث أصلهم وجمع كلمة زناتة على طاعته ، واستتبعهم عصباً تحت لوائه . ودانت القبائل بالانقياد له وتخبت القلوب لرعبه ، ووفد عليه حمزة بن عمر يرغّبه في ممالك افريقية ، ويستحثه لها ديدنه مع أبي تاشفين من قبله فكف بالبأس من غلوائه ، وزجره عن خلافه على السلطان وشقاقه . ونهج له بالشفاعة سبيلًا الى معاودة طاعته والعمل بمرضاته ، فرجع حمزة الى السلطان عائذاً بحلمه متوسلا بشفاعة صاحبه زعيماً باذعانه ، وقطع مواد الخلاف من العرب باستقامته فتلقاه السلطان بالقبول واسعاف الرغبة والجزاء على المناصحة والمخالصة . ولم يزل حمزة بن عمر من لدن رضى مولانا السلطان عنه واقباله عليه صحيح الطاعة خالص الطويّة منادياً بمظاهرة محمد بن الحكيم قائد حربه ، وشهاب دولته على تدويخ افريقية وتمهيد اعمالها وحسم ادواء الفساد منها .

واخذ الصدقات من جميع ظواعن البدو الناجمة في اقطارها ، وجمع الطوائف المتعاصين بالثغور على القاء اليد للطاعة والكف عن اموال الجباية فكانت لهذا القائد آثار في ذلك مهّدت من الدولة وارغمت انوف المتعاطين للاستبداد في القاصية ، حتى

استقام الامر وانمحى اثر الشقاق فاستولى على المهدية سنة تسع وثلاثين وغلب عليها ابن عبد الغفّار المنتزي بها من اهل رجيس [١] واستولى على تبسة وتقبّض على صاحبها محمد بن عبدون من مشيختها ، وأودعه سجن المهدية الى ان أطلق بعد نكبته ، ونازل توزر من بعد ذلك حتى استقام ابن يملول على طاعته المضعفة. واسترهن ولده ، ونازل بسكرة غير مرة يدافعه يوسف بن منصور بن مزني بذمة عليه يدعيها من السلطان أبي بكر وسلفه .ويعطيه الجباية عن يد مع ما كان له من الاعتلاق بخدمة السلطان أبي الحسن فيتجافى عنه ابن الحكيم لذلك بعد استيفاء مغارمه

وزحف الى بلاد ريغة فافتتح قاعدتها تُقّرت ، واستولى على اموالها وذخيرتها ، وسار الى جبل اوراس فافتتح الكثير من معاقله . وعصفت ريح الدولة باهل الخلاف من كل جانب وجاست عساكر السلطان خلال كل أرض . وفي اثناء ذلك هلك حمزة ابن عمر سنة اثنتين واربعين على يد أبي عون علي بن كبير احد بطون بني كعب بطعنة طعنه بها غيلة فاشواه [٢] وقام بامره من بعده بنوه ، وكبيرهم يومئذ عمر ، وداخلتهم الظنة ان قتله باملاء الدولة فاعصوصبوا وتدامروا واستجاشوا باقتالهم اولاد مهلهل فجيّشوا معهم وزحف اليهم ابن الحكيم في عساكر السلطان

(١) كذا، وفي ب: رحيش.

(٢) في القاموس: أشواه أصاب شواه أي أطرافه ولم يصب مقتله، على أنه أراد هنا معنى قتله، وجاء بها بمعنى قتله في مواضع أخرى من هذا الكتاب. قال عمر بن الفارض: سهم شهم القوم القوم أشوى وشوى سهم إلحاظكم أحشاي شيء.

من زناتة والجند ففلّوه واستلحموا كثيراً من وجوههم . ورجع الى الحضرة فتحصّن بها واتبعوه فنزلوا بساحتها سنة ثلاثين ، وقاتلوا العساكر سبع ليال .

ثم اختلفوا ونزع طالب بن مهلهل في قومه الى طاعة السلطان فاجفلوا ، وخرج السلطان على تفيئة ذلك في جمادى من سنته في عساكره واحزابه من العرب وهوارة فأوقع بهم برقادة من ضواحي القيروان . ورجع الى حضرته آخر رمضان من سنته . وذهبوا مفلولين الى القفر ومرّوا في طريقهم بالامير أبي العبّاس بقفصة فرغبوه في الخلاف على ابيه ، وان يجلبوا به على الحضرة فاملى لهم في ذلك حتى ظفر بمعزّ بن مطاعن وزير حمزة وكان راس النفاق والغواية فتقبّض عليه وقتله ، وبعث برأسه الى الحضرة فنصب بها . ووقع ذلك من مولانا السلطان احسن المواقع . ثم وفد بعدها على الحضرة فبايع له بالعهد في آخر سنته في محفل اشهده الملأ من الخاصة والكافة بايوان ملكه . وكان يوماً مشهوداً قرئ فيه سجل العهد على الكافة ، وانفضّوا منه داعين للسلطان . وراجع بنو حمزة الطاعة من بعدها واستقاموا عليها الى ان كان من امرهم ما نذكره .

الخبر عن مهلك الحاجب ابن عبد العزيز وولاية أبي محمد بن تافراكين من بعده وما كان على تفيئة ذلك من نكبة ابن الحكيم

هذا الرجل اسمه احمد ابن اسمعيل بن عبد العزيز الغساني

وكنيته ابو القاسم، واصل سلفه من الاندلس انتقلوا الى مراكش واستخدموا بها للموحّدين، واستقر ابوه اسماعيل بتونس. ونشأ ابو القاسم بها واستكتبه الحاجب ابن الدبّاغ ولما دخل السلطان ابو البقاء خالد الى تونس، ونكب ابن الدباغ لجأ ابن عبد العزيز الى الحاجب ابن غمر، وخرج معه من تونس الى قسطنطينة واستقر ظافر الكبير هنالك فاستخدمه الى ان غرّب الى الاندلس كما قدمناه. ثم استعمله ابن غمر على الاشغال بقسطنطينة سنة ثلاث عشرة فقام بها وتعلّق بخدمة القالون بعد استبداد ابن غمر ببجاية.

فلما وصل السلطان ابو بكر الى تونس سنة ثمان عشرة استقدمه القالون واستعمله على اشغال تونس. ثم كانت سعايته في القالون مع المزوار بن عبد العزيز الى ان فرّ القالون سنة احدى وعشرين وولي الحجابة المزوار بن عبد العزيز، وكان ابو القاسم ابن عبد العزيز هذا رديفاً لضعف ادواته.

ولما هلك ابن عبد العزيز المزوار بقي ابو القاسم بن عبد العزيز يقيم الرسم الى ان قدم ابن سيد الناس من بجاية، وتقلد الحجابة كما قدمناه فغصّ بمكان ابن عبد العزيز هذا واشخصه عن الحضرة وولّاه اعمال الحامّة.[1] ثم استقدم منها عندما ظهر عبد الواحد ابن اللحياني بجهات قابس فلحق بالسلطان في حركته الى تيمرزدكت، واقام في جملة السلطان الى ان نكب ابن سيد

(١) الحامة: خاصة الرجل من أهله وولده. خيار الإبل ـ قاموس.

الناس ، وولي الحجابة بالحضرة كما ذكرنا ذلك كله من قبل ، الى ان هلك فاتح سنة اربع واربعين فعقد السلطان على حجابته لشيخ الموحدين أبي محمد عبد الله بن تافراكين

وكان بنو تافراكين هؤلاء من بيوت الموحدين في تينملل ومن ايت[١] الخمسين . وولي عبد المؤمن كبيرهم عمر بن تافراكين على فاس اول ما ملكها الموحّدون سنة اربعين وخمسماية الى ان فتحوا مراكش ، فكان عبد المؤمن يستخلفه عليها ايام مغيبه على الامارة والصلاة . ولما ثار بمراكش عبد العزيز وعيسى ابنا اومغار اخي الامام المهدي سنة احدى وخمسين كان أول ثورتهم ان اعترضوا عمر بن تافراكين عند ندائه للصلاة فقتلوه ، وفضحهم الصبح واستلحمهم العامة ، ثم كان ابنه عبد الله بن عمر من بعده من رجالات الموحدين ومشيختهم . ولما عقد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على قرطبة لاخيه السيد أبي اسحاق انزل معه عبد الله بن عمر بن تافراكين للمشورة مع جماعة من الموحدين كان منهم يوسف بن وانودين ، وكان عبد الله المقدم فيهم . وجاء ابنه عمر من بعده متقيّلا مذهبه مرموقاً تجلته . ولما ولي السيّد ابو سعيد بن عمر بن عبد المؤمن على افريقية ولاّه قابس واعمالها الى ان استنزله عنها يحيى بن غانية سنة اثنتين وتسعين

(١) كذا، ولم نجد لها معنى في كتب اللغة التي بين أيدينا. ولعلها آية بمعنى: خرج القوم بآيتهم أي بجماعتهم.

وخمسماية .

ثم كان منهم بعد ذلك عظماء في الدولة وكبراء من المشيخة آخرهم عبد العزيز بن تافراكين ، خالف الموحدين بمراكش لما نقضوا بيعة المأمون فاغتالوه في طريقه الى المسجد عند الاذان بالصبح ، بما كان محافظاً على شهود الجماعات . ورعاه له المأمون في أخيه عبدالحق وبنيه احمد ومحمد وعمر ، فلما استلحم الموحدون وعمهم الجزع ارتحل عبد الحق مورياً بالحج ، ونزل على السلطان المستنصر فانزله بمكانه من الحضرة وسرحه بعض الاحايين الى الحامّة لحسم الداء فيها وقد كان يوقع الخلاف من مشيختها فحسن غناؤه فيها وقتل اهل الخلاف وحسم العلل . وولاه السلطان ابو اسحاق على بجاية بعد مقتل محمد بن أبي هلال فاضطلع بها . ولما ولي الدعي ابن أبي عمارة سرّحه في عسكر من الموحدين لقهر العرب وكف عدوانهم فاثخن فيهم ما شاء . ولم يزل معروفاً بالرياسة مرموقاً بالتجلة الى ان هلك . وكان بنو اخيه عبد العزيز وهم : احمد ومحمد وعمر جاءوا على اثره من المغرب فنزلوا بالحضرة خير منزل ، وغذوا بلبان النعمة والجاه فيها . وكان احمد كبيرهم . وولاه السلطان ابو حفص على قفصة ثم على المهدية ثم استعفى من الولاية فأعفي .

وكان السلطان ابو عصيدة يستخلفه على الحضرة اذا خرج منها على ما كان لأوليه ، الى ان هلك لاول الماية الثامنة سنة

ثلاث . ونشأ ابناه ابو محمد عبد الله وابو العباس احمد في حجر الدولة وجوّ عنايتها . وأصهر عبد الله منهما الى أبي يعقوب بن يزدوتن شيخ الدولة في ابنته فعقد له عليها . واصهر من بعده اخوه أحمد الى أبي محمد بن يغمور في ابنته فعقد له ايضاً عليها . واستخلص ابو ضربة اللحياني كبيرهما ابا محمد عبد الله وآثره بصحابته فلم يزل معه الى ان كانت الوقيعة عليه بصوح ، وتقبض على كثير من الموحدين فكان في جملتهم . ومن عليه السلطان ابو بكر ورقّاه في رتب عنايته الى ان ولّاه الوزارة بعد الشيخ أبي محمد بن القاسم . ثم قدمه شيخاً على الموحدين بعد مهلك شيخهم أبي عمر بن عثمان سنة اثنتين وأربعين وبعثه الى ملك المغرب مع ابنه الأمير أبي زكرياء صاحب بجاية صريخاً على بني عبد الواد فجلى في خدمة ابن السلطان وعرض سفارته . وتوجه لايثار بعدها اليه ، واختص بالسفارة الى ملك المغرب سائر أيامه . وغص الحاجب ابن سيد الناس بمكانه وهمّ بمكروهه فكبح السلطان عنانه عنه ، ويقال انه أفضى اليه بذات صدره من نكبته . ولما انقسمت خطط الدولة من الحرب والتدبير ، ومخالصة السلطان وتنفيذ أوامره بين ابن عبد العزيز الحاجب وابن الحكيم القائد ، كان له هو القدح المعلى في المشورة والتدبير ، وكانوا يرجعون اليه ويعوِّلون على رأيه ، وكان ثالث أثافيهم ومصقلة ارائهم .

ولما هلك الحاجب ابن عبد العزيز ، وكان السلطان قد أضمر نكبة ابن الحكيم ، لما كان يتعاطاه من الاستبداد ويحتجنه من اموال السلطان ، واسر الحاجب ابن عبد العزيز الى السلطان زعموا بين يدي مهلكه بالتحذير من ابن الحكيم وسوء دخلته ، وانه فاوضه ايام نزول العرب عليه بساح تونس سنة اثنتين واربعين كما قدّمناه في الادالة من السلطان ببعض الاعياص من بني أبي دبوس ، كانوا معتقلين بالحضرة ، القاها الغدر على لسانه ضجراً من قعود السلطان عن الخروج بنفسه الى العرب وسأمه مما هو فيه من الحصار فاعتدّها عليه ابن عبد العزيز حتى القاها الى السلطان عند موته ، وبرىء منها اليه فأودعها أذناً واعية وكان حتف ابن الحكيم فيها . فلما هلك وولي شيخ الموحدين ابو محمد بن تافراكين فاوضه في نكبة ابن الحكيم ، وكان يتربص به لما كان بينهما من المنافسة .

وكان ابن الحكيم غائباً عن الحضرة في تدويخ القاصية ، وقد نزل جبل اوراس واقتضى مغارمه وتوغل في أرض الزاب واستوفى جبايته من عامله يوسف بن منصور ، وتقدم الى ريغ ونازل تُغُرْت وافتتحها ، وامتلأت أيدي عساكرهم من مكاسبهم وحليهم . واتصل به خبر مهلك ابن عبد العزيز وولاية ابي محمد ابن تافراكين الحجابة فنكر ذلك لما كان يظن ان السلطان لا يعدل بها عنه . وكان يرشح لها كاتبه ابا القاسم ابن واران ،

ويرى ان ابن عبد العزيز قبله لم يتميز بها ايثاراً عليه ، فبدا له ما لم يحتسبه فظن الظنون ونمر ثم اصحب ، واغذّ السير الى الحضرة وقد وامر السلطان ابا محمد بن تافراكين في نكبته وأعدّ البطانة للقبض عليه وقدم على الحضرة منتصف ربيع من سنة أربع واربعين وجلس له السلطان جلوساً فخماً فعرض عليه هديّته من المقربات والرقيق والانعام ، حتى اذا انفضّ المجلس وشيع السلطان وزراءه وانتهى الى بابه اشار الى البطانة فاحدقوا به وتلّوه الى محبسه . وبسط عليه العذاب لاستخراج الاموال فاخرجها من مكامن احتجانها ، وحصل منها في مودع السلطان اربعماية ألف من الذهب العين ، ومثلها او ما يقاربها من الجوهر والعقار الى ان استصفى . ولما امتكّ عظمه ونفد ماله خنق بمحبسه في رجب من سنته وذهب مثلًا في الأيام . وغرب ولده مع أمه الى المشرق ، وطوّح بهم الاغتراب الى ان هلك منهم من هلك ، وراجع الحضرة علي وعبيد منهم في اخرين من اصاغرهم بعد ايام واحوال والله يحكم لا معقب لحكمه .

الخبر عن شان الجريد واستكمال فتحه وولاية ابنه أبي العباس عليه وولاية صاحب قابس أحمد بن مكي على جزيرة جربة

كان امر الجريد قد صار الى الشورى منذ شغلت الدولة بمطالبة زناتة بني عبد الواد وما نالها لذلك من الاضطراب ، واستبد

مشيخة كل بلد بامره ثم انفرد واحد منهم بالرياسة ، وكان محمد ابن يملول من مشيخة توزر هو القائم فيها والمستبد بامرها كما سنذكره . ولما فرغت الدولة الى الاستبداد وارهف السلطان حده للثوار وعفا على آثار المشيخة بقفصة ، وعهد لابنه الامير أبي العباس على بلاد قسطيلية . ونزل بقفصة فأقام بها ممهداً لامارته مردداً بعوثه الى البلاد اختباراً لما يظهرون من طاعته . وزحف حاجبه أبو القاسم ابن عتو بالعساكر الى نفطة ابتلاء لطاعة رؤسائها بني مدافع المعروفين ببني الخلف ، وكانوا اخوة اربعة استبدوا في رياستها في شغل الدولة عنهم فسامهم سوء العذاب ، ولاذوا بجدران الحصون التي ظنوا أنها مانعتهم وتبرأت منهم الرعايا فادركهم الدهش ، وسألوا النزول على حكم السلطان فجنبوا الى مصارعهم وصلبوا على جذوعهم آية للمعتبرين ، وأفلت السيف علياً صغيرهم لنزوعه الى العسكر قبل الحادثة ، فكانت له ذمة واقية من الهلكة . وانتظم الامير ابو العباس بلد نفطة في ملكته وجدد له العقد عليه أبوه . وتملك الكثير من نفزاوة .

ولما استبيحت نفطة ونفزاوة سمت همته الى ملك توزر جرثومه الشقاق وعش الخلاف والنفاق ، وخشي مقدمها محمد بن يملول مغبة حاله وذهب الى مصانعة قائد الدولة محمد بن الحكيم بذات صدره فتجافى عنه ، الى ان كان مهلكهما في سنة واحدة واضطرب امر توزر وتواثب بنوه واخوته وقتل بعضهم بعضاً .

وكان اخوه ابو بكر معتقلاً بالحضرة فاطلقه السلطان من محبسه بعد ان أخذ عليه المواثيق بالطاعة والجباية ، ومضى الى توزر فلكها وطالبه الأمير ابو العباس صاحب قفصة وبلاد قسطيلية بالانقياد الذي عاهد عليه فنازعه ما كان في نفسه من الاستبداد . وصارت توزر لذلك شجاً معترضاً في صدر امارته فخاطب أباه السلطان أبا بكر . واغراه به فنهض اليه سنة خمس وأربعين ، وانتهى الى قفصة ، وطار الخبر الى أبي بكر بن يملول رئيسها يومئذ فادركه الدهش وانفضّ من حوله الاولياء ، وجاهر بطاعة السلطان ولقائه ففر عنه كاتبه وكاتب أبيه المستولي على امره علي بن محمد التمودي المعروف الشهرة ، ولحق ببسكرة في جوار يوسف ابن مزني ، واتخذ السلطان السير الى توزر فخرج اليه ابو بكر بن يملول والقى اليه بيده وخلط نفسه بجملته .

ثم ندم على ما فرط من امره وأحسّ بالنكراء من الدولة ، ونذر بالمهلكة فلحق بالزاب ونزل على يوسف بن منصور ببسكرة فتلقّاه من الترحيب والقرى بما يحدث به الناس . ولما استولى السلطان على توزر وانتظمها في اعماله عقد عليها لابنه الأمير أبي العباس وانزله بها وامكنه من رمتها ورجع السلطان الى الحضرة ظاهراً عزيزاً وتقلّاً أيام ملكه الى ان هلك على فراشه كما نذكر . واتصلت ممالك الأمير أبي العباس في بلاد الجريد وساور ابو بكر بن يملول توزر مراراً يفلت في كلها من المهلكة

الى ان مات ببسكرة سنة سبع واربعين قبل مهلك السلطان كما نذكر . وأقام الامير أبو العباس بمحل امارته ، ولم يزل يمهد الأحوال ويستنزل الثوّار . وكان ابن مكي قد امتنع عليه بقابس ، وكان من خبره انه لما رجع عبد الملك من تونس مع عبد الواحد بن اللحياني الذي كان حاجباً له ذهب ابن اللحياني الى المغرب، واقام هو بقابس. ثم استراب بمآل امره مع السلطان حين ذهب ملك ال زيّان ، واوفد اخاه احمد بن مكي على السلطان أبي الحسن متنصِّلاً من ذنوبه متذمِّماً بشفاعة منه الى السلطان أبي بكر فشفع له واعاده السلطان الى مكان رياسته . واستقام هو على الطاعة ونكب عن سنن العصيان والفتنة .

وكان لأحمد بن مكي حظ من الخلال والأدوات ، ونفس مشغوفة بالرياسة والسروّ . وكان يقرض الشعر فيجيد ويرسل فيحسن ، وكان خط كتابه انيقاً ينحو به منحى الخط الشرقي شأن اهل الجريد فيمتع ما شاء ، فكانت لذلك كله في نفس الأمير أبي العباس صاغية اليه . وكان هو مستريباً بالمخالطة لما شاء من اثارة السالفة . ولم يزل الامير ابو العباس يفتل له في الذروة والغارب الى ان جمعها مجلس السيدة امة الواحدة[1] اخت مولانا السلطان قافلة من حجها فسح ما كان في صدره ، واحكم

(١) كذا، وفي ب: أمة الواحد.

له عقد مخالصته واصطنعه لنفسه فحل من امارته بمكان غبطة واعتزاز . وعقد له السلطان على جزيرة جربة ، واستضافها الى عمله ، وانزل عنها مخلوف بن الكماد من صنائعه كان افتتحها سنة ثمان وثمانين ، وعقد له السلطان عليها ونزلها احمد بن مكي . واستقل أخوه عبد الملك برياسة قابس واقاما على ذلك ، وجردا عزائمهما في ولاية أبي العباس صاحب اعمال الجريد فلم يزالوا كذلك الى ان كان من امر الجميع ما نذكره .

الخبر عن مهلك الوزير أبي العباس بن تافراكين

كان السلطان أبو بكر عند نكبته لقائده ابن الحكيم استعمل على حجابته شيخ الموحدين ابا محمد بن تافراكين كما ذكرناه ، وفوض اليه فيما وراء بابه ، وعقد على الوزارة لأخيه أبي العباس أحمد . وكان أبو محمد جلس بالباب لمكان الحجابة فدفع الى الحرب وقود العساكر وامارة الضاحية اخاه ابا العباس فقام بما دفع اليه من ذلك . وكان بنو سليم بعد مهلك حمزة بن عمر نقموا ما كان عليه من الاذعان ، وسموا الى الخلاف والعناد فكان من ابناء حمزة في ذلك من الاجلاب على الحضرة ما ذكرناه . وكان سحيم بن [1] من اولاد القوس بن حكيم بهمة

---

(١) كذا بياض بالأصل في جميع النسخ ، ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على أسم والده.

غوار ومارد خلاف وعناد [1] وكان السلطان قد ولى على حجابة ابنه الامير أبي العباس في أعمال الجريد أبا القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين ، وكان يناهض بني تافراكين بزعمه في الشرف، وينفس عليهم ما اتاهم الله من الرتبة والحظ ، فلما ولي ابو محمد الحجابة ملئ منه حسداً وحفيظة ، وداخل فيما زعموا سحيماً هذا الغوي في النيل من أبي العباس ابن تافراكين صاحب العساكر وشارطه على ذلك بما اداه اليه وتكاتموا امرهم . وخرج ابو العباس ابن تافراكين فاتح سنة سبع في العساكر لجباية هوارة فوفد عليه سحيم هذا وقومه وضايقوه في الطلب . ثم انتهزوا الفرصة بعض الايام واجلبوا عليه ، فانفض معسكره وكبا به فرسه فقتل وحمل شلوه الى الحضرة فدفن بها . وجاهر سحيم بالخلاف وخرج الى الرمال فلم يزل كذلك الى حين مهلك السلطان كما نذكره .

الخبر عن مهلك الأمير أبي زكريا صاحب بجاية من الأبناء، وما كان بعد ذلك من ثورة أهل بجاية بأخيه الأمير أبي حفص وولاية ابنه الأمير أبي عبد الله

كان السلطان ابو بكر لما هلك الحاجب ابن غمر عقد على بجاية لابنه الامير أبي زكرياء كبير ولده ، وانفذه إليها مع

(١) كذا، وفي ب: بينه وبينهم غدر وخلاف وعناد.

حاجبه محمد بن القالون كما ذكرناه وجعل اموره تحت نظره . ثم رجع القالون الى تونس فانزل معه ابن سيّد الناس كذلك ، فلما استبدّ بحجابة الحضرة جعل على حجابته ابا عبدالله بن فرحون . ثم لما تقبّض على ابن سيّدِ الناس وعلى ابن فرحون وقد استبدّ الأمير ابو زكرياء بامره ، وقام على نفسه فوض السلطان اليه الأمر في بجاية وبعث اليه ظافر السنان مولى ابيه الأمير أبي زكرياء الأوسط قائداً على عسكره ، والكاتب ابا اسحاق بن غلان [1] متصرفاً في حجابته فاقام ببابه مدة . ثم صرفها الى الحضرة ، وقدم لحجابته ابا العباس أحمد بن أبي زكرياء الرندي ، كان ابوه من اهل العلم وكان ينتحل مذهب الصوفية الغلاة ، ويطالع كتب عبد الحق بن سبعين . ونشأ احمد هذا ببجاية واتصل بخدمة السلطان ، وترقى في الرتب الى ان ستعمله الأمير أبو زكرياء كما قلناه . ثم هلك ، وقد انف لسلطان ابو بكر من انتزاء هؤلاء السوقة [2] على حجابة ابنه ، فانفذ لهم حضرته كبير الموحدين يومئذ صاحب السفارة أبا محمد ابن تافراكين سني اربعين وسبعماية فاقام احوال ملكه ، وعظم أبّهة سلطانه ، وجهز العساكر لسفره واخرجه الى اعماله فطاف عليها وتفقّدها ، وانتهى الى تخومها من المسيلة ومقرة . ولم يستكمل الحول حتى سخطه مشيخة من اهل بجاية لما نكروا من الابهة والحجاب حتى استغلظ عليهم باب السلطان ، وتولى كبر

(١) كذا، وفي ب: علاق، وفي نسخة أخرى؛ علان.

(٢) كذا، وفي ب: وقد أنف السلطان أبو بكر من الأمراء هؤلاء على حجابة ابنه.

ذلك القاضي ابن ابي يوسف تعنّتاً وملالاً ، واستعفى هو من ذلك فأعفي وعاد الى مكانه بالحضرة

ثم استقدم الأمير ابو زكرياء حاجبه الأول لعهد ابن سيّد الناس، وهو ابو عبد الله محمد بن فرحون ، وقد كان السلطان بعثه في غرض الرسالة الى ملك المغرب في الاسطول الذي بعثه مدداً للمسلمين عند اجازة السلطان أبي الحسن الى طريف . وكان اخوه زيد بن فرحون قائد ذلك الاسطول بما كان قائد البحر ببجاية ، فلما رجع ابو عبد الله بن فرحون من سفارته تلك أذن له في المقام عند الأمير أبي زكرياء واستعمله على حجابته إلى ان هلك فولى من بعده في تلك الخطة ابن القشاش من صنائع دولته . ثم عزله وولى عليها أبا القاسم بن علناس من طبقة الكتاب ، اتصل بدار هذا الامير وترقى في ديوانه الى ان ولاّه خطة الحجابة . ثم عزله بعلي بن محمد بن المنت الحضرمي ، كان ابوه وعمه قدما مع جالية الأندلس ، وكانا ينتحلان القراءات . وأخذ اهل بجاية عن عمّه أبي الحسن علي القراءات ، وكان طموحاً للرياسة ، واتصل بحظية كانت لمولى أبي زكرياء تسمى أم الحكم قد غلبت على هواه ، فرسخت على ابن المنت هذا خطة الحجابة ، واستعمله فيها فقام بها واصلح مونات السلطان واحوال مقامته في سفره . وجهز له العساكر وجال في نواحي اعماله .

وهلك هذا الامير في احدى سفاراته وهو على حجابته

بتاكرارت من اعمال بجاية من مرض كان أزمن به في ربيع الاول سنة سبع واربعين ، وكان ابنه الامير ابو عبد الله في حجر مولاه فارح من معلوجي ابن سيّد الناس . وكانوا اصطنعوه فالفوه قابلًا للترشيح فاقام مع ابن مولاه ينتظر امر الخليفة ، وبادر حاجبه الأول ابو القاسم بن علناس الى الحضرة وانمى الخبر الى الخليفة فعقد على بجاية لابنه الامير أبي حفص كان معه الحضرة وهو من اصاغر ولده ، وانفذه اليها مع رجاله واولي اختصاصه .

وخرج معه ابو القاسم بن علناس فوصل الى بجاية ودخلها على حين غفلة . وحمله الاوغاد من البطانة على ارهاف الحدّ واظهار السطو فخشي الناس البوادر وائتمروا . ثم كانت في بعض الأيام هيعة تالأ فيها الكافة على التوثب بالامير القادم ، فطافوا بالقصبة في سلاحهم ونادوا بامارة ابن مولاهم . ثم تسوروا جدرانها واقتحموا داره وملكوا عليه أمره واخرجوه برمّته بعد ان انتهبوا جميع موجوده ، وتسايلوا الى دار الامير أبي عبد الله محمد ابن اميرهم ومولاهم بعد ان كان معتزماً على التقويض عنهم واللحاق بالخليفة جده . واذن له في ذلك عمه الأمير القادم فبايعوه بداره من البلد . ثم نقلوه من الغد الى قصره بالقصبة ، وملّكوه امرهم . وقام بامره مولاه فارح ولقبه باسم الحجابة واستمر حالهم على ذلك . ولحق الامير

ابو حفص بالحضرة آخر جمادى الاولى من سنته لشهر من يوم ولايته ، الى ان كان من شانه بعد مهلك مولانا السلطان ما نذكره . وتدارك السلطان امر بجاية وبعث اليهم ابا عبد الله بن سليمان من كبراء الصالحين من مشيخة الموحدين يسكنهم ويؤنسهم وبعث معهم كتاب العقد عليها لحافده الامير أبي عبد الله محمد بن الامير أبي زكرياء ذهاباً مع مرضاتهم فسكنت نفوسهم وأنسوا بولاية ابن مولاهم ، وجرت الامور الى مصايرها كما نذكره .

الخبر عن مهلك مولانا السلطان أبي بكر وولاية ابنه الأمير أبي حفص

بينما الناس في غفلة من الدهر وظل ظليل من العيش وامن من الخطوب تحت سرادق من العز وذمّة واقية من العدل ، اذ ريع السرب وتكدّر الشرب وتقلصت ظلال العز والأمن ، وتعطل فناء الملك ونعي السلطان أبو بكر بتونس فجأة من جوف الليل ليلة الاربعاء ثاني رجب سنة سبع واربعين وسبعماية ، فهبّ الناس من مضاجعهم متسايلين الى القصر يستمعون نبأ النعي وأطافوا به سائر ليلتهم تراهم سكارى وما هم بسكارى . وبادر الأمير ابو حفص عمر ابن السلطان من داره إلى القصر فملكه وضبط أبوابه واستدعى الحاجب ابا محمد بن تافراكين من داره ، ودعوا المشيخة من الموحدين والموالي وطبقات الجند ، وأخذ

الحاجب عليهم البيعة للأمير أبي حفص . ثم جلس من الغداة جلوساً فخماً على الترتيب المعروف في الدولة أحكمه الحاجب أبو محمد لمعرفته بعوائدها وقوانين ترتيبها، لقنه عن أشياخه اهل الدولة من الموحدين، وغدا عليه الكافة في طبقاتهم فبايعوا له وأعطوه صفقة ايمانهم . وانفضّ المجلس وقد انعقدت بيعته واحكمت خلافته .

وكان الامير خالد بن مولانا السلطان مقيماً بالحضرة قدمها زائراً منذ أشهر وأقام متملياً من الزيارة، فلما سمع النعي فرّ من ليلته، وتقبض عليه اولاد منديل من الكعوب وردوه الى الحضرة فاعتقل بها . وقام أبو محمد بن تافراكين بخطة الحجابة كما كان وزيادة تفويض واستبداد إلا أنّ بطانة السلطان كانوا يكثرون السعاية فيه ويوغرون صدره عليه بذكر منافسات ومناقشات سابقة بين الحاجب والأمير أيام أبيه، واتصل ذلك منهم غصاً بمكانه، ونذر الحاجب بذلك منهم فأعمل الحيلة في الخلاص من صحابتهم كما نذكر بعد .

الخبر عن زحف الأمير أبي العباس ولي العهد من مكان إمارته بالجريد إلى الحضرة وما كان من مقتله ومقتل أخويه الأميرين أبي فارس عزوز وأبي البقاء خالد

كان السلطان أبو بكر قد عهد الى ابنه الأمير أبي العبّاس

صاحب اعمال الجريد كما ذكرناه سنة ثلاث واربعين ، فلما بلغه مهلك أبيه وما كان من بيعة اخيه ، نعى على اهل الحضرة ما جاءوا به من نقض عهده . ودعا العرب الى مظاهرته على امره فاجابوه ونزعوا جميعاً الى طاعته عن طاعة اخيه ، بما كان مرهفاً لحدّه في الاستبداد والضرب على أيدي اهل الدولة من العرب وسواهم . وزحف الى الحضرة ولقيه أخوه ابو فارس صاحب عمل سوسة لقيه بالقيروان فاتاه طاعته وصار في جملته وجمع السلطان ابو حفص عمر جموعه واستركب واستلحق وازاح العلل ، واخرج غرة شعبان وارتحل عن تونس ، وحاجبه ابو محمد بن تافراكين قد نذر منه بالهلكة ، واعتمل في أسباب النجاة ، حتى اذا تراءى الجمعان رجع الحاجب الى تونس في بعض الشغل وركب الليل ناجياً الى المغرب . وبلغ خبر مفرّه الى السلطان فاجفل واختلّ مصافه ، وتحيّز الى باجة فتلوم بها وتخلف عنه اهل المعسكر فلحقوا بالأمير أبي العباس ، وملك الحضرة ثامن رمضان ونزل برياض رأس الطابية ، واطلق اخاه ابا البقاء من معتقله .

ثم دخل الى قصره سبع ليال من ملكه وصبحه الأمير ابو حفص ثامنها فاقتحم عليه البلد لصاغية كانت له في قلوب الغوغاء من غشيانه أسمارهم ، وطروقه منازلهم ايام جنون شبابه وقضاء لذّاته في مرباه . وفتك باخيه الأمير ابي العبّاس . ولسرعان ما

نصب رأسه على القناة ، وداست شلوه سنابك العسكر ، واصبح آية للمعتبرين . وثارت العامة بمن كانت بالبلد من وجوه العرب ورجالاتهم فقتلوا في تلك الهيعة من كتب عليه القتل . وتلّوا كثيراً منهم الى السلطان فاعتقلهم ، وقتل ابا الهول بن حمزة بن عمر من بينهم . وتقبّض على اخوته خالد وعزوز ، وأمر بقطعهم من خلاف فقطعوا وكان فيه مهلكهم . واستوسق ملكه بالحضرة واستعمل على حجابته ابا العباس احمد بن علي بن رزين من طبقة الكتاب ، كان كاتباً للشخشي الحاجب وبعده للقائد ظافر الكبير . واتصل بالسلطان أبي بكر لأول ملكه بالحضرة فاسف علي بن عمر بولاية ابن القالون الحاجب فخاطب السلطان فيه ونكبه . ثم أطلق من محبسه ومضى الى المغرب ، ونزل على السلطان أبي سعيد فاحمد نزله . ثم رجع الى الحضرة ولم يزل مشنوءاً ايام السلطان كلها ، واستكتب الامير ابو حفص ولده محمداً وكانت له به وصلة ، فلما استوسق له الملك بعد مفرّ أبي محمد بن تافراكين كما ذكرناه ، ولّى اباه ابا العباس هذا على حجابته ، وعقد على حربه وعساكره لظافر مولى ابيه وجدّه المعروف بالسنان ، واستخلص لنجواه وسرّه مكتبه ابو عبد الله محمد بن الفضل بن نزار من طبقة الفقهاء ومن اهل البيوت النابهة بتونس ، كان له بها سلف مذكور ، واتصل بدار السلطان وارتسم بها مكتباً لولده . وقرأ عليه هذا الامير ابو

حفص فيمن قرأ عليه منهم فكانت له من اجل ذلك خصوصية به ومزيد عناية عنده ، ولما استبد بأمره كان هو مستبداً بشوراه ، وجرت الحال على ذلك الى ان كان من امره ما نذكره .

الخبر عن استيلاء السلطان أبي الحسن على افريقية ومهلك الأمير أبي حفص وانتقال الأبناء من بجاية وقسطنطينة إلى المغرب وما تخلل ذلك من الأحداث

كان السلطان ابو الحسن يحدث نفسه منذ ملك تلمسان وقبلها بملك افريقية ، ويتربّص بالسلطان أبي بكر ، ويسرّ له حسواً في ارتغاء . فلما لحق به حاجبه ابو محمد بن تافراكين بعد مهلكه رغّبه في سلطانها واستحثه للقدوم عليها ، وحرّك له الحوار فتنبهت لذلك عزائمه . ثم وصل الخبر بمهلك ولي العهد وأخويه وخبر الواقعة ، فاحفظه ذلك بما كان من رضاه بعهده ، وخطة الوفاق على ذلك بيده في سجله ، وذلك ان حاجب الامير أبي العباس وهو ابو القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين كان سفر عن السلطان لآخر أيامه الى السلطان أبي الحسن بهدية . وحمل سجل العهد فوقف عليه السلطان ابو الحسن ، وسأل منه امضاه لمولاه وكتاب ذلك بخطه في سجله فخطّه بيمينه وأحكم له عقده . فلما بلغه مهلك ولي العهد تعلّل بان النقض أتى على ما أحكمه

فأجمع غزو افريقية ومن بها فعسكر ظاهر تلمسان ، وفرّق الاعطيات وأزاح العلل. ثم رحل في صفر من سنة ثمان وأربعين يجر الدنيا بما حملت . وأوفد عليه ابناء حمزة بن عمر امراء البدو بافريقية ، ورجالات الكعوب أخاهم خالداً يستصرخه لثأر أخيه أبي الهول الهالك يوم الواقعة فأجابهم .

ونزع اليهم أيضاً اهل القاصيه بافريقية بطاعتهم فجاءوا في وفد واحد : ابن مكي صاحب قابس وابن يملول صاحب توزر وابن العابد صاحب قفصة ومولاهم ابن أبي عنان صاحب الحامة وابن الخلف صاحب نفطة ، فلقوه بوهران وأتوه بيعتهم رغبة ورهبة ، وأدوا بيعة ابن ثابت صاحب طرابلس ولم يتخلف عنهم إلا لبعد داره . ثم جاء من بعدهم وعلى أثرهم صاحب الزاب يوسف بن منصور ابن مزني ، ومعه مشيخة الموحدين الدواودة ، وكبيرهم يعقوب بن علي فلقوه ببني حسن من اعمال بجاية فأوسع الكل حباء وكرامة ، واسنى الصلاة والجوائز وعقد لكل منهم على بلده وعمله . وبعث مع اهل الجزائر الولاة للجباية لنظر مسعود بن ابراهيم اليرنياني من طبقة وزرائه ، وأغذّ السير الى بجاية ، فلما أطلّت عساكره علَيها توامر أهلها في الامتناع ثم أنابوا وخرج أميرها ابو عبد الله محمد ابن الامير أبي زكرياء فأتاه طاعته ، وصرفه الى المغرب مع اخوانه ، وأنزله ببلد ندرومة . واقطع له الكفاف من جبايتها وبعث على بجاية عماله

وخلفاءه . وسار الى قسطنطينة فخرج اليه ابناء الأمير أبي عبد الله يقدمهم كبيرهم الأمير أبو زيد فأتوه طاعتهم ، وأقبل عليهم وصرفهم الى المغرب وانزلهم بوجدة واقطعهم جبايتها ، وأنزل بقسطنطينة خلفاءه وعماله ، واطلق القرابة من مكان اعتقالهم بها وفيهم أبو عبد الله محمد أخو السلطان أبي بكر وبنوه ومحمد ابن الامير خالد واخوانه وبنوه ، وأصارهم في جملته حتى صرفهم الى المغرب من الحضرة من بعد ذلك .

ووفد عليه هنالك بنو حمزة بن عمر ومشايخ قومهم الكعوب فأخبروه باجفال المولى أبي حفص من تونس مع ظواعن أولاد مهلهل واستحثوه باعتراضهم قبل لحاقهم بالقفر ، وسرّح معهم العساكر في طلبه لنظر حمو العشري من مواليه ، وسرح عسكراً آخراً الى تونس لنظر يحيى بن سليمان من بني عسكر ، ومعه أبو العباس بن مكي وسارت العساكر لطلب الامير أبي حفص فأدركوه بأرض الحامة من جهات قابس ، وصبحوهم فدافعوا عن أنفسهم بعض الشيء . ثم انفضوا وكبا بالأمير أبي حفص جواده في بعض نافقاء الجرابيع[1] وانجلت الغيابة عنه وعن مولاه ظافر راجلين فتقبّض عليهما ، واوثقهما قائد الكتائب في قيده ، حتى اذا جُنّ الليل وتوقع ان يفلتهما العرب من اساره قبل ان يصل بهما الى مولاه فذبحهما ، وبعث برؤوسهما الى السلطان أبي الحسن فوصلا اليه

(١) كذا، وفي ب: اليرابيع. ونافقاء اليربوع: جحره.

بباجة .

وخلص الفلّ من الواقعة الى قابس فتقبّض عبد الملك بن مكي على رجالات من اهل الدولة ، كان فيهم ابو القاسم بن عتو من مشيخة الموحدين وصخر بن موسى من رجالات سدويكش وغيرهما من اعيان الدولة فبعث بهم ابن مكي الى السلطان . فأمّا ابن عتو وصخر بن موسى وعلي بن منصور فقطّعهم من خلاف ، واعتقل الباقين وسيقت العساكر الى تونس . ثم جاء السلطان على اثرهم ودخل الحضرة في الزيّ والاحتفال في جمادى الآخرة من سنته ، وخفيت الاصوات وسكنت الدهماء وانقبضت أيدي اهل الفساد . وانقرض امر الموحّدين إلاّ ذبالا في بونة فانه عقد عليها للمولى الفضل ابن مولانا أبي بكر لمكان صهره ووفادته عليه بين يدي مهلك ابيه . ثم ارتحل السلطان الى القيروان ثم الى سوسة والمهديّة وتطوّف على المعالم التي بها ، ووقف على اثار ملوك الشيعة وصنهاجة في مصانعها ومبانيها ، والتمس البركة في زيارة القبور التي تذكر للصحابة والسلف من التابعين والاولياء وقفل الى تونس ودخلها آخر شعبان من سنته .

الخبر عن ولاية الأمير أبي العباس الفضل على بونة وأولية ذلك ومصائره

كان السلطان أبو الحسن قد أصهر الى السلطان أبي بكر

قبيل مهلكه في احدى كرائه ، واوفد عليه في ذلك عريف بن يحيى كبير بني سُوَيْد من زغبة وصاحب شوراه وخالصة سره مع وفد من رجالات دولته من طبقات الفقهاء والكتاب والموالي ، كان فيهم صاحب الفتيا بمجلسه ابو عبد الله السطي وكاتب دولته أبو الفضل بن عبد الله بن أبي مدين وامير الحرم عنبر الخصي ، فاسعف السلطان وعقد له على حظيته عزونة شقة ابنه الفضل وزفها إليه بين يدي مهلكه مع اخيها الفضل ، ومعه ابو محمد عبد الواحد بن اكماز [1] من مشيخة الموحدين ، وادركهم الخبر بمهلك السلطان في طريقهم . فلما قدموا على السلطان أبي الحسن تقبّلهم بقبول حسن ورفع مجلس الفضل ، ولما استتب له ملكها اعرض له عن ذكر ذلك ، إلاّ انه رعى له ذمّة الصهر وسابقة الوعد فاقنعه بالعقد على بونه مكان عمله منذ ايام ابيه ، وانزله بها عندما رحل عنها الى تونس . واضطغن المولى الفضل من ذلك حقداً لما كان يرجوه من تجافيه له عن ملك ابائه ، ولحق وفادته وصهره واقام بمكان عمله منها يؤمل لكرّة الى ان كان من امره ما نذكره والله أعلم .

الخبر عن بيعة العرب لابن أبي دبوس وواقعتهم مع السلطان أبي الحسن بالقيروان وما قارن ذلك كله من الأحداث

كان السلطان ابو الحسن لما استوسق له ملك افريقية اسف

(١) كذا، وفي ب : أكمازير.

العرب بمنعهم من الأمصار التي ملكوها بالاقطاعات والضرب علي أيديهم في الاتاوات ، فوجموا لذلك واستكانوا لغلبته وتربّصوا الدوائر . وربما كان بعض البادية منهم يشنّ الغارات في الاطراف فيعتدّها السلطان من كبرائهم . واغاروا بعض الايام في ضواحي تونس فاستاقوا الظهر الذي كان للسلطان في مراعيها ، واظلم الجو بينهم وبينه ، وخشوا عاديته وتوقعوا بأسه . ووفد عليه أيام الفطر من رجالاتهم خالد بن حمزة وأخوه احمد من بني كعب وخليفة بن عبد الله بن مسكين وخليفة بن بوزيد من رجالات حكيم . وساءت ظنونهم في السلطان لسوء أفعالهم فداخلوا عبد الواحد بن اللحياني في الخروج على السلطان . وكان من خبر عبد الواحد هذا انه بعد اجفاله من تونس سنة اثنتين وثلاثين كما ذكرناه لحق بأبي تاشفين فأقام عنده في مبرّة وتكرمة . ولما أخذ السلطان ابو الحسن بمخنق تلمسان واشتد حصارها سأل عبد الواحد من أبي تاشفين تخليته للخروج فودّعه وخرج للسلطان أبي الحسن فنزل عليه . ولم يزل في جملته الى ان احتلّ بافريقية . فلما خشن ما بينه وبين الكعوب والتمسوا الاعياص من بني أبي حفص ينصبونهم للامر رجوا أن يظفروا من عبد الواحد بالبغية فداخلوه وارتاب لذلك ، وخشي بادرة السلطان فرفع اليه الخبر فتقبض السلطان عليهم أربعتهم بعد ان احضرهم معه فأنكروا وبهتوا .

ثم وبّخهم واعتقلهم وعسكر بساحة الحضرة لغزوهم ، وتلوّم لبعث الاعطيات وازاحة العلل ، وبلغ الخبر الى احيائهم فقطع اليأس اسباب رجائهم . وانطلقوا يحزّبون الاحزاب ويلتمسون الملك الاعياص . وكان أولاد مهلهل أقتالهم وعديلة حملهم قد أيأسهم السلطان من القبول والرضى بما بلغوا في نصيحة المولى أبي حفص ومظاهرته فالحقوا بالقفر ، ودخلوا الرمال فركب اليهم فتيتة بن حمزة وأمه ومعهما ظواعن ابنائهما متذممين لاولاد مهلهل بالعصبيّة والقرابة فأجابوهم واجتمعوا بقسطيلية ، وتواهبوا التراث والدماء ، وتدامروا بما شملهم من رهب السلطان ، وتوقع بأسه .

وتفقدوا من اعياص الموحدين من ينصبونه للامر ، وكان بتوزر احمد بن عثمان بن أبي دبوس آخر خلفاء بني عبد المؤمن بمراكش وقد ذكرنا خبره وخروجه بجهات طرابلس واجلابه مع العرب على تونس ايام السلطان أبي عصيدة . ثم انفضوا ، وبقي عثمان بجهات قابس وطرابلس الى ان هلك بجزيرة جربة واستقرّ بنو ابنه عبد السلام بالحضرة بعد حين فاعتقلوا بها ايام السلطان أبي بكر . ثم غرّبهم الى الاسكندرية مع اولاد ابن الحكيم عند نكبته كما ذكرنا ذلك كله فنزلوا بالاسكندرية واقبلوا على الحرف لمعاشهم . ورجع احمد هذا من بينهم الى المغرب واستقرّ بتوزر واحترف بالخياطة . ولما تفقّد العرب الاعياص دُلّهم على

نكرته بعض اهل عرفانه فانطلقوا اليـه وجاءوا بـه وجمعوا له الالة ، ونصبوه للأمر وتبايعوا على الاستماتة . وزحف اليهم السلطان في عساكره من تونس أيام الحج من سنة ثمان ، ولقيهم بالثنية دون القيروان فغلبهم واجفلوا أمامه الى القيروان . ثم تدامروا ورجعوا مستميتين ثاني محرم سنة تسع فاختلّ مصافه ودخل القيروان ، وانتهبوا معسكره بما يشتمل عليه وأخذوا بمخنقه الى ان اختلفوا وافرجوا عنه ، وخلص الى تونس كما نذكر ، والله تعالى أعلم .

الخبر عن حصار القصبة بتونس ثم الإفراج عن القيروان وعنها وما تخلل ذلك

كان الشيخ أبو محمد بن تافراكين أيام حجابته للسلطان أبي بكر مستبداً بامره مفوّضاً اليه في سائر شؤونه ، فلما استوزره السلطان أبو الحسن لم يجره على مألوفه لما كان قائماً على امره ، وليس التفويض للوزراء من شأنه . وكان يظن ان السلطان ابا الحسن سيكل اليه أمر افريقية وينصب معه الفضل للملك . وربما زعموا انه عاهده على ذلك فكان في قلبه من الدولة مرض وكان العرب يفاوضونه بذات صدورهم من الخلاف والاجلاب فلما حصلوا على البغية من الظهور على السلطان أبي الحسن وعساكره وأحاطوا به في القيروان تحيّل ابن تافراكين في الخروج عن السلطان لما

تبين فيه من النكراء منه ومن قومه. وبعث العرب في لقائه وان يحملوه حديث فيئهم الى الطاعة فاذن له وخرج اليهم . وقلدوه حجابة سلطانهم، ثم سرّحوه الى حصار القصبة . وكان السلطان عند رحيله من تونس خلف بها الكثير من حرمه وابنائه ووجوه قومه، واستخلف عليها يحيى بن سليمان العسكري من كبار بطانته واهل مجلسه ووجوه قومه . فلما كانت واقعة القيروان واتصل الخبر بتونس كانت لبناته هيعة خشي عليها عسكر السلطان على انفسهم فلجأ من كان معهم بتونس الى قصبتها، واحاط بهم الغوغاء فامتنعت عليهم واتخذوا الآلة للحصار، وفرّقوا الاموال في الرجال وعظم فيها غناء بشير من المعلوجي الموالي فطار له ذكر . وكان الأمير أبو سالم ابن السلطان أبي الحسن قد جاء من المغرب فوافاه الخبر دون القيروان، فانفضّ معسكره ورجع الى تونس فكان معهم بالقصبة .

ولما خرج ابن تافراكين من هوة الحصار بالقيروان اليهم طمعوا في الاستيلاء على قصبة تونس وفض ختامها فدفعوه إلى ذلك . ثم لحق به سلطانهم ابن أبي دبّوس وعانى من ذلك ابن تافراكين صعباً لكثرة الرجل الذين كانوا بها، ونصبوا المجانيق عليها فلم يغن شيئاً، وهو اثناء ذلك يحاول النجاة لنفسه لاضطراب الأمور واختلال الرسوم الى أن بلغه خلوص السلطان من القيروان الى سوسة . وكان من خبره ان العرب بعد ايقاعهم بعساكره

احاطوا بالقيروان واشتدُّوا في حصارها ، وداخل السلطان اولاد مهلهل من الكعوب وحكيماً من بني سليم في الافراج عنه ، واشترط لهم على ذلك الاموال واختلف رأي العرب لذلك ودخل عليه قُتَيْبَةَ بن حمزة بمكانه من القيروان زعيماً للطاعة فتقبّله واطلق اخوانه خالداً واحمد ، ولم يثق اليهم ثم دخل اليه محمد ابن طالب من اولاد مهلهل وخليفة بن بو زيد وابو الهول بن يعقوب من اولاد القوس واسرى معهم بعسكره الى سوسة فصبحها وركب منها في اساطيله الى تونس وسبق الخبر الى ابن تافراكين بتونس فتسلل من اصحابه وركب السفين الى الاسكندرية في ربيع سنة تسع واربعين .

واصبحوا وقد تفقدوه فاضطربوا واجفلوا عن تونس ، وخرج اهل القصبة من اولياء السلطان فملكوها وخربوا منازل الحاشية فيها . ونزل السلطان بها من اسطوله في ربيع الآخر فاستقلت قدمه من العثار ، ورجا الكرة لولا ما قطع اسبابها عنه مما كان من انتزاء ابنائه بالمغرب على ما نذكره في اخبارهم . واجلب العرب وابن أبي دُبوس معهم على الحضرة ونازلوا بها السلطان فامتنعت عليهم فرجعوا الى مهادنته فعقد لهم السلم ، ودخل حمزة بن عمر اليه وافداً فحبسه الى ان تقبّض على ابن أبي دبوس وامكنه منه فلم يزل في محبسه الى ان رحل الى المغرب ، ولحق هو بالاندلس كما نذكره في اخباره ، واقام

السلطان بتونس ، ووفد عليه احمد بن مكي فعقد لعبد الواحد ابن اللحياني على الثغور الشرقيّة طرابلس وقابس وصفاقس وجربة وسرحه مع ابن مكي فهلك عند وصوله اليها في الطاعون الجارف ، وعقد لأبي القاسم بن عتو من مشيخة الموحّدين وهو الذي كان قطعه باغراء أبي محمد بن تافراكين . فلما ظهر خلافه أعاد ابن عتو الى مكانه وعقد له على بلاد قسطيلية ، وسرّحه اليها واقام هو بتونس الى ان كان ما نذكره .

الخبر عن استيلاء الأمير الفضل على قسطنطينة وبجاية ثم استيلاء أمرائهما عليهما

كان سنن السلطان ابو الحسن في دولته بالمغرب وفود العمال عليه آخر كل سنة لايراد جباياتهم والمحاسبة على اعمالهم فوفدوا عليه عامهم ذلك من قاصية المغرب ، ووافاهم خبر الواقعة بقسطنطينة وكان معهم ابن مزني عامل الزاب ، وفد ايضاً بجبايته وهديّته ، وكان معهم ابو عمر تاشفين ابن السلطان أبي الحسن ، كان اسيراً من يوم واقعة طريف . وقعت المهادنة بين الطاغية وبين ابيه فأطلقه وأوفد معه جمعاً من بطارقته ، وقدموا معه على ابيه ووفد معه اخوه عبد الله من المغرب وكان أيضاً معهم وفد السودان من اهل مالي في غرض السفارة ، واجتمعوا كلهم بقسطنطينة . فلما اتصل بهم خبر الواقعة على

السلطان كثر الاضطراب ، وتجلبت السفاه من الغوغاء الى ما بأيديهم وخشي الملأ من اهل البلد على انفسهم فاستدعوا أبا العباس الفضل من عمله ببونة . ولما أطل على قسطنطينة ثارت العامة بمن كان هنالك من الوفود والعمال وانتهبوا أموالهم واستلحموا منهم ، وخاص ابناء السلطان مع وفود السودان والجلالقة الى بسكرة مع ابن مزني وفي خفارة يعقوب بن علي أمير الدواودة فأوسعهم ابن مزني قرى وتكرمة الى ان لحقوا بالسلطان أبي الحسن بتونس في رجب من سنة تسع .

ودخل المولى الفضل الى قسطنطينة وأعاد ما ذهب من سلطان قومه . وشمل الناس بعدله واحسانه ، وسوغ الاقطاع والجوائز ورحل الى بجاية لما أنس من صاغية أهلها الى الدعوة الحفصية . فلما أطلّ عليها ثار أهلها بالعمال الذين كان السلطان أنزلهم بها استباحوهم وافلتوا من ايدي نكبتهم بجريعة الذقن [1] ودخل المولى الفضل الى بجاية واستولى على كرسي ملكها ، ونظمها مع قسطنطينة وبونة في ملكه . وأعاد القاب الخلافة ورسومها وشياتها كما كانت ، واعتزم على الرحيل الى الحضرة . وبينما هو يحدث نفسه بذلك اذ وصل الخبر بقدوم امراء بجاية وقسطنطينة من المغرب ، وكان من خبرهم ان الأمير أبا عنّان لما بلغه خبر الواقعة بأبيه وانتزاء منصور ابن اخيه أبي مالك بالبلد الجديد

(١) أي برمق أنفسهم .

دار ملكهم ، وأحسّ بخلاص ابيه من هوة الحصار بالقيروان فوثب على الامر ودعا لنفسه ، ورحل الى المغرب كما نذكره في اخباره . وسرح الامير أبا عبد الله محمد ابن الامير أبي زكرياء صاحب بجاية من الابناء الى عمله ، وأمدّه بالاموال وأخذ عليه المواثيق ليكوننّ له رداء دون ابيه ، وليحول بينه وبين الخلوص اليه متى مرّ به . وانطلق ابو عبد الله الى بجاية وقد سبقه اليها عمه الفضل ، واستولى عليها فنازله بها وطال حصارها ، ولحق به بمكانه من منازلتها نبيل المولى من المعلوجي مع ابناء الامير أبي عبد الله وكافل بنيه من بعده . وتقدّم الى قسطنطينة وبها عامل من قبل الفضل فثار به الناس لحينه ، ودخل نبيل وملك البلد ، وأقام فيها دعوة أبي زيد ابن الامير أبي عبد الله . وكان الامير ابو عنان استصحبه واخوانه الى المغرب وبعد احتلاله بفاس سرّحهم الى مكان امارتهم بقسطنطينة بعد ان اخذ عليهم الموثق في شأن ابيه بمثل موثق ابن عمهم فجاءوا على أثر نبيل مولاهم ودخلوا البلد . واحتل أبو زيد منها بمكان امارته وسلطان قومه كما كان قبل رحلتهم الى المغرب .

ولم يزل الامير ابو عبد الله ينازل بجاية الى ان بيتها بعض ليالي رمضان من سنته بمداخلة بعض الاشياع من زعانفتها ، داخلَهم مولاه وكافله فارح في ذلك فسرب فيهم الاموال وواعدوه للبيات ، وفتحوا له باب البرّ من أبوابها فاقتحمها وفجأهم هدير

الطبول فهب السلطان من نومه وخرج من قصره فتسنم الجبل المطل عليها متسرباً في شعابه ، الى ان وضح الصباح وظهر عليه فجيء به الى ابن أخيه فمنّ عليه واستبقاه ، وأركبه السفين الى بلده بونة في شوال من سنة تسع وأربعين . ووجد بعض الاعياص من قرابته قد ثاروا بها ، وهو محمد بن عبد الواحد من ولد أبي بكر ابن الامير أبي زكرياء الأكبر ، كان هو وأخوه عمر بالحضرة ، وكان لعمر منهما النظر على القرابة . فلما كان هذا الاضطراب لحقوا بالفضل وتركهم ببونة عند سفره الى بجاية فحدثتهم انفسهم بالانتزاء فلم يتم لهم أمر . وثارت بهم الحاشية والعامة فقتلوا لوقتهم ووافى الفضل الى بونة وقد انجلت غيابتهم ومحيت آثارهم ودخل الى قصره والقى عصا تسياره ، واستقل الامير ابو عبد الله ابن الامير أبي زكرياء ببجاية محل أمارة أبيه ، والامير ابو زيد ابن الأمير أبي عبد الله بقسطنطينة محل أمارة أبيه ، والأمير أبو العباس الفضل ببونة محل امارته منذ عهد الامرة [1] والسلطان ابو الحسن بتونس الى ان كان من امرهم ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن حركة الفضل إلى تونس بعد رحيل السلطان أبي الحسن إلى المغرب

كان العرب بعد ما قدمنا من طاعتهم واسلامهم السلطان ابن

(١) كذا، وفي ب: منذ عهد أبيه.

أبي دبوس قد انقبضوا عن السلطان أبي الحسن واجلبوا عليه ثانية ، وتولى كِبَر ذلك فتيتة بن حمزة ، وخالف الى السلطان اخوه خالد مع اولاد مهلهل وافترق امرهم. وخرج كبيرهم عمر بن حمزة حاجاً ، واستقدم فتيتة واصحابه الامير الفضل من مكان امارته ببونة لطلَب حقه ، واسترجاع ملْك ابائه فاجابهم ووصل الى احيائهم آخر سنة تسع ، فنازلوا تونس واجلبوا علَيها . ثم افرجوا عنها وعاودوا منازلتها اول سنة خمسين ، وافرجوا عنها آخر المصيف . واستدعاهم ابو القاسم بن عتو صاحب الجريد من مكان عمله بتوزر فدخل في طاعة الفضل ، وحمل اهل الجريد كلهم علَيها واتبعه في ذلك بنو مكي وانتقضت افريقية على السلْطان أبي الحسن من اطرافها فركب اساطيله الى المغرب ايام الفطر من سنة خمسين . ونهض المولى الفضل الى تونس وبها ابو الفضل ابن السلْطان أبي الحسن ، كان ابوه قد عقد له علَيها عند رحيله الى المغرب تفادياً من ثورات الغوغاء ومعرّات هيعتهم وأمن عليه بما كان عقد له من الصهر مع عمر بن حمزة في ابنته ، فلما اطلّت رايات المولى الفضل على تونس ايام الحج نبضت عروق التشيُّع للدعوة الحفصيَّة ، وأحاطت الغوغاء بالقصر ورجموه بالحجارة . وارسل ابو الفضل الى بني حمزة متذمِّماً بصهرهم فدخل عليه ابو الليل واخرجه ومن معه من قومه الى الحي . واستركب له من رجالات بني كعب من أبلغَه مأمنه

وهداه السبيل الى وطنه ، ودخل الفضل الى الحضرة وقعد بمجلس آبائه من الخلافة ، وجدّد ما طمسه بنو مرين من معالم الدولة واستمرّ امره على ذلك الى ان كان ما نذكره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن مهلك الفضل وبيعة أخيه المولى أبي إسحاق في كفالة أبي محمد بن تافراكين وتحت استبداده

لما دخل ابو العباس الفضل الى الحضرة ، واستبدّ بملكها عقد على حجابته لأحمد بن محمد بن عتو نائباً عن عمه أبي القاسم ريثما يصل من الجريد ، وعقد على جيشه وحربه لمحمد بن[1] الشواش من بطانته . وكان وليّه المطارد به أبو الليل فتيتة بن حمزة مستبدّاً عليه في سائر أحواله مشتطّاً في طلباته . وأنف له بطانته من ذلك فحملوه على التنكر له ، وان يديل منه بولاية خالد اخيه . وبعث عن أبي القاسم بن عتو وقد قلّده حجابته وفوض اليه في امره ، وجعل مقاد الدولة بيده فركب اليه البحر من سوسة ، واستأنف له خالد بن حمزة ظهيراً على اخيه بعد ان نبذ اليه عهده ، وفاوضهم أبو الليل بن حمزة قبل استحكام امورهم فغلب على السلطان وحمله على عزله قائده محمد بن الشواش فدفعه الى بونة على عساكرها . واضطرمت نار الفتنة بين

---

(١) كذا بياض بالأصل في جميع النسخ ، ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على اسم أبيه .

أبي الليل بن حمزة واخيه خالد ، وكاد شملهم ان ينصدع . وبينما هم يحشون نار الحرب ويجمعون الجموع والأحزاب اذ قدم كبيرهم عمر ، وابو محمد عبد الله بن تافراكين من حجّهم . وكان ابن تافراكين لما احتلّ بالاسكندرية بعث السلطان ابو الحسن فيه الى اهل المشرق ، وخاطب ملوك مصر في التحكيم فيه فأجاره عليه الامير المستبد على الدولة حينئذ بيبغاروس ، وخرج من مصر لقضاء فرضه ، وخرج عامئذ عمر ابن حمزة لقضاء فريضة الحج أيضاً فاجتمعا في مشاهد الحج آخر سنة خمسين ، وتعاقدا على الرجوع الى افريقية والتظاهر على امرهما وقفلا فالفيا خالداً وفتيتة [(١)] على الصفين ، فأشار عمر ابن داية فاجتمعا وتوافقا ومسح الاحن من صدورهما ، وتواطأوا جميعاً علىَ المكر بالسلطان ، وبعث اليه وليّه فتيتة بالمراجعة فقبله واتفقوا على ان يقلد حجابته ابا محمد بن تافراكين حاجب ابيه وكبير دولته ، ويديل به من ابن عتو فأبى .

ثم أضحت ونُزلت احياؤهم ظاهر البلد ، واستحثوا السلطان للخروج اليهم ليكملوا عقد ذلك معه فخرج ووقف بساحة البلد الى ان أحاطوا به ، ثم اقتادوه الى بيوتهم وأذنوا لابن تافراكين في دخول البلد فدخلها لاحدى عشرة من جمادى الاولى سنة احدى وخمسين . وعمد الى دار المولى أبي اسحاق ابراهيم ابن

(١) كذا، وقد سماه في ب: قتيبة.

مولانا السلطان أبي بكر فاستخرجه بعد ان بذل لأمه من العهود والمواثيق ما رضيته ، وجاء به الى القصر وأقعده على كرسي الخلافة ، وبايع له الناس خاصة وعامة وهو يومئذ غلام مناهز فانعقدت بيعته . ودخل بنو كعب فأتوه طاعتهم ، وسيق اليه أخوه الفضل ليائتذن فاعتقله ، وغط من جوف الليل بمحبسه حتى فاض . ولاذ حاجبه ابو القاسم بن عتو يومئذ بالاختفاء في غيابات البلد وعثر عليه لليال فامتحن وهلك في امتحانه ، وخوطب العمال في الجهات بأخذ البيعة على من قبلهم فبعثوا به . واستقام ابن يملول صاحب توزر على الطاعة وبعث بالجباية والهدية واتبعه صاحب نفطة وصاحب قفصة وخالفهم ابن مكي وذهب الى الاجلاب على ابن تافراكين لما كان قد كفل السلطان وحجره عن التصرف في امره واستبد عليه الى ان كان ما نذكر ان شاء الله تعالى ، والله تعالى أعلم .

الخبر عن حركة صاحب قسطنطينة إلى تونس وما كان من حجابة أبي العباس بن مكي وتصاريف ذلك

لما استولى ابو محمد بن تافراكين على تونس ، وبايع للمولى أبي اسحاق بالخلافة واستبد عليه نقم عليه الامراء شأن استبداده وشمر ابن مكي للسعي عليه بمنافسة كانت بينهما قديمة من لدن أيام السلطان أبي بكر . واستعان على ذلك بأولاد مهلهل

مقاسمي أولاد أبي الليـل في رياسة الكعوب ومجاذبيهم حبـل الامارة . فلمـا رأوا صاغية ابن تافراكين الى أولاد أبي الليل أقتالهم اجمعوا له ولهم ، وحالفوا بني حكيم من قبائل علاق ، وأجلبوا على الضواحي وشنوا الغارة . ثم وفدوا على الامير ابي زيد صاحب قسطنطينة واعمالها يستحثوهم للنهوض الى افريقيـة واستخلاص ملك آبائـه ممن استبد عليه واحتازه ، فسرح معهم عسكرين لنظر ميمون ومنصور الجاهل من مواليه وموالي ابيه وارتحلوا من قسطنطينة . وارتحل معهم يعقوب بن علي كبير الدواودة بمن معه من قومه . وسرح ابو محمد بن تافراكين من الحضرة للقائهم عسكراً مع ابي الليل بن حمزة لنظر مقاتل من موالي السلطان ، والتقى الجمعان ببلاد هوارة سنة اثنتين وخمسين فكانت الدَبْرَة على اولاد ابيه الليل .

وقتل يومئذ ابو الليل فتيتة بن حمزة بيد يعقوب بن سحيم من اولاد القوس شيوخ بني حكيم ، ورجـع فلُّهم الى تونس فامتدت ايدي اولاد مهلهل وعساكر قسطنطينة في البلاد وجبوا الاموال من اوطان هوارة ، وانتهوا الى ابة . ثم قفلوا راجعين الى قسطنطينة . وولي على اولاد ابي الليل مكان فتيتة اخوه خالد بن حمزة وقام بامرهم . وكان ابو العباس بن مكي اثناء ذلك يكاتب المولى ابا زيد صاحب قسطنطينة من مكان ولايته بقابس ، ويمده من نفسه الوفادة والمدد بالمال والاحزاب والقيام باعطيات العرب ، حتى اذا

انصرم فصل الشتاء وفد عليه مع اولاد مهلهل فلقاه مبرّة وتكريماً . وعقد له على حجابته وجمع عساكره وجهز آلته وازاح علل تابعه، ورحل من قسطنطينة سنة ثلاث وخمسين في صفر، وجهز ابو محمد بن تافراكين سلطانه ابا اسحاق بما يحتاج اليه من العساكر والآلة، وجعل على حربه ابنه ابا عبد الله محمد بن نزار من طبقة الفقهاء ومشيخة الكتاب، كان يعلم ابناء السلطان الكتاب ويقرئهم القرآن كما قدمناه، وفصل من تونس في التعبية حتى تراءى الجمعان بمرماجنّة وتزاحفوا فاختل مصاف السلطان أبي اسحاق، وافترقت جموعه وولوا منهزمين . واتبعهم القوم عشيّة يومهم، ولحق السلطان بحاجبه أبي محمد بن تافراكين بتونس وجاءوا على اثره فنازلوا تونس أياماً وطالت عليها الحرب . ثم امتنعت عليهم وارتحلوا الى القيروان، ثم الى قفصة، وبلغهم ان ملك المغرب الأقصى السلطان ابا عنان بعد استيلائه على المغرب الأوسط زحف الى التخوم الشرقيّة وانتهى الى المريّة . وكان صاحب بجاية ابو عبد الله قد خالفهم الى قسطنطينة بمداخلة أبي محمد بن تافراكين واستجاشته . ونازل جهات قسطنطينة وانتسف زروعها وشن الغارات في بسائطها فبلغه انه رجع الى بجاية منكمشاً من زحف بني مرين، واعتزم الأمير أبو زيد على مبادرة ثغره ودار امارته قسطنطينة . ورغب اليه أبو العبّاس بن مكي من أولاد مهلهل ان يخلف بينهم من اخوانه من يجتمعون اليه ويزاحفون

به ، فولّى عليهم اخاه ابا العباس فبايعوه ، واقام فيهم هو وشقيقه ابو يحيى زكرياء الى ان كان من شأنة ما نذكر ، وانصرف الأمير ابو زيد عند ذلك من قفصه يغذّ السير الى قسطنطينة واحتل بها في جمادى من سنته والله تعالى اعلم .

الخبر عن وفادة صاحب بجاية على أبي عنان واستيلاؤه عليه وعلى بلده ومطالبته قسطنطينة

كان بين الامير أبي عبد الله صاحب بجاية وبين الامير أبي عنان ايام امارته بتلمسان ، ونزول الاعياص الحفصيّين بندرومة ووجدة أيام ابيه كما ذكرناه اتصال ومخالصة ، احكمها بينهما نسب الشباب والملك وسابقة الصهر : فكان للامير أبي عبد الله من اجل ذلك صاغية الى بني مرين أوجد بها السبيل على ملكه . ولما مرّ به السلطان أبو الحسن في اسطوله عند ارتحاله من تونس كما قدّمناه أمر اهل سواحله بمنعه الماء والاقوات من سائر جهاتها رعياً للذمّة التي اعتقدها مع الامير ابي عنان في شأنه وجنوحاً الى تشييد سلطانه. ولما اوقع السلطان ابو عنان ببني عبد الواد سنة ثلاث وخمسين واستولى على المغرب الأوسط ونجا فلهم الى بجاية ، اوعز الى الأمير أبي الله باعتراضهم في جهاته والتقبّض عليهم فاجابه الى ذلك ، وبعث العيون بالمراصد فعثروا في ضواحي بجاية على محمد ابن سلطانهم أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن ، وعلى اخيه

ابي ثابت الزعيم ابن عبد الرحمن ، وعلى وزيرهم يحيى بن داود بن مكن فاوثقوهم اعتقالاً ، وبعث بهم الى السلطان ابي عنان .

ثم جاء على اثرهم فتلقّاه بالقبول والتكرمة وانزله بأحسن نزل . ثم دسّ اليه من اغراه بالنزول له عن بجاية رغبة فيما عند السلطان ازاء ذلك من التجلّة والادالة منها بمكناسة المغرب ، والراحة من زبون الجند والبطانة ، واخفاقاً مما سواه ان لم يتعهده فاجاب اليه على اليأس والكره ، وشهد مجلس السلطان في بني مرين بالرغبة في ذلك فاسعف واسنيت جائزته ، واقطعت له مكناسة من اعمال المغرب . ثم انتزعها لايام قلائل ونقله في جملته الى المغرب ، وبعث الامير ابو عبد الله مولاه فارحا المستبد كان عليه ليأتيه باهله وولده وعقد ابو عنّان على بجاية لعمر بن علي بن الوزير من بني واطّاس ، وهم ينتسبون بزعمهم الى علي بن يوسف امير لمتونة فاختصه ابو عنان بولايتها لمتات هذا النسب الصنهاجي بينه وبين اهل وطنها منهم . وانصرفوا جميعاً من المريّة . ولما احتلّوا بجاية تآمر اولياء الدعوة الحفصية بها من صنهاجة والموالي وتمشت رجالاتهم في قتل عمر بن علي الوزير واشياع بني مرين ، وتصدى لذلك زعيم صنهاجة منصور بن ابراهيم بن الحاج في رجالات من قومه باملاء فارح كما زعموا . وغدوا عليه بداره من القصبه ، فأكب عليه منصور يناجيه فطعنه وطعن آخر منهم القاضي ابن فركان بما كان شيعة لبني مرين . ثم اجهزوا على عمر

ابن علي ، ومضى القاضي الى داره فات .

واتصلت الهيعة بفارح فركب اليها وهتف الهاتف بدعوة صاحب قسنطينة محمد بن أبي زيد ، وطيّروا اليه بالخبر واستحثوه للقدوم . وأقاموا على ذلك أياماً . ثم تآمر الملأ من اهل بجاية في التمسك بدعوة صاحب المغرب خوفاً من بوادره فثاروا بفارح وقتلوه أيام التشريق من سنة ثلاث ، وبعثوا برأسه الى السلطان بتلمسان . وتولى كِبَرَ ذلك هلال صاحبه من موالي ابن سيّد الناس ومحمد ابن الحاجب أبي عبد الله بن سيد الناس ومشيخة البلد ، واستقدموا العامل بتدلس من بني مرين وهو يحيي بن عمر بن عبد المؤمن من بني ونكاسن فبادر اليهم . وسرح السلطان ابو عنان اليها حاجبه ابا عبد الله محمد بن ابي عمرو في الكتائب فدخلها فاتح سنة أربع وخمسين . وذهبت صنهاجة في كل وجه فلحق كبراؤهم وذوو الفعلة منهم بتونس ، وتقبض على هلال مولى ابن سيّد الناس لما داخلته فيه من الظنة ، وعلى القاضي محمد بن عمر لما كان شيعة لفارح ، وعلى عرفاء الغوغاء من اهل المدينة وأشخصهم معتقلين الى المغرب . وصرف نظره الى تمهيد الوطن ، واستدعى كبراء العرب واهل النواحي واعمال بجاية وقسنطينة .

ووفد عليه يوسف بن مزني صاحب الزاب ومشيخة الدواودة

فاسترهن ابناءهم على الطاعة، وقفل بهم الى المغرب. واستعمل ابو عنان على بجاية موسى بن ابراهيم اليرنياني من طبقة الوزراء وبعثه اليها. ولما وفدوا على السلطان جلس لهم جلوساً فخماً ووصلوا اليه ولقاهم تكرمة ومبرّة، وأوسعهم حباءً واقطاعاً، وانفذ لهم الصكوك والسجلات، واخذ على طاعتهم العهود والمواثيق والرهن وانقلبوا الى أهلهم. وعقد لحاجبه أبي عمرو على بجاية وأعمالها وعلى حرب قسطنطينة من ورائها، ورجّعه اليها فدخلها في رجب من سنته.

وأوعز السلطان الى موسى بن ابراهيم بالولاية على سدويكش والنزول ببني ياورار في كتيبة جهّزها هنالك لمضايقة قسطنطينة وجباية وطنها، وكل ذلك لنظر الحاجب ببجاية وكان بقسطنطينة أبو عمر تاشفين ابن السلطان أبي الحسن معتقلاً من لدن واقعة بني مرين بها. وكان موسوساً في عقله معروفاً بالجنون عند قومه. وكان الامراء بقسطنطينة قد اسنوا جرايته في اعتقاله واولوه من المبرّة والحفاوة كفاء نفسه. فلما زحفت كتائب بني مرين الى بني ياورار آخر عمل بجاية واذنوا قسطنطينة ومن بها بالحرب والحصار نصب المولى ابو زيد هذا الموسوس ابا عمر ليجاجيء به رجالات بني مرين اهل العسكر ببجاية وبني ياورار وجهّز له الالة وتسامعوا بذلك فنزع اليهم الكثير منهم. وخرج نبيل حاجب الامير ابي زيد الى اهل الضاحية من بونة ومن

كان على دعوته من سدويكش والدواودة فجمعهم وزحفوا جميعاً الى وطن بجاية ، واتصل الخبر بالحاجب ببجاية فبعث في الدواودة من مشاتيهم بالصحراء فأقبلوا اليه حتى نزلوا التلول . ووفد عليه ابو دينار بن علي بن احمد واستحثه للحركة على قسطنطينة فاعترض عساكره وازاح عللهم ، وخرج من بجاية في ربيع من سنة خمسين فكرّ ابو عمر ومن معه راجعين الى قسطنطينة. وزحف الحاجب فيمن معه من بني مرين والدواودة وسدويكش ، ولقيهم نبيل الحاجب بمن معه فكانت عليه الدبرة واكتسحت أموال بونة ، ورجع ابن أبي عمر بعساكره الى قسطنطينة فاناخ عليها سبعاً . ثم ارتحل عنها الى ميلة وعقد يعقوب بن علي بين الفريقين صلحاً على ان يمكنوه من أبي عمر الموسوس فبعثوا به الى اخيه السلطان أبي عنّان فانزله ببعض الحجر ، ورتّب عليه الحرس . وسار الحاجب في نواحي اعماله ، وانتهى الى المسيلة واقتضى مغارمها ، ثم انكفأ راجعاً الى بجاية ، وهلك فاتح ست وخمسين . وعقد السلطان على بجاية واعمالها بعده لوزيره عبد الله بن علي بن سعيد من بني يابان [1] وسرّحه اليها فدخلها ، وزحف الى قسنطينة فحاصرها وامتنعت عليه فرجع الى بجاية . ثم زحف من العام المقبل سنة سبع وخمسين كذلك ، ونصب عليها المجانيق فامتنعت عليه ورجف في معسكره بموت السلطان فانفضوا واحرق مجانيقه .

(١) كذا، وفي ب: بابان.

ورجع الى بجاية وجمَّر الكتائب ببني ياورار لنظر موسى بن ابراهيم اليرنياني عامل سدويكش الى ان كان من الايقاع به وبعسكره ما نذكره ان شاء الله تعالى . والله أعلم .

الخبر عن حادثة طرابلس واستيلاء النصارى عليها ثم رجوعها الى ابن مكي

كانت طرابلس هذه ثغراً منذ الدول القديمة وكانت لهم عناية بحمايتها لما كان وضعها في البسيط ، وكانت ضواحيها قفراً من القبائل فكان النصارى اهل صقلية كثيراً ما يحدثون انفسهم بملكها . وكان ميخائيل الأنطاكي صاحب اسطول رجّار قد قد تملكها من أيدي بني خيزرون من مغراوة آخر دولتهم ودولة صنهاجه كما ذكرنا . ثم رجعها ابن مطروح ودخلت في دعوة الموحّدين ومرّت عليها الأيام الى ان استبدّ بها ابن ثابت ووليها من بعده ابنه في اعوام خمسين وسبعماية منقطعاً عن الحضرة مقيما رسم الدعوة . وكان تجار الجنويّين يتردّدون اليها فاطلعوا على عوراتها وائتمروا في غزوها واتّعدوا لمرساها فوافوه سنة خمس وخمسين ، وانتشروا بالبلد في حاجاتهم . ثم بيّتوها ذات ليلة فصعدوا اسوارها وملكوها عليهم . وهتف هاتفهم بالحرب وقد لبسوا السلاح فارتاعوا وَهبُّوا من مضاجعهم . فلما رأوهم بالأسوار لم يكن همهم إلاّ النجاة بانفسهم . ونجا ثابت بن عمر مقدّمهم الى

حلة الجواري أعراب وطنها من دباب احدى بطون بني سُلَيم ، فقتل لدم كان أصابه منهم . ولحق اخوته بالاسكندرية ، واستباحها النصارى . واحتملوا في سفنهم ما وجدوا بها من الخرثى والمتاع والعقائل والأسرى واقاموا بها . وداخلهم أبو العباس بن مكي صاحب قابس في فدائها فاشترطوا عليه خمسين الفاً من الذهب العين فبعث فيها لملك المغرب السلطان أبي عنّان يطرفه بمثوبتها . ثم تعجلوا عليه فجمع ما عنده واستوهب ما بقي من اهل قابس والحامّة وبلاد الجريد فجمعوها له حسبة ورغبة في الخبر . وامكنه النصارى من طرابلس فلكها واستولى عليها ، وازال ما دنّسها من وضر الكفر . وبعث السلطان ابو عنّان بالمال اليه ، وان يردّ على الناس ما اعطوه وينفرد بمثوبتها وذكرها فامتنعوا إلاّ قليلا منهم ، ووضع المال عند ابن مكي لذلك ، ولم يزل ابن مكي أميراً عليها الى ان هلك كما نذكره في اخباره إن شاء الله تعالى .

الخبر عن بيعة السلطان أبي العبّاس أمير المؤمنين ومفتتح أمره السعيد بقسطنطينة

كان الأمير أبو زيد قد ولي الأمر من بعد أبيه الامير أبي عبد الله بولاية جدّه الخليفة أبي بكر ، وكان اخوته جميعاً في جملته ، ومنهم السلطان ابو العباس أمير المؤمنين لهذا العهد ،

والمنفرد بالدعوة الحفصية . وكان الناس من لدن مهلك ابيهم يرون أنّ الوراثة لهم ، وأن الأمر فيهم ، حتى لقد يحكى عن شيخ وقته الولي أبي هادي المشهور الذكر ، وكان من اهل المكاشفة ، انه قال ذات يوم ، وقد جاءوا لزيارته باجمعهم على طريقتهم وسنن اسلافهم في التبرّك بالأولياء فدعا لهم الشيخ ما شاء ثم قال : البركة ان شاء الله في هذه العشر ، واشار الى الاخوة بجتمعين . وكان الحزى [1] والمنجمون ايضاً يخبرون بمثلها ، ويحومون بظنونهم على أبي العباس من بينهم ، لما يتفرسون فيه من الشواهد والمخايل . فلما كان من منازلة اخيه ابي زيد لتونس سنة ثلاث وخمسين ما قدّمناه ، ثم ارتحل عنها الى قفصة واراد الرجوع الى قسطنطينة للارجاف بشأن السلطان ابي عنان وانه زحف الى آخر عمله من تخوم بجاية ، رغب حينئذ اليه اولاد مهلهل اولياؤه من العرب وشيعته وحاجبه ابو العباس بن مكي صاحب عملي قابس وجربة ان يستعمل عليهم من اخوته من يقيم معهم لمعاودة تونس بالحصار ، فسرّح اخاه مولانا ابا العباس فتخلّف معهم في ذلك ، وفي جملته شقيقه ابو يحيى فأقاما بقابس .

وكان صاحب طرابلس محمد بن ثابت قد بعث اسطوله لحصار

(١) حزا الطير: زجره أي أطاره ليرى أي جهة يتجه فيتفاءل أو يتشاءم. والحزى جمع حازي : وهو الذي يزجر الطير ليتكهن.

جربة فدخل الأمير ابو العباس بمن معه الى الجزيرة ، وخاضوا اليها البحر فاجفل عسكر ابن ثابت وافرجوا عن الحصن . ثم رجع السلطان الى قابس ، وزحف العرب اولاد مهلهل معه الى تونس وحاصروها أياماً فامتنعت عليهم . ورجع الى اعمال الجريد وأوفد اخاه ابا يحيى زكرياء على السلطان صريخاً سنة خمس وخمسين فلقّاه مبرّة ورحباً ، واسنى جائزته واحسن وعده ، وانكفأ راجعاً عنه الى وطنه . ومرّ بالحاجب ابن ابي عمرو عند افراجه عن قسطنطينة ، ولحق بأخيه بمكانه من قاصية افريقية واتصلت ايديهما على طلب حقهما . وفي خلال ذلك فسد ما بين ابي محمد ابن تافراكين صاحب الامر بتونس وبين خالد بن حمزة كبير اولاد ابي الليل فعدل عنه الى اقتاله اولاد مهلهل ، واستدعاهم للمظاهرة فأقبلوا عليه . وتحيّز خالد الى السلطان ابي العباس وزحفوا الى تونس فنازلوها سنة ست وخمسين ، وامتنعت عليهم فأفرجوا عنها ، واستقدمه اخوه ابو زيد اثر ذلك لينصره من عساكر بني مَرين عندما تكاثفوا عليه ، وضاق به الحصار فأجابه وقدم عليه بخالد وقومه ، وخرج الامير ابو زيد مع خالد الى منازلة تونس .

واستخلف على قسطنطينة اخاه ابا العباس فدخلها ونزل بقصور الملك منها ، واقام بها مدّة وعساكر بني مرين قد ملأت عليه الضاحية فدعا الاولياء الى الاستبداد وأنه ابلغ في المدافعة

والحماية لما كانوا يتوقعون من زحف العساكر اليهم من بجاية فأجاب وبويع سنة خمس وخمسين ، وانعقد امره . وزحف عبدالله ابن علي صاحب بجاية الى قسطنطينة في سنته ، وفي سنة سبع بعدها فحاصرها ونصب المجانيق . ثم اجفل آخراً للارجاف كما ذكرناه . وتنفّس مخنق الحصار عن قسطنطينة ، وكان الامير ابو زيد اخوه لما ذهب مع خالد الى تونس ونازلها أمتنعت عليه ، ورجع وقد استبدّ اخوه بأمر قسطنطينة فعدل الى بونة وراسل ابا محمد بن تافراكين في سكنى الحضرة والنزول لهم عن بونة فأجابه ونزل عنها الامير ابو زيد لعمّه السلطان ابي اسحاق ، وتحوّل الى تونس فأوسعوا له المنازل واسنوا الجرايات والجوائز ، واقام في كفالة عمه الى ان كان من امره ما نذكره .

الخبر عن واقعة موسى بن ابراهيم واستيلاء أبي عنان بعدها على قسطنطينة وما تخلل ذلك من الأحداث

لما استبد السلطان أبو العباس بالامر وزحفت اليه عساكر بجاية ، وبني مرين فاحسن دفاعها عن بلده . وتبين لأهل الضاحية مخايل الظهور فيه فداخله رجالات من سدويكش من أولاد المهدي بن يوسف في غزو موسى بن ابراهيم وكتائبه المجمرة ببني ياورار ، ودعوا إلى ذلك ميمون بن علي بن احمد وكان منحرفاً عن اخيه يعقوب ظهير بني مرين ومناصحهم فاجاب . وسرح

السلطان أخاه أبا يحيى زكرياء معهم بمن في جملته من العساكر وصبحوهم في غارة شعواء ، فلما شارفوهم ركبوا اليهم فتقدّموا قليلاً ثم احجموا واختل مصافّهم واحيط بهم ، واثخن قائد العساكر موسى بن ابراهيم بالجراحة واستلحم بنوه زيّان وابو القاسم ومن اليهم ،وكانوا اسود هياج وفرسان ملحمة في آخرين من امثالهم ، وتتبّعوا بالقتل والنهب الى ان استبيحوا ونجا فلّهم الى بجاية ولحقوا بالسلطان أبي عنان . ولما بلغه الخبر قام في ركائبة وقعد ، وفتح ديوان العطاء وبعث وزراءه للحشد في الجهات .

واعترض الجنود وازاح العلل ،وشكى له موسى بن ابراهيم بقعود عبد الله بن علي صاحب بجاية عن نصره فسخطه ونكبه وعقد مكانه ليحيى بن ميمون بن مصمود ، وتلوّم بعده اشهراً في تجهيز العساكر ، وبعث السلطان أبو العباس اخاه ابا يحيى الى تونس صريخاً لعمه السلطان أبي اسحاق فاعجله الأمر عن الاياب اليه ، وارتحل ابو عنّان في عساكره . ثم بعث في مقدّمته وزيره فارس بن ميمون بن ودرار ، وزحف على اثره في ربيع سنة ثمان وخمسين ، واغذّ السير الى قسطنطينة وقد نازلها وزيره ابن ودرار قبله . فلما نزل بساحتها ، وقد طبق الأرض الفضاء بجيوشه وعساكره وجم اهل البلد ، وادركهم الدهش فانفضّوا وتسلّلوا اليه . وتحيّز السلطان ابو العباس الى

القصبة فامتنع بها حتى توثق لنفسه بالعهد . ثم نزل اليه فكفاه تكرمة ورحباً وبنى له الفساطيط في جواره . ثم بدا له في ايام قلائل فنقض عهده واركبه السفن الى المغرب ، وانزله بسبتة . ورتّب عليه الحرس ، بعث خلال ذلك الى بونـة فدخلت في طاعته ، وفرّ عنها عمال الحضرة . ولما استولى عقد على قسطنطينة لمنصور بن خلوف شيخ بني يابان من قبائل بني مرين . ثم بعث رسله الى أبي محمد بن تافراكين في الاخذ بطاعته والنزول عن تونس فردّهم ، واخرج سلطانه المولى ابا اسحاق مع أولاد أبي الليل ومن اليهم من العرب بعد ان جهّز له العساكر وما يصلحه من الالة والجند واقام هو بتونس واجمع ابو عنّان النهوض اليه ، ووفد اليه اولاد مهلهل يستحثّونه لذلك فسرّح معهم عسكراً في البرّ لنظر يحيى بن رحو بن تاشفين بن معطي كبير تيربيعين من قبائل بني مرين وصاحب الشورى في مجلسه ، وسرّح عسكراً آخراً في اسطول لنظر محمد بن يوسف المعروف بالأبكم من بني الأحمر من الملوك بالأندلس لهذا العهد ، فسبق الاسطول وصبحوا تونس وقاتلوها يوماً او بعض يوم . واتيح لهم الظهور فخرج عنها أبو محمد بن تافراكين ، ولحق بالمهدّية ، واستولت عساكر بني مرين على تونس في رمضان سنة ثمان وخمسين ، ولحق يحيى ابن رحو بعسكره فدخل البلد ، وأمضى فيها اوامر السلطان . ثم دعاه اولاد مهلهل الى الخروج لمباغتة أولاد أبي الليل وسلطانهم

فخرج معهم لذلك ، وأقام ابن الأحمر واهل الاسطول بالبلد . وفي خلال ذلك جاهر يعقوب بن علي بالخلاف لما تبيّن من نكراء السلطان أبي عنّان وارهاف حدّه للعرب ، ومطالبتهم بالرهن ، وقبض ايديهم عن الاتاوات ومسح اعطافه بالمدارات فلم يقبلها فلحق يعقوب بالرمل ، واتبعه السلطان فاعجزه فعدا على قصوره ومنازله بالتلّ والصحراء فخرّبها وانتسفها .

ثم رجع الى قسطنطينة وارتحل منها يريد افريقية ، وقد نهض المولى ابو اسحاق بمن معه من العرب للقائه ، وانتهوا الى فحص سبتة . ثم تمشّت رجالات بني مرين وائتمروا في الرجوع عنه حذراً أن يصيبهم بافريقية ما اصابهم من قبل فانفضّوا متسلّلين الى المغرب . ولما خف المعسكر من اهله اقصر عن القدوم على افريقيه فرجع الى المغرب بمن بقي معه ، واتّبع العرب آثاره ، وبلغ الخبر الى ابي محمد بن تافراكين بمكان منجاته من المهدّية فصار الى تونس . ولما أطلّ عليها ثار اهل البلد بمن كان عندهم من عسكر بني مرين وعاملهم فنجوا الى الاساطيل ، ودخل أبو محمد بن تافراكين الى الحضرة وأعاد ما طمس من الدولة . ولحق به السلطان ابو اسحاق بعد ان تقدّم الامير ابو زيد في عسكر الجنود والعرب لاتباع آثار بني مرين ومنازلة قسطنطينة فاتبعه الى تخوم عملهم ورجع ابو زيد الى قسطنطينة وقاتلها اياماً فامتنعت عليه فانكفأ راجعاً الى الحضرة .

ولم يزل مقيما بها الى ان هلك عفا الله عنه . وكان اخوه ابو يحيى زكرياء قد لحق بتونس من قبل صريخاً كما قلناه ، فلما بلغهم ان قسطنطينه قد أحيط بها تمسّكوا به فلحق به الفلّ من مواليهم وصنائعهم فكانوا معه الى أن يسّر الله أسباب الخير والسعادة للمسلمين ، وأعاد السلطان ابا العباس الى الامر من بعد مهلك ابي عنّان كما نذكر ، ومدّ ايالته على الخلق فطلع على الرعايا بالعدل والامان وشمول العافية والاحسان ، وكف ايدي العدوان . ورتع الناس من دولته في ظل ظليل ومرعى جميل كما نذكره بعد ان شاء الله .

الخبر عن انتقاض الأمير أبي يحيى زكريا بالمهدية ودخوله في دعوة أبي عنان ثم نزوله عنها الى الطاعة وتصاريف ذلك

كان الحاجب ابو محمد عند رجوعه الى الحضرة صرف عنايته الى تحصين المهديّة يعدّها للدولة وزراً من حادث ما يتوقعه من المغرب واهله ، فشيّد من اسوارها وشحن بالأقوات والاسلحة مخازنها ومستودعاتها ، وعقد عليها للأمير زكرياء اخي السلطان أبي اسحاق ، كان في كفالته وانزله بها . وبعث على حجابته احمد بن خلف من اوليائه وذويه مستبداً عليه فقام على ذلك حولاً او بعضها . ثم ضجر الامير ابو يحيى زكرياء من الاستبداد عليه ، واستنكف من حجره في سلطانه فبيّت احمد بن خلف

فقتله ، وبعث عن ابي العباس احمد ابن مكي صاحب جربة وقابس ليقيم له رسم الحجابة بما كان مناوئاً لابي محمد ابن تافراكين فوصل اليه ، وطيّروا بالخبر الى السلطان ابي عنان صاحب المغرب وبعثوا اليه ببيعتهم واستحثوه لصريخهم . واضطرب امرهم وسرّح ابو محمد بن تافراكين اليها العسكر فأجفلوا امامه ، ولحق المولى ابو يحيى زكرياء بقابس ، واستولى عليها العسكر واستعمل عليها ابو محمد بن تافراكين محمد بن الحكجاك من قرابة ابن ثابت اصطنعه عندما وقعت الحادثة على طرابلس ، ولحق به فاستعمله على المهديّة . ولما وصل الخبر الى أبي عنان بشأن المهديّة جهّز اليها الاسطول وشحنه بالمقاتله والرجل وعين الوالي والخاصة فألفوها قد رجعت الى ايالة الحضرة ، ووصل اليها ابن الحكجاك وقام بها وحسن غناؤه فيها الى ان كان من امره ما نذكر .

واقام الامير زكرياء بقابس ، وأجلب به ابو العباس بن مكي على تونس . ثم بعثوه بالدواودة ونزل على يعقوب بن علي واصهر اليه في ابنة اخيه سعيد ، فعقد له عليها . ولما استولى اخوه ابو اسحاق على بجاية استعمله على سدويكش بعض الاعوام ، ولم يزل بين الدواودة الى ان هلك سنة ست وسبعين كما نذكره بعد .

الخبر عن استيلاء السلطان أبي اسحاق على بجاية واعادة الدعوة الحفصية اليها

لما رجع السلطان أبو عنان من قسطنطينة الى المغرب أرسى سنته ، وسرّح عساكره من العام المقبل الى افريقية لنظر وزيره سليمان بن داود فسار في نواحي قسطنطينة ومعه ميمون بن علي ابن أحمد اديل به من يعقوب على قومه من الدواودة ، وعثمان ابن يوسف بن سليمان شيخ اولاد سبّاع منهم . وحضر معه يوسف بن مزني عامل الزاب ، أوعز اليه السلطان بذلك فدوّخ الجهات وانتهى الى آخر وطن بونة ، واقتضى المغارم . ثم انكفأ راجعاً الى المغرب . وهلك السلطان ابو عنّان اثر قفوله سنة تسع وخمسين ، واضطرب امر المغرب . ثم استقام على طاعة اخيه السلطان أبي سالم كما نذكره ، وكان اهل بجاية قد نقموا على عاملهم يحيى بن ميمون من بطانة السلطان أبي عنّان سوء ملكته وشدّة سطوته وعسفه فداخلوا ابا محمد بن تافراكين على البعد في التوثب به ، فجهز اليهم السلطان ابا اسحاق بما يحتاج اليه من العساكر والالة ، ونهض من تونس ومعه ابنه ابو عبد الله على العساكر . وتلقاهم يعقوب بن علي وظاهرهم على امرهم ، وسار اخوه ابو دينار في جملتهم . ولما اطلّوا على بجاية ثارت الغوغاء بيحيى بن ميمون العامل ، كان عليهم منذ عهد السلطان

أبي عنّان فالقى بيده وتقبّض عليه وعلى من كان من قومه ، واركبوا السفين الى الحضرة ، واودعهم ابو محمد بن تافراكين سجونه تحت كرامة وجراية ، الى ان منّ عليهم من بعد ذلك واطلقهم الى المغرب . ودخل السلطان ابو اسحاق الى بجاية سنة احدى وستين ، واستبدّ بها بعض الاستبداد وحاجبه وكافله ابو محمد يدبّر أمره من الحضرة . ثم استقدم ابنه ونصب لوزارة السلطان أبا محمد عبد الواحد بن محمد من اكازير من مشيخة الموحّدين فكان يقيم لهم رسم الحجابة . وقام بأمر الرجل بالبلد من الغوغاء علي بن صالح من زعانفة بجاية واوغادها ، التفّ عليه الشّرار[1] والدّعار واصبحت له بهم شوكة كان له بها تغلّب على الدولة ، الى ان كان ما نذكره إنشاء الله تعالى والله أعلم .

الخبر عن فتح جربة ودخولها في دعوة السلطان أبي اسحاق صاحب الحضرة

هذه الجزيرة جربة من جزر هذا البحر الذي يمرّ قريباً من قابس والى الشرق عنها قليلاً ، طولها من المغرب الى المشرق ستون ميلاً ، وعرضها من ناحية المغرب عشرون ميلاً . ومن ناحية الشرق خمسة عشر ميلاً . وبينها وبين قرقنّة في ناحية المغرب ستون ميلاً ، وشجرها التين والنخل والزيتون والعنب ،

(١) كذا، وفي ب: الثوار. والأصح: الأشرار.

واختصّت بالتفاح وعمل الصوف للباسهم يتخذون منه الأكسية المعلمة للاشتمال، وغير المعلمة للّباس. وتجلب منها الى الاقطار فينتقيه الناس للباسهم. واهلها من البربر من كتامة، وفيهم الى الآن سدويكش وصدغيان من بطونهم، وفيهم ايضاً من نفزة وهوارة وسائر شعوب البربر. وكانوا قديماً على رأي الخوارج وبقي بها الى الآن فرقتان منهم: الوهبية وهم بالناحية الغربية، ورياستهم ببني سمومن، والنكارة وهم بالناحية الشرقية. وجربة فاصلة بينهما. والظهور والرياسة على الكل ببني سمومن. وكان فتحها أول الاسلام على يد رويفع بن ثابت بن سكن بن عدي ابن حارثة من بني ملك بن النجّار من الأنصار من جند مصر، ولّاه معاوية على طرابلس سنة ست وأربعين فغزا افريقية وفتح جربة سنة سبع بعدها، وشهد الفتح حنش بن عبد الله الصنعاني ورجع الى برقة فمات بها. ولم تزل في ملكة المسلمين الى ان دخل دين الخوارج الى البربر فأخذوا به. ولما كان شأن ابي يزيد سنة احدى وثلاثين وثلاثماية فأخذوا بدعوته بعد ان دخلوها عنوةً، وقتل مقدّمها يومئذ ابن كلدين[1] وصلبه.

ثم استردّها المنصور اسماعيل، وقتل أصحاب أبي يزيد. ولما غلبت العرب صنهاجة على الضواحي وصارت لهم أخذ أهل جربة في انشاء الاساطيل وغزو السواحل. ثم غزاهم عليّ بن

(١) كذا وفي ب: ابن كلوس، وفي نسخة ابن كلدبن، وفي نسخة أخرى: ابن الدين.

يحيى بن تميم بن المعزّ بن باديس سنه تسع وخمسماية باساطيله الى أن انقادوا وضمنوا قطع الفساد وصلح الحال . ثم تغلّب النصارى عليها سنة تسع وعشرين وخمسماية عند تغلّبهم على سواحل افريقية . ثم ثار أهلها عليهم واخرجوهم سنة ثمان واربعين . ثم تغلّبوا عليها ثانية وسبوا اهلها واستعملوا على الرعيّة واهل الفلح . ثم عادت للمسلمين ولم تزل متردّدة بين المسلمين والنصارى الى ان غلب عليها الموحدون ايام عبد المؤمن ، واستقام امرها الى ان استبدّ بنو أبي حفص بافريقية . ثم افترق امرهم بعد حين واستبد المولى ابو زكرياء ابن السلطان أبي اسحاق بالناحية الغربيّة ، وشغل صاحب الحضرة بشأنه كما قدمناه ، فتغلب على هذه الجزيرة اهل صقلية سنة ثمان وثمانين وستماية وبنوا بها حصن القشتيل مربّع الشكل في كل ركن منه برج ، وبين كل ركنين برج . ويدور به حفير وسوران . وأهم المسلمين شأنها ، ولم تزل عساكر الحضرة تتردد اليها كما تقدّم الى ان كان فتحها أيام السلطان أبي بكر على يد مخلوف بن الكماد من بطانته سنة ثمان وثلاثين واستضافها ابن مكي صاحب قابس الى عمله فاضافها اليه ، وعقد له عليها فصارت من عمله سائر أيام السلطان ومن بعده .

واتصلت الفتنة بين أبي محمد بن تافراكين وبين ابن مكي ، وبعث الحاجب ابو محمد بن تافراكين عن ابنه أبي عبد الله ،

وكان في جملة السلطان ببجاية كما قلناه . ولما وصل اليه سرّحه في العساكر لحصار جربة وكان اهلها قد نقموا على ابن مكي سيرته فيهم ، ودسّوا الى ابي محمد بن تافراكين بذلك فسرّح اليه ابنه في العساكر سنة ثلاث وستين . وكان احمد بن مكي غائباً بطرابلس قد نزلها منذ ملكها من أيدي النصارى وجعلها داراً لامارته فنهض العسكر من الحضرة لنظر أبي عبد الله ابن الحاجب أبي محمد ، ونهض الاسطول في البحر فنزلوا بالجزيرة وضايقوا القشتيل بالحصار الى ان غلبوا عليه وملكوه ، وأقاموا به دعوة صاحب الحضرة . واستعمل ابو عبد الله بن تافراكين كاتبه محمد بن ابي القاسم بن أبي العيون ، كان من صنائع الدولة منذ العهد ، وكانت لأبيه قرابة من ابن عبد العزيز الحاجب يرقى بها الى ولاية الاشغال بتونس مناهضاً لأبي القاسم ابن طاهر الذي كان يتولاّها يومئذ ، فكان رديفه عليها الى ان هلك ابن طاهر فاستبدّ هو بها منذ ايام الحاجب أبي محمد ، واتصل ابنه محمد هذا بخدمة ابن الحاجب ، واختصّ بكتابته الى ان استعمله على جربة عند استيلائه عليها هذه السنة ، وانكفأ راجعاً الى الحضرة فلم يزل محمد بن أبي العيون والياً عليها . ثم استبد بها على السلطان بعد مهلك الحاجب وفرار ابنه من السلطان الى أن غلبه عليها السلطان ابو العباس سنة اربع وسبعين كما نذكره .

الخبر عن عودة الأمراء من المغرب واستيلاء السلطان أبي العباس على قسطنطينة

لما هلك السلطان أبو عنان قام بأمره من بعده وزيره الحسن ابن عمر ، ونصب ابنه محمد السعيد للأمر كما نذكره في اخباره . وكان يضطغن للأمير أبي عبد الله صاحب بجاية فتقبض عليه لأول أمره واعتقله حذراً من وثوبه على عمله فيما زعم . وكان السلطان ابو العباس بسبتة منذ انزله السلطان ابو عنان بها ، ورتّب عليه الحرس كما ذكرنا ، فلما انتزى على الملك منصور ابن سليمان من اعياص ملكهم ، ونازل البلد الجديد دار الملك ودخل في طاعته سائر الممالك والأعمال بعث في السلطان أبي العباس واستدعاه من سبتة فنهض اليه . وانتهى في طريقه الى طنجة . ووافق ذلك اجازة السلطان أبي سالم من الاندلس لطلب ملكه . وكان اول ما استولى عليه من اعمال المغرب طنجة وسبتة فاتّصل به السلطان ابو العباس وظاهره على امره الى ان نزع اليه قبيله بنو مرين عن منصور بن سليمان المنتزي على ملكهم فاستوسق امره واستتب سلطانه به ، ودخل فاس . وسرّح الأمير ابا عبد الله من اعتقال الحسن بن عمر كما قدّمناه . ورعى للسلطان أبي العباس ذمّة سوابقه القديمة والحادثة فرفع مجلسه وأسنى جرايته ، ووعده بالمظاهرة على امره ، واستقروا جميعاً

في ايالته الى ان كان من تغلّب السلطان أبي سالم على تلمسان والمغرب الأوسط ما نذكره في اخبارهم . واتصل به ثورة أهل بجاية بعاملهم يحيى بن ميمون ورجالات قبيلهم فامتعض لذلك . وحين قفل الى المغرب نفض يده من الاعمال الشرقية . ونزل للسلطان أبي العباس عن قسطنطينة دار امارته ومثوى عزّه ومنبت ملكه فأوعز الى عاملها منصور بن خلوف بالنزول له عنها ، وسرّحه اليها ، وسرّح معه الأمير ابا عبد الله ابن عمه لطلب حقه في بجاية والاجلاب على عمه السلطان أبي اسحاق جزاء بما نال من بني مرين عند افتتاحها من المعرّة . وارتحلوا من تلمسان في جمادى من سنة احدى وستين وأغذّوا السير الى مواطنهم . فأما السلطان ابو العباس فوقف منصور بن خلوف عامل البلد على خطاب سلطانه بالنزول عن قسطنطينة فنزل واسلمها اليه ، وأمكنه منها فدخلها شهر رمضان سنة احدى وستين ، واقتعد سرير ملكه منها وتباشرت بعودته مقاصر قصورها فكانت مبدءاً لسلطانه ومظهراً لسعادته ومطلعاً لدولته على ما نذكر بعد . وأما الأمير أبو عبد الله صاحب بجاية فلحق بأول وطنها ، واجتمع اليه أولاد سباع اهل ضاحيتها وقفرها من الدواودة . ثم زحف اليها فنازلها أياماً وامتنعت عليه فرحل عنها الى بني ياورار ، واستخدم اولاد محمد بن يوسف والعزيزيين اهل ضاحيتها من سدويكش . ثم نزعوا عنه الى خدمة عمه ببجاية فخرج الى القفر

مع الدواودة الى ان كان من امره ما نذكره ان شاء الله تعالى .

الخبر عن وصول الأخ الأمير أبي يحيى زكريا من تونس وافتتاحه بونة واستيلائه عليها

كان الامير أبو يحيى زكريا منذ بعثه أخوه ابو العباس الى عمهما السلطان ابي اسحاق صريخاً لهم لم يزل مقيماً بتونس ، وبلغه استيلاء السلطان أبي عنان على قسطنطينة فخشي الحاجب ابو محمد ابن تافراكين بادرته ، وتوقع زحفه اليـه وغلبه اياه على الامر . ورأى ان يحصر جناحه في اخيه ، ويتوثق بـه فاعتقله بالقصبة تحت كرامة ورعي . وبعث فيه السلطان ابو الحسن بعد مراوضة في السلم فأطلقه وانعقد بينهما السلم . ولما وصل الأمير ابو يحيى الى اخيه بقسطنطينة عقد له على العساكر ، وزحف الى بونـة فملكها سنة اثنتين وستين ، وعقد له عليها وأنزله بها مع العساكر وأصارها تخمـاً لعمله واستمرّت حالهـا على ذلك الى ان كان ما نذكره ان شاء الله تعالى .

الخبر عن استيلاء الأمير أبي عبد الله على بجاية ثم على تدلس بعدها

لما قـدم السلطان ابو عبد الله من المغـرب ، ونازل بجاية فامتنعت عليه خرج الى احيـاء العرب كما قدمناه ولزم صحابته

أولاد يحيى بن علي بن سبّاع فغربوا في الوفاء بها . واقام بين ظهرانيهم وفي حللهم متقلّباً في طلب بجاية برحلة الشتاء والصيف ، وتكفلوا نفقة عياله ومؤنة حشمه وانزلوه ببلد المسيلة من اوطانهم وتجافوا له عن جبايتهم واقام على ذلك سنين خمساً ينازل بجاية في كل سنة منها مراراً . وتحوّل في السنة الخامسة عنهم الى أولاد علي بن احمد ، ونزل على يعقوب بن علي فأسكنه بمقرة من بلاده الى ان بدا لعمه المولى أبي اسحاق رأيه في اللحاق بتونس لما توقع من مهلك حاجبه وكافله أبي محمد بن تافراكين ، أسرّه اليه بعض الحزى فحذر مغبته ، ووقع لذلك في نفوس اهل بجاية انحراف عنه ومرج امرهم وراسلوا أميرهم الاقدم أبا عبد الله من مكانه بمقرة . وظاهره على ذلك يعقوب بن علي وأخذ له العهد على رجالات سدويكش اهل الضاحية ، وارتحلوا معه الى بجاية ونازلها أياماً . ثم استيقن الغوغاء اعتزام سلطانهم على التقويض عنهم ، وسيموا ملكة علي بن صالح الذي كان عريفاً عليهم فثاروا به ونبذوا عهده ، وانفضّوا من حوله الى الامير أبي عبد الله بالرسة من ساحة البلد . ثم قادوا اليه عمه أبا اسحاق فمنّ عليه وخلى سبيله الى حضرته فلحق بها واستولى ابو عبد الله على بجاية محل امارته في رمضان سنة خمس وستين على علي بن صالح ومن معه من عرفاء الغوغاء اهل الفتنة فاستصفى أموالهم ، ثم أمضى حكم الله في قتلهم . ثم نهض الى

تدلس لشهرين من ملكه بجاية فغلب عليها عمر بن موسى عامل بني عبد الواد، ومن اعياص قبيلهم وتملكها في آخر سنه خمس. وبعث عني من الاندلس كنت مقيماً بها نزيلاً عند السلطان أبي عبد الله بن أبي الحجاج بن الأحمر في سبيل اغتراب ومطاوعة تقلّب منذ مهلك السلطان أبي سالم الجاذب بضبعي الى تنويهه، والراقي بي في خطط كتابته من ترسيل وتوقيع ونظر في المظالم وغيرها. فلما استدعاني هذا الامير ابو عبد الله بادرت الى امتثاله ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ ﴾ فأجزت البحر شهر جمادى من سنة ست، وقلدني حجابته ودفع اليّ امور مملكته، وقمت في ذلك المقام المحمود الى ان أذن الله بانقراض أمره وانقطاع دولته، ولله الخلق والامر وبيده تصاريف الامور.

الخبر عن مهلك الحاجب أبي محمد بن تافراكين واستبداد سلطانه من بعده

كان السلطان ابو اسحاق آخر دولته ببجاية قد تحيّن مهلك حاجبه المستبدّ عليه أبي محمد بن تافراكين لما كان اهل صناعة التنجيم يحدثونه بذلك، فأجمع الرحلة اليها، وانفضّ عنه اهل بجاية الى ابن اخيه كما قدّمناه. واستولى عليه ثم أطلقه الى حضرته فلحق بها في رمضان سنة خمس وستين. وتلقاه ابو محمد بن تافراكين،

وراءه مرهف الحد للاستبداد الذي لقّه ببجاية فكايله بصاع الوفاق، وصارفه نقد المصانعة، وازدلف بانواع القربات . وقاد اليه الجنائب ومنحه من الذخائر والاموال، وتجافى له عن النظر في الجباية. ثم اصهر اليه السلطان في كريمته فعقد له عليها وأعرس السلطان بها . ثم كان مهلكه عقب ذلك سنة ست وستين فوجم السلطان لنعيه وشهد جنازته حتى وضع بلحده من المدرسة التي اختطها لقراءة العلم ازاء داره جوفي المدينة . وقام على قبره باكياً وحاشيته يتناولون التراب حثياً على جدثه فغرب في الوفاء معه بما تحدث به الناس، واستبدّ من بعده بامره واقام سلطانه لنفسه .

وكان ابو عبد الله الحاجب ابن أبي[1] محمد غائباً عن الحضرة . خرج منها بالعسكر للجباية والتمهيد، فلما بلغه خبر مهلك ابيه داخلته الظنة وأوجس الخيفة فصرف العسكر الى الحضرة، وارتحل مع حكيم من بني سليم، وعرض نفسه على معاقل افريقية التي كان يتظنّن انها خالصة لهم . فصدّه محمد بن أبي العيون كاتبه عن جربة، ومحمد بن الحكحاك صنيعتهم وبطانتهم عن المهدية[2] . وبعث اليه السلطان بما رضيه من الامان فاصحب بعد النفور وبادر الى الحضرة فتلقّاه السلطان بالبر والترحيب، وقلّده حجابته وانزله على مراتب العزّ والتنويه .

(١) كذا، وفي ب: الحاجب لأبي محمد.

(٢) كذا، وفي ب: فصده محمد بن أبي العيون كاتبه عن عزمه، فحمد الحكيم صنيعه وطاف بهم على المهدية.

ونكر هو مباشرة السلطان للناس ورفعه للحجاب ، ولم يرضه لما الف من الاستبداد منذ عهد أبيه فأظلم الجو بينه وبين السلطان ، ودبّت عقارب السعاية لمهاده الوثير فتنكر وخرج من تونس ولحق بقسطنطينة ، ونزل بها على السلطان ابي العباس مرغّباً له في ملك تونس ومستحِثّاً فانزله خير نزل ، ووعده بالنهوض معه الى افريقية بعد الفراغ من امر بجاية لما كان بينه وبين ابن عمه صاحبها من الفتنة كما نذكره بعد . واستبدّ السلطان ابو اسحاق بعد مفرّ ابن تافراكين عنه ، ونظر في اعطاف ملكه ، وعقد على حجابته لاحمد بن ابراهيم اليالفي مصطنع الحاجب أبي محمد من طبقة العمال ، وعلى العساكر والحرب لمولاه منصور سريحه من المعلوجي ، ورفع الحجاب بينه وبين رجال دولته وصنائع ملكه حتى باشر جباة الخراج وعرفاء الحشم ، وأوصلهم الى نفسه والغى الوسائط بينهم وبينه إلى حين مهلكه كما نذكر ذلك ان شاء الله تعالى والله أعلم .

الخبر عن استيلاء السلطان أبي العباس على بجاية ومهلك صاحبها ابن عمه

لما ملك الامير ابو عبد الله بجاية واستقل بامارتها تنكر للرعيّة وساءت سيرته فيهم بارهاف الحد للكافة واسخاط الخاصة ، فنغلت [1] الصدور ومرضت القلوب واستحكمت النفرة ،

(١) نغلت نيته : ساءت . نغل قلبه علي : ضغن ـ قاموس .

وتوجهت الصاغية الى ابن عمه السلطان أبي العباس بقسطنطينة لما كان اسوس منه واغلب للذاته وأقوم على سلطانه . وكانت بينهم فتنة وحروب جر بها المنافسة في تخوم العمالتين منذ عهد الاباء . وكان السلطان ابو العباس آيام نزوله على السلطان أبي سالم محمود السيرة والخلال عنده ، مستقيم الطريقة في مثوى اغترابه . وربما كان ينقم على ابن عمه هذا بعض النزعات المعرضة لصاحبها للملامة فيستثقل نصيحته . ونغل بذلك ضميره فلما استولى على بجاية عاد الى الفتنة فشبها ، وشمر عزائمه لما فكان مغلباً فيها . واعتلق منه يعقوب بن علي بذمة في المظاهرة على السلطان أبي العباس فلم يغن عنه ، وراجع يعقوب سلطانه . ثم جهز هو العساكر من بجاية لمزاحمة تخوم قسطنطينة ففضها أبو العباس فنهض اليه ثانية بنفسه في العساكر ، وتراجع العرب من اولاد سباع بن يحيى وجمع هو اولاد محمد وزحف فيهم وفي عسكر من زناتة ، والتقى الفريقان بناحية سطيف فاختل مصاف اهل بجاية وانهزموا ، واتبعهم السلطان أبو العباس الى تاكرارت وجال في عمله ووطىء نواحي وطنه ، وقفل الى بلده .

ودخل الأمير ابو عبد الله الى بجاية وقد استحكمت النفرة بينه وبين اهل بلده فدسوا الى السلطان أبي العباس بقسطنطينة بالقدوم عليهم ، فوعدهم من العام القابل وزحف سنة سبع وستين في عساكره وشيعته من الدواودة أولاد محمد ، وانضوى اليه

أولاد سبّاع شيعة بجاية بالجوار والسابقة القديمة لما نكروا من احوال سلطانهم . وعسكر الأمير أبو عبد الله بلبزو في جمع قليل من الأولياء ، وأقام بها يرجو مدافعة ابن عمه بالصلح فبيّته السلطان بمعسكره من لبزو ، وصبحه في غارة شعواء فانفضّ جمعه ، واحيط به وانتهب المعسكر ومرّ الى بجاية فأدرك في بعض الطريق وتقبض عليه ، وقتل قعصاً بالرماح . وأغذّ السلطان أبو العباس السير الى بجاية فأدرك بها صلاة الجمعة تاسع عشر شعبان من سنة سبع وستين ، وكنت بالبلد مقيماً فخرجت اليه في الملأ ، وتلقاني بالمبرة والتنويه . وأشار اليّ بالاصطناع واستوسق له ملك جدّه الامير أبي زكريا الأوسط في الثغور العربية ، وأقمت في خدمته بعض شهر . ثم توجست الخيفة، في نفسي واذنته في الانطلاق فأذن لي تكرماً وفضلا وسعة صدر ورحمة ، ونزلت على يعقوب بن علي . ثم تحولت عنه الى بسكره ونزلت على ابن مزني الى ان صفا الجو ، واستقبلت من أمري ما استدبرت ، واستأذنته لثلاث عشرة سنة من انطلاقي عنه في خبر طويل نقصّه من شأني فأذن لي ، وقدمت عليه فقابلتني وجوه عنايته ، واشرقت عليّ اشعة بخته [1] كما نذكر ذلك من بعد ان شاء الله تعالى .

---

(١) كذا، وفي ب: نجعته. يقال فلان نجعتي: أي أملي.

الخبر عن زحف أبي حمو وبني عبد الواد الى بجاية ونكبتهم عليها وفتح تدلس من أيديهم بعدها

كان الامير ابو عبد الله صاحب بجاية لما اشتدت الفتنة بينه وبين ابن عمه السلطان أبي العباس مع ما كان بينه وبين بني عبد الواد من الفتنة عند غلبه اياهم على تدلس، تكاد عن حمل العداوة من الجانبين وصغى الى مهادنة بني عبد الواد فنزل لهم عن تدلس، وأمكن منها قائد العسكر المحاصر لها. وأوفد رسله على سلطانهم أبي حمو بتلمسان، وأصهر اليه ابو حمو في ابنته فعقد له عليها وزفها اليه بجهاز أمثالها. فلما غلبه السلطان أبو العباس على بجاية، وهلك في مجال حربه أشاع أبو حمو الامتعاض له لمكان الصهر، وجعلها ذريعة الى الحركة على بجاية. وزحف من تلمسان بجر الشوك والمدد في آلاف من قومه وطبقات العسكر والجند. وتراجع العرب حتى انتهى الى وطن حمزة فأجفل امامه ابو الليل بن موسى ابن زغلي في قومه بني يزيد، وتحصنوا في جبال زواوة المطلة على وطا (1) حمزة. وبعث اليه رسله لاقتضاء طاعته فأوثقهم كتافاً، وكان فيهم يحيى حافد أبي محمد صالح نزع من السلطان أبي العباس الى أبي حمو، وكان عيناً على غرات أبي الليل هذا بما بينهما من

(١) كذا، وفي ب: وطن حمزة.

المربى والجوار في الوطن فجاء في وفد الرسالة عن أبي حمو فتقبض عليهم وعليه ، فقتله وبعث برأسه الى بجاية .

وامتنع على أبي حمو وعساكره فأجازوا الى بجاية ، ونزل معسكره بساحتها وقاتلها أياماً . وجمع الفعلة على الآلات للحصار . وكان السلطان ابو العباس بالبلد وعسكره مع مولاه بشير بتاكرارت ، ومعهم أبو زيّان بن عثمان بن عبد الرحمن ، وهو ابن عم أبي حمو من أعياص بيتهم ، وكان من خبره أنّه كان خرج من المغرب كما نذكره في أخباره . ونزل على السلطان أبي اسحاق بالحضرة ورعى له ابو محمد الحاجب حق بيته فاوسع في كرامته . ولما غلب الأمير ابو عبد الله على تدلس بعث اليه من تونس ليوليه عليها ، ويكون رداء بينه وبين بني حمو ويتفرّغ هو للاجلاب على وطن قسطنطينة فبادر الى الاجابة وخرج من تونس . ومرّ السلطان أبو العبّاس بمكانه من قسطنطينة فصدّه عن سبيله واعتقله عنده مكرماً . فلما غلب على بجاية وبلغه الخبر بزحف أبي حمو اطلقه من اعتقاله ذلك ، واستبلغ في تكرمته وحبائه ، ونصبه للملك وجهز له بعض الآلة . وخرج في معسكر مولاه بشير ليجاجيء به بني عبد الواد عن ابن عمه أبي حمو لما سيموا من ملكته وعنفه .

وكان زغبة عرب المغرب الاوسط في معسكر أبي حمو ، وكانوا حذرين مغبة امره معهم فراسلوا أبا زيّان وائتمروا بينهم

في الارجاف بالمعسكر . ثم تحيّنوا لذلك ان يشبّ الحرب بين اهل البلد واهل المعسكر فاجفلوا خامس ذي الحجة ، وانفض المعسكر وانتهوا الى مضائق الطرقات بساح البلد فكظّت بزحامهم وتراكموا عليها فهلك الكثير منهم ، وخلّفوا من الاثقال والعيال والسلاح والكراع ما لا يحيط به الوصف . واسلم ابو حمو عياله وامواله فصارت نهباً واجتلبت حظاياه الى السلطان فوهبها لابن عمه . ونجا ابو حمو بنفسه بعد ان طاح في كظيظ الزحام عن جواده فنزل له وزيره عمران بن موسى عن مركوبه فكان نجاؤه عليه ، ولحق بالجزائر في الفلّ . ثم لحق منها بلمسان واتبع ابو زيّان اثره واضطرب المغرب الاوسط كما نذكره في اخباره . وخرج السلطان ابو العبّاس من بجاية على اثر هذه الواقعة فنازل تدلس وافتتحها وغلب عليها من كان بها من عمّال بني عبد الواد ، وانتظمت الثغور الغربية كلها في ملكه كما كانت في ملك جده الأمير أبي زكرياء الأوسط حين قسم الدعوة الحفصيّة بها الى ان كان ما نذكره بعد ان شاء الله تعالى .

الخبر عن زحف العساكر الى تونس

كان ابو عبد الله ابن الحاجب أبي محمد بن تافراكين لما نزع عن السلطان أبي اسحاق صاحب الحضرة لحق بحلل اولاد مهلهل

من العرب ووفدوا جميعاً على السلطان أبي العبّاس فاتح سنة سبع وستين يستحثونه الى الحضرة ويرغّبونه في ملكها فاعتذر لهم بما كان عليه من الفتنة مع ابن عمه صاحب بجاية . وزحف اليها في حركة الفتح . وصاروا في جملته فلما استكمل فتح بجاية سرّح معهم أخاه المولى أبا يحيى زكرياء في العساكر فصاروا معه الى الحضرة ، وابن تافراكين في جملته فنازلوها أياماً وامتنعت عليهم فاقلعوا على سلم ومهادنة انعقدت بين صاحب الحضرة وبينهم وقفل المولى ابو يحيى بعسكره الى مكان عمله . ولحق ابن تافراكين بالسلطان فلم يزل في جملته الى ان كان من فتح تونس ما نذكر .

الخبر عن مهلك السلطان أبي اسحاق صاحب الحضرة وولاية ابنه خالد من بعده

لم تزل حال السلطان أبي اسحاق بالحضرة على ما ذكرناه ، ويختلف في الفتنة والمهادنة مع السلطان أبي العباس طوراً بطور ، واستخلص لدولته منصور أبي حمزة أمير بني كعب يستظهر به على امره ، ويستدفع برأيه وشوكته فخلص له سائر أيامه . وعقد سنة تسع وستين لابنه خالد على عسكر لنظر محمد بن رافع من طبقات الجند من مغراوة مستبداً على ابنه . وسرحه مع منصور بن حمزة وقومه ، وأوعز اليهم بتدويخ ضواحي

بونة واكتساح نعمها وجباية ضواحيها فساروا اليها . وسرّح الامير ابو يحيى زكرياء صاحب بونة عسكره مع اهل الضاحية فأغنوا في مدافعتهم وانقلبوا على أعقابهم فكان آخر العهد بظهورهم . ولما رجعوا الى الحضرة تنكر السلطان لمحمد بن رافع قائد العسكر وخرج من الحضرة ولحق بقومه بمكانهم من لحفة من اعمال تونس . واستقدمه السلطان بعد ان استعتب له فلما قدم تقبّض عليه وأودعه السجن . وعلى اثر ذلك كان مهلك السلطان فجاءة ليلة من سنة سبعين بعد ان قضى وطراً من محادثة السمر ، وغلبه النوم آخر ليله فنام ، ولما أيقظه الخادم وجده ميتاً فاستحال السرور ، وعظم الاسف وغلَب على البطانة الدهش .

ثم راجعوا بصائرهم ودفعوا الدهش عن انفسهم وتلافوا امرهم بالبيعة لابنه الامير أبي البقاء خالد فأخذها له على الناس مولاه منصور سريحه من المعلوجي [1] وحاجبه احمد بن ابراهيم البالقي [2] وحضر لها الموحدون والفقهاء والكافة . وانفضّ المجلس وقد انعقد أمره الى جنازة ابيه حتى واروه التراب . واستبدّ منصور وابن البالقي على هذا الامير المنصوب للأمر فلم يكن له تحكم عليها . وكان اول ما افتتحا به أمرهما ان تقبّضا على القاضي محمد بن خلف الله من طبقة الفقهاء ، كان نزع الى السلطان

(١) كذا في النسخة التونسية، وردت في أماكن متفرقة: المعلوجي. ووردت في نسخة بولاق: المعلوجين. في أماكن متفرقة أيضاً.

(٢) كذا، وفي ب: اليالقي.

من بلده نفطة مغاضباً لمقدمها عبد الله بن علي بن خلف ، فرعى له نزوعه اليه واستعمله بخطّة القضاء بتونس عند مهلك أبي علي عمر بن عبد الرفيع . ثم ولّاه قيادة العساكر الى بلاد الجريد وحربهم فكان فيه غَناء ، واستدفعوه مرات بجبايتهم يبعثون بها الى السلطان ، ومرات بمصانعة العرب على الارجاف بمعسكره . وكان ابن البالقي يغص بمكانه من السلطان فلما استبدّ على ابنه أعظم فيه السعاية وتقبض عليه ، وأودعه السجن مع محمد بن علي ابن رافع . ثم بعث عليهما من داخلهما في الفرار من الاعتقال حتى دبروه معه ، وظهر على إمرهما فقتلهما في محبسهما خنقاً والله متولي الجزاء منه . وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون . ثم أظهر ابن البالقي من سوء سيرته في الناس وجوره عليهم وعسفه بهم وانتزاع اموالهم ، وأهانة سبال [1] الاشراف ببابه منهم ما نقموه ، وضرعوا الى الله في انقاذهم من ملكته فكان ذلك على يد مولانا السلطان ابي العباس كما نذكر إن شاء الله تعالى .

(١) كذا، وفي القاموس، سبله: سبه وشتمه. وفي الجملة اضطراب ومقتضى سياقَ العبارة: وإهانة وسيل الأشراف.

فتح تونس وبقية عمالات أفريقية

الخبر عن فتح تونس واستيلاء السلطان عليها واستبداده بالدعوة الحفصية في سائر عمالات افريقية وممالكها

لما هلك السلطان ابو اسحاق صاحب الحضرة سنة سبعين كما قدمناه، وقام بالامر مولاه منصور سريحه وحاجبه الباقي ونصبوا ابنه الامير خالداً للامر صبياً لم يناهز الحلم غراً فلم يحسنوا تدبير أمره ولا سياسة سلطانه، واسخطوا لوقتهم منصور بن حمزة أمير بني كعب المتغلبين على الضاحية بما اطمعوه بسوء تدبيرهم في شركته لهم في الامر. ثم قلبوا له ظهر المجن فسخطهم ولحق بالسلطان أبي العباس وهو مطل عليهم بمرقبة من الثغور الغربية مستجمع للتوثب فاستحثه لملكهم وحرّضه على تلافي أمرهم ورمّ ما تثلم من سياج دولتهم. وكان الأحقّ بالامر لشرف نفسه وجلاله واسفحال ملكه وسلطانه، وشياع الحديث عن عدله ورفقه وحميد سيرته وأمان اهل مملكته من نظر يعقب نظره فيهم او استبداد سواه عليهم فاجاب صريخه وشحذ للنهوض عزمه. وكان اهل قسطنطينة قد بعثوا بمثل ذلك فسرح إليهم أبا عبد الله ابن الحاجب ابي محمد بن تافراكين لاختبار طاعتهم

وابتلاء دخلتهم فسار اليهم واقتضى بيعاتهم وطاعتهم ، وسارع اليها يحيى ابن يملول مقدم توزر والخلف بن الخلف مقدم نفطة فأتوها طواعية . وانقلب عنهم وقد اخذوا بدعوة السلطان واقاموها .

ثم خرج السلطان من بجاية في العسكر وأغذّ السير الى المسيلة ، وكان بها ابراهيم ابن عمه الأمير أبي زكرياء الأخير جاجأ به اولاد سليمان بن علي من الدواودة من مثوى اغترابه بتلمسان ، ونصبوه لطلب حقه في بجاية من بعد اخيه الامير أبي عبد الله وكان ذلك بمداخلة أبي حمو صاحب تلمسان ومواعيد بالمظاهرة مخلفة . فلما انتهى السلطان الى المسيلة نبذوا الى ابراهيم عهده وتبرءوا منه ، ورجعوه من حيث جاء ، وانكفأ راجعاً الى بجاية . ثم نهض منها الى الحضرة وتلقّته وفود افريقية جميعاً بالطاعة ، وانتهى الى البلد فخيّم بساحتها أياماً يغاديها القتال ويراوحها . ثم كشف عن مصدوقته وزحف الى اسوارها ، وقد ترجل اخوه والكثير من بطانته واوليائه فلم يقم لهم شيء حتى تسنّموا الأسوار برياض رأس الطابية ، فنزل عنها المقاتلة وفرّوا الى داخل البلد . وخامر الناس الدهش وتبرءوا بعضهم من بعض ، واهل الدولة في موكبهم وقوف بباب الغدر من ابواب القصبة . فلما رأوا انهم احيط بهم ولوا الاعقاب وقصدوا باب الجزيرة فكسروا اقفاله . وثار اهل البلد جميعاً بهم فخلصوا سلطانهم من

البلد بعد عصب الريق، ومضى الجند في اتباعهم فادرك أحمد بن البالقي فقتل وسيق رأسه الى السلطان. وتقبّض على الأمير خالد فاعتقل ونجا العلج منصور سريحه برأس طمرة[1] ولجام، وذهل عن القتال دون الأحبة.

ودخل السلطان القصر واقتعد اريكته، وانطلقت أيدي العيث في ديار اهل الدولة فاكتسحت بما كان الناس يضطغنون عليهم تحاملهم على الرعيّة واغتصاب اموالهم، فاضطرمت نار العيث في دورهم ومخلّفهم فلم تكد ان تنطفىء، ولحق بعض اهل العافية معرّات من ذلك لعموم النهب وشموله حتى اطفأه الله ببركة السلطان وجميل نيّته وسعادة أمره. ولاذ الناس منه بالملك الرحيم والسلطان العادل، وتهافتوا عليه تهافت الفراش على الذبال يلثمون اطرافه، ويجارون بالدعاء له ويتنافسون في التماح محياه الى ان غشيهم الليل. ودخل السلطان قصوره وخلا بما ظفر من ملك ابائه، وبعث بالامير خالد واخيه في الاسطول الى قسطنطينة فعصفت بهما الريح وانخرقت السفينة وتقاذفت الامواج الى ان هلكا. واستبد السلطان بأمره، وعقد لأخيه الأمير أبي يحيى زكرياء على حجابته. ورعى لابن تافراكين حق انحياشه اليه ونزوعه فجعله رديفاً لاخيه، واستمرّ الأمر على ذلك الى ان كان من أمره ما نذكر إن شاء الله تعالى.

(١) كذا، وفي ب: برأس طرة.

الخبر عن انتقاض منصور بن حمزة واجلابه بالعم أبي يحيى زكريا على الحضرة وما كان عقب ذلك من نكبة ابن تافراكين

كان منصور بن حمزه هذا امير البدو من بني سُلَيم بما كان سيّد بني كعب . وكان السلطان ابو اسحاق يؤثره بمزيد العناية وجعل له على قومه المزية . وكان بنو حمزة هؤلاء منذ غلبوا السلطان ابا الحسن على افريقية وازعجوه منها قد استطالت ايديهم عليها وتقاسموها اوزاعاً ، واقطعهم أمراء الحضرة السهمان في جبايتها زيادة لما غلبوا عليه من ضواحيها وامصارها ، استئلافاً لهم على المظاهرة واقامة الدعوة والحماية من اهل الثغور الغربيّة فلكوا الاكثر منها ، وضعف سهمان السلطان بينهم فيها . فلما استولى هذا السلطان أبو العباس على الحضرة واستبدّ بالدعوة الحفصية كبح أعِنّتهم عن التغلّب والاستبداد وانتزع ما في ايديهم من الأمصار والعمالات التي كانت من قبل خالصة للسلطان . وبدا لهم ما لم يكونوا يحتسبونه فأحفظهم ذلك واهمهم شأنه وتنكر منصور بن حمزة وقلب ظهر المِجَنّ ونزع يده من الطاعة وغمسها في الخلاف ، وتابعه على خروجه على السلطان ابو صمنونة أحمد بن محمد بن عبد الله بن مسكين شيخ حكيم . وارتحل باحيائه الى الدواودة صريخاً مستحيشاً بالأمير أبي يحيى ابن السلطان ابي بكر المقيم بين ظهرانيهم من لدن فعلته بالمهديّة

وانتزائه بها على اخيه المولى أبي اسحاق كما ذكرنا فنصبوه للأمر وبايعوه ، وارتحل معهم ، واغذّوا السير الى تونس . ولقيه منصور بن حمزة في احيائه بنواحي تبسة فبايعوا له . واوفدوا مشيختهم على يحيى بن يملول شيطان الغواية المارد على الخلاف يستحثّونه للطاعة والمدد لمداخلة كانت بينهم في ذلك سوّل لهم فيها بالمواعيد ، واملى لهم حتى اذا غمسوا ايديهم في النفاق والاجلاب سوفهم عن مواعيده ضنانة بماله فاسرّها منصور في نفسه ، واعتزم من يومئذ على الرجوع الى الطاعة .

ثم رحلوا للاجلاب على الحضرة ، وسرح السلطان أبو العباس اخاه الأمير أبا يحيى زكرياء للقيهم في العساكر ، وتزاحفوا واتيح لمنصور وقومه ظهور على عساكر السلطان واوليائه لم يستكمله ، واجلبوا على البلد أياماً . ونمي الى السلطان ان حاجبه ابا عبد الله بن تافراكين داخلهم في تبييت البلد فتقبّض عليه وأشخصه في البحر الى قسطنطينة فلم يزل بها معتقلاً الى ان هلك سنة ثمان وثمانين . ثم سرب السلطان امواله فانتقض على منصور قومه وخشي مغبة حاله ، وسوّغه السلطان جائزته فعود الطّاعة ، ورهن ابنه ونبذ الى سلطانه زكرياء العم عقده ورجّعه على عقبه الى الدواودة . والتزم طاعة السلطان والاستقامة على المظاهرة الى ان هلك سنة ست وتسعين ، قتله محمد ابن اخيه فتيتة في مشاجرة كانت بينهما ، طعنه لها فاشواه ، ورجع جريحاً الى بيته وهلك

دونها آخر يومه . وقام بامر بني كعب بعده صولة ابن اخيه خالد وعقد له مولانا السلطان على امرهم ، واستمرت الحال الى ان كان من امرهم ما نذكره .

الخبر عن فتح سوسة والمهدية

كانت سوسة منذ واقعة بني مرين بالقيروان ، وتغلُّب العرب على العمالات اقطعها السلطان ابو الحسن لخليفة بن عبد الله بن مسكين فيما سوغ للعرب من الامصار والاقطاعات مما لم يكن لهم ، فاستولى عليها خليفة هذا ونزلها واستقل بجبايتها واحكامها . واستبد بها على السلطان ولم يزل كذلك الى ان هلك ، وقام بامره في قومه عامر ابن عمه مسكين أيّام استبداد أبي محمد بن تافراكين فسوّغها له كذلك متقيّلًا مذهب من قبله . ثم قتله بنو كعب ، وقام بامر حكيم من بعده أحمد الملَقَّب ابو صعنونة بن محمد اخي خليفة بن عبد الله بن مسكين فاستبدّ بسوسة على السلطان واقتعدها دار امارته . وربما كان ينتقض على صاحب الحضرة فيجلب عليها من سوسة ، ويشنُّ الغارات في نواحيها حتى لقد اوقع في بعض ايامه بمنصور سريجه مولى السلطان ابي اسحاق وقائد عساكره ، فتقبّض عليه واعتقله بسوسة أياماً ، ثم منّ عليه واطلقه وعاود الطاعة معه ، ولم يزل هذا دأبهم .

وكانت لهم في الرعايا آثار قبيحة وملكات سيئة ، ولم يزالوا يضرعون الى الله في انقاذهم من ايدي جورهم وعسفهم الى ان تأذّن الله لاهل افريقية باقتبال الخير وفيء ظلال الأمر . واستبدّ مولانا السلطان ابو العبّاس بالحضرة وسائر عمالات افريقية ، وهبّت ريح العز على العرب في جميع النواحي فتنكر اهل سوسة لعاملهم أبي صعنونة هذا ، وأحسّ بنكرائهم وخرج عنهم وتجافى للسلطان عن البلد . وثارت عامّتها بعماله فاجهضوهم ونزل عمال السلطان بها . ثم كانت من بعد ذلك حركة المولى أبي يحيى الى نواحي طرابلس ، ودوّخ جهاتها واستوفى جباية عمالها . وكان بالمهديّة محمد بن الجكجاك استعمله عليها الحاجب أبو محمد بن تافراكين ايام ارتجاعه إيّاها من يد أبي العباس بن مكي ، والامير أبي يحيى زكرياء المنتزي بها ابن مولانا السلطان أبي بكر كما مرّ . واقام ابن الجكجاك اميراً عليها ، واستبدّ بها بعد موت الحاجب . فلما وخزته شوكة الاستطالة من الدولة ، وطلع نحوه قتام العساكر فرق من الاستيلاء عليه ، وركب اسطوله الى طرابلس ونزل على صاحبها أبي بكر بن ثابت لذمّة صهر قديم كانت بينهما . وبادر مولانا السلطان الى تسلم المهديّة ، وبعث عليها عماله ، وانتظمت في ملكه واطردت أحوال الظهور والنجح وكان بعد ذلك ما نذكره بعد ان شاء الله تعالى .

الخبر عن فتح جربة وانتظامها في ملك السلطان

كان محمد بن أبي القاسم بن أبي العيون منذ ولاه ابو عبد الله ابن تافراكين على هذه الجزيرة ، قد تقبّل مذاهب جيرانها من اهل قابس وطرابلس وسائر الجريد في الامتناع على السلطان ومصارفة الاستبداد وانتحال مذاهب الامارة وطرقها ولبوس شارتها . وقد ذكرنا سلَفه من قبل ، وان والده كان صاحب الاشغال بالحضرة ايام الحاجب أبي محمد بن تافراكين ، وانه اعتلَق بكاتبة ابنه أبي عبد الله فولاه على جربة عند افتتاحه إيّاها وانه قصده عند مفره عن المولى أبي اسحاق لينزل جربة معولا على قديم اصطناعه اياه فنعه . ثم داخل شيوخ الجزيره من بني سمومن في الامتناع على السلطان والاستبداد بامرهم فاجابوه ، واقام ممتنعاً سائر دولة المولى أبي اسحاق وابنه من بعده .

ولما استولى مولانا السلطان ابو العباس على تونس داخله الروع والدهش ، وصار الى مكاثر رؤساء الجريد في التظافر على المدافعة بزعمهم فاجرى في ذلك شأواً بعيداً مع تخلفه في مضماره بقديه وحديثه . وصادف السلطان سوء الامتثال والتياث الطاعة ومنع الجباية فاحفظه ، ولما افتتح أمصار الساحل وثغوره سرّح ابنه الأمير أبا بكر في العساكر الى جربة ومعه خالصة الدولة محمّد بن علي بن ابراهيم من ولد أبي هلال شيخ الموحدين ،

وصاحب بجاية لعهد المستنصر ، وقد تقدم ذكره . وامدّه بالاسطول في البحر لحصارها . ونزل الامير بعسكره على مجازها ووصل الى مرساها فاطاف بحصن القشتيل ، وقد لاذ ابن أبي العيون بجدرانه وافترق عنه شيوخ الجزائر من البربر ، وانحاش بطانته من الجند المستخدمين معه بها . ولما رأوا ما لا طاقة لهم به ، وأن عساكر السلطان قد احاطت بهم برّاً وبحراً نزلوا الى قائد الاسطول وامكنوه من الحصن ، وبادروا الى معسكر الأمير فاقبل معهم الخاصة ابو عبد الله بن أبي هلال فيمن معه من بطانة الامير وحاشيته فاقتحموا الحصن ، وتقبّضوا على محمّد ابن أبي العيون ونقلوه من حينه الى الاسطول ، واستولوا على داره وولّوا على الجزيرة وارتحلوا قافلين الى السلطان . ووصل محمد بن أبي العيون الى الحضرة ، ونزل بالديوان فاركب الى القصبة على جمل ، وطيف به على اسواق البلد اظهاراً لعقوبة الله النازلة به واحضره السلطان فوبخه على مرتكبه في العناد ومداخلته اهل الغواية من امراء الجريد في الانحراف عنه . ثم تجافى عن دمه واودعه السجن الى ان هلك سنة تسع وسبعين .

الخبر عن استقلال الأمراء من الأبناء بولاية الثغور الغربية

كان السلطان عندما استجمع الرحلة الى افريقية باستحثاث

اهلها لذلك ، ووفادة منصور بن حمزة شيخ الكعوب مرغباً فيها فأهمّه عند ذلك شأن الثغور الغربية ، وأجال اختيـاره في بنيه يسبر أحوالهم ويفتّش عن الأكفاء لهذه الثغور منهم فوقع نظره أولاً على كبير ولده المخصوص بعنايه الله في القاء محبتـه عليه الأمـير ابي عبد الله فعقد له عـلى بجاية واعمالها ، وانزله بقصور الملك منها ، واطلق يده في مال الجباية وديوان الجند . واستعمل على قسطنطينة وضواحيهـا لمولاه القـائد بشير سيف دولته وعنان حربه ، ناشيء قصره وتلاد مرباه . وكانت لهـذا الرجل نجوة من الصرامة والبأس ، ودالّة بالقديم والحادث . وخلال لقتها ايام التقلّب في اواوين الملك . وكان ملازماً ركاب مولاه في مطارح اغترابه وايام تمحّصه . وربما لقي عند الحاحـه عـلى قسطنطينة من المحنة والاعتقال الطويل ما اعاضه الله عنه بجميل التنويه ، وعود العز والملك الى مولاه على احسن الاحوال . وظفر من ذلك بالبغية وحصل من الرتبة على الأمنيـة . وكان السلطان يثق بنظره في العساكر ويبعثه في مقدمـة الحروب ، وكان عند استيلائه على بجـاية وصرف عنايته اليها ولاه امـر قسطنطينة وانزله بها وانزل معه ابنه الأمير أبا اسحاق ، وجعل اليه كفالته لصغره ثم استنفره بالعسكر عند النهوض الى افريقية فنهض في جملته وشهد معه الفتح . ثم رجّعه الى عمله بقسطنطينة بمزيد التفويض والاستقلال ، فلم يزل بما دفع اليه من ذلك الى

ان هلك .

وكان السلطان قد اوفد ابنه ابا اسحاق على ملك المغرب السلطان عبد العزيز عندما استولى على تلمسان مهنّياً بالظفر ملقحاً غراس الود ، واوفد معه شيخ الموحدين ببابه أبا اسحاق بن ابي هلال ، وقد مرّ من قبل ذكره وذكر أخيه فتلقَّاهما ملك المغرب بوجوه المبرّة والاحتفاء ، ورجعهما بالحديث الجميل عنه سنة ثلاث وسبعين . ونزل الأمير ابو اسحاق بقسطنطينة دار امارته ، وعقد له السلطان عليها والقاب الملك ورسومه مصروفة اليه . والقائد بشير مولى ابنه مستبدٌّ عليه لمكان صغره الى ان هلك بشير سنة ثمان وسبعين عندما استكمل الامير ابو اسحاق الخلال ، واستجمع للامارة فجدّد له السلطان عهده عليها وفوض اليه في امارتها وقام بما دفع اليه من ذلك أحسن مقام وأكفأه مصدقاً الظنون التي كانت تومي اليه وشهادة المخايل التي دلّت عليه ، فاستقبل هذان الاميران بثغر بجاية وقسطنطينة وأعمالها مفوضاً اليهما في الامارة مأذوناً لهما في اتخاذ الالة واقامه الرسوم الملوكية والشارة . وكان الأمير ابو يحيى زكرياء الأخ الكريم مستقلاً أيضاً ببونة وعملها منذ استيلائه عليها قد اضافها السلطان اليه واصارها في سهامه ، فلما ارتحلوا الى افريقية عام الفتح وتيقّن الأخ أبو يحيى طول مغيبه واغتباط السلطان اخيه بكونه معه ، عقد عليه لابنه الأمير أبي عبدالله محمد وانزله بقصره منها وفوض

اليه في امارتها لما استجمع من خلال الترشيح والذكر الصالح في الدين . واستمر الحال على ذلك لهذا العهد وهو سنة ثلاث وثمانين وسبعماية والله مدبّر الأمور .

الخبر عن فتح قفصة وتوزر وانتظام أعمال قسطنطينة في طاعة السلطان .

كان امر هذا الجريد قد صار شورى بين رؤساء امصاره فيما قبل دولة السلطان أبي بكر لاعتلال الدولة حينئذ بانقسامها كما مر ، فلما استبد السلطان أبو بكر بالدعوة الحفصية وفرغ من الشواغل صرف اليهم نظره وأوطأهم عساكره . ثم نهض بنفسه فمحى أثر الشورى منها ، وعقد لابنه أبي العبّاس عليها كما قلناه . فلما كان بعد مهلكه من اضطراب افريقية وتغلّب الاعراب على نواحيها ما كان منذ هزيمة السلطان أبي الحسن وبني مرين بالقيروان عاد اهل الشورى في الجريد الى دينهم من التوثّب على الأمر والاستبداد على السلطان ، وتناغى رؤساؤهم بعد ان كانوا سوقة في انتحال مذاهب الملك وشاراته ، يقتعدون الارائك ويعقدون في المشي بين السكك المواكب ، ويهينون في ايوانهم سبال الاشراف ، ويتّخذون الالة ايام المشاهد آية للمعتبرين في تقلّب الايام وضحكة لاهل الشمات ، حتى لقد حدّثتهم انفسهم بالقاب الخلافة ، وأقاموا على ذلك احوالا ، والدولة في التياثها .

فلما استبدّ السلطان ابو العباس بافريقية وعمالاتها ، واتيح منه بالحضرة البازي المطل من مرقبه والأسد الخادر في عرينه ، وأصبحوا فراش له يتوقّعون انصبابه اليهم وتوثّبه بهم ، داخلوا حينئذ الاعراب في مدافعته عنهم باضرام نار الفتنة ، واقتعاد مطيّة الخلاف والنفاق يفتّون بذلك في عزائمه . وأرخى هو لهم طيل الامهال وفسح لهم مجال الايناس بالمقاربة والوعد ، رجاء الفيئة الى الطاعة المعروفة والاستقامة على الجادة فاصرّوا وازدادوا عناداً ونفاقا . فشمّر لهم عن عزائمه ونبذ اليهم عهدهم على سواء .

ونهض من الحضرة سنة سبع وسبعين في عساكره من الموحدين وطبقات الجند والموالي وقبائل زناتة ومن استألف اليه من العرب اولاد مهلهل وحكيم ، واظاهر أولاد أبي الليل على المدافعة عن اهل الجريد ، وواقفوا السلطان اياماً . ثم اجفلوا امامه وغلبهم السلطان على رعاياهم مرنجيزة ، وكانوا من بقايا بني يفرن عمروا ضواحي افريقية مع ظواعن هوارة ونفوسة ونفزاوة . وكانت للسلطان عليهم مغارم وجبايات وافرة . فلما تغلب العرب على بسائط افريقية وتنافسوا في الاقطاعات كانت ظواعن مرنجيزة هؤلاء في اقطاع أولاد حمزة ، فكانت جبايتهم موفورة ومالهم دثراً بما صاروا مدداً لهم بالمال والكراع والزرع والأدم ، وبالفرسان منهم يستظهرون في حروبهم مع السلطان ومن قومهم فاستولى السلطان عليهم في هذه السنة واكتسح اموالهم ، وبعث

برجالهم اسرى الى سجون الحُضرة وقطع بها عنهم اعظم مادة كانت تمدّهم فخمد بذلك من عتوِّهم وقصّ من جناحهم آخر الدهر ، ووهنوا لها . ثم عاد السلطان الى حضرته وافترق اشياعه ونزع عنهم ابو صُعنونة فتألّف مع أولاد أُبي الليل ، ورجعوا الى الحضرة فأجلبوا بساحها أياماً ، وشنُّوا الغارات عليها . ثم انفضُّوا عنها وخرج على أثرهم لاول فصل الشتاء ، وتساحل الى سوسة والمهديّة فاقتضى مغارم الاوطان التي كانت لأبي صعنونة ، ثم رجع إلى القيروان وارتحل منها يريد قَفْصَة . وجمع أولاد ابي الليل للمدافعة عنها ، وسرب فيهم صاحب توزر الاموال فلم تغن عنه . وزحف السلطان الى قفصة فنازلها ثلاثاً ولُجّوا في عصيانهم وقاتلوه فجمع الايدي على قطع نخيلهم فتسايلت اليه الرعيّة من اماكنهم واسلموا أحمد ابن العابد مقدّمهم وابنه محمد المستبدّ عليه لكبره وذهوله ، فخرج الى السلطان واشترط له ما شاء من الطاعة والخراج ، ورجع الى البلد وقد ماج اهلها بعضهم في بعض ، وهموا بالخروج فسابقهم ابنه احمد المستبدّ على أبيه . وكان السلطان سرّح أخاه أبا يحيى في الخاصّة والأولياء الى البلد ، فلقيه محمد هذا في ساحتها فبعث به الى السلطان ، ودخل هو الى القصبة وتملّك البلد . وتقبّض السلطان على محمد ابن العابد لوقته ، وسيق اليه ابوه من البلد فجعل معه واستولى على داره وذخائره .

واجتمع الملأ والكافّة من اهل البلد عند السلطان ، وأتوه

بيعتهم وعقد عليها لابنه أبي بكر، وارتحل يغذّ السير الى توزر وقد طار الخبر بفتح قفصة الى ابن يملول فركب لجينه، واحتمل أهله وما خفّ من ذخيرته، ولحق بالزاب. وطيّر اهل توزر بالخبر الى السلطان فلقيه اثناء طريقه، وتقدّم الى البلد فملكها واستولى علي ذخيرة ابن يملول، ونزل بقصوره فوجد بها من الماعون والمتاع والسلاح وآنية الذهب والفضة ما لا يعتد لأعظ ملك من ملوك الأرض، واحضر بعض الناس ودائع كانت عندهم من نفيس الجوهر والحلي والشياب وبرءوا منها الى السلطان .

وعقد السلطان علي توزر لابنه المنتصر وأنزله قصور ابن يملول، وجعل اليه امارتها . واستقدم السلطان الخلف بن الخلف صاحب نفطة فقدم عليه وأتاه طاعته، وعقد له علي بلده وولاية[1] حجابة ابنه بتوزر وانزله معه وقفل الى الحضرة. وقد كان اهل الخلاف من العرب عند تغلّبه علي امصار الجريد خالفوه الي التلول، فلما قصد حضرته اعترضوه دونها فاوقع بهم وفلّ من غربهم، واجفلوا الى الجهات الغربية يؤملون منها كرة، لما كان ابن يملول قد جأجأ بهم الى خدمة صاحب تلمسان والاستجاشة به، فوفد عليه بتلمسان منصور بن خالد منهم ونصر ابن عمه منصور صريخين به علي عادة صريخهم بأبي تاشفين سلفه فدافعهم

---

(١) كذا، والأصح : وولاه.

بالمواعد ، وتبينوا منها عجزه وانكفوا راجعين . ووفد صولة على السلطان بعد ان توثّق له لنفسه فاشترط له على قومه ما شاء ، ورجع اليهم فلم يرضوا بشرطه . ونهض السلطان من الحضرة في العساكر والأولياء من العرب ، واجفلوا أمامه فاتبعهم واوقع بهم ثلاث مرات واقفوه فيها . ثم اجفلوا ولحقوا بالقيروان وقدم وفدهم على السلطان بالطاعة والاشتراط له كما يشاء فتقبّل ووسعهم عفوه ، وصاروا الى الانقياد والاعتمال في مذاهب السلطان ومرضاته ، وهم على ذلك لهذا العهد .

الخبر عن ثورة أهل قفصة ومهلك ابن الخلف

لما استقل الخلف بن علي ابن الخلف بحجابة المنتصر ابن السلطان ، وعقد له مع ذلك على عمله بنفطة فاستخلف عليها عامله ، ونزل بتوزر مع المنتصر . ثم سعى به أنّه يداخل ابن يملول ويراسله فبث عليه العيون والأرصاد ، وعثر على كتابة بخط كاتبه المعروف الى ابن يملول والى يعقوب بن علي امير الدواودة يحرضها على الفتنة ، فتقبّض عليه واودعه السجن . وبعث عماله الى نفطة واستولى على امواله وذخائره ، وخاطب اباه في شأنه فأمهله بعد ان تبيّن نقضه للطاعة وسعيه في الخلاف . وكان السلطان قبل فتح قفصة قد نزع اليه من بيوتاتها احمد

ابن ابي يزيد، وسار في ركابه اليها . فلما استولى على البلد رعى له ذمّة نزوعه اليه، واوصى به ابنه ابا بكر فاستولى على مشورته وحلّه وعقده، وطوى على النث [١] . ثم حدثته نفسه بالاستبداد وتحيّن له المواقيت. واتفق ان سار الأمير ابو زكرياء من قفصة لزيارة اخيه المنتصر بتوزر، وخلّف بالبلد عبد الله التريكي من مواليهم، وكان السلطان انزله معه، وولاّه حجابته فلما توارى الأمير عن البلد داخل ابن أبي زيد زعنفة من الأوغاد، وطاف في سكك المدينة والهاتف معه ينادي بالثورة ونقض الطاعة. وتقدّم الى قفصة فاغلقها القائد عبد الله دونه، وحاربها، فامتنعت عليه. وقرع عبد الله الطبل بالقصبة واجتمع عليه أهل القرى فأدخلهم من باب كان بالقصبة يفضي الى الغابة فكثروا شيع ابن أبي زيد، وتسلل عنه الناس فلاذ بالاختفاء. وخرج القائد من القصبة فتقبّض على كثير من اهل الثورة فاودعهم السجن واستولى على البلد. وسكن الهيعة وطار الخبر الى المولى أبي بكر فاغذّ السير منقلباً الى قفصة. ولحين دخوله ضرب اعناق المعتقلين من اهل الثورة وامر الهاتف فنادى في الناس بالبراءة من ابن أبي زيد واخيه. ولأيام من دخوله عثر بهما الحرس في مقاعدهم بالباب مستترين بزي النساء فتقبّضوا عليهما وتلّوهما الى الامير فضرب اعناقهما وصلبهما في جذوع النخل. وكانا

---

(١) كذا، وقد ورد في القاموس: نث الخبر أفشاه، ونث الجرح دهنه: ومقتضى السياق هنا: سكت على مضض.

من المترفين فاضبحا مثلا في الايام وقد خسرا دينهما ودنياهما ، وذلك هو الخسران المبين . وارتاب المنتصر صاحب توزر حينئذ بابن خلف ، وحذر مغبة حاله فقتله بمحبسه وذهب في غير سبيل مرحمة وانتظم السلطان أمصار الجريد كلها في طاعته ، واتصل ظهوره الى أن كان ما نذكر .

الخبر عن فتح قابس وانتظامها في ملكة السلطان

هذا البلد لم يزل في هذه الدولة الحفصيّة لبني مكي المشهور ذكرهم في هذه العصور وما اليها . وسيأتي ذكر اخبارهم ونسبهم وأوليتهم في فصل نفرده لهم فيما بعد . وكان اصل رياستهم فيها اتصالهم بخدمة الأمير أبي زكرياء الاول ايام ولايته قابس سنة ثلاث وعشرين وستماية فاختصوا به ، وداخلهم في الانتقاض على اخيه أبي محمد عبدالله عندما استجمع لذلك ، فاجابوه وبايعوا له فرعى لهم هذه الوسائل عندما استبدّ بافريقيّة ، وافردهم برياسة الشورى في بلدهم . ثم سموا الى الاستبداد عند ما فشل ريح الدولة عن القاصية بما حدث من الفتن وانفراد الثغور الغربية بالملك . ولم يزالوا جانحين الى هذا الاستبداد سانحين اليه بثأر الفتن والانتقاض على السلطان ومداخلة الثوار والاجلاب بهم على الحضرة ، والدولة اثناء ذلك في شغل عنهم وعن سواهم من اهل

الجريد منذ أحقاب متطاولة بما كان من انقسام الدولة ، والحاج صاحب الثغور الغربية على مطالبة الحضرة .

ثم استبدّ مولانا السلطان بالدعوة الحفصيّة في سائر عمالات افريقية ، وشغله عنهم شاغل الفتنة مع صاحب تلمسان في الاجلاب على الحضرة مع جيوشه ، ومنازلتهم ثغر بجاية وتسريبه جيوش بني عبد الواد مرة بعد اخرى مع الاعياص من بني أبي حفص والعرب الى افريقية . وكان المتولي لرياسة قابس يومئذ عبدالملك ابن مكي بن احمد بن عبد الملك ورديفه فيها اخوه احمد ، وكانا يداخلان أبا تاشفين صاحب تلمسان في الاجلاب على الحضرة مع جيوشه والثوار القادمين معهم . وربما خالفوا السلطان الى الحضرة ازمان مغيبه عنها كما وقع له مع عبد الواحد بن اللحياني ، وقد مر ذكر ذلك . فلما استولى السلطان ابو الحسن على تلمسان ، وامّحى اثر بني زيان فرغ السلطان أبو بكر لهؤلاء الثوار الرؤساء بالجريد الدائنين بالانتقاض سائر أيامهم . وزحف الى قفصة فملكها فذعروا ولحق احمد بن مكي بالسلطان أبي الحسن متذمّماً بشفاعته ، بعد ان كان الركب الحجازي من المغرب مرّ بقابس وبه بعض كرائم السلطان فاوسعوا حباءها وسائر الركب قِرى وحباء . وقدموا ذلك وسيلة بين يدي وفادته فتقبّل السلطان وسيلته ، وكتب الى مولانا السلطان أبي بكر شافعاً فيهم لذمة السلطان والصهر فتقبّل شفاعته وتجاوز عن الانتقام منهم بما اكتسبوا .

ثم هلك مولانا السلطان ابو بكر وهاج بحر الفتنة والخلاف وعادت الدولة الى حالها من الانقسام ، واشتدت على صاحب الحضرة وجوه الانتصاف منهم فعاد بنو مكي وسواهم من رؤساء الجريد الى حالهم من الاستبداد على الدولة. وقطع اسباب الطاعة ومنع المغارم والجباية ، ومشايعة صاحب الغربية زبوناً على صاحب الحضرة . فلما استبدّ مولانا السلطان أبو العباس بالدعوة الحفصيّة وجمع الكلمة ، واستولى على كثير من الثغور المنتقضة تراسل اهل هذه القصور الجريديّة وتحدّثوا فيما دهمهم وطلبوا وجه الخلاص منه ، والامتناع عليه .

وكان عبد الملك بن مكي اقدمهم بذلك لطول مراسه الفتن وانحياشه الى الثوار ، وكان احمد اخوه ورديفه قد هلك سنة خمس وستين ، وانفرد هو برياسة قابس فراسلوه وراسلهم في الشأن ، واجمعوا جميعاً على تخبيب العرب على السلطان ، وتسريب الاموال فيهم ، ومشايعة صاحب تلمسان بالترغيب في ملك افريقية فانتدبوا لذلك من كل ناحية . وبعثوا البريد الى صاحب تلمسان فاطمعهم من نفسه ، وعلّلهم بالمواعيد الكاذبة والسلطان ابو العباس مقبل على شأنه ، يفتل لهم في الذروة والغارب حتى غلب اولاد أبي الليل الذين كانوا يمدونهم بالمدافعة عنهم ، وافتتح قفصة وتوزر ونفطة . وتبيّن لهم عجز صاحب تلمسان عن صريخهم ، فحينئذ بادر عبد الملك الى مراسلة السلطان يعده من نفسه الطاعة والوفاء

بالجباية ، ويستدعي لاقتضاء ذلك منه بعض حاشيته فاجابه الى ذلك ، وبعث وافده اليه ورجع الى الحضرة في انتظاره فطاوله ابن مكي في الغرض وردّه بالوعد .

ثم اضطرب امره وانتقض عليه اهل ضاحيته بنو احمد احدى بطون دباب ، وركبوا اليه فحاصروه وضيّقوا عليه ، واستدعوا المدد لذلك من الامير ابي بكر صاحب قفصة وأمدّهم بعسكر وقائد فنازلوه واشتد الحصار . واتهم ابن مكي بعض اهل البلد بمداخلتهم فكبسهم في منازلهم وقتلهم ، وتنكرت له الرعية وساء حاله ، ودسّ الى بعض المفسدين من العرب من بني علي في تبييت العسكر المحاصرين له ، واشترط لهم على ذلك ما رضوه من المال فجمعوا لهم وبيتوهم فانفضّوا ونالوا منهم . وبلغ السلطان خبرهم فاحفظه وأجمع الحركة على قابس وعسكر بظاهر الحضرة في رجب سنة احدى وثمانين ، وتلوّم أياماً حتى استوفى العطاء واعترض العساكر ، وتوافت احياء اوليائه من اولاد مُهَلهِل وأحلافهم من سائر سُلَيم . ثم ارتحل الى القيروان وارتحل منها يريد قابس ، وقد استكمل التعبية . وبادر الى لقائه والأخذ بطاعته مشيخة دباب أعراب قابس من بني سليم . ووفد منهم خالد بن سبّاع بن يعقوب شيخ المحاميد ، وابن عمه علي ابن راشد فيمن اليهم يستحثونه الى منازلة قابس ، فاغذّ السير اليها ، وقدم رسله بين يديه بالانذار لابن مكي . وانتهوا اليه

فرجعهم بالانابة والانقياد الى الطاعة . ثم احتمل رواحله وعبأ ذخائره وخرج من البلد ، ونزل على احياء دباب هو وابنه يحيى وحافده عبد الوهاب ابن ابنه مكي الهالك منذ سنين من قبل .

واتصل الخبر الى السلطان فبادر الى البلد ودخلها في ذي القعدة من سنته ، واستولى على منازل ابن مكي وقصوره . ولاذ اهل البلد بطاعته وولى عليها من حاشيته ، وكان ابو بكر ابن ثابت صاحب طرابلس قد بعث الى السلطان بالطاعة والانحياش ، ووافته رسله دون قابس . فلما استكمل فتحها بعث اليه من حاشيته لاقتضاء ذلك فرجعهم بالطاعة ، واقام عبد الملك بن مكي بعد خروجه من قابس بين احياء العرب ليالي قلائل . ثم بغتته الموت فهلك ولحق ابنه وحافده بطرابلس فمنعهم ابن ثابت الدخول اليها فنزلوا بزنزور من قراها في كفالة الجواري من بطون دباب . ولما استكمل السلطان الفتح وشؤنه انكفأ راجعاً الى الحضرة فدخلها فاتح اثنتين وثمانين ، ولحقه رسله من طرابلس بهدية ابن ثابت من الرقيق والمتاع بما فيه الوفاء بمغارمه بزعمه . ووفد عليه بعد استقراره بالحضرة رسل اولاد أبي الليل متطارحين في العفو عنهم والقبول عليهم فاجابهم الى ذلك ، ووفد صولة بن خالد شيخهم وقبله ابو صعنونة شيخ حكيم ، ورهنوا ابناءهم على الوفاء واستقاموا على الطاعة . واتصل النجح والظهور ، والامر على ذلك لهذا العهد ، وهو فاتح ثلاث وثمانين وسبعماية والله مالك

الامور لا رب غيره .

الخبر عن استقامة ابن مزني وانقياده وما اكتنف ذلك من الأحوال

كان هؤلاء الرؤساء المستبدون بالجريد والزاب منذ فرغ السلطان لهم من الشواغل ، واسترابوا بغبة حالهم معه ومر وغتهم له بالطاعة يرومون استحداث الشواغل ويؤملون لها سلطان تلمسان لمهدهم ابا حمو الأخير وانه يأخذ بحجزته عنهم ان وصلوا به ايديهم ، واستجثوه لذلك لائتلافهم مثلها من سلف قومه . وابن حمو وأبي تاشفين من قبله قياساً متورّطاً في الغلط بعيداً من الاصابة لما نزل بسلطان بني عبد الواد في هذه العصور من الضعف والزمانة ، وما اصاب قومهم من الهلاك والشتات بايديهم وايدي عدوّهم وتقدّمهم في هذا الشأن احمد ابن مزني صاحب بسكره لقرب جواره ، واشتهار مثلها من سلفه فاتبعوه وقلّدوه وغطى هواهم جميعاً على بصيرتهم . وقارن ذلك نزول الامير أبي زيّان ابن السلطان أبي سعيد عم أبي حمو علي بن يملول بتوزر عند منابذة سالم بن ابراهيم الثعالبي اياه ، وكان طارد به أياماً . ثم راجع ابا حمو وصرفه سنة ثمان وسبعين فخرج من اعمال تلمسان وأبعد المذهب عنهم ، ونزل على ابن يملول بتوزر .

وطير الخبر الى امامه في تلك الفتنة احمد بن مزني واغتبطوا

بمكان أبي زيان ، وان تمسكهم بـه ذريعة الى اعتمال أبي حمو في مرضاتهم ، واجابته الى داعيهم وركض بريدهم الى تلمسان في ذلك ذاهباً وجائياً حتى اعيت الرسل واشتبهت المذاهب ، ولم يحصلوا على غير المقاربة والوعد لكن على شريطة التوثّق من أبي زيّان . وبيناهم في ذلك اذ هجم السلطان على الجريد وشرد عنه أولاد أبي الليل الذين تكفلوا لرؤسائه بالمدافعة . وافتتح قفصة وتوزر ونفطة ، ولحق يحيى بن يملول ببسكرة ، واستصحب الأمير ابا زيان فنزل على ابن مزني ، وهلك لايام قلائـل كما ذكرنا . واستحكمت عندها استرابة يعقوب بن علي شيخ رياح بامره مع السلطان لما سلف منه في مداخلة هؤلاء الرهط وتمسكهم بحقويه والمبالغة في العذر عنهم . ثم غيرته بانظـاره من مشيخة الداودة الذين انحاشوا الى السلطان فافاض عليهم عطاءه ، واختصهم بولايته فحدث لذلك منه نفرة واضطراب ، وارتحل الى السلطـان ابي حمو صاحب تلمسان فاتح اثنتين وثمانين يستجيشه لهؤلاء الرهط ويهزّه بها الى البدار بصريخهم .

ونزل على اولاد عريف اوليائه من سويد ، واوفد عليه ابنه فتعلّل لهم بمنافرة حدثت في الوقت بينه وبين صاحب المغرب ، وانّه لهم بالمرصاد متى رابهم ريب من نهوض السلطان أبي العباس اليهم ، تمسك بذلك طرف التوثّق من أبي زيان وربما دسّ اليهم بمشارطة اعتقاله والقائه في غيابات السجون . وفي مغيب يعقوب

هذا طرق السلطان تمحيص من المرض ارجف له المفسدون بالجريد ودسّ شيع ال يملول بخبره الى صبي من ابناء يحيى مخلف ببسكرة ، فذهل ابن مزني عن التثبت لها ذهاباً مع صاغية الولد واوليائه ، وجهّزهم لانتهاز الفرصة في توزر مع العرب المشارطين في مثلها بالمال ، واغذّ السير الى توزر على حين غفلة من الدهر وخف من الجند فجلى المنتصر واوليائه في الامتناع ، وصدق الدفاع وتمحّصت بهذا الابتلاء طاعة اهل توزر ومخالصتهم ، وانصرف ابن يملول باخفاق من السعي واليم من الندم وتوقع للمكاره . ووافق ببسكرة قدوم يعقوب بن علي مرجعه من الغرب فبالغ في تعُييبهم بالملامة على ما احدثوا بعده من هذا الخرق المتسع المعيي على الراقع .

وكان السلطان لأول بلوغ الخبر باجلابهم على توزر وممالأة ابن مزني على ابنه واوليائه اجمع النهوض الى بسكرة وعسكر بظاهر الحضرة ، وفتح ديوان العطاء وجهز الات الحصار . وسرى الخبر بذلك اليهم فخلصوا نجيّاً ونفضوا عيبة آرائهم فتمحض لهم اعتقال أبي زيان الكفيل لهم بصريخ أبي حمو على زعمه فتعللوا عليه ببعض النزعات ، وتورطوا في اخفار ذمته وطيروا بالصريخ الى أبي حمو ، وانتظروا فما راعهم إلاّ وافده بالعذر عن صريخهم والاعاضة بالمال فتبيّنوا عجزه ونبذوا عهده ، وبادروا لتخلية السبيل لأبي زيّان والعذر له لما كان السلطان نكر عليهم من امره فارتحل عنهم ولحق

بقسطنطينة . وحملهم بن علي على اللياذ بالطاعة ، واوفد ابن عمه متطارحاً وشافعاً فتقبّل السلطان فيئته ووسيلته ، وأغضى لابن مزني عن هناته واسعفهم بكبير دولته وخالصة سرّه أبي عبد الله ابن أبي هلال ليتناول منه المخالصة . ويمكن له الالفة وتمسح عن هواجس الارتياب والمخافة .

وكان لقاؤه اشهى اليهم من الحياة ففصل عن الحضرة ، وانتهى السلطان في ذي القعدة آخر سنة اثنتين وثمانين لتفقّد اعماله وابتلاء الطاعة من اهل اوطانه . ولما وصل وافد السلطان الى ابن مزني القى زمامه اليه وحكمه في ذات يده وقبله ، ومحى اثر المراوغة واستجدّ لبوس الانحياش والطاعة ، وبادر الى استجادة المقربات وانتقى صنوف التحف . وبعث بذلك في ركاب الوافد مع الذي عليه من الضريبة المعروفة محملا اكتاد ثقاته وظهور مطاياه . ووصلوا معسكر السلطان بساح تبسة فاتح ثلاث وثمانين ، فجلس لهم السلطان جلوساً فخماً ولقاهم قبولاً وكرامة فعرضوا الهدية ، واعربوا عن الانحياش والطاعة وحسن موقع ذلك من السلطان وشملهم احسان السلطان في مقاماتهم وجوائزه على الطبقات في انصرافهم ، وانقلبوا بما ملأ صدورهم احساناً ونعمة ، وظفروا برضى السلطان وغبطته . وحسبهم بها امنيّة وبيد الله تصارف الامور ومظاهر الغيوب .

الخبر عن انتقاض أولاد أبي الليل ثم مراجعتهم الطاعة

قد ذكرنا ما كان من رجوع اولاد أبي الليل هؤلاء الى طاعة السلطان اثر منصرفه من فتح قابس ، وانهم وفدوا عليه بالحضرة فتقبّلهم وعفا عنهم كبائرهم واسترهن على الطاعة ابناءهم ، واقتضى بالوفاء على ذلك ايمانهم . وخرج الأخ الكريم ابو يحيى زكرياء في العساكر لاقتضاء المغارم من هوارة التي استأثروا بها في فترة هذه الفتن . وارتحل معه أولاد أبي الليل واحلافهم من حكيم حتى استوفى جبايته وجال في اقطار عمله . ثم انكفأ راجعاً الى الحضرة ، ووفدوا معه على السلطان يتوسلون به في اسعافهم بالعسكر الى بلاد الجريد لاقتضاء مغارمهم على العادة واستيفاء اقطاعاتهم فسرح السلطان معهم لذلك أبا فارس ، وارتحلوا معه باحيائهم وكان ابن مزني وابن يملول من قبله وابن يعقوب بن علي كثيراً ما يراسلونهم ويستدعونهم لمثل ما كانوا فيه من الانحراف ومشايعة صاحب تلمسان .

ولما اعتقلوا ابا زيّان ببسكرة كما ذكرناه وثوقاً بصريخ أبي حمو ومظاهرته . نبضت عروق الخلاف في اولاد ابي الليل ونزعوا الى اللحاق بيعقوب بن علي رجاء فيما توهموه من استغلاظ أمرهم بصاحب تلمسان ويأساً من معاودة التغلّب الذي كان لهم على ضواحي

افريقية ففارقوا الأمير آبا فارس بعد أن ابلغوه مأمنه من قفصة ، وساروا باحيائهم الى الزاب فلم يقعوا على الغرض. ولا ظفروا بالبغية ، ووافوا يعقوب وابن مزني ، وقد جاءهم وافد أبي حمو بالقعود عن نصرتهم ، والأمير ابو زيّان قد انطلق لسبيله عنهم فسقط في ايديهم وعاودهم الندم على ما استدبروا من امرهم ، وحملهم يعقوب على مراجعة السلطان واوفد ابنه محمداً في ذلك مع وافد العزيز أبي عبد الله محمد بن أبي هلال فتقبّلهم واحسن التجاوز عنهم. وبعث ابا يحيى اخاه لاستقدامهم اماناً لهم وتأنيساً . وبذل لهم فوق ما أمّلوه من مذاهب الرضى والقبول واتصال النجح والظهور ، والحمد لله وحده .

تغلب ابن يملوك على توزر وارتجاعها منه

قد كان تقدم لنا أن يحيى بن يملول لما هلك ببسكرة تخلّف صبيّاً اسمه ابو يحيى ، وذكرنا كيف اجلب على توزر سنة اثنتين وثمانين مع لفيف أعراب رياح ومرداس . فلما كان سنة ثلاث وثمانين بعدها وقعت مغاضبة بين السلطان وبين اولاد هلال من الكعوب ، وانحدروا الى مشاتيهم بالصحراء فبعث اميرهم يحيى بن طالب عن هذا الصبي أبي يحيى من بسكرة ، ونزل باحيائه بساح توزر ، ودفع الصبي الى حصارها ، واجتمع عليه

شيعته من نواحي البلد وأوشاب من اعراب الصحراء ، واجلبوا على البلد وناوشوا اهلها القتال ، وكان بها المنتصر ابن السلطان فقاتلهم اياماً . ثم تداعى شيعهم من جوانب المدينة وغلبوا عساكرهم واحجروهم بالبلد ، ثم دخلوا عليهم ، وخرج المنتصر ناجياً بنفسه الى بيت يحيى بن طالب . واستذمّ به فاجاره وابلغه الى مأمنه بقفصة ، وبها عاملها عبد الله التريكي .

واستولى ابن يملول على توزر ، واستنفد ما معه وما استخرجه من ذخائرهم بتوزر في اعطيات العرب ، وزادهم جباية السنة من البلد بكمالها ، ولم يحصل على رضاهم . وبلغ الخبر الى السلطان بتونس فشمر عزائمه وعسكر بظاهر البلد ، واعترض الجند وازاح عللهم وارتحل الى ناحية الأربص ، وهو يستألف الاعراب ويجمع لقتال اولاد مهلهل اقتالهم واعداءهم اولاد أبي الليل وأولياءهم واحلافهم ليستكثر بهم ، حتى نزل فحص تبسة فاراح بهم اياماً حتى توافت امداده من كل ناحية ، ثم نهض يريد توزر . ولما احتلّ بقفصة قدم اخاه الأمير أبا يحيى وابنه الأمير المنتصر في العساكر ومعهما صولة بن خالد بقومه أولاد أبي الليل ، وسار على اثرهم في التعبية . ولما انتهى اخوه وابنه الى توزر حاصروها وضيّقوا عليها اياماً . ثم وصل السلطان فزحف اليها العساكر من جوانبها وقاتلوها يوماً الى المساء . ثم باكروها بالقتال فخذل ابن يملول اصحابه وافردوه فذهب ناجياً بنفسه الى حلل

العرب ، ودخل السلطان البلد واستولى عليه ، واعاد ابنه الى محل امارته منه وانكفأ راجعاً الى قفصة . ثم الى تونس منتصف اربع وثمانين .

ولاية الأمير زكريا ابن السلطان على توزر

ثم عاد ابن يملول الى الاجلاب على توزر من السنة القابلة وخرج السلطان في عساكره فكر راجعاً الى الزاب ، ونزل السلطان قفصة ووافاه هنالك ابنه المنتصر ، وتظلّم اهل توزر من أبي القاسم الشهرزوري الذي كان حاجباً للمنتصر فسمع شكواهم ، وانهى اليه الخاصة سوء دخلته وقبيح افعاله فقبض عليه بقفصة واحتمله مقيداً الى تونس . وغضب لذلك المنتصر وأقسم لا يلي على توزر . وسار معه السلطان الى تونس وولّى على توزر الأمير زكرياء من ولده الأصاغر لما كان يتوسّم فيه من النجابة فصدقت فراسته فيه ، وقام بامرها واحسن المدافعة عنها وقام باستئلاف الشارد من احياء العرب وامرائهم حتى تم امره وحسنت ولايته ، والله متولي الامور بحكمته سبحانه .

وفاة الأمير أبي عبد الله صاحب بجاية

كان السلطان لما سار الى فتح تونس ولّى على بجاية ابنه محمداً

كما مر واقام له حاجبا ، وأوصاه بالرجوع الى محمد بن أبي مهدي زعيم البلد وقائد الاسطول المتقدم على اهل الشطارة والرجولة من رجل البلد ورماتهم ، فقام هذا الامير أبو عبد الله في منصب الملك ببجاية احسن قيام واصطنع ابن ابي مهدي احسن اصطناع فكان يجري في قصوره واغراضه ويكفيه مهمه في سلطانه ، ويراقب مرضاة السلطان في احواله ، والأمير يعرف له ذلك ويوفيه حقه الى ان ادركته المنية اوائل خمس وثمانين فتوفي على فراشة آنس ما كان سرباً وآمن روعاً مشيعاً من رضى ابيه ورعيته بما يفتح له ابواب الرضى من ربه ، وبلغ نعيه الى ابيه بتونس فبادر بانفاذ العهد لابنه أبي العباس أحمد بولاية بجاية مكان ابيه ، وجعل كفالة امره لابن ابي مهدي مستبداً عليه واستقامت الامور على ذلك .

حركة السلطان الى الزاب

كنت أنتهي بتأليف الكتاب الى ارتجاع توزر من يد ابن يملول وأنا يومئذ مقيم بتونس ، ثم ركبت البحر منتصف اربع وثمانين الى بلاد الشرق لقضاء الفرض ونزلت بالاسكندرية ثم بمصر ، وصارت اخبار المغرب تبلغنا على السنة الواردين ، فمن اول ما بلغنا وفاة هذا الامير ابن السلطان ببجاية سنة خمس

وثمانين . ثم بلغنــا بعدها حركة السلطان الى الزاب سنة ست وثمانين ، وذلك انّ أحمد بن مزني صاحب بسكرة والزاب لعهده كان مضطرب الطاعة يجير على السلطان ويمنع في اكثر السنين المغارم معولاً على مدافعة العرب الذين ملكوا ضواحي الزاب والتلول دونه ، واكثر وثوقه في ذلك بيعقوب ابن علي وقومــه الدواودة . وقد مرّ طرف من اخباره في ذلك مشبوثاً في اخبار الدولة . وكان ابن يملول قد اوى الى بلده واتخذ وكراً في جوه وأجلب على توزر مراراً برأيه ومعونته فاحفظ ذلك السلطان ونبه له عزائمه .

ثم نهض سنة ست وثمانين يريد الزاب بعد ان جمع الجموع واحتشد الجنود واستألف العرب من بني سُلَيم فصاروا معــه واوعبوا ، ومر عــلى فحص تبسة . ثم خرج من طرف جبل اوراس الى بلد تهودا من اعمال الزاب ، واعصوصب الدواودة ومن تبعهم من قبائل رياح على المدافعة دون بسكرة والزاب غيرة من بني سليم ان يطرقوا اوطانهم او يرِدوا مراعيهم إلاّ بني سبّاع ابن شبل من الدواودة فانهم تحيزوا الى السلطان . واستنفر ابن مزني حماة وطنه ورجالة قومه من الاتبج فغصّت بسكرة بجموعهم وتوافت الفريقان ، وناوشهم السلطان القتال اياماً وهو يراسل يعقوب بن علي ويستحثّه لما كان يطمعه به من المظاهرة على ابن

مزني ، ويعقوب يخادعه بانحراف قومه عنه وائتلافهم على ابن مزني ويرغّبه في قبول طاعته ووضع اوزار الحرب مع رياح حتى تتمكن له فرصة اخرى فتقبّل السلطان نصيحته في ذلك وأغضى لابن مزني ولرياح عنها ، وقبل طاعته وضريبته المعلومة ، وانكفأ راجعاً ، ومر بجبل اوراس ، ثم الى قسطنطينة فاراح بها ثم رتحل الى تونس فوصل اليها منتصف ست وثمانين .

حركة السلطان الى قابس

كان السلطان قد فتح مدينة قابس سنة احدى وثمانين وانتظمها في اعماله وشرّد عنها بني مكي فذهبوا الى نواحي طرابلس ، وهلك كبيرهم عبد الملك وعبد الرحمن ابن اخيه أحمد ، وذهب ابنه يحيى الى الحجّ ، واقام عبد الوهاب بزنزور ثم رجع الى جبال قابس يحاول على ملكها . واستتب له ذلك بوثوب جماعة من اهل البلد بعاملها يوسف الابار من صنائع السلطان لقبح ايالته وسوء سيرته فداخلوا جماعة من شيعة بني مكي في ضواحي قابس وقراها وواعدوهم فجاءوا لميعادهم وعبد الوهاب معهم ، واقتحموا باب البلد وقتلوا البوّاب . ثم قصدوا ابن الأبار فقتلوه في مسكنه سنة اثنتين وثمانين . وملك عبد الوهاب البلد واستقل بها كما كان سلفه . وجاء اخوه يحيى من

المشرق فاجلب عليه مراراً يروم ملك البلد منه فلم يتهيّأ له ذلك ، ونزل على صاحب الحامة وأقام عنده يحاول أمر البلد منها فبعث عبد الوهاب الى صاحب الحامة ، وبذل له المال على ان يمكنه منه فبعث اليه به فاعتقله بقصر العروسيين ، واقام يراوغ السلطان عن الطاعة ويبذل ماله في أعراب الضاحية من دباب وغيرهم للمدافعة عنه ، ومنع الضريبة التى كانوا يؤدونها للسلطان ايام طاعتهم ، والسلطان مشغول عنهم بمهمّه فلما فرغ من شواغله بافريقية والزاب نهض اليه سنة تسع وثمانين بعد ان اعترض عساكره واستألف من العرب اولياءه وسرب فيهم عطاءه .

ونزل على قابس وقد استعد لها وجمع الالات لحصارها فاكتسح نواحيها ، وجثم عليها بعساكره يقاتلها ويقطع نخيلها حتى اعاد الكثير من الفافها براحاً وموج الهواء في ساحتها فصح بعد ان كانوا يستوخمونه لاختفائه بين الشجر ، وفي متكاثف الظلال وما يلحقه بذلك من التعفّن فذهب عنها ما كان يعهد فيها من ذلك الوخم رحمة من الله اصابتهم من عذاب هذا السلطان ، وربما صحت الاجسام بالعلل . ولما اشتد بهم الحصار وضاق المخنق ، وظن ابن مكي انه قد احيط به استعتب للسلطان واستأمن فاعتبه وأمّنه ، ورهن ابنه على الطاعة واداء الضريبة وافرج عنه السلطان وانكفأ راجعاً الى تونس ، واستقام ابن مكي حتى كان من تغلّب عمه يحيي عليه ما نذكره .

رجوع المنتصر الى ولاية توزر وولاية أخيه زكريا على نفطة ونفزاوة

كان العرب أيام ولاية المنتصر بتوزر قد حمدوا سيرته واصفقوا [1] على محبته والتشيّع له ، فلما رجع السلطان عن قابس رغبوا اليه في طريقهم ان يولي المنتصر على بلاد الجريد كما كان ويردّد على عمله بتوزر . وتولى ذلك بنو مهلهل واركبوا نساءهم الظعن في الهوادج ، واعترضوا بهنّ السلطات سافرات مولولات دخلاء عليه في اعادة المنتصر الى توزر لما لهم فيه من المصالح فقبل السلطان وسيلتهن واعاده الى توزر ، ونقل ابنه زكرياء الى نفطة ، واضاف اليها عمل نفزاوة فسار اليها واستعمله واظهر من الكفاية والاضطلاع ما تحدث به الناس عنه ، وكانت ولايته اول سنة تسعين .

فتنة الأمير ابراهيم صاحب قسطنطينة مع الدواودة ووفاة يعقوب بن علي ثم وفاة الأمير ابراهيم اثرها

كان للدواودة بقسطنطينة عطاء معلوم مرتب على مراتبهم زيادة لما بايديهم من البلاد في التلول والزاب باقطاع السلطان ، وضاق نطاق الدولة لهذه العصور فضاقت الجباية ، وصار العرب يزدرعون الأراضي في بلادهم بالتلول ولا يحتسبون بمغارمها فيضيق

---

(١) بمعنى : أجمعوا.

الدخل ، ويمنعهم السلطان العطاء من اجل ذلك فتفسد طاعتهم وتنطلق بالعيث والنهب ايديهم . ولما رجع الامير ابراهيم من حركته في ركاب ابيه الى قابس ، وكان منذ اعوام ينقص من عطائهم لذلك ويعللهم بالمواعيد فلما قفل من قابس اجتمعوا اليه وطلبوا منه عطاءهم فتعلّل عليهم ، وجاءه يعقوب بن علي مرجعه من الحج واشار عليه بانصاف العرب من مطالبهم فاعرض عنه وارتحل لبعض مذاهبه، وتركه ونادى في العرب بالفتنة معه يروم استئلاف اعدائه فاجابه الكثير من اولاد سبّاع بن شبل وأولاد سبّاع بن يحيى وباديتهم من ذؤبان رياح ، وخرج يعقوب من التل فنزل على نقاوس فاقام بها ، وانطلقت ايدي قومه على تلول قسطنطينة بالنهب وانتساف الزروع حتى اكتسحوا عامّتها ولحقوا به مالئي اليد مثقلي الظهر .

ثم طرقه المرض فهلك سنة تسعين ونقلوا شلوه الى بسكرة فدفنوه بها ، وقام مكانة في قومه ابنه محمد . واستمر على العصيان وصعد الى التل في منتصف احدى وتسعين ، واستألف الأمير ابراهيم اعداءه من الدواودة واحلافهم من البادية وجنح اليه ابو ستّة بن عمر أخو يعقوب بن علي بن محمد من اولاد عائشة أم عمر ، وخالفه اخوه صميت الى محمد بن يعقوب . ثم تحاربوا مع الامير ابراهيم فهزموه وقتل ابو ستة . ثم جمع السلطان لحربهم ودفعهم عن التلول ومنعهم من المصيف عامهم ذلك

وانحدروا الى مشاتيهم وعجزوا بعدها عن الصعود الى التلول وقضوا مصيفهم عامهم ذلك بالزاب ، وانحدروا منه الى المشاتي فلما رجعوا من مشاتيهم وقد فقدوا الميرة انطلقت ايديهم على نواحي الزاب فانتسفوا زروعه ، وكاد ان يفسد ما بينهم وبين ابن مزني مظاهرهم على تلك الفتنة . ثم ارتحلوا صاعدين الى التلول ، وقد جمع الامير ابراهيم لدفاعهم عنه . وبينما هو في ذلك الم بـه طائف من المرض فتوفي سنة اثنتين وتسعين وافترقت جموعه. وأغذّ محمد بن يوسف السير الى نواحي قسطنطينة فاحتلّ بها مظاهراً للطاعـة متبرياً من الخلاف ، ونادى في أهل البلاد بالأمان والعمارة فصلحت احوال الرعايا والسابلة . وبعثوا الى السلطـان بتونس مستأمنين مستعتبين فأمّنهم واعتبهم واقـام بقسطنطينة مكان ابنه ابراهيم ابنـه [1] وبعث من حضرته محمد ابن مولاه بشير لكفالته والقيـام بدولته فقام بامرها وصلحت الاحوال

منازلة نصارى الفرنج المهدية

كانت أمّة الفرج وراء البحر الرومي في الشمال قد صار لهم التغلّب ودولة بعـد انقراض دولة الروم فملكوا جزائره مثل :

(١) كذا بياض بالأصل ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على اسم ابنه هذا.

دانية وسردانية وميورقة وصقلية ، وملأت اساطيلهم فضاءه ، ثم تخطوا الى سواحل الشام وبيت المقدس فملكوها وعادت لهم سورة التغلب في هذا البحر بعد ان كان سورة المسلمين فيه لايتقاوم الى آخر دولة الموحدين بكثرة اساطيله ومران راكبيه فغلبهم الفرنج وعادت السورة لهم ، وزاحمتهم اساطيل المغرب لعهد بني مرين أياماً . ثم فشل ريح الفرنجة واختل مركز دولتهم بافرنسة ، وافترقت طوائف في اهل برشلونة وجنوة والبنادقة وغيرهم من امم الفرنجة النصرانيّة ، واصبحوا دولاً متعدّدة فتنبهت عزائم كثير من المسلمين بسواحل افريقية لغزو بلادهم ، وشرع في ذلك اهل بجاية منذ ثلاثين سنة فيجمع النفراء والطائفة من غزاة البحر ، ويصنعون الاسطول ويتخيّرون له الابطال الرجال ، ثم يركبونه الى سواحل الفرنجة وجزائرهم على حين غفلة فيتخطفون منها ما قدروا عليه ، ويصادمون ما يلقون من اساطيل الكفرة فيظفرون بها غالباً ويعودون بالغنائم والسبي والاسرى ، حتى امتلأت سواحل الثغور الغربية من بجاية باسراهم تضج طرق البلد بصخب السلاسل والأغلال عندما ينتشرون في حاجاتهم ويغالون في فدائهم بما يتعذر معه او يكاد ، فشقّ ذلك على امم الفرنجة وملأ قلوبهم ذلاً وحسرة وعجزوا عن الثأر به ، وصرخوا على البعد بالشكوى الى السلطان بافرنجة فصمّ عن سماعها وتطارحوا بثّهم وشكلهم فيما بينهم وتداعوا لنزال المسلمين ، والأخذ بالثأر منهم .

وبلغ خبر استعدادهم الى السلطان فسرّح ابنه ابا فارس يستنفر اهل النواحي ويكون رصداً للاسطول هنالك واجتمعت اساطيل جنوة وبرشلونة ومن وراءهم او مجاورهم من امم النصرانية ، واقلعوا من جنوة فحطوا بمرسى المهديّة منتصف اثنتين وتسعين وطرقوها على حين غفلة ، وهي على طرف من البر داخل في البحر كأنّه لسان دالع فارسوا عندها ، وضربوا عند اول الطرف سوراً من الخشب بينه وبين البر حتى اصاروا المعقل في حكمهم ، وعالوا عليه بالابراج وشحنوها بالمقاتلة ليتمكنوا من قتال البلد ، ومن يأتيهم من مدد المسلمين ، وصنعوا برجاً من الخشب من جهة البحر يشرف على اسوار المعقل لتعظم نكايتهم ، وتحصن اهل البلد وقاتلوهم صابرين محتسبين . وتوافت اليهم الامداد من نواحي البلد فحال دونهم الفرنجة .

وبلغ الخبر الى السلطان فاهمَّه امرها ، وسرّح العساكر تترى الى مظاهرتهم . ثم خرج أخوه الأمير ابو يحيى زكرياء وسائر بنيه فيمن حضره من العساكر فانطلقوا لجهاد هذا العدوّ ، واستنفروا المقاتلة من الاعراب وغيرهم فاجتمعت بساحتها أمم ، وألحوا على الفرنجة بالقتال ونضح السهام حتى احجروهم في سورهم . وبرز الفرنجة للقتال فكان بينهم وبين المسلمين جولة جلّى فيها ابناء السلطان ، وكاد الامير أبو فارس منهم أن يتورّط لولا حماية الله التي وقته . ثم تداركت عليهم الحجارة والسهام

والنفط من سور البلد فاحترق البرج المطل عليها من جهة البحر فوجموا لحريقه. ثم ركبوا من الغد اسطولهم واقلعوا الى بلادهم ، وخرج اهل المهدية يتباشرون بالنجاة ويتنادون بشكر الامراء على ما اعتمدوه في نصرهم ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ . وأمر الامير ابو يحيى برم ما تثلم من اسوارها ولم ما تشعب منها ، وقفل الى تونس وقد انجح الله قصدهم واظهرهم على عدوهم .

انتقاض قفصة وحصارها

كان السلطان أبو العباس قد ولى على قفصة عند ما ملكها ابنه الأمير أبا بكر وأقام في خدمته من رجال دولتهم عبد الله التريكي من موالي جدهم السلطان أبي يحيى فانتظم به امره ، واقام بها حولاً . ثم تجافى عن امارتها ولحق بأبيه بتونس سنة اثنتين وثمانين فجعل السلطان امر قفصة لعبد الله التريكي وولاه عليها ثقة بغنائه واضطلاعه . ولم يزل والياً بها الى ان هلك سنة اربع وتسعين ، وولى السلطان مكانه ابنه محمداً ، وكان له اخوة اصاغر أبناء علات فنافسوه في تلك الرتبة وحسدوه عليها ، واغراهم به محمد الدنيدون من قرابة احمد بن العابد كان ينظر في قسمة الماء بالبلد وكان فيها عدلا معقلاً فلم تطرقه

النكبة كما طرقت قومه ، وابقاه السلطان بالبلد فاغرى هؤلاء الاخوة باخيهم ووثبوا بـه فاعتقلوه واظهروا العصيان . ثم حمله اعيان البلد على البراءة من بني عبد الله التريكي استرابة بهم ان يراجعوا طاعـة السلطان فتوثّب بهم واخرجهم واستصفاهم واستقل برياسة البلد كما كان قومه ، والسلطان في خلال ذلك يرعد ويبرق ويواصل الاعذار والانذار ، وهم قد لجوا في طغيانهم . ثم جمع جنوده واحتشد واستألف الأعراب ، ووفّر لهم الأعطيات . ونهض إليها حتى نزل بساحتها منتصف خمس وتسعين . وقد استعدوا وتحصنوا فالحّ عليهم القتال واذاقهم النكال ، وقطع عنهم الميرة فضيق مخنقهم . ثم عدا على نخلهم فقطعها حتى صرع جذوعها وفسح المجال بين لفافها .

ولما اشتدّ بهم الحصار وضاق عليهم المخنق ، خرج شيخهم الدنـيدن إلى السلطان يعقد معه صلحاً على بلده وقومه فغدر به ، وحبسه رجاء ان يملك بذلك البلد . وكان بعض بني العابد اسمه عمر بن الحسن قد انتبذ عن قفصة أيام نكبتهم وأبعد في المغرب ، ثم رجع ونزل بأطراف الزاب . ولما استقلّ الدنيدن بقفصة قدم عليه فأقام معه أياماً . ثم استراب به وتقبّض عليه وحبسه . فلما غدر به السلطان اجتمعت عليه المشيخة وعقدوا له الامرة ، وبعثوا الى العرب يسترحمونهم ويعطفونهم على ذخيرتهم فيهم . وسربوا اليهم الأموال فتصدّى للدفاع عنهم صولة بن خالد بن حمزة أمير أولاد

أبي الليل . وزحف الى السلطان بمعسكره من ظاهر البلد ، وكان اولياءه من العرب قد ابعدوا عنه في الجهات لانتجاع إبلهم فما راعه إلاّ إطلاق صولة براياته في قومه فاجفل واتبعوه . وما زال يكرُّ عليهم في بنيه وخواصّه حتى ردّهم على اعقابهم . وأغذّ السير إلى تونس وهم في اتباعه ، ولم يظفروا منه بعقال إلاّ ما كان من طعن القنا ووقع السيوف حتى وصل الى حضرته . ثم ندم صولة على ما كان منه وارسل السلطان بطاعته فلم يقبله ، وانحدر الى مشاتيه سنة ست وتسعين .

واستدعى ابن يملول من عش نفاقه ببسكرة فخف اليه ، ودفعه اليها تربه في الغيّ أحمد ابن مزني صاحب الزاب . ووصل ابن يملول الى صولة فأغراه بحصار توزر ، ونزل معه عليها بقومه فجلّى الأمير المنتصر في دفاعهم والامتناع عليهم حتى يئسوا واضطربت آراؤهم ، وافرجوا عنها مفترقين . وصعد صولة الى التلّ للمصيف به ، وعاود الرغبة من السلطان في قبول طاعته . وكان محمد الدنيدن لما اجفل السلطان عن قفصة تركه بتلك الناحية فلما وصل الى تونس راسل اهل قفصة في الرجوع اليهم فاجابه بعض اشياعه ، ودخل البلد فنذر به عمر بن العابد وكبسه بمكانه الذي نزل به وقتله ، واستبدّ بمشيخة قفصة . وخشي أهل قفصة من غائلة السلطان وسوء مغبّة العصيان فبعثوا إلى السلطان بطاعتهم ، وشرط عليهم نزول عامله عندهم ، وهذا آخر ما بلغنا

عنهم ولم يبلغنا انه عقد لهم ولا لصولة أمراً والله يصرف الامور بحكمته .

ولاية عمر ابن السلطان على صفاقس واستيلاؤه منها على قابس وجزيرة جربة

هذا الامير عمر ابن السلطان هو شقيق ابراهيم الذي كان أميراً بقسنطينة [1] وكان في كفالة اخيه ابراهيم فلما توفي كما مرّ لحق بالسلطان ابيه واقام عنده . ولما كان من وفاة أبي بكر ابن ثابت شيخ طرابلس ما قدمناه واضطراب قومه من بعده ، ونزع قائدهم قاسم بن خلف الى السلطان فبعث معه ابنه عمر هذا سنة اثنتين وتسعين لحصار طرابلس ، واقام عليها حولاً كريتا يحاصرها ويمنع الاقوات عنها ، حتى ضجروا وضجر من طول المقامة فدافعوه بالضريبة وانكفأ راجعاً الى ابيه سنه خمس وتسعين . ووافاه جائها على قفصة عند ما انتقضوا عليه . وقد كان مرّ في طريقه على جربة ، واراد الدخول اليها فمنعه عامل ابيه بها من الموالي المعلوجي فأنف من ذلك ، وشكاه الى ابيه فولاّه على صفاقس . ووعده بولاية جربة فسار هو الى صفاقس وأجاز البحر الى جزيرة جربة ، وانضمّ اليه جميع من بها من القبائل . وامتنع العلج

(١) كذا وردت في النسخة التونسية، وفي النسخة المصرية، طبع بولاق وردت غالباً: قسطنطينة وأحياناً قسطينية. وذكرت في معجم البلدان: قسنطينية. وفي المنجد قسنطنة، كما في كتب التاريخ الحديثة.

منصور العامل بحصنها المسمى بالقشتيل بلسان الفرنج ، حتى كاتب السلطان وأمره بتمكين ابنه من الحصن والافراج له عن الجزيرة أجمع فاستبدّ بها ثم ان الامير عمر سما الى ملك قابس فداخل اهل الحامّة جارتها المجلبة عليها على الأيام في ذلك واجابوه ، وساروا معه بجموعه سنة ست وتسعين فبيّتها وملكها . وقبض على رئيسها يحيى بن عبد الملك بن مكي فضرب عنقه ، وانقرض أمر بني مكي من قابس واستقلّ بها الأمير عمر مضافة الى ما كان بيده والله وارث الامور .

وفاة السلطان أبي العباس وولاية ابنه أبي فارس عزوز

كان السلطان أبو العبّاس قد أزمن به وجع النِقْرِس حتى كان في غالب أسفاره يحمل على البغال في المِحَفَّة . ثم اشتدّ به آخر عمره واشرف في سنة ستٍّ وتسعين على الهلكة . وكان أخوه زكرياء رديفه في الملك والمرشّح بعده للأمر ، وابنه محمد والياً في بونة موضع إمارته من قبل . وكان للسلطان وُلْدٌ كثيرون يتطاولون الى مكان أبيهم ويغصّون بعمهم زكرياء ، ويخشون غائلته بعد ابيهم . فلما قارب السلطان مَنِيَّته اشتدّ جزعهم واشفاقهم من عمهم . وبعث السلطان كبيرهم أبا بكر بعهده على قسنطينة[1] فسار اليها بين أيدي موته ، واعصوصب

(١) كذا، كما في المنجد وكتب التاريخ الحديثة ، أو قسطنطينة كما وردت في نسخة طبع بولاق وفي بعض كتب التاريخ القديمة . أو قسنطينية كما في معجم البلدان .

الباقون على كبيرهم بعده أبي فارس عزّوز فقبضوا على عمهم زكرياء ، وقد دخل يعود اخاه ، وأودعوه في بعض الحجر ووكلوا به . وهلك السلطان لثلاث بعدها فبايعوا أخاهم أبا فارس رابع شعبان سنة ستٍ وتسعين وجاء اهل البلد الى بيعته أفواجاً من الأعيان والكافّة فتمّت بيعته ، وأمر بنقل ما في بيوت عمّه من الأموال والذخيرة الى قصره حتّى استوعبها ، وضيّق عليه في محبسه وقام بتدبير ملكه وسياسة سلطانه . وولّى بعض اخوانه على منابر عمله بأفريقية فبعث احدهم على سوسة والثاني على المهديّة ، وردف أخاه اسماعيل في ملكه بتونس ، وأحلّ الباقين محل الشورى والمفاوضة .

وبلغ الخبر الى أخيه المنتصر بتوزر فاضطرب امره ولحق بالحامّة فاقام بها . وكذلك اخوه زكرياء بنفطة فلحق بجبال نفزاوة . وكان أخوه ابو بكر لما سار الى قسطنطينة لولاية ابيه قبل وفاته مرّ ببونة فلقيه صاحبها الأمير محمد ابن عمه زكرياء بما شاء من انواع الكرامة والبرّة ووافى قسطنطينة فطلب منه القائمون بها كتاب السلطان بعهده عليها فاقرأهم إيّاه ، وفتحوا له الابواب فدخل واستولى على امرها . وكان خالصة السلطان محمد ابن ابي هلال قد بعثه السلطان قُبَيْل موته الى السلطان أبي فارس عبد العزيز المتولي بالمغرب بعد وفاة أبيه السلطان أبي العبّاس بن أبي سالم في صفر من شهور السنة ،

أبو فارس عزوز السلطان أبو العباس بن أحمد بن محمد بن السلطان أبي بكر بن ابراهيم بن عبد الواحد بن أبي حفص

يهار

الامير أحمد بن محمد

الامير أبو بكر

الامير أبو زيد عبد الرحمن

أبو فارس عبد العزيز

محمد أبو عبيدة بن المخلوع يحيى بن المنتصر محمد

ولي العهد زكريا

محمد بن ضربه بن زكريا

أبو الحسن بن أبي زيد

محمد بن أبي بكر بن عمران موسى بن ابراهيم

مزاحم السلطان أبي بكر

الشهيد

ابراهيم بن أبي بكر الشهيد

وحمّله من الهدايا والتحف ما يليق بامثالها فسار ، فلما انتهى الى ميلة بلغه الخبر بوفاة السلطان مرسله ، وأوعز إليه الأمير أبو بكر من قُسَنْطِينَةَ بالرجوع اليه فرجع بهديته ، واستقرَّ عنده هنالك . هذا آخر ما بلغنا من الأخبار الصحيحة عنهم لهذه السنين ، وحالهم على ذلك لهذا العهد ، والملك بيد الله يؤتيه من يشاء .

بني مُزْني

الخبر عن بني مزني أمراء بسكرة وما اليها من الزاب

هذا البلد بَسْكَرَة هو قاعدة وطن الزاب لهذا العهد وحده من لدن قصر الدَوْسن بالغرب الى قصور تَنُّومة وبادِس في الشرق ، يفصل بينه وبين البسيط الذي يسمُّونه الحَضْنَة جبل جاثم من المغرب الى المشرق ، ذو ثنايا تفضي اليه من تلك الحضنة ، وهو جبل دَرن المتَّصل من اقصى المغرب الى قبلة بَرْقة . يعتمر ذلك الجبل في محاذاة الزاب من غربيه بقايا مغراوة من زناتة ، ويتصل من شرقيه بجبل اوراس المطل على بسكرة المعترض في ذلك البسيط من القبلة الى الشمال ، وهو جبل مشهور الذكر ياتي الخبر عن بعض ساكنيه . وهذا الزاب وطن

كبير يشتمل على قرى متعددة متجاورة جمعاً جمعاً ، يعرف كل واحد منها بالزاب . وأولها زاب الدوسن ، ثم زاب طولَقَه ، ثم زاب مَليلَه وزاب بسكرة وزاب تَهودا وزاب بادِس . وبسكرة أمُّ هذه القرى كلها ، وكانت مشيختها في القديم بعد الأغالِبَة والشيعة لعهد صَنهاجة ملوك القلعة في بني رُمّان من اهلها بما كثروا ساكنها ، وملكوا عامة ضياعها . كان لجعفر بن أبي رمّان منهم صيت وشهرة .

وربّما نقضوا الطاعــة لعهد بُلكين بن محمّد بن حمّاد صاحب القلعة في سني خمسين وأربعماية ، وضبطوا البلد وامتنعوا . وتولى كبر ذلك جعفر بن أبي رمانة ، ونازلتهم جيوش صَنهاجة الى نظر الوزير خَلَف بن أبي حَيدَرَة من صنائــع الدولة فاقتحمها عليهم ، واحتملهم الى القلعة فقتلهم بلكين جميعاً ، وجعلهم عظَة لمن بعدهم .

وأصار امر الشورى لبني سندي من اهلها . وكان لعروس منهم بعد ذلك خلوص في الطاعة وانحياش الى الدولة ، على حين تقلّص ظلها وفشل ريحها ، وألوى الهرم بشبابها . وهو الذي فتك بالمنتصر ابن خزرون الزناتي عند وصوله من المشرق واجتلابه على السلطان بقومه من مغراوة واعراب الأثْبَج وبني عَدَيّ من بني هلال فكر به السلطان واقطعه ضواحي الزاب وريغــة طعمة . ودس الى عروس في الفتك به ففعل كما قدمنا ذكره في اخبار آل حَمّاد .

وأنقرضت رئاسة بني سندي بانقراض امراء صنهاجة من افريقيَة . وجاءت دولة الموحِّدين ، والكثرة والبيت لبني رمان . وكان بنو مزني لِفقاً [١] من لفائق الأعراب وصلوا الى افريقيَة احلافاً لطوالع بني هلال بن عامر في المائة الخامسة كما قدّمناه .

ونسبهم بزعمهم في مازنَ من فَزارَة والصحيح انهم في لطيف من الاثبج . ثم من بني جُرى بن عَلْوان بن محمد بن لُقْمان بن خليفة ابن لطيف ، واسم ابيهم مُزنَة بن دَيفَل بن مُحيَّا بن جُرىَ ، هكذا تلقَّيته من بعض نسَّابة الهلاليين ، وشهد لذلك الوطن فان اهل الزاب كلهم من افاريق الأثبج ، عجزوا عن الظعن ونزلوا قراه على من كان بها قبلهم من زَناتة وطوالع الفتح . وإنَّما يرعون عن هذا النسب فَزارَه لما صار اليه اهل الاثبج بالزاب من المغرم والوضائع ، فيستنكفون لذلك وينتسبون الى غرائب الأنساب . وكان أوّل نزلهم بقرية من قرى بسكرة ، كانت تعرف بقرية حَيَّاس . ثم عفوا وتأثَّلوا واخذوا مع اهل بسكرة بحظٍ وافر في تلك العقار والمياه . ثم انتقلوا الى البلد واستمتعوا منها بالمنزل والظلال ، وقاسموا اهلها في الحلو والمرّ ، وانتظم كبارهم في ارباب الشورى من المشيخة . ثم استنكف بنو رمان من انتظامهم معهم وحسدوهم ما آتاهم الله من فضله ، وحذّروهم على انفسهم فاضطرمت بينهم نار العداوة والاحن ، كان أوّلها

(١) يقال للرجلين لا يفترقان : هما لفقان .

الكلام والترافع الى سِدّة السلطان بتونس على حين استقلال أبي حفص بافريقيَّة ، ولعهد الامير ابي زكرياء وابنه السلطان المُستَنْصر .

ثم تناجزوا الحرب وتواقعوا سكك المدينة ، وكانت صاغية الدولة مع بني رمّان لقديمهم في البلد . ولما خرج الأمير ابو اسحاق على اخيه محمد المستنصر لأول بيعته ، ولحق بالدواودة من العرب وبايع له موسى بن محمد بن مسعود البُلْط أمير البَدْوِ يومئذ ، واعتمل به بسكرة وبلاد الزاب ، وأناخَ عليها بكلكله كما قدّمناه . قام يومئذ فضل بن علي بن أحمد بن الحَسَن بن عليّ بن مزني بدعوته ، واعلن بين اهل البلد بطاعته واتبعوه على كره . ثم عاجلتهم عساكر السلطان وأجْهَضَتْهم [1] عن الزاب فاعتلق فضل بن علي به ، واستمسك بذيله وصحبه في طريقه إلى الاندلس ، وبدار غربته منها ، الى ان هلك المُستَنْصِرُ اخوه . وهيّأ الله له من امر الخلافة ما هَيّأ حسبما ذكرناه . ولما تمّ أمره ، واقتعد بتونس كرسي خلافته عقد لفضل بن عليّ على الزاب ، ولأخيه عبد الواحد على بلد الجريد رعياً لذمّة خدمتهما ، وذكراً لائتلافهما في المنزل الخشن وصحبتهما ، فقدم والياً على الزاب ، ودخل بسكرة واستكان بنو رمّان لصولته وانقادوا في مرضاة الدولة الى امره فلم ينشبوا [1]

(١) أجهضه عن الأمر: أبعده ونحاه، وأجهضه عن مكانه: أنهضه بمعنى حركه للنهوض وأقامه.

(٢) كذا في الأصل، ولا معنى لها هنا. ومقتضى السياق: فلم ينبسوا بكلمة.

بكلمة في شأنه، واضطلع بتلك الولاية ما شاء الله.

ثم كان شأن الدعي ابن أبي عمارة وتلبيسه، ومهلك السلطان أبي اسحاق على يده. ثم ثار منه السلطان ابو حفص باخيه واسترجع ما ضاع من ملكهم، وكل منهم يشق بغَنائه، ويعوِّل في امر الزاب على كفايته. وسيم اعداؤه بنو رمان أيام ولايته فداخلوا اولاد حَريز من لطيف أحد بطون الاثابج، كانوا نزلوا بقرية ماشاش لصق المدينة حين عجزوا عن الظعن، وخالطوا اهل البلد في احوالهم، وامتزجوا معهم بالنسب والصهر فأغروهم بفضل بن علي ان يكون التقدم لهم في الفتك به، وتناول الامر من يده، وان يخربوا بيوتهم من قرية ماشاش بايديهم ليسكنوا اليهم ويطمئنوا الى ولايتهم حلفاً عقدوه على المكر بهم. ولما أوقعوا به بظاهر البلد في بعض أيام ركوبه سنة ثلاث وثمانين، ونزلوا من أمر الزاب ما كان يتولاه تنكَّر لهم بنو رمان لحولين من ذلك الحلف، ونابذوهم العهد فخرجوا عن البلد، وفقدوا المأوى للتمرُّس بها من قريب فتفرَّقوا في بلد ريغة. واستبد بنو رمان بشورى بسكرة والزاب منتقضين عليهم وعلى السلطان، والدواودة قد تغلّبوا عليه وعلى بلاد الحضنة، من ورائه نقاوس ومَقْرَة والمسيلة. وكان منصور بن فضل بن علي عند مهلك ابيه بالحضرة في بعض شؤونه، فلما هلك أبوه واستبد بنو رمان بعده، بثُّوا السعايات فيه الى السلطان بالحضرة فانجحت وتقبَّض عليه

واعتقل ايام السلطان أبي حفص .

ولما تغلب المولى ابو زكرياء يحيى ابن الأمير أبي اسحاق على بجاية وقسنطينة وبونة ، واستقلّ بأمرها وانقسمت دولة آل أبي حفص بملكه ذلك منها ، تمسّك اهل الزاب بدعوة صاحب الحضرة المولى ابي حفص وفرّ منصور بن فضل بن علي من محبسه بتونس ولحق ببجاية بعد مهلك الحاجب القائم بالأمر ابي الحسين بن سيّد الناس ، وتولية السلطان أبي زكرياء مكانه ، كاتبه أبا القاسم بن أبي يحيى سنه احدى وتسعين وستماية ، فلازم خدمته وخف عليه وصانعه بوجوه التحف ، وضمن له تحويل الدعوة بالزاب لسلطانه ، وتسريب امواله وجبايته إليه واستماله بذلك ، فعقد له على الزاب وأمدّه بعسكر فنازل بسكرة . ووفد اهلها بنو رمان على السلطان ببجاية ببيعتهم فرجّعهم على الاعقاب الى عاملهم منصور ، وكتب اليه بقبول فيئتهم فدخل البلد سنة ثلاث وتسعين ، وكادهم في بناء القصر لشيعته ، وتحصن العسكر بسوره . ثم نابذهم العهد وثار بهم وأجلاهم عن البلد ، واستمكن فيه ورسخت قدم امارته ، واستدرّ جباية السلطان ، واتسع له نطاق العمالة فاستضاف الى عمل الزاب جبل أوراس ، وقرى ريغة وبلاد واركلا ، وقرى الحضنة : مقرة ونقاوس والمسيلة . فعقد له السلطان على جميعها ، ودفعه الى مزاحمة العرب في جبايتها وانتهاش لحومها إذ كانوا قد

غلبوا على سائر الضواحي فساهمهم في جبايتهـا ، حتى كاد يغلبهم عليها . ووفر أموال الدولة وأنمى الخراج وصانع رجال السلطان فالقوا عليه بالمحبة ، وجذبوا بِضَبْعِهِ ألى اقصى مراتب الاصطناع فأثرى واحتجن الأمـوال ، ووَشَجَتْ عروق رياسته ببسكرة ، ورسخت منابت عِزّه . وهلك المولى ابو زكرياء الأوسط على رأس المائة السابعة ، وولوا مكانه ابنه الأمير ابا البقاء خالد كما قدمناه ، وقام بامره حاجبه أبو عبد الرحمن بن غَمْر .

وكان لمنصور بن فضل هذا اختصاص به واعتلاق بيد جاهه فاستنام اليه وعوّل في سائر الضواحي من ممالك السلطـان على نظره ، وعقد له على بـلاد التلّ من أرض سدويكش وعياض فاستضافها الى عمله ، وجرد عن ساعـد كفايته في جبايتها فلقَّح عقيمها وتفجرت ينابيعهـا . ثم حـدثت بينـه وبـين الدولة منافرة ، واجلب على قسنطينة بيحيى بن خالد ابن السلطان ابي اسحاق ، جَأجأ به تِلِمْسان ، وبايع له ، واستألف الدواودة لمشايعته ، ونازل به قسنطينة ثم اطلع على كامن صدره فيه وما طوى عليه من التربص به فحل عقدته ، ولحق بمعسكره ببسكرة ، وراجع الطاعة . ولحق به يحيى بن خالد فاعتقله الى ان هلك سنة عشرين ، وكانت بينه وبين المرابطين اهل السنة من العرب اتباع سعادة المشهور الذكر فتن وحروب ، طالبوه بترك المغـارم والمكوس تخفيفاً عن الرعية وعملاً بالسنَّة التي كانوا ملتزمين لطريقها ، ونازلوه

من اجل ذلك ببسكرة مراراً . ثم هلك سعادة في بعض حروبه على مليلى كما مرّ في ذكره سنة خمسين وسبعماية . وجمع منصور بن مزني للمرابطين ، وبعث عسكره يقوده ابنه عليّ بن منصور مع علي ابن احمد شيخ الدواودة ، وعلى المرابطين ابو يحيى بن أحمد أخوه ومعه رجالات المرابطين مثل : عيسى بن يحيى بن ادريس شيخ اولاد عساكر ، وعطية بن سليمان بن سبّاع وحسن بن سلامة شيخ اولاد طلحة فهزموا عسكر ابن مزني وقتلوا ابنه علياً وتقبّضوا على علي بن احمد ، ثم منّوا عليه واطلقوه . ورجعوا الى بسكرة فنازلوها وقطعوا نخيلها . ثم عاودوه ثانية وثالثة . ولم يزل الحرب بينه وبين هؤلاء المرابطين سائر ايامه . وكان الحاجب ابن عمر قد استخلصه لنفسه واحلّه محل الثقة بخلته والاستقامة الى صفائة .

ولما نهض السلطان ابو البقاء الى تونس صحبه الحاجب في جملته حتى اذا أعمل المكيدة في الانصراف عن السلطان شاركه في تدبيرها الى ان تمت كما قدمناه . ورجع الحاجب الى قُسَنْطِينَة ، وصرفه الى مكان عمله من الزاب . وكان يتردد اليه ببجاية للزيارة والمطالعة في اعماله الى ان غدر به العرب في بعض طرقه اليها . وتقبض عليه من امراء الدواودة علي بن احمد بن عمر بن محمد بن مسعود ، وسليمان بن علي بن سبّاع بن يحيى بن مسعود على حين اجتذبا حبل الامارة من يد عثمان بن سباع بن شبل بن موسى ابن محمد ، واقتسما رياسة الدواودة قومهما فاستمكنا من هذا

العامل منصور بن فضل في مرجعه من عمله ببلاد سدويكش ، واوثقوه اعتقالا ، وهموا بقتله فافتدى منهم بخمسة قناطير من الذهب ، وارتاشوا [1] بمكسوبهم وصرفوا في وجوه رياستهم انفاقها . وقبض منصور بن فضل عنانه عن السفر بعدها إلاّ في الاحايين . وبعد اخذ الرهن من العرب الى ان كانت حركة مولانا السلطان أبي يحيى الى تونس سنة سبع عشرة اول حركاته اليها ، وطالب حاجبه يعقوب بن غمر وهو بثغر بجاية بالاموال للنفقات والأعطيات ، فبعث اليه بمنصور بن فضل واشار بعقده له على حجابته ليقوم بامره ، ويكفيه مهات شؤنه . واعتدها منصور على ابن غمر فساء ظنه ، وتنكر له ابن غمر ، وحالت صبغة وده ، وانكفأ السلطان من حركته تلك مخفق السعي بعد أن نزل ظاهر تونس بعساكره كما قدمناه . ولما احتل بقسنطينة بدت له من يعقوب بن غمر صاحب الثغر مخايل الامتناع فأقصر عن اللحاق به ، وترددت بينهما الرسل ، وبعث له ابن غمر في منصور ابن فضل . ونذر منه بالشر فاجاب داعيه ، وصحب قائد السلطان يومئذ محمد بن أبي الحسين بن سيد الناس اليه ، حتى اذا كان ببعض الطريق عدل الى بلده ، وهمّ به القائد فاجاره اولياؤه من العرب : عثمان بن الناصر شيخ اولاد حربي ، ويعقوب بن

---

(١) في القاموس: راش: أكل. كثيراً. وارتشى: أخذ الرشوة ولم نعثر على: أرتاش. وأظنها هنا بمعنى: راش.

ادريس شيخ اولاد خنفر ومن معهم من ذويهم. ولحق ببسكرة وبلغ الخبر الى ابن غمر فقرع سن الندم عليه ، وشايع منصور ابن مزني عدوهم صاحب تلمسان أبا تاشفين ودخل في دعوته ، واوفد ابنه يوسف عليه بالطاعة والهدية .

وملك السلطان خلال ذلك تونس وسائر بلاد افريقية. وهلك ابن غَمْر سنة تسع عشرة ، ولم يزل منصور بن مزني ممتنعاً سائر أيامه على الدولة ، والعساكر من بجاية تتردد لمنازلته الى ان هلك سنة خمس وعشرين وسبعماية ، وقام بامره من بعده ابنه عبد الواحد فعقد له السلطان على عمل أبيه بالزاب ، واستضاف اليه ما وراءه من البلاد الصحراوية : قرى ريغة وواركلى . وكان السلطان قد عقد على الثغر بعد مهلك ابن غمر لمحمد بن أبي الحسين بن سيد الناس ، وجعل له كفالة ابنه يحيى ودفعه اليه ، فتجددت الوحشة بين عبد الواحد هذا وبين صاحب الثغر في سبيل المنافسة في المرتبة عند السلطان ، لما كانوا جميعاً صنائع وبطانة للحاجب ابن عمر . وبعث العساكر لحربه ومنازلة حصنه . وناول عبد الواحد هذا لآل زيّان مخانقي الدولة طرفاً من حبل طاعته تقبّل فيها مذهب ابيه آخر عمره . وطال تمرس الجيوش به الى ان استجنّ منه عبد الواحد بصهر عقد له على ابنته ، واشتراط المهادنة وتسليم الجباية ، وتودع امره الى أن اغتاله اخوه يوسف سنة تسع وعشرين بمداخلة بطانتهم من بني سماط وبني أبي كواية . ولما

احكم مداخلتهم آذنه عشاء للشورى معه في بعض المهمات ، وطعنه بخنجره فأشواه وهلك لحينه . واستقل يوسف بن منصور بامارة الزاب ، ووصله مرسوم السلطان بالتقليد والخلع على العادة ، واجرى الرسم في الدعاء له على منابر عمله .

وكان السلطان قد استدعى محمد بن سيد الناس من الثغر لحجابته ، وفوض له امور ملكه فلهجت نار العداوة والإحن القديمة ما بينه وبين يوسف بن منصور عامل الزاب ، وهمّ به لولا ما اخذ بحجرته من الشغل الشاغل للدولة بتحيف آل زيّان وهلك الحاجب سنة اثنتين وثلاثين في نكبة السلطان اياه كما ذكرناه ، وعقد لمحمّد بن الحكيم على القيادة وجعل بيده زمام العساكر ، وفوض له في سائر القرى والضواحي فأجرّه رسنه وحكّمه في دولته ، وتغلب على امره حين فرغ السلطان من من الشغل بمدافعة عدوه ، وحط ما كان من إصرهم على كاهل دولته . ونهض السلطان أبو الحسن الى يَغْمُراسن فقلّم أظفار أعدائهم وفلّ شبا عزائمهم كما شرحناه قبل ، فاذكى القائد محمد ابن الحكيم مع يوسف بن منصور نار العداوة . واثار له من السلطان كامن الحفيظة وصرف وجوه العزائم الى حمله على الجادة وتقويمه عن المراوغة في الطاعة ، وناهضه بالعساكر مرات ثلاثاً يدافعه في كلّها بتسليم الجباية إليه . ثم كانت بينه وبين علي بن احمد كبير الدواودة فتن وحروب دعا اليها منافسة علي في استئثاره بمال

الجباية دونه فواضعه الحرب ، ودعا العرب الى منازلته مموهاً بالدعاء الى السُّنَّة . وحشد اهل ريغ لذلك ونازله ، وانحرف عنه ابنه يعقوب ودخل الى بسكرة فأصهر له ابن مزني في اخته بنت منصور بن فضل . وعقد له عليها فحسن دفاعه عنه ، وبعث ابن مزني عن سليان بن علي كبير اولاد سبّاع ، وقريع علي بن أحمد في شوله ، فكان عنده ببسكرة يغاديه القتال ويراوحه إلى ان امتنع ابن مزني .

ورحل علي بن احمد عن بسكرة ، وصار مع ابن مزني ألى الاتفاق والمهادنة أعوام الاربعين من الماية الثامنة . ثم كانت غزاة القائد ابن الحكيم إليه نهض من افريقية بعد ان نازل بلاد الجريد ، واقتضى طاعتهم ومغارمهم ، واسترهن ولد ابن يملول . ثم ارتحل الى الزاب في جنوده ومعه العرب من سُلَيم فأجفل بالزاب ونزل بلد أوماش من قراه ، وفرّت العرب من الدواودة وسائر رياح أمامه ، ودافعه يوسف ابن مزني بهديته ، دفعها اليه وهو بمكانه من اوماش . وارتحل عنه الى بلاد ريغ فافتتح تُقَّرت معقلهم واستباحها ودوّخ سائر اعمالها . ورجع الى تونس ونكب السلطان قائده محمد بن الحكيم هذا سنة أربع وأربعين ، وولى ابنه أبا حفص عمر . وخشي الحاجب أبو محمد بن تافراكين بادرته بطانته ، فلحق بملك المغرب المرهوب الشبا [1] المطل على الممالك ،

---

(١) في القاموس: شبا الشيء: علا أو أضاء. وشبا النار: أوقدها. وتكون جمع شباة وهي حد كل شيء.

يعسوب القبائل والعشائر أبي الحسن ؛ واغراه بملك افريقية واستجره اليها فنهض في الامم العريضة سنة ثمان وأربعين كما ذكرنا ذلك كله من قبل . ووفد عليه يوسف بن منصور امير الزاب بمعسكره من بني حسن فلقّاه برّاً وترحيباً واستتبعه في جملته الى قُسَنْطينة . ثم عقد له على الزاب وما وراءه من قرى ريغة ووارگلى ، وصرفه الى عمالته . واستقبل تونس ، وامره برفع الجباية اليه مع العمال القادمين من أقصى المغرب على رأس الحول فاستعدّ لذلك ، حتى اذا سمع بوصولهم من المغرب لحقهم بقسنطينة ، وفجأهم هنالك جميعاً الخبر بنكبة السلطان على القيروان كما ذكرناه ، فاعتزم على اللحاق ببلاده .

واعصَوصبَ عليه يعقوب بن علي بن أحمد أمير البدو بالناحية القريبة من افريقية لأزمّة صهر كانت بينهما ومخالصة . وتحيز اليهم من كان بقسنطينة من أولياء السلطان وحاشيته وعماله ، ورسل الطاغية والسودان الوافدين مع ابنه عبد الله من أصاغر بنيه ، أواهم يوسف بن منصور جميعاً اليه ، وانزلهم ببلده وكفاهم مهماتهم شهوراً من الدهر حتى خلص السلطان من القيروان إلى تونس ، ولحقوا به مع يعقوب بن علي فكانت تلك يداً اتخذها يوسف يعقوب بن عند السلطان أبي الحسن وبنيه باقي الايام . ثم اتبع ذلك بمخالفة رؤساء النواحي من افريقية جميعاً في الانتقاض عليه ، واقام متمسكاً بطاعته يسرب الاموال اليه

بتونس وبالجزائر عند خلوصه إليهما من النكبة البحرية كما سنذكره ، ويدعو له على منابره بعد تقويضه عن الجزائر الى المغرب الاقصى لاسترجاع ملكه ، الى ان هلك السلطان ابو الحسن بجبل هنتاتة من اقصى المغرب سنة اثنتين وخمسين واستقام امر الدولة المرينية الحية الذكر لابنه السلطان أبي عنان ولما استضاف الى ملكه ملك تلمسان ، ومحا ما جدّده بنو عبد الواد من رسوم ملكهم وجمع كلمة زناتة ، واطلّ على البلاد الشرقية سنة ثلاث وخمسين ، بادر يوسف بن منصور بطاعته فاتاها طواعية ، وأوفد على السلطان رسله بكتاب بيعته . ثم أوفد عليه ثانياً مع حاجبه الكاتب أبي عبد الله محمد ابن ابي عمر ، وبعثه بالعساكر لتدويخ افريقية وتمهيد ملكه ببجاية كما سنذكره . واوفد عليه امراء القبائل والبدو ورؤساء النواحي سنة اربع وخمسين ، ووفد في جملتهم يوسف بن منصور امير الزاب ، ويعقوب بن علي امير البدو وسائر الدواودة فلقاه السلطان تكرمة ورعياً لأزمة خلوصهم لابيه وقومه من بين اهل افريقية ، واسنى جوائزهم . وعقد ليوسف بن مزني على الزاب وما وراءه من بلاد ريغة وواركلى على عادته وانقلب محبوّا محبوراً .

وقد ثبت له من ولاية السلطان ومخالطته حظٌ ، ورفع له ببساطه مجلس . ولما نهض السلطان الى افريقية لافتتاح قسنطينة سنة ثمان وخمسين كما سنذكره تلقّاه يوسف بن منصور على

قسنطينة فخلطه باوليائه ، ونظمه في طبقات وزرائه . واستوحش يعقوب بن علي يومئذ من مطالبته بالرهن له ولقومه وانتقض ، واجفلت احياؤه الى بلاد الزاب . وخرّب بلاد يعقوب بن علي بالزاب والتل بقطع شجراتها[١] وبغور مياهها ، وبهدم بنائها وبنسف آثارها . ودخل يعقوب باحيائه الرمل واعجزوا السلطان فانكفأ راجعاً ، واحتل بظاهر بسكره فتلوّم بها ثلاثاً لاراحة العساكر وازاحة عللهم من وعثاء السفر وشمث الصحراء ، فقرّب يوسف بن منصور في قِرى عسكره أيام مقامه شملهم فيها من العلوفة والحنطة واللحمان والأدم بما ارغد عيشهم وكفاهم مُهمّهم . وتحدث بها الناس دهراً ورفع اليه جباية الزاب لعامه قناطير من الذهب دفعه ببيت المال فقبضه القهارمة من ثقاته ، واجزل السلطان مثوبته واسنى عطيّته ، واختصه بكسوة ثيابه وعياله من كسى حرمه وثياب قصره . وانكفأ راجعاً الى حضرته . ثم أوفد يوسف بن منصور ابنه أحمد على السلطان بسدّته من فاس عند منصرف وزيره سليمان بن داود من حركة افريقية سنة تسع وخمسين ، واصحبه هديّة من عتاق الخيل وفاره الرقيق . واقام أياماً في نُزُل كريم ومحل من المجلس رفيع الى ان هلك السلطان خاتمة تسع وخمسين ، فأرغد القائم بالدولة من بعده جائزته واسني صلته وصرفه الى عمله ، واستوصى به امراء

---

(١) جمع شجرة، كما في القاموس.

النواحي والثغور في طريقه . ولم ينشب أن شبت نار الفتنة ، وانتزى الخوارج بالجهات بعد مهلك السلطان فخلص الى ابيه بعد عناية وعلى يأس من النجاه بعد ان حصل في قبضة أبي حمو سلطان بني عبد الواد عند استيلائه على تلمسان ، وهو بها مع بني مرين ، وقد مر بهم مجازاً الى وطنه فاجاره عليه صغير بن عامر شيخ بني عامر من زغبة رعياً لازمة أبيه يوسف صاحب الزاب ، وتأميلاً للعرب فيه وفي اعماله . وبعد ان بذل له من يده ، ومن طرف ما وصله به بنو مرين من ذخائرهم فبعث معه صغير ركابا من قومه ابلغوه فكانت احدى الغرائب في نجاته .

واسترجع الموحدون ثغورهم : بجاية وقسنطينة من يد بني مرين وازعجوا عنها العساكر المجمّرة بها من قبائلهم كما قدمناه ، فراجع يوسف بن منصور طاعته المعروفة إلى أن هلك سنة سبع وستين ليوم عاشوراء ، وقام بامره ابنه احمد ، وجرى على سننه وهو لهذا العهد امير على الزاب بمحلّ أبيه من امارته متقبّل في مذهبه وطريقه إلاّ أنّ خُلُقَ ابيه كان سِخَيَة[1] وخلق هذا تُلهوقا[2] لما فيه من التحذلق ، وربك يخلق ما يشاء ويختار . وله ولد كبيرهم ابو يحيى من بنت محمد بن يملول اخت يحيى ، وهو لهذا العهد مرشح لمكانه . ولما حلت بأهل الجريد

(١) ورد في القاموس: يقال: «سخيت نفسي وبنفسي عن الشيء» أي تركته ولم تنازعني إليه نفسي.

(٢) يقال: تلهق الرجل: أكثر من الكلام.

الفاقرة [1] ونزل به يحيى بن يملول المشؤم على وطنه توجّس الخيفة من السلطان وتوقّع المطالبة بطاعة غير طاعته المعروفة ، فسرب الاموال في العرب ومد يده الى حبل صاحب تلمسان ليتمسك به فوجده قاصراً عنه . واقام يقدم في امره رجلا ويؤخر اخرى . ثم قذف الله نور الهداية في قلبه ، واراه سنن رشده . وبادر الى الاستقامة في الطاعة والعدول عن المراوغة ، ووصله وافد السلطان أبي العباس شيخ الموحدين ابو عبد الله بن ابي هلال ، وكشف له قناع المخالصة والانحياش ، وبعث معه وفده بهديته واستقامته وتقبّله السلطان وأعاده الى احسن الاحوال من الرضى عنه ، والله متولي الامور سبحانه .

عبد الواحد بن علي — على الجريد

عبد الواحد

يحيى

أبو يحيى بن أحمد بن يوسف بن منصور بن فضل بن علي بن أحمد بن الحسن بن علي بن

الخبر عن رياسة بني يملول بتوزر وبني الخلف بنفطة وبني أبي منيع بالحامة

زعيم هؤلاء الرؤساء ابن يملول صاحب توزر ، لاتساع بلده وتمدن مصره واحتلاله منها بأمّ القرى من قطره ، وهو يحيى بن

---

(١) الفاقرة: الداهية الشديدة، فكأنها تكسر فقر الظهر.

محمد بن يملول . ونسبهم بزعمهم في طوالع العرب من تنوخ ، استقر أوّلوه بهذا الصقع منذ أول الفتح فعفوا[1] وتأثلوا ووشجت به عروقهم نسباً وصهراً حتى انتظموا في بيوت الشورى المتقدمين للوفادة على الملوك وتلقي العمال القادمين من دار الخلافة والنظر في مصالح الكافة أيام آل حماد بالقلعة ، وآل عبد المؤمن بمرّاكِش وآل أبي حفص بتونس : مثل بني واطاس وبني فرقان وبني ماردة وبني عوض . وكان التقدم فيهم أيام عُبَيْدِ الله الشيعي لابن فرقان ، وهو الذي أخرج أبا يزيد حين شعر انه يروم القيام على أبي القاسم القائم ، وأيام آل حماد ليحيى بن واطاس ، وهو النازع بطاعة أهل قسنطينة اليهم عن ال بُلُكّين ملوك القيروان حين انقسمت دولة آل زيري ، وافترق أمرهم . ثم عادت الرياسة لبني فرقان لأول دولة الموحدين ، ومنهم كان الذي لقي عبد المؤمن وأتاه الطاعة عن نفسه وعن اهل بلده توزر ، فتقبله ووصله .

وصار الامر للموحدين فمحوا منها آثار المشيخة والاستبداد . ونشأ احمد هذا الجد متراميًا الى الرياسة بهذا القطر يدافع عنه بالراح ، ويزاحم بالمناكب من وجوه البلد واشراف الوطن . وسعى به الى شيخ الموحدين وقائد العسكر أيام السلطان ابي حفص محمد الفازاري فنكبه وصادره على مال امتحنه عليه .

(١) بمعنى: كثروا.

كانت أول نكباته التي اورثت من زناده واذكت من جمره ، فخلص الى الحضرة يؤمل اقتعاد مطيته وثبوت مركزه من دار الخلافة فاوطنها أياماً يباكر أبواب الوزراء والخاصة ، ويلثم اطراف الأولياء والحاشية ، ويبذل كرائم ماله فيما يزلفه لديهم ، ويؤثره بعنايتهم ، حتى استعمل بديوان البحر مقعد العمال بمرفأ السفن لجباية الأعشار من تجار دار الحرب . ثم استضاف بما كان من غنائه فيها واضطلاعه سائر أعمال الحضرة فتقلدها زعيماً بامضاء الجبايات وادرار الجباية ، واستمرت على ذلك حاله وتضاعفت فائدته فأثرى واحتجن المال ، واستخلص الذخيرة قاطعاً لالسنة السعاية بالمصانعة والاتحاف بطرف ما يجلبه الروم من بضائعهم حتى ابطره الغنى ، ودلت على مكامنه الثروة ، ورفع امره الى الحاجب فخرج التوقيع بالقبض عليه ، واستصفاء ماله لعهد السلطان أبي يحيى اللحياني فنكب الثانية وصودر على مئتين من آلاف الدنانير وامتحن لها ، وباع فيها مكسوبه حتى من الكتب . وخلص من النكبة مثلوب[1] الأمانة ممزق الأديم فقيد الرياش ، احوج ما كان الى ما يعوز من الكن والدفء وبلالة العيش . ولحق ببلده ناجياً بالرمق ضارعاً للدهر .

ودفعه الملأ الى ما يستنكفون عنه من خدمة العمال ومباكرة أبوابهم والامتهان في ضروراتهم ، والجدء في ذلك بخت جذب

(١) ثلبه: عابه ولامه، اغتابه، سبه، طرده.

بضبعه . وكان في خلال ذلك شغل الحضرة شأن الثغور الغربية وامرائها فتقلّص ظل الدولة عن هؤلاء بعض الشيء ، وهملت الرعايا بالبلاد الجريدية ، وصار امرها الى الشورى التي كانت عليها قبل . فلما ادرك احمد هذه الشورى التي كان يسمو لها سمو حباب الماء ثلج صدره ، وانجح سعيه ، واستبد بمشيخة توزر . وهلك في اعوام ثمان عشرة فخلفه من بعده في سبيله تلك ولده يحيى طموحاً الى الرتبة منافساً في الاستقلال . وزاحم بيوتات المصر بمناكب استوصلها سائر عمره من الدعار والأوغاد بمعاقرة الخمر والمجاراة في فنون الشباب ليستبد امره ، والاستيلاء على نظرائه حتى تطارحوا في هوة المهلك بين قتيل ومغرّب ومخيف العمران لم تعطفه عليهم عواطف الرحم ، ولا زجّره وازع التقوى والسلطان، حتى خلا له الجو واستوسق الأمر ، واستقل من امر البلد والحل والعقد باوفى من استبداد أبيه . وكان مهلكه قريباً من استبداده لخمس سنين فتلقف الكرة من يده اخوه تربه في الرياسة ومجاريه في مضمارها ، فأجرى الى الغاية واقتعد كرسي الرياسة وعفا على[1] اثار المشيخة . واستظهر على امره بمصانعة امراء البدو واولاد أبي الليل ، والمتات اليهم بصهر كان عقده أبوه أحمد لأبي الليل جدهم على اخته او عمته . فكانوا رداء له من الدولة فبعد صيته ، وعظم استيلاؤه ، وامتدت ايامه ، وعنى الملوك بخطابه

(١) كذا، وفي القاموس: عفت الريح الأثر أو المنزل: محته.

واسناد الامور في تلك البلاد اليه خلال ما تعود الكرة وتهب ريح الدولة . وزحف اليه القائد محمد بن الحكيم سني اربعين فلاذ منه بالطاعة والمصانعة بالمال ، ورهنه ولده يحيى فرجعه اليه ابن الحكيم وتقبل طاعته من غير رهن استقامة لما ابتلاه من خلوصه . واقام على ذلك الى ان هلك أعوام أربعة واربعين من المائة الثامنة .

وتصدى ولده عبد الله للقيام بالأمر فوثب عليه عمه ابو زيد ابن احمد فقتله على جدث ابيه صبح مواراته ، بعد ان كان اظهر الرضى به والتسليم له فثارت به العامة لحينه ، وكان مصرعهما واحداً . وقام بالامر اخوه يملول بن أحمد أربعة أشهر كانت شر مدة واسوأ ولاية ، لما اصاب الناس بسوء ملكته من سفك الدماء واستباحة الحرم واغتصاب الاموال ، حتى كان ينسب الى الجنون مرة والى الكفر مرة اخرى فمرج امرهم واستولى الضجر على نفوسهم . وكان اخوه أبو بكر معتقلاً بالحضرة فراسله اهل توزر سراً ، واطلقه السلطان من محبسه بعد ان اخذت عليه المواثيق بالطاعة والوفاء بالجباية فصمد اليها بمن في لفه من الأعراب وحشد نفزاوة المجاورين لها في القرى الظاهرة المقدرة السير ، واجلب عليهم ، ثم بيّتها فافتتحها . وبادر الناس الى القبض على يملول اخيه وامكنه منه فاعتقله بداره وتبرأ من دمه ، واصبح لثالثة اعتقاله ميتاً بمحبسه .

وكانت قفصة من قبل ذلك لما صار امر الجريد الى الشورى

واسناد الامور في تلك البلاد اليه خلال ما تعود الكرة وتهب ريح الدولة . وزحف اليه القائد محمد بن الحكيم سني اربعين فلاذ منه بالطاعة والمصانعة بالمال ، ورهنه ولده يحيى فرجعه اليه ابن الحكيم وتقبل طاعته من غير رهن استقامة لما ابتلاه من خلوصه . واقام على ذلك الى ان هلك أعوام أربعة واربعين من الماية الثامنة .

وتصدى ولده عبد الله للقيام بالأمر فوثب عليه عمه ابو زيد ابن احمد فقتله على جدث ابيه صبح مواراته ، بعد ان كان اظهر الرضى به والتسليم له فثارت به العامة لحينه ، وكان مصرعهما واحداً . وقام بالامر اخوه يملول بن أحمد أربعة أشهر كانت شر مدة واسوأ ولاية ، لما اصاب الناس بسوء ملكته من سفك الدماء واستباحة الحرم واغتصاب الاموال ، حتى كان ينسب الى الجنون مرة والى الكفر مرة اخرى فمرج امرهم واستولى الضجر على نفوسهم . وكان اخوه أبو بكر معتقلاً بالحضرة فراسله اهل توزر سراً ، واطلقه السلطان من محبسه بعد ان اخذت عليه المواثيق بالطاعة والوفاء بالجباية فصمد اليها بمن في لفّه من الأعراب وحشد نفزاوة المجاورين لها في القرى الظاهرة المقدرة السير ، واجلب عليهم ، ثم بيّتها فافتتحها . وبادر الناس الى القبض على يملول اخيه وامكنه منه فاعتقله بداره وتبرأ من دمه ، واصبح لثالثة اعتقاله ميتاً بمحبسه .

وكانت قفصة من قبل ذلك لما صار امر الجريد الى الشورى

الحاجات منهم، وانكفأ راجعاً الى حضرته بعد ان آثرهم بسكنى ولده المخصوص بمدئذ بعهده الأمير أبي العباس وانزله بين ظهرانيهم، وعقد له على بلاد الجريد، واحتمل مقدّم قفصة يحيى ابن علي الى الحضرة فلم يزل بها الى ان هلك سنة أربع وأربعين واستبد الامير أبو العباس بامر الجريد، واستولى على نفطة كما قدمناه. وقتل بني خلف وهم: مدافع وابو بكر وعبد الله ومحمد، وابنه احمد بن محمد، اخوة اربعة، وابن اخيهم الخلف ابن علي بن الخلف بن مدافع، ونسبهم في غسّان في طوالع العرب.

وانتقل جدهم من بعض قرى نِفزاوَة الى نفطة وتأثّل بها، وكان لبنيه بها بيت. واستبد هؤلاء الاخوة الأربعة ازمان الشورى كما قدمناه. ولما استولى السلطان أبو بكر على الجريد، وانزل ابنه ابا العباس بقفصة، وعقد له على سائر امصاره اقتضى طاعتهم فامتنعوا فسرح اليهم وزيره ابا القاسم بن عتو من مشيخة الموحّدين. وجهزت له العساكر من الحضرة، ونازلها وقطع نخلها فلاذ أهلها بالطاعة، واسلموا بني مدافع المتغلّبين فضرب أعناقهم وصلبهم في جذوع النخل آية للمعتبرين. وافلت السيف منهم علياً صغيرهم لذمة اعتدّها له ابو القاسم بن عتو لنزوعه قبل الحادثة، فكانت واقيته من الهلكه. واستولى الامير ابو العباس على نفطة واستضافها الى عمله. ثم مرض ابو بكر بن

يملول في طاعته فنهض اليه السلطان ابو بكر من تونس سنة خمس واربعين ، وكان الفتح كما قدمناه . ولحق ابو بكر بن يملول ببسكرة فلم يزل بها الى ان اجلب على توزر فنبذ اليه يوسف بن مزني عهده ، وانتقل الى حصون وادي ابن يملول المجاورة لتوزر ، وهلك سنة ست واربعين . ثم كان مهلك السلطان وابنه الأمير أبي العباس صاحب الاعمال الجريدية اثر ذلك سنة سبع واربعين ورجع الى كل مصر من الجريد مقدموه فرجع احمد بن العابد الى قفصة من مكانه في جوار ابن مكي واستولى على بلده في مكان ابن عمه يحيى بن علي ، ورجع علي بن الخلف الى نفطة واستبد بها . ورجع يحيى بن محمد بن احمد بن يملول الى توزر من مثوى اغترابه ببسكرة ، وارتحل اليها مع عمه ابي بكر طفلًا ، فلمّا خلا الجديد من الامارة درج يحيى هذا من عشّه في جوار يوسف بن منصور بن مزني ، واطلقه مع اولاد مُهَلهِل من الكعوب بعد ان وصلهم وشارطهم ، واسترهن فيه ابناءهم فاوصلوه الى محل رياسته بتوزر ، ونصبه شيعته واولياء أبيه ، وقاموا بامره . ورجع امر الجريد كله الى رياسة مقدمه كما كان .

ثم وفدوا على السلطان أبي الحسن عند زحفه الى افريقية ولقوه بوَهران فلقاهم مبرّة وتكرمة ورجّع كلًّا الى بلده ومحل رياسته بعد ان اسنى الجائزة ، ووفر الاسهام والاقطاع ، وانفذ الصكوك والكتب : فرجع الى توزر يحيى بن محمد بن احمد بن

يملول صبياً مغتلما ، والى نفطة علي بن الخلف بن مدافع ، والى قفصة أحمد بن عمر بن العابد . وانزل بكل واحد من هذه الأمصار عاملا وحامية . وعقد على الجريد كله لمسعود بن ابراهيم ابن عيسى اليرنياني من طبقة وزرائه ، واستوصى لهؤلاء الرؤساء خيراً في جواره . حتى اذا كانت نكبة السلطان بالقيروان سنة سبع واربعين ، وارتحل عامل الجريد مسعود بن ابراهيم يريد المغرب بمن معه من العيال والحامية ، ونمي خبره الى الأعراب من كرفة فصبحوه في بعض مراحل سفره دون ارض الزاب فاستلحموه ومن كان معه من الحامية ، واستولوا على ابنيتهم وذخيرتهم وكراعهم ، واستبد رؤساء تلك البلاد بأمصارهم وعادوا الى ديدنهم من التمريض ، وآذنوا بالدعاء لصاحب الحضرة منابرهم ، واستمروا على ذلك . فاما يحيى بن محمد بن يملول فنزع الى مناغاة الملوك في الشارة والحجاب واتخاذ الالة والبيت المقصور للصلاة ، واقتعاد الاريكة وخطاب التمويل . وفسح للمجون والعكوف على اللذات مجالا ، يرى ان جماع السياسة والملك في ادارة الكاس وافتراش الآس والحجبة عن الناس والتأله على الندمان والجلاس . وفتح مع ذلك على رعيته واهل ايالته باب العسف والجور . وربما بيّت مشاهيرهم غيلة فاتلف نفوسهم ، وامتد امده في ذلك الى ان استولى السلطان ابو العباس على افريقية ، وكان من

امره ما نذكره. وأما جاره الجنب[1] علي بن الخلف فلم يلبث لما استبد برياسته أن حجّ سنة أربع وستين، والتزم مذاهب الخير وطرق الرضى والعدالة، وهلك سنة خمس بعدها، وولي مكانه ابنه محمد جارياً على سننه. ثم هلك لسنة من ولايته وقام بامره اخوه عبد الله بن علي فاذكى سياسته، وايقظ حزمه وارهف للناس حده فنقموا عليه سيرته، وسيموا عسفه، واستمكن مناهضهم في الشرف ومحاذيهم في رياسة البلد القاضي محمد بن خلف الله من صاحب الحضرة بذمة كانت له في خدمة قديمة استعمله لرعيها في خطة القضاء بحضرته، وآثره بالمكان منه والصحبة فسعى بعبد الله هذا عند الخليفة، ودله على مكامن هلكته، وبصره بعورات بلده. واقتاد عساكر السلطان اليه في زمامه.

ولما احتل بظاهر البلد وعبد الله رئيسها اشدّ ما كان قوة وأكثر جمعاً وامضى عزماً استألف اخوه الخلف بن علي بن الخلف جماعة المشيخة دونه، وحرّضهم عليه وداخل القاضي في تبييت البلد، وانه بالمرصاد في اقتحامها، حتى اذا كانت الهيعة دسّ الى بعض الاوغاد في قتل اخيه عبد الله، ومكر بالقاضي والمسكر وامتنع عليهم واعتصم دونهم. واستقلّ برياسة بلده واقام على ذلك يناغي ابن يملول في سيره ويطارحه الكثير من

(١) الجار الجنب: اللاحق بك إلى جنبك.

مذاهبه ، ويجري في الشاو الذي بلغ الى غايته وأوفى على ثنيته .
واما أحمد بن عمر بن العابد فلم يزل من لدن استبداده في قفصة سالكاً مسالك الخمول ، منحطاً عن رتب التكبير منتحلاً مذاهب اهل الخير والعدالة في شارته وزيه ومركبه ، جانحاً الى التقلل . فلما أوفى على شرف من العمر [١] استبدّ عليه ابنه محمد ، وترفّع عن حال أبيه بعض الشيء الى مناغاة هؤلاء المترفين ، فبينما هؤلاء المتقدمون في هذه الحال من الاستبداد على السلطان والتخلّق باخلاق الملوك ، والتثاقل على الرعايا بالتعسف والجور ، واستحداث المكوس والضرائب إذ أطل على مفاحصهم السلطان ابو العباس بالحضرة مستبداً بدعوته ، صارفاً الى فتحها عزائمه فوجموا وتوجسوا الخيفة منه . وائتمروا في المظاهرة واتصال اليد بعد ان كانوا يستحثونه الى الحضرة ، ويبعثون اليه بالانحياش على البعد زبوناً على صاحب الحضرة وتراوغاً عن مصدوقة الطاعة . فلما استبد السلطان ابو العباس بالدعوة استرابوا في امرهم وسربوا اموالهم في الاعراب المخالفين على السلطان من الكعوب ، يؤملون مدافعتهم عنهم فشمّر لها اولاد أبي الليل بما كان وقع بينهم وبين السلطان من النفرة . ونهض اليهم السلطان فغلبهم على ضواحي افريقية وعلى الظواعن التي كانت جبايتها لهم من مَرْنْجيزَة كما قلناه ، واكتسحهم فاوهن بذلك من قوتهم .

---

(١) أي أصبح هرماً.

ثم زحف الثانية الى امصار الجريد فلاذوا بالامتناع فأناخ السلطان بعساكره واوليائه من العرب أولاد مُهَلْهِلَ على قفصة فقاتلوها يوماً أو بعض يوم ، وغدا في ثانيه على نخيلهم يقطعها فكأنما يقطع بذلك أمعاءهم فتبرأوا من مقدمهم ، وشعر بذلك فبادر الى السلطان ونزل على حكمه فتقبض عليه وعلى ابنه شهر ذي القعدة من سنة ثمانين ، وتملك البلد ، واستولى على ديار ابن العابد بما فيها . وكان شيئاً لا يعبر عنه لطول أيامه في الولاية وكثرة احتجانه للأموال . وعقد السلطان على قفصة لابنه أبي بكر وارتحل يريد توزر ، وطار الخبر لابن يملول في توزر فقوض عنها باهله ، ونزل على احياء مرداس وسرب فيهم المال فرحلوا معه الى الزاب ، ولحق ببسكرة مأوى نكباته ومنتهى مفره فنزل بها على احمد بن يوسف بن مزني ، وأقام هنالك على قلعة من توقع مطالبة السلطان له ولجاره ابن مزني ، وخسارة اموالهم في زبون العرب وسوء المغبة الى ان هلك لسنة أو نحوها . وائتمر أهل توزر بعد تقويضه عنهم ، وبعثوا الى السلطان ببيعتهم فلقيته اثناء طريقه ، وتقدم الى البلد فنزل بقصور ابن يملول ، واستولى على ذخيرته وتبرأ اليه أهل البلد من ودائع كانت له عندهم من خالص الذخيرة فرفعوها الى السلطان . وعقد لابنه المنتصر على توزر ، واستقدم الخلف بن الخلف من نفطة . وكان يخالف اصحابه الى الطاعة متى نقضوها زبوناً على يملول وسالفة من العداوة كان يتقبلها . فلما

احيط بهم ادركه الدهش بطاعته فاتاها ، وقدم عليه فتقبل السلطان ظاهره واغضى له عن غيرها طمعاً في استصلاحه ، وعقد له على حجابة ابنه المنتصر وأنزله معه بتوزر وامره بالاستخلاف على بلده نفطة ، وعقد له على ولايتها وانكفأ راجعاً الى الحضرة ، وقدم ابن الخلف على امره ورأى انه قد تورط في الهلكة فراسل ابن يملول بمكانه من توزر ، وعثر اولياء السلطان على كتابه الى يعقوب ابن علي شيخ رياح وَمُذرِهِ[1] حروبهم على صريخ ابن يملول ومعونته فعلموا نكثه ومداجاته ، وبادروا الى التقبض عليه ، وولوا على نفطة من قبلهم وخاطبوا السلطان بالشأن ، واقام في اعتقاله الى ان كانت حادثة قفصة ، فبادر الامير المنتصر الى قتله.

وكان من خبر قفصة ان ابن أبي زيد من مشيختها كان نزع الى السلطان قبل فتحها هو واخوه لمنافسة بينهما وبين ابن العابد ، وهما : محمد واحمد ابنا عبد العزيز بن عبد الله بن احمد بن علي بن عمر بن أبي زيد . وقد ذكرنا أوليتهم واستعمال سلفهم أيام الأمير أبي زكرياء الأعلى في جباية الجريد . فلما استولى على البلد رعى لهما تشيعهما وبدارهما الى طاعته مع قديمهما فانزلهما مع ابنهما بقفصة ، وكبيرهما رديف لحاجبه عبد الله من الموالي الاتراك ومدبر لامور البلد في طاعة السلطان . ثم نزغ الشيطان في صدره ، وحدثته نفسه بالاستبداد ، واقام يتحيّن له الفرص . وذهب الامير ابو بكر

(١) في القاموس: دره عليهم: طلع وهجم، ودره لهم وعنهم: دافع.

الى زيارة اخيه بتوزر فكاده في التخلف عنه ، وجمع اوشاباً من الغوغاء والزعانف وتقدم بهم الى القصبة للفتك بعبد الله التُرَيكي ، ونذر بذلك فاغلق ابواب القصبة ، وبعث الصريخ في أهل القرى ، وقاتلهم ساعة من نهار حتى وافى اليه المدد . فلما استغلظ بمدده ادركهم الدهش وانفض الأشرار من حولهم ولجأوا إلى الاختفاء في بيوت البلد ، وتقبّض على الكثير ممن داخلهم في الثورة ، ووصل الخبر الى الامير أبي بكر بتوزر فبادر الى مكانه ، وقد سكنت الهيعة فاستلحم جميع من تقبّض عليه حاجبه ونادى في الناس بالبراءة من أبي زيد فتبرأوا منه . وعثر الحرس عليه وعلى اخيه خارجين من ابواب البلد في زيّ النساء فقادهما اليه فقتلهما بعد ان مثل بهما .

وبادر المولى المنتصر بتوزر لقتل الخَلَفِ بن الخلفِ ان يخوض في مثلها فذهب في غير مرحمة لم يعطف عليه رحم ، ولا تبكه سماء ولا أرض . واستبد السلطان بالجريد ومحا منه آثار المشيخة وعفا عليها وانتظمه في عمالات السلطان . وأما بلد الحامة وهي من عمالات قَسْطيلِيَة وتعرف بحامّة قابسَ وحامة مَطماطة نسبة الى أهلها الموطّنين كانوا بها من البربر ، وهم فيما يقال الذين اختطوها ، واما الان ففيها ثلاث قبائل من توجن وبني ورياجن[1] وهم في العصبيّة فرقتان : اولاد يوسف ورياستهم في اولاد أبي

(١) كذا ، وفي ب : ورتاجن .

منيع واولاد جِحاف[1] ورياستهم في اولاد وشاح ، ولا ادري كيف نسب لفرقتين . فاما بنو أبي منيع فالحديث عن رياستهم في قومهم ان جدهم رجا بن يوسف كان له ثلاثة من الولد وهم : بوساك ويحمد وملالت وان رئاسته بعده كانت لابنه بوساك ثم ابنه ابي منيع من بعده ، ثم لابنه حسن بن أبي منيع ثم لابنه محمد بن حسن ، ثم لاخيه موسى بن حسن ثم لاخيهما ابن علان[2] الى ان كان ما نذكر . واما اولاد جحاف فكانت اول رياستهم لمحمد ابن احمد بن وشاح ، وقبله خاله القاضي عمر بن كلى . وكان العمال من الحضرة يتعاقبون فيهم الى ان اسقط السلطان عنهم الخراج والمغارم بامرها . وكان مقدّمهم لأول دولة السلطان أبي بكر من اولاد أبي منيع ، وهو موسى بن حسن . وكان المديوني قائد السلطان والياً عليهم ، وارتاب بهم بعض الايام واحبوا الثورة به فدس بها الى السلطان في بعض حركاته ، وغزاهم بنفسه ففرّوا ، وادرك سبعة من اولاد يوسف هؤلاء وتقبض عليهم فقتلوا . ثم رجع الامر وولي موسى بن حسن . ولما هلك ولي بعده اخوه أبو علان ، وطال امد ولايته عليهم وكان منسوباً الى الخير والعفاف . وهلك سنة اثنتين واربعين ، وولي بعده ابنه عمر ، ثم ابنه الاخر ابو زيان . ثم ولي بعدهما

---

(١) كذا، وفي ب : حجاف .

(٢) كذا، وفي ب : أبي عنان .

ابن عمهما مولاهم ابن محمد . ووفد على السلطان أبي الحسن مع وفد اهل الجريد كما مرّ . ثم هلك فولي بعده من بني عمهم حسان بن هجرس ، وثار به محمد بن احمد بن وشاح من اولاد جحاف المذكور فعزله ، واقام في ولايتها الى سنة ثمان وسبعين ، فثار به اهل الحامة وقتلوا عمر بن كلي القاضي ، وولوا عليهم حسان بن هجرس واليهم .

ثم ثار به يوسف واعتقله وهو يوسف بن عبد الملك بن حجاج بن يوسف بن وشاح وهو الان مقدمها يعطي طاعة معروفة ، ويستدعي العامل في الجباية ويراوغ عن المصدوقه والغلَب والاستيلاء ، وقد احاط به من كل جهة . واملى عليّ بعض نسّابتهم ان مشيخة اهل الحامة في بني بوساك ، ثم في بني تامل بن بوساك . وان تامل اول من رأس عليهم ، وان وشاحا من ولد تامل ، وان بني وشاح على فرقتين : بنو حسن وبنو يوسف فحسان بن هجرس ومولاهم وعمر وابو علان كلهم من بني حسن ، ومحمد بن احمد بن وشاح من بني يوسف ، وهذا مخالف للاول ، والله اعلم بالصحيح في امرهم . فاما نفزاوة واعمال قسطيلية وتنسب لهذا العهد الى توزر وهي القرى العديدة المقدرة السير ، يعترض بينها وبين توزر الى القبلة عنها السبخة المشهورة المانعة من الاعتساف ، إلا معالم قائمة من الخشب يهتدي بها السالك ، وربما يضل خائضها فتبتلعه . ويسكن هذه القرى قوم

لانهم من صنائعها وفي عدادولاتها وموالها والله يتولى الامور اه

أحمد بن يحيى بن محمد بن أبي على بن عبد الجليل بن العابد

أبو يحيى بن يحيى بن محمد بن أحمد بن علول

الخلف بن علي بن خلف بن مدافع

يوسف بن عبد الملك بن حجاج بن يوسف بن حجاج بن يوسف

محمد بن أحمد بن وشاح بن عجاف

بن زيان

مولاهم ابن محمد بن حسن بن محمد بن أبي منيع بن بوشبال بن رجاء بن يوسف

من بقايا نفزاوة من البرابرة البُتْر ابقوا هنالك بعد انقراض جمهورهم، وتحيف العرب لسائر بطون البربر، ومعهم معاهدون من الفرنجة ينسبون الى سردانية نزلوا على الذمة والجزية وبها الان اعقابهم ، ثم نزل عليهم من عرب الشريد وزغب من بني سليم كل من عجز عن الظعن ، وملكوا بها العقار والمياه وكثروا نفزاوة ، وهم لهذا العهد عامة أهلها، وليس في نفزاوة هذه رياسة لصغرها ورجوعها في الغالب الى أعمال توزر ورياستها . هذا حال للمتقدمين ببلاد الجريد في الدولة الحفصية اوردنا أخبارهم فيها لانهم من صنائعها ، وفي عداد ولايتها ومواليها ، والله متولي الامور .

الخبر عن بني مكيّ رؤساء قابس وأعمالها

كانت قابس هذه من ثغور افريقية ومنتظمة في عمالاتها ، وكان ولاتها من القيروان أيام الأَغالِبَة والعُبَيْدِيِّين وصَنْهاجَة من لدن الفتح ، ولما دخل الهِلالِيُّون افريقية واضطربت أمورها ، واقتسمت دولة صنهاجة طوائف انتزى بقابس من صنهاجة المعز ابن محمد الصنهاجي ، وأدال منه مونّس بن يحيى الصنبري من مرداس رياح بأخيه إبراهيم الى ان هلك ، وولي اخوه قاضي بن ابراهيم ثم نازله اهل قابس وقتلوه أيام تميم بن باديس ، وبايعوا

لعمر بن المعز بن باديس كان مخالفاً على اخيه ، وذلك سنه تسع وثمانين واربعماية . ثم غلبه عليها اخوه تميم وكان مغلبا للعرب . وكانت قابس وضواحيها في قسم زغبة من عرب هلال . ثم غلبتهم رياح عليها ، ونزل مكن بن كامل بن جامع من بني دهمان اخوة فادغ ، وهما معاً من بني علي احدى بطون رياح فاستحدث بها مكن ملكاً لقومه بني جامع واورثه بنيه الى ان استولى الموحدون على افريقية ، وبعث عبد المؤمن عساكره الى قابس ففرّ عنها مدافع بن رشيد اخرهم وانتظمها كما ذكرناه في اخبارهم وملكها وانقرض ملك بني جامع ، وصارت قابس وعملها للموحدين ، وكانت ولاة افريقية من السادة يولون عليها من الموحدين الى ان تغلّب بنو غانية وقراقش على طرابلس وقابس واعمالها ، وكان ما ذكرناه في اخبارهم

ثم غلب الموحدون يحيى بن غانية عليها وانزلوا بها عمالهم. ولما عاد بنو أبي حفص الى افريقية العودة الثانية بعد مهلك الشيخ ابي محمد عبد الواحد ، وعقد العادل على افريقية لابنه أبي محمد عبد الله عقد معه على قابس للامير أبي زكريا اخيه فنزلها اميراً . ثم كان من شان استبداده وخلعه لاخيه ولطاعة بني عبد المؤمن ما ذكرناه . وكان مشيخة قابس لذلك العهد في بيوت من بيوتاتها وهم بنو مسلم ولم يحضرني فيمن هو نسبهم. وبنو مكي

ونسبهم في لواتة وهو مكي بن فراج[١] ابن زيادة الله بن أبي الحسن بن محمد بن زيادة الله بن أبي الحسين[٢] اللواتي. وكان بنو مكي هؤلاء خالصة للامير أبي زكرياء. ولما اعتزم على الاستبداد داخل ابا القاسم عثمان بن أبي القاسم بن مكي، وتولى له اخذ البيعة على الناس فكان له ولقومه بذلك مكان من الموالى أبي زكرياء، رعى لهم ذمتها ورفع من شأنهم بسببها، ورموا ببني سليم نظرائهم في رياسة البلد بصاغيتهم الى ابن غانية، فاخمدوا ذبالهم واستقلوا بشورى بلدهم. واقاموا على ذلك ايام المولى أبي زكرياء الاول وابنه المستنصر. ثم كان ما قدمناه من مهلك الواثق ابن المستنصر وبنيه على يد عمهم السلطان أبي اسحاق، وما كان من امر الدعي بن أبي عمارة، وكيف شبّه على الناس بالفضل ابن المخلوع بحيلة مولاهم نصير، دام ان يثار بها من قاتلهم فتمّت مكيدته في ذلك لما اراده الله. ولما اظهر نصير امره، وتسايلت العرب الى بيعته خاطب لاول امره رئيس قابس لذلك العهد من بني مكي عبد الملك بن عثمان بن مكي فسارع الى طاعته وحمل الناس عليها، وكانت له بذلك قدم في الدولة معروف رسوخه.

ولما القى الداعي ابن ابي عمارة جسيداً[٣] على كرسي الخلافة

---

(١) كذا، وفي ب: مراج.
(٢) كذا، وفي ب: أبي الحسن.
(٣) كذا، وفي ب: حسداً.

سنة احدى وثمانين قلده خطة الجباية بالحضرة مستقلاً فيها بالولاية والعزل والفرض والتقدير والحسبان ، وبعد ان اجزل من بيت المال عطاءه ، واسنى رزقه وجرايته ، واهدى الجواري من القصر إليه . ولما هلك الداعي واستقلت قدم الخلافة من عثارها كما قدّمناه سنة ثلاث وثمانين لحق عبد الحق بني مكي ببلده ، وامتنع بها على حين ركود ريح الدولة وفشلها ، ومرض في طاعته ودافع اهل الدولة بالدعاء للخليفة على منابره . ثم جاهر بالخلعان سنة ثلاث وتسعين ، وبعث بطاعته الى صاحب الثغور المولى أبي زكرياء الأوسط . وهلك ابنه احمد ولي عهده سنة سبع وتسعين . ثم هلك هو من بعده على راس المائة السابعة ، وتخلف حافده مكيا فنصبوه للملك يفعة ، وكفله ابن عمه يوسف بن حسن . وقام بالامر مستبداً عليه الى ان هلك ، وخلفه في كفالة احمد بن ليران من بيوت اهل قابس واصهار بني مكي . والتاث امرهم بمهلك يوسف فنقلهم السلطان ابن اللحياني الى الحضرة واقاموا بها أياماً ، ثم ردهم الى بلدهم ايام تجافيه عن تونس وخروجه الى ناحية قابس .

ثم هلك خلال ذلك مكي ، وتخلف صبيّين يافعين عبد الملك واحمد فكفلهما احمد بن ليران الى أن شبّا واكتهلا ، ولهما من الامتناع على الدولة والاستبداد بامر القطر والاقتصار على الدعاء للخليفة مثل ما كان لابيهما واكثر لتقلّص ظل الملك عن قطرهم .

وشغل السلطان بمدافعة آل يَغْمُراسن وعساكرهم عن الثغور الغربية ، واجلابهم بالأعياص من اهل البيت على الحضرة . ولما هلك السلطان ابو يحيى اللحياني قفل ابنه عبد الواحد الى المغرب يحاول اسباب الملك ، ونزل بساحتهم على ما كان من صنع أبيه اليهم فذكروا العهد ، واوجبوا الحق واتوه بيعتهم . وقام كبيرهم عبد الملك بامره ، ودعا الناس الى طاعته وخالف السلطان ابا يحيى عند نهوضه الى الثغر ببجاية سنة ثلاث وثلاثين كما قدمناه ، فدخل الحضرة ولبث بها اياماً لم تبلغ نصف شهر . وبلغ خبرهم الى السلطان فانكفأ راجعاً وفروا الى مكانهم من قابس ، والدولة تنظر لهم الشزر وتتربص بهم الدوائر ، الى ان غلب السلطان ابو الحسن على تلمسان ومحا دولة آل يغمراسن ، وفرغت الدولة من شأنهم الى تمهيد اعمالها وتقويم المنحرفين عن الطاعة من ولاتها .

وقفل حمزة بن عمر بشفاعة من السلطان أبي الحسن الى السلطان أبي يحيى في شأنه فتقبّل وسيلته واستخلصه لنفسه من بعدها ، واستقام هو على الطاعة التي لم تجد وليجة عنها ، وسلك سبيله تلك اقتاله من الدولة الطائحين في هوة الشقاق فاوفد عبد الملك هذا شقيقه احمد على السلطان أبي الحسن متنصلاً من ذنوبه لائذاً بشفاعته متوسلاً بما قدمناه من خدمته حظاياه في طريقهن الى الحج ذاهباً وجائياً ، فخاطب السلطان ابا يحيى في شأنه واعاده الى مكانه من اصطناع سلفه واستقام على طاعته . ولما انتظم السلطان ابو

يحيى سائر البلاد الجريدية في ملكه وعقد عليها لابنه أبي العباس ولي عهده ، وانزله دار امارتها متردداً ما بين توزر وقفصة الى ان قفلت عمته من الحج سنة ست واربعين ، وخرج للقائها مختفياً بين الظعائن فجمعه مجلسها بأحمد بن مكي كان قد اعتمد تلقيها والقيام بصحابتها في مراحل سفرها من بلده الى اخر عمله ، فسح الامير أبو العباس الإحن عن صدره وادال له الامن والرضى من توحشه ، واستخلصه لدولته ونجوى اسراره واصطفاه لنفسه وحمله رديفاً لحاجبه ، فحلّ من دولته بمكان غبطة فيه امتيازه من امراء تلك الطوائف .

وعقد له السلطان ابو يحيى على جزيرة جَرْبَة بوسيلة أبي العباس ابنه ، وقد كان افتتحها مخلوف بن الكماد من صنائعهم من يد العدو أهل صقلية كما ذكرناه ، فضمّها إليه وصيّرها في اعماله . ولم يزل هذا شأنه معه الى ان هلك ابو العباس ولي العهد بتونس على يد اخيه أبي حفص عمر عند ما دخلها بعد مهلك ابيهما كما ذكرناه ، ولحق احمد بن مكي ببلده . ثم سار في وفد رؤساء الجريد الى تلقي السلطان أبي الحسن عند نهوضه الى افريقية سنة ثمان واربعين ، ولقيه معهم بوهران من اعمال تلمسان ، وكان قدمه عنده فوق قدمهم . ورجع الوفد على أعقابهم مجبورين . وتمسك بأحمد بن مكي في جملته الى الحضرة ، ووفد عليه اخوه عبد الملك مؤدياً طاعة السلطان فكرم موصله واحسن متقلبهما

جميعاً الى بلدهما على ما كان بيدهما من عمل قابس وجربة . ثم كانت نكبة السلطان أبي الحسن على القيروان فوفد عليه احمد بتونس بعد خلوصه من القيروان مجدداً لعهد طاعته ، فأرادهم السلطان على الامتنان لعبد الواحد اللحياني سلطانهم الأقدم ، وعقد له على تلك الثغور الشرقية ، وانزله جربة ، وامرهما بالطاعة له ما دام في طاعته . وعقد لأبي القاسم بن عتو شيخ الموحدين على توزر وقسطيلية بعد ان كان قطعه عندما تقبض عليه في واقعة السلطان أبي حفص عمر . ثم استقبل رأيه في استخلاصه عندما انتقض عليه ابو محمد بن تافراكين . ولما رجع من القيروان الى تونس عقد له على توزر كما ذكرناه ، ولعبد الواحد بن اللحياني على قابس وجربة فاسفّ بذلك بني مكي هؤلاء .

وهلك ابن اللحياني لحين نزوله بجربة بما اصابه من علة الطاعون الجارف سنة تسع واربعين ، فانتقض بنو مكي على السلطان أبي الحسن ودعوا الى الخروج عليه وبايعوا الأفضل ابن السلطان ابي يحيى عندما افرج عن حصار تونس سنة خمسين ، وداخلوا ابا القاسم بن عتو وهو اذ ذاك لم يتوزر فاجابهم وكانت من دواعي رحلة السلطان ابي الحسَن من افريقية وتقويضه عنها كما قدمناه . ولما رجع الحاجب أبو محمد بن تافراكين من المشرق ، واستقل بامر تونس ، ونصب الامام ابا اسحاق ابن السلطان أبي يحيى للخلافة بها في كفالته غصوا بمكانه من التغلّب وأنفوا من استبداده ،

وانحرفوا الى دعوة الامير أبي زيد صاحب ثغر قسنطينة. ووفد عليه أحمد بن مكي مع محمد بن طالب بن مهلهل كبير البدو بافريقية فيمن اليه ، فاستنهضوه وقلده الامير ابو زيد حجابته وجعل امره اليه . وابرز الحاجب ابو محمد بن تافراكين سلطانه ابا اسحاق في عساكره مع خالد بن حمزة وقومه فالتقى الجمعان بمرنجنة وكانت الدَبَرَةُ على السلطان ابي اسحاق سنة ثلاث وخمسين ، وجاءوا على اثرهم فنازلوا تونس أياماً وما افرجوا عنها الا للصائح يخبرهم باحتلال عساكر بني مرين بالمرية من آخر أعمال تلمسان ، وان السلطان ابا عنان قد استحلم بني عبد الواد ، وجمع كلمة زناتة ، واستقام له امر المغربين . واطل على الثغور الشرقية فافترق جمعهم. ولحق الامير أبو زيد بقسنطينة ، واحمد بن مكي بقابس . وسأل من الامير أبي زيد ان يقسم رسم الامارة بينهم في قابس وجربة باخيه السلطان أبي العباس فاذن له في ذلك فكانت اول ولايته السعيدة ومضى الى قابس فنزلها ، ثم اجاز البحر الى جربة ، ودفع عنها العسكر الذي كان محاصراً للقشتيل من قبل ابن ثابت صاحب طرابلس ، ورجع الى قابس حتى كان من امره ما ذكرناه .

واوفد السلطان ابو العباس اخاه ابا يحيى زكرياء على أبي عنان ملك المغرب صريخاً على شأنه ، واوفد ابن مكي رسله متذمماً ومذكراً بوسائله فتقبل واغضى . ثم كانت واقعة العدو

دمره الله بطرابلس سنة اربع وخمسين كما قدمناه فبعث الى السلطان أبي عنّان يسأله فديتها والنظر لها من بين ثغور المسلمين، فحمل اليه خمسة أحمال من الذهب العين من بيت المال، أوفد بها من أعيان مجلسه: الخطيب أبا عبد الله بن مرزوق، وأبا عبد الله محمد حافد المولى أبي علي عمر بن سيد الناس. وعقد لاحمد بن مكي على طرابلس فاستقل بها، وعقد لاخيه عبد الملك على قابس وجربة واقاموا على دعوته. ومد أحمد يده الى صفاقس فنازلها وتغلب عليها سنة سبع وخمسين. وهلك السلطان ابو عنان وقد شرق صدر ابن تافراكين الغالب على الحضرة بعداً وتهمتاً فردد عليهما البعوث براً وبحراً الى ان استخلص جزيرة جربة من ايديهما أعوام اربعة وستين، وعقد عليها لولده محمد فاستخلف بها كاتبه محمد بن أبي القاسم بن أبي العيون من صنائع الدولة كما ذكرناه.

وهلك أحمد بن مكي سنة ست وستين على تفيئة مهلك الحاجب بن تافراكين بالحضرة فكأنما ضربا موعداً للهلكة وتوافياه. وتخلف ابنه عبد الرحمن بطرابلس في كفالة مولاه ظافر العلج، وهلك ظافر اثر مهلكه فاستبد عبد الرحمن بطرابلس، وساءت سيرته فيها الى ان نازله أبو بكر بن محمد بن ثابت في اسطوله كما نذكره سنة اثنتين وسبعين. وأجلب عليه بالبرابرة والعرب من اهل الوطن فانتقض عليه اهل البلد وثاروا به.

وبادر ابو بكر بن ثابت لاقتحامها عليه واسلموه ففرّ الى بيت أحد أمراء دباب فاجاره الى ان أبلغه مأمنه من محلة قومه ، وايالة عمه عبد الملك بقابس الى ان هلك سنة تسع وسبعين . ولم يزل عبد الملك لهذا العهد ، وهو سنة احدى وثمانين والياً على عمله بقابس وابنه يحيى مستبد بوزارته وحافده عبد الوهاب لابنه مكي رديف له ، وقد تراجعت احوالهم عما كانت وخرجت من ايديهم الاعمال التي كانت في ايالتهم لعهد اخيه احمد مثل : طرابلس وجزيرة جربة وصفاقس وما الى ذلك من العمالات ، حتى كان البخت[1] انما كان لاخيه ، واليُمْن انما اقترن بحياته ، وسيرتهما جميعاً من العدالة وتحري مذاهب الخير والسمت ، والاتسام بسمات اهل الدين وحلية الفقه معروفة ، حتى كان كل واحد منهم أنما يدعى بالفقيه علماً بين اهل عصره حرصاً على الانغماس في مذاهب الخير وطرقه . وكان لاحمد حظ من الأدب ، وكان يقرض الأبيات من الشعر فيجيد ، عفا الله عنه . وله في الترسيل حظ ووساع بلاغة وخط ، وينحو في كتابته منحى اهل المشرق في اوضاع حروفهم وأشكال رسومها ، ولاخيه عبد الملك حظ من ذلك شارك به جهابذة اهل عصره وافقه .

ولما انتظم السلطان ابو العبّاس أمصار افريقيّة في ملكه واستبدّ بالدّعوة الحفصيّة على قومه داخل اهل الجريد منه الروع ،

---

(١) كذا، وفي ب: التخت.

وفزعوا اليه للمقاوضة في الامتناع فداخلهم في ذلك . واشاروا الى صاحب تلمسان بالترغيب في افريقية فعجز عنهم والحوا عليه فخام عن العداوة . وزحف مولانا السلطان خلال ذلك الى الجريد فملك قفصة وتوزر ونفطة فبادر ابن مكي الى التلبيس بالاستقامة وبعث اليه بالطاعة . ثم رجع السلطان الى الحضرة فرجع هو عن المصدوقة واتهم اهل البلد بالميل الى السلطان فتقبض على بعضهم وفرّ آخرون . وانتقض بنو احمد اهل ضواحيه من دباب فنازلوه وبعثوا الى الامير أبي بكر بقفصة في العسكر لمنازلته فبعثه اليهم واحاطوا به . ثم انتهز الفرصة ، وداخل بعض العرب من بني علي في تبييت المعسكر ، وبذل لهم في ذلك المال فبيتوه وانفض وبلغ الخبر الى السلطان فخرج من حضرته سنة احدى وثمانين ، ونزل القيروان ، وتوافت اليه احاديات وبعث رسله للاعذار بين يديه فردهم ابن مكي بالطاعــة . ثم احتمل رواحله ونزل باحياء العرب واغذّ السلطان السير الى البلد فدخلها واستولى على قصورها ولاذ اهل البلد بالبيعة فاتوها ، واستعمل عليهم من بطانته وانكفأ راجعاً الى تونس . وهلك عبد الملك لأيام قلائل بين احياء العرب . وهلك بعده عبد الرحمن ابن اخيه احمد الذي كان صاحب طرابلس بعد ابيه . ولحق ابنه يحيى وحافده عبد الوهاب بطرابلس فنعهم ابن ثابت من النزول ببلده لما كان متمسكاً بطاعة السلطان ، فنزلوا بزنزور من بــلاد دباب التي بضاحيتها وأقاموا هنالك .

واستقامت النواحي الشرقية على طاعة السلطان وانتظمت في دعوته والله مالك الملك

ثم ذهب يحيى بن عبد الملك الى المشرق لقضاء فرضه، واقام عبد الوهاب بين احياء البربر بالجبال هنالك، وكان الوالي الذي تركه السلطان بقابس قد ساء اثره في اهلها فدسّ شيعتهم الى عبد الوهاب بذلك، وجاء الى البلد فبيّتها، وثاروا بالوالي فقتلوه سنة ثلاث وثمانين وملك عبد الوهاب قابس وجاء اخوه[1] يحيى من المشرق بعد قضاء فرضه فاجلب عليه مراراً يروم ملكها منه ولم يتهيّأ له، ونزل على صاحب الحمّة فداخله عبد الوهاب في ان يمكنه منه، ويشترط ما شاء. وتم ذلك بينهما واوثقه كتافا وبعث به اليه فاعتقله بقصر العروسيّين، فمكث في السجن اعواماً. ثم فرّ من محبسه ولحق بالحامة على مرحلة من قابس مستنجداً بابن وشاح صاحبها فانجده. وما زال يجلب على نواحي قابس إلى ان ملكها وتقبّض على عبد الوهاب ابن اخيه مكي فقتله أعوام تسعين وسبعماية. ولم يزل مستبداً ببلده الى سنة ست وتسعين. وكان الامير عمر ابن السلطان أبي العباس قد بعثه ابوه لحصار طرابلس فحاصرها حولا كما نذكره، حتى استقام أهلها على الطاعة واعطوا الضريبة فافرج عنها. ورجع الى ابيه فولاه على صفاقس وأعمالها فاستقل بها، ثم داخل أهل الحامة في ملك قابس فاجابوه وساروا معه فبيتها ودخلها وقبض على يحيى بن عبد الملك

(١) كذا، وفي ب: وجاء عمه.

فضرب عنقه ، وانقرض أمر بني مكي من قابس ، ولله الامر من قبل ومن بعد ، وهو خير الوارثين .

الخبر عن بني ثابت رؤساء مدينة طرابلس وأعمالها

قد تقدّم لنا شان هذا البلد لأول الفتح الاسلامي ، وان عمرو بن العاص هو الذي تولى فتحه ، وبقي بعد ذلك من جملة اعمال افريقية ، تنسحب عليه ولاية صاحبها فلم يزل ثغراً لهذه الاعمال من لدن امارة عقبة ومن بعده وفي دول الاغالبة. وكان المعز لدين الله من خلفاء الشيعة لما ارتحل الى القاهرة ، وعقد على افريقية لبُلكين بن زيري بن مناد أمير صنهاجة عقد على طرابلس لعبد الله ابن يخلف من رجالات كتامة . ثم لما ولي نزار الخلافة سنة سبع وستين طلب منه بلكين ان يضيف عمل طرابلس الى عمله فاجاب وعهد له بها ، وولّى عليها بلكين من رجالات صنهاجة . ثم عقد عليها الحاكم بعد مهلك المنصور بن بلكين ليأنسَ الصِقلِيّ سنة تسعين وثلاثماية بمداخلة عاملها يصول من صنهاجة ، واعانه على ذلك برجوان الصقلي المتغلّب على الدولة يومئذ لمنافسته ليأنس ، فوصل اليها في الف وخمساية فارس فملكها ، فسرح باديس جعفر بن حبيب لحربه في عسكر من صنهاجة ، وتزاحفا يومين بساحة زنزور ، ثم انفض عسكر يانس في الثالث

وقتل ، ولحق فلّه بطرابلس فاعتصموا بهـا . ونازلهم جعفر بن حبيب القائـد ، وزحف فلفول بن سعيد بن خزرون الثائر على باديس وابنه بافريقية الى قابس فحاصرُها .

ثم قصد جعفر بن حبيب بمكانه من حصار طرابلس فافرج عنها جعفر ولحق بنفوسة ، واميرهم يحيى بن محمد فامتنع عليهم ، ثم لحق بالقيروان ومضى فلفول بن سعيد الى طرابلس فخرج اليـه فتوح بن علي ومن معه من اصحاب يأنس فملكوه ، وقام فيها بدعوة الحاكم من خلفاء الشيعة وأوطنها . وعقـد الحاكم عليها ليحيى ابن علي بن حمـدون أخي جعفر صاحب المسيلة النازع اليه من الاندلس فوصل اليهـا واستظهر بفلفول على بجاية ، ونازل قابس فامتنعت عليه . ثم عجز عن الولاية ورأى استبداد فلفول عليه بعصبته فرجع الى مصر ، واستبدّ فلفول بطرابلس وتداولها بنوه مع ملوك صنهاجـة الى ان استبدوا بها آخراً . ودخـل العرب الهلاليّون الى افريقية فخربوا أوطانها وطمسوا معالمها . ولم تزل بأيدي بني خزرون هؤلاء إلى ان غلبهم عليها جرجي بن ميخائيل صاحب اسطول رجّار ملك صقليّة من الافرنـج سنة اربعـين وخمساية ، وابقى المسلمين بها واستعمل عليهم كما فعل في سواحل افريقية فأقاموا في ملكة النصارى أيامـاً . ثم ثار بهم المسلمون بمداخلة أبي يحيى بن مطروح من اعيانهم وفتكوا بهم . ولما افتتح عبد المؤمن المهديّة سنة خمس وخمسين وفد عليه ابن مطروح ووجوه

اهل طرابلس فاوسعهم تكرمة وردهم الى بلدهم ، وولى عليهم ابن مطروح الى ان كبر سِنُّهُ وعجز . وارتحل الى المشرق سنة ست وثمانين باذن السيد أبي زيد بن عمر بن عبد المؤمن عامل افريقية من قبل عمه يوسف واستقر بالاسكندرية .

وتعاقبت عليها ولاة الموحدين ، ثم كان من امر ابن غانية وقراقش ما قدّمناه ، وصارت طرابلس لقراقش . ثم استبد بنو أبي حفص بافريقية على بني عبد المؤمن . وهلك قراقش وابن غانية ، وانتظم عمل طرابلس في اعمال الامير أبي زكرياء وبنيه الى ان انقسمت دولتهم ، واقتطعت الثغور الغربية عن الحضرة . وفشل ريح الدولة بعض الشيء وتقلص ظلها عن القاصية ، فصارت رياسة طرابلس الى الشورى ولم يزل العامل من الموحدين يجيء اليها من الحضرة إلاّ ان رئيسها من أهلها مستبد عليها ، وحدثت العصبيّة في البلد لحدوث الشورى والمنافسة فيها . ثم نزلها السلطان ابو يحيى بن اللحياني سنة سبع عشرة وسبعماية حين تجافى عن ملك الحضرة ،واحسّ بزحف السلطان أبي يحيى صاحب بجاية اليها فابعد عن تونس الى ثغر طرابلس ، واقام بها واقام احمد بن عربي من مشيختها بخدمته .

ولما فارق ابن اللحياني تونس ويئس الموحدون من عوده أخرجوا ابنه محمد المكنى بأبي ضربة من الاعتقال ، وبايعوا له . وخرج للقاء السُلطان أبي بكر ومدافعته فهزمه السلطان ابو بكر

وحمله الأعراب الذين معه على قصد طرابلس لانتزاع الاموال والذخائر الملوكية من يد ابيه. ولما أحسّ بذلك ابوه ركب البحر من طرابلس الى الاسكندرية كما هو مذكور في خبره، واستخلف على طرابلس صهره محمد بن ابي عمر بن ابراهيم بن أبي حفص فقام بامرها، وولى حجابته رجلا من اهله يشهر بالبطيسي فساء اثره في اهل طرابلس، وحجب عنهم وجه الرضى من سلطانه، وحمله على مصادرتهم واستخلاص اموالهم حتى اجمعوا الثورة بالسلطان فركب السفين ناجياً منهم بعد ان تعرّض بعضهم لوداعه فاطلعه على شمايات البطيسي بهم فقتلوه لوقته، وقتلوا قاضياً بطرابلس من اهل تونس كان يمالئ على ذلك. وتولّى كِبَر ذلك أحمد بن عربي. ثم هلك وقام بامر طرابلس محمد بن كعبور فقتله سعيد بن طاهر المزوغي وملك امر البلد، وكان معه ابو البركات بن أبي الدنيا فمات حتف أنفه. واستقل ابن طاهر بامر طرابلس اثنتي عشرة سنة. ثم هلك وقام بامرها ثابت بن عمّار الزكوجي من قبائل هوارة. وثار به لستة اشهر من ولايته احمد بن سعيد بن طاهر فقتله واستبد به. ثم ثار به جماعة زكوجة وقتلوه في مغتسله عند الاذان بالصبح، وولوا محمداً ابن شيخهم ثابت بن عمّار اعوام سبعة وعشرين فاستبد بامر طرابلس نحواً من عشرين سنة وظل الدولة متقلص عنه. وهو يغالط عن الامارة بالتجارة والاحتراف بها ولبوس شارتها، والسعي راجلا في سكك المدينة يتناول

تاريخ العلامة

ابن خلدون

كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر
في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم
من ذوي السلطان الأكبر
وهو تاريخ وحيد عصره
العلامة عبد الرحمن
ابن خلدون المغربي

المجلد السادس

من تاريخ العلامة ابن خلدون

القسم الخامس

١٢

دار الكتاب اللبناني بيروت



القسم الخامس
المجلد السادس

من تاريخ العلامة ابن خلدون

حاجاته وماعونه بيده ويخالط السوقة في معاملاته ، يذهب في ذلك مذهب التخلّق والتواضع يسر منه حسواً في ارتغاء ، ويطلب العامل من تونس ؛ فيبعثه السلطان على طرابلس يقيم عنده معتملًا في تصريفه. وهو يبرأ اليه ظاهراً من الأحكام والنقض والابرام الى ان كان تغلّب بني مرين على افريقية . ووصل السلطان ابو الحسن الى الحضرة على ما نذكره ، فداوله طرف الحبل وهو ممسك بطرفه ، ونقل الى الاسكندرية ماله وذخيرته. ثم اغتاله اثناء ذلك جماعة من مجريش عند داره فقتلوه ، وثار منهم للحين بطانته وشيعه . وولي بعده ابنه ثابت ، فتزيّا بزي الامارة في اللبوس والركوب بحلية الذهب ، واتخاذ الحجاب والبطانة .

واقام على ذلك الى ان اجتمع بها اسطول من تجار النصارى اغفلوا امرهم لكثرة طروقهم وترددهم في سبيل التجارة ، وكثرة ما يغشاها من سفنهم ، فغدروا بها ليلًا وثاروا فيها وكثروا اهلها فاسلم الحامية اليهم باليد . وفرّ مقدّمهم ثابت الى حلة اولاد مرغم

امراء الجواري في انحائها [١] فقتلوه صبرا لدم كان اصابه منهم في رياسته ؛ فكانت مدته ست سنين ، وقتلوا معه اخاه عماراً . واكتسح النصارى جميع ما كان بالبلد من الذخيرة والمتاع والخرثي والماعون ، وشحنوا السفن بها وبالاسرى من العقائل والحامية مصَفَّدين ، واقاموا بالبلد أياماً على قلْقة [٢] ورهب من الكرة لو كان لها رجال . ثم تحدَّثوا مع من جاورها من المسلمين في فدائها فتصدّى لذلك صاحب قابس ابو العبّاس أحمد بن مكي وبذل لهم فيها خمسين الفاً من الذهب استوهب اكثرها من جماعة المسلمين بالبلاد الجريدية تزلفاً الى الله باستخلاص الثغر من يد الكفر ، وذلك سنة [٣] وخمسين ولحق ولد ابن ثابت بثغر الاسكندرية فاقاموا به يحترفون بالتجارة الى ان هلك أحمد بن مكي سنة ست وستين ، وقام بامره ولده عبد الرحمن ، فسما ابو بكر بن محمد ابن ثابت الى رياسة ابيه ، وذكر عهود الصبا في معاهد قومه فاكترى من النصارى سفناً شحنها بصنائعه وموالي ابيه ، ونازلها سنة احدى وسبعين في اسطول من اساطيلهم . واجتمع اليه ذؤبان العرب ففرق فيهم الأموال وأجلب عليها بمن في قراها واريافها من الرجل ، فاقتحمها على عبد الرحمن بن احمد بن مكي عنوة ، واجاره العرب من اولاد مرغم بن صابر ، تولى ذلك منهم

(١) كذا، وفي ب: انجابها.
(٢) كذا، والأصح: قلق.
(٣) كذا بياض بالأصل، ولم نعثر في المراجع التي بين أيدينا على هذه السنة.

الى ان أبلغوه مأمنه في ايالة عمه عبد الملك بمكان امارتهم بقابس .

واستوسق امر طرابلس لأبي بكر هذا ، واستقل بولايتها . ودخل في طاعة السلطان أبي العباس بتونس ، وخطب له على منابره ، وقام يصانعه بما للسلطان من الضريبة ، ويتحفه حيناً بعد حين بالهدايا والطرف الى ان هلك سنة اثنتين وتسعين ، وولي مكانه علي ابن اخيه عمار ، وقام بكفالته عمه . وكان قائده قاسم ابن خلف الله متهماً بالتشيع للصبي المخلف عن ابي يحيى فارتاب ودفعوه لاقتضاء المغارم من مسرتة ، فتوحش الخليفة من علي وانتقض . ثم بعث اليه بامانه فرجع الى طرابلس ، ثم استوحش وطلب الحج فخلّوا سبيله وركب البحر الى الاسكندرية . ولقي بها خالصة السلطان محمد بن أبي هلال عام حج فاخذ منه ذمة ، وكر راجعاً في السفين الى تونس يستحث السلطان لملك طرابلس . فلما مرّ بهم راسلوه ولاطفوه واستعادوه الى مكانه فعاد اليهم . ثم جاءته النذر بالهلكة ففرّ ، ولحق السلطان بتونس واستحثه لملك طرابلس . وبلغ الخبر الى السلطان فبعث معه ابنه الأمير ابا حفص عمر لحصار طرابلس فنزل بساحتها ، وافترق عرب دياب عليه وعلى ابن ثابت ، وقام ابن خلف الله في خدمته المقام المحمود ، ووفر له جباية الوطن ومغارمه ونقل العرب الى طاعته ويستألفهم به ، واقام عليها حولا كريتا [1] يمنع عنهم الأقوات ويبترزون اليه

(١) حولاً كريتاً أي كاملاً .

فيقاتلهم بعض الاحيان. ثم دفعوه بالضريبة التي عليهم لعدّة اعوام نائطة [1] وكان قد ضجر من طول المقامة فرضي بطاعتهم وانكفأ راجعاً الى ابيه سنة خمس وتسعين فولأه على صفاقس وافتتح منها قابس كما قدمناه. واقام عليّ بن عمَّار على امارته بطرابلس الى هذا العهد، والله مدبّر الامور بحكمته.

هذا آخر الكلام في الدولة الحفصية من الموحّدين وما تبعها من أخبار المقدمين المستبدين بأمصار الجريد والزاب والثغور الشرقية، فلنرجع الى اخبار زناتة ودولهم، وبكمالها يكمل الكتاب ان شاء الله تعالى.

(١) النائط معلق كل شيء. ويقال مفازة بعيدة النياط: أي الحد. وأظنه يقصد بها هنا: لعدة أعوام غير محدودة.

فهارس "تاريخ" ابن خلدون

المجلد السادس

وضعها

الأستاذ يوسف أسعد داغر

أمين دار الكتب اللبنانية سابقاً
الاختصاصي بفن تنظيم المكتبات وعلم البيبليوغرافيا



١ - فهرس الموضوعات

مرتبة على الهجاء

٢ - فهرس أعلام الرجال والنساء

ابــو

ر

ش

ن



٣ ـ فهرس الشعوب والقبائل والدول والأسر

ر

ز

س

غ

ف

ق



٤ ـ فهرس البلدان والأمكنة الجغرافية

ب

ح

خ

د

ي



٥ - فهرس الكتب الوارد ذكرها في تضاعيف الكتاب



٦- فهرس لغة ابن خلدون

ف

ك

٧ ـ فهرس مواد المجلد السادس

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

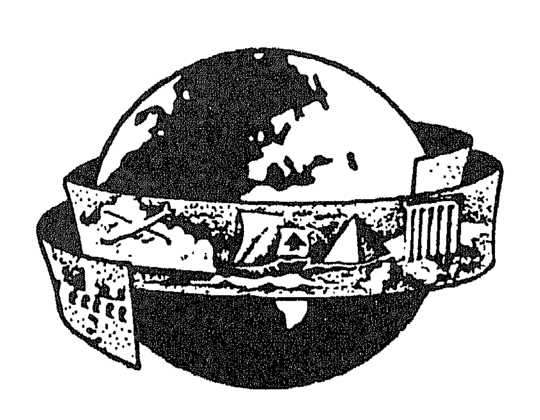
صفحة

فهارس مواد الكتاب





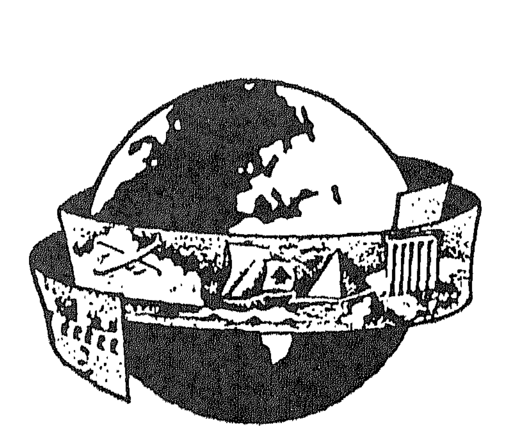




دار الكتاب المصري

طباعة - نشر - توزيع

٣٣ شارع قصر النيل - القاهرة ج. م. ع.
تلفون: ٣٩٣٢١٦٨/ ٢٩٣٤٣٠١ - فاكسميلي ٣٩٢٤٦٥٧ (٢٠٢)
ص.ب.: ١٥٦ - الرمز البريدي ١١٥١١ - برقياً: كتامصر
FAX: (202) 3924657
ATT.: MR. HASSAN EL - ZEIN



دار الكتاب اللبناني
طباعة - نشر - توزيع
شارع مدام كوري - مقابل فندق بريستول
تلفون: ٧٣٥٧٣١ - ٧٣٥٧٣٢ - فاكسميلي: ٣٥١٤٣٣ (٩٦١١)
برقياً: داكلبان - ص.ب: ١١/٨٣٣٠ - بيروت - لبنان
FAX: (9611) 351433
ATT.: MR. HASSAN EL- ZEIN

IBN KAHLDUN

Volume Twelve

DAR AL - KITAB AL - MASRI
CAIRO

DAR AL - KITAB AL - LUBNANI
BEIRUT